التشيع الإمامي الفاطمي

إشعاع حي وحضاري

مئتان وعشر سنوات
من الإبداع الإنساني

تأليف: الدكتور حسن محمد صالح
أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية

١

المرتكزات الدينية والتاريخية

دار الحجة البيضاء

حضارة مصر
في
ظلّ الأسلام الشيعي

مئتان وعشر سنوات
من الإبداع الإنساني

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

تأليف
الدكتور حسن محمد صالح

٢

دار الجمان
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت-لبنان

المؤسسات الأدارية والقانونية والعسكرية
في ظلّ التشيّع المصري الفاطمي

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

حضارة مصر في ظل الإسلام الشيعي

مئتان وعشر سنوات من الإبداع الإنساني

تأليف: الدكتور حسن محمد صالح
أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

٢

المؤسسات الإدارية والقانونية والعسكرية في ظلّ التشيّع المصري الفاطمي

دار الجمان للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت-٢٠٠٣

کتابخانه
مرکز تحقیقات
شماره ثبت: ۰۲۰۶۷۳
تاریخ ثبت:

الباب الأول

الوزارة والوزراء في الدولة الفاطمية

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الوزارة والوزراء في الدولة الفاطمية

كانت الوزارة في الدولة الفاطمية في البداية يطلق عليها مصطلح «الوساطة» أو النظر في أمور الناس وقد استمرّت بهذا الاسم إلى أول عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، حيث بدأت تأخذ اسم الوزارة.

وكان رؤوساء الدواوين أشبه بوزراء والوزير هو رئيس مجلس الوزراء.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

واستمر الوزير الأول يدير شؤون الدولة من قصر الخلافة حتى وزارة الأفضل بن بدر الجمالي، فبنى الأفضل داراً للوزارة وأصبح يدير شؤون الحكم من دار الوزارة.

وقد تداول على هذا المنصب خلال المائتين والعشر سنين وهي عمر الدولة الفاطمية في مصر، ثلاثة وخمسون وزيراً، ومن جميع الطوائف والمذاهب، اليهودي والنصراني والمسلم السني والمسلم الشيعي الإمامي الإثني عشري والإمامي الإسماعيلي والأرمني والكردي، وكان أول وزير هو جوهر الصقلي وآخر وزير هو صلاح الدين الأيوبي.

وزراء الخليفة المعزّ لدين الله

عندما بدأ المقريزي بذكر أحداث سنة ٣٦٤ للهجرة عدّد كل فريق عمل الخليفة المعز: من القاضي ورئيس الشرطة وصاحب المُظلّة والطبيب وإمام الجمعة وإمام الصلوات الخمس والمحتسب وصاحب بيت المال دون أن يذكر الوزير، بل يطلق عليه وهو يعقوب بن كِلّس بأنه «صاحب الخراج ووجوه الأموال» هو وعسلوج بن الحسن. مما يعني أن فكرة الوزارة لم تكن قد تكونت بعد في ذهنية أرباب الدولة الفاطمية.

وعندما يتحدث عن أحداث سنة ٣٦٥ هـ، أول ما يبدأ به، يبدأ بالإشارة إلى أن يعقوب بن كِلّس، «تثاقل عن حضور الديوان، وانفرد بالنظر في أمور المعزّ في قصره» مما يعني أن انفراد يعقوب بن كِلّس بالنظر في أمور المعزّ هو انتقال رتبة الوزارة من طور مطالعة الخراج ووجوه الأموال إلى رتبة النظر.

وفي معرض الحديث عن تخاذل جوهر الصقلي في حرب القرامطة وعودته إلى مصر، سنة ٣٦٧هـ، يورد المقريزي الخبر ويشير إلى مركز الوزارة تصريحاً لا تلميحاً حيث يقول: «وقدم جوهر على العزيز، وأخبره بتخاذل كتامة، فغضب غضباً شديداً، وعذر جوهر باطناً وأظهر التنكير له، وعزله عن الوزارة، وولّى يعقوب بن كِلّس عِوَضَه»[1].

واستبدّ ابن كِلِس بالتحكّم في رقاب الناس، وتطاول اليهود

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٢٤٢.

والنصارى عليهم، وبدأت هذه الوشايات تصاغ وترسل للخليفة العزيز.

وبدأت المراسلات الصادرة عن قصر الخلافة للوزير ترسل بلقبه: «الوزير». وهكذا أصبحت رتبة الوزارة رتبة أعلى مركز في الدولة الفاطمية، وكان يعقوب بن كِلّس أول من تلقب بها رسمياً وخوطب بها في المراسلات أيضاً.

من هو يعقوب بن كِلّس:

هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف، لُقّب بابن كِلّس وكان يهودياً من أهل بغداد، سنة ٣١٨ هـ، وانتقل مع أبيه من بغداد إلى الشام وهو حدثاً، ثم انتقل إلى مصر سنة ٣٣١ هـ، وكان له من العمر خمسة عشر عاماً، وعمل ابن كِلّس من صغره في بلاط كافور الإخشيدي واكتسب شهرة ونفوذاً كبيراً بسبب قدرته في تدبير الأمور المالية والإدارية.

وبقي ابن كِلّس على يهوديته حتى عام ٣٥٦ هـ، أي قبل دخول جوهر الصقلي مصر بسنتين، فاعتنق الإسلام في هذه السنة على يد أستاذه كافور الأخشيدي، طمعاً لأن يصبح وزيراً في دولة الأخشيد.

وروى ابن زولاق عن محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندي الصيرفي المعروف بسيبويه المصري أنّه عندما أخبروه أن يعقوب بن يوسف بن كِلّس قد أسلم على يد الأستاذ كافور الأخشيدي، قال: «ما هو ابن كِلّس بالسين، إنما هو ابن كلبين، والكلبان خير من أبويه، لأنّ الكلبين لا يؤمران بطاعة ولا ينهيان عن معصية، وأبواه أُمرا

بالإيمان فكفرا، وبالوفاء، فغدرا، فلا قرّب الله من قرّبه ولا قدّس من نصّبه»[1].

وقد عمد الكثير من المؤرّخين المتقدّمين والمتأخرّين والمعاصرين لاتخاذ إسلام يعقوب بن كِلّس، وسيلة لهدم العقيدة الإسلامية الإمامية الفاطمية، متجاهلين أنّ الذي أقنعه بدخول الإسلام هو كافور الإخشيدي وليس الخليفة المعزّ أو جوهر الصقلي، مما يعني أن إسلام ابن كِلّس كان في بداياته إسلاماً سنّياً وليس إسلاماً شيعياً.

وبفضل ذكائه الوّقاد، سرعان ما أصبح حجة في العلوم الإسلامية، فلم يجد الخليفة المعزّ لدين الله وولده العزيز رجلاً أكفأ منه وأقدر في إدارة الشؤون المالية والإدارية. وقد كانت وزارته التي استمرت أكثر من اثنتي عشرة سنة، وزارة رخاء وبحبوحة وأمن مستتبّ، لم تعهد مصر مثلها من قبل أو بعد.

ولجدارته، لقبه الخليفة العزيز سنة ٣٦٨ هـ «بالوزير الأجل».

ويقال إنه هو الذي وضع أسس الإدارة المالية والتنظمية للدولة الفاطمية. وعندما توفي سنة ٣٧٩ هـ «حزن عليه العزيز حزناً شديداً، ولم يأكل ذلك اليوم على مائده، وأقام كذلك ثلاثة أيام. وأقيم العزاء على قبره مدة شهر، وكفّنه بخمسين ثوباً موشحاً وصلّى عليه». وهو أول وزير فاطمي يموت ويترك عليه ديناً للتجار فقد أوفى الخليفة العزيز عنه دينه وقد بلغ ستة عشر ألف دينار[2].

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٢٦٩.

(٢) السبع السادس، م.س. ص ٢٢٤.

وقد مدحه أبو الرقعمق بقصيدة جاء فيها[1]:

لم يدع للعزيز في سائر الأر ... رض عدوّاً إلا وأخمدناره
فلهذا اجتباه دون سواه ... واصطفاه لنفسه واختاره
لم تشيّد له الوزارة مجداً ... لا ولا قبلُ رفّعت مقداره
فاستجره فليس يأمن إلا ... من تفيّا بظلاله واستجاره
وإذا ما رأيته مُطرقاً يُعْمل ... في ما يريده أفكاره
لم يدع بالذكاء والذهن شيئاً ... في ضمير الغيوب إلا أثاره

وزراء الخليفة العزيز:

وبعد موت يعقوب بن كِلّس، لم يسم الخليفة العزيز أي شخص لمركز الوزارة، وربما احتراماً لوجود القائد جوهر الصقلي، وانتظر سنة واحدة والبلد بدون وزارة حتى وفاة القائد جوهر، فكلف ولده الحسين بن جوهر في الوساطة والنظر، دون أن يطلق عليه لقب وزير ويعطيه الصلاحيات التي كانت معطاة للوزير بن كِلّس.

وبدأ يظهر في أفق الوزارة أو الوساطة نجم عليّ بن عمر العداس، فقد أخبرنا المقريزي أنّه وفي نفس السنة ٣٨١هـ، «جلس علي بن عمر بن العداس بالقصر، وأمر ونهى، ونظر في الأموال ورتبّ العمال، وتقدّم أن لا يطلق لأحد شيء إلا بتوقيعه، ولا يُنَفَّذ إلا ما قرّره وأمر به، وألا يرتفق أو يرتزق ولا تقبل هدية ولا يطبع دينار ولا درهم»[2].

---

(١) كتاب أخبار سيبويه المصري، الحسن بن زولاق، ط١، القاهرة مطبعة النصر، سنة ١٩٣٣، ص٤٤.

(٢) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٢٧٣.

من ثم نجد أن الخليفة العزيز، وفي سنة ٣٨٣ هـ، «يأمر الكتّاب كلهم أن يمتثلوا ما يأمرهم به أبو الفضل جعفر بن الفرات، فركبوا إليه، وأمر ونهى وتكلّم في الدواوين».

ثم بدأت أخبار عيسى بن نسطورس تطفو في سماء الدولة الفاطمية، وقد وزر للخليفة العزيز مدة سنة وعشرة أشهر.

ومات العزيز سنة ٣٨٦ هـ، فذكر المقريزي من وزر له من الوزراء وعدّدهم كالتالي:

- يعقوب بن كِلّس اثنتا عشرة سنة.
- علي بن عمر العداس سنة واحدة.
- أبو الفضل جعفر بن الفرات سنة واحدة.
- أبو عبد الله البازيار سنة وثلاثة أشهر.
- أبو محمد بن عمار شهران.
- الفضل بن صالح أياماً.

وكان ابن كِلّس أقوى هؤلاء الوزراء وأكثرهم تأثيراً في مجرى العمل الإداري والتنظيمي والمالي في مصر الفاطمية.

وبعد موت الخليفة العزيز وخلافة ولده الحاكم، «المنصور أبو علي»، بدأ الصراع بين برجوان وابن عمار على مركز الوزارة.

وزراء الحاكم بأمر الله الفاطمي:

وما أن تسلم الخليفة الحاكم مركز الخلافة، كان الوزير حينها، عيسى بن نسطورس، وكان قد شدَّد الخناق على الكتاميين المغاربة. وعندما استدعي الكتاميون لتجديد البيعة للخليفة الحاكم، رفضوا

«وتخلّفوا عن الحضور». فأقنعهم أبو محمد الحسن بن عمّار بضرورة الحضور والمبايعة، فشكوا من عيسى بن نسطورس، ووضعوا شرطاً لتجديد البيعة «أن تكون الوساطة لرجل منهم». أي الوزارة، فكلّف الحسن بن عمار بها وهكذا، انقسمت صلاحيات الوزارة بن عيسى بن نسطوس وسمي رئيس ديوان الخاص، وابن عمر الوساطة ولقّب بأمين الدولة.

وبالرغم من وجود عيسى بن نسطورس في رئاسة ديوان الخاص والحسن بن عمار في الوساطة، كان برجوان أقواهما في الدوائر والدواوين وقيادات الجيش والعسكر، وكان يتعالى على الحاكم ويتشوّف عليه والحاكم وإن كان خليفة المسلمين، لكنه لم يبلغ الحلم ولا سنّ الرشد، فهو في الحادية عشرة من عمره أما عيسى بن نسطورس فقد قتله الحاكم فيما بعد بسبب تصريحه متفاخراً أمام المصريين: «إن شريعتنا متقدمة على شريعتكم، والدولة كانت لنا ثم صارت لكم، فجرتم علينا بالجزية والذلة، فمتى كان منكم إلينا إحسان حتى تطالبونا بمثله! إن منعناكم قاتلتمونا، وإن سالمناكم أهنتمونا، فإذا وجدنا لكم فرصة، فماذا تتوقّعون أن نصنع بكم»؛ وكان قد استغل منصبه وضايق المسلمين كثيراً مستنداً على هذه المفاهيم الخاطئة، فكان نصيبه القتل.

وكان الحاكم قد عزل الحسن بن عمار تحت ضغط برجوان، وكلفه «أن ينظر في التدبير على ما كان به ابن عمار».

وعيّن برجوان «أبا العلا» فهد بن إبراهيم النصراني كاتباً يوقع المعاملات عنه.

وبدأ برجوان يتدخل في كل أمور الدولة ويعين القضاة ويعزل المحتسبين، ويتصرّف تصرف المالك بملكه، فبدأ الحاكم يعدّ العدّة لقتله والتخلّص منه، فقتله سنة ٣٩٠هـ، وهو ابن الخمسة عشرة سنة من العمر. ولما فوجأ الناس والعسكر بقتله وقف في الناس والعساكر وخاطبهم قائلاً: «إن برجوان عبدٌ من عبيدي، استخدمته فنصح، فأحسنت إليه، ثم أساء في أشياء عملها فقتلته».

وبعد مقتل برجوان، كلّف الحاكم «القائد حسين بن جوهر النظر في أمور الناس وتدبير المملكة وإنصاف المظلوم»، ووضع إلى جانبه فهد بن إبراهيم يساعده بالتوقيعات على الرقاع المرفوعة إليه، «وأن يعاضد القائد حسيناً في النظر ويعاونه ويخلفه إذا غاب».

واستمر الرئيس فهد بن إبراهيم في الوساطة خمس سنين وتسعة أشهر، وضرب الحاكم رقبته، ورقبة أخيه أبي غالب وحملوا من بيته خمسمائة ألف دينار إلى القصر، فردها الحاكم إلى أولاده وقال «لم نقتله على مال».

وبعد فهد ابن إبراهيم أوكل الخليفة الحاكم، مقاليد الوساطة والنظر إلى «أبي الحسن مالك بن سعيد الفارقي» وسمح له بأخذ الفطرة والنجوى من المحازبين الإسماعيليين عناصر الدعوة، علماً أن الفطرة والنجوى لا يسمح بأخذها إلا لداعي الدعاة، لأنها لا علاقة لها ببيت مال الدولة، وهي من الأموال المختصّة بالأئمّة. ولم يعزل حسين بن جوهر بل كان الفارقي يشاركه في صلاحيات الوزارة.

ثم عزل الحاكم قائد القوّاد حسين بن جوهر، وكلّف صالح بن علي الروذباري بالوساطة والنظر والتوقيع عنه في كل المعاملات.

وفي سنة ٤٠٠ هـ، عزل الحاكم أبا الفضل، صالح بن علي، وقرّر مكانه «أبا نصر بن عبدون النصراني»، الكاتب. واستمر ابن عبدون في الوساطة سنة واحدة، ثم صُرف عنها، وعُين مكانه «علي بن أحمد القشوري»، ولكنه قتل بعد عشرة أيام بسبب احترامه وتعظيمه القائد حسين بن جوهر، الهارب من وجه «العدالة».

ثم عين الحاكم «أبا الخير» بن زرعة بن عيسى بن نسطورس مكان ابن القشوري.

ثم ارتد الحاكم إلى ابن عبدون النصراني وقتله وصادر أمواله.

واستمر أبو الخير بن زرعة في الوساطة حتى سنة ٤٠٢ هـ، انتقلت بعدها للخادم «غين»، ولقبه الحاكم بقائد القوّاد.

ويخبرنا المقريزي أن الخادم غين مرض، فزاره الحاكم لعيادته وأضاف إليه منصب الحسبة والشرطتين في مصر والقاهرة، وكانت الحسبة وقيادتا الشرطة لا تتبعان للوزير، بل للخليفة وهي ملاحظة جديرة بالمناقشة لتحديد صلاحيات الوزير الأول.

وفي سنة ٤٠٣، مات زرعة بن عيسى بن نسطورس «فكانت مدة نظره في الوساطة سنتين وشهراً». وقد تأسّف الحاكم كثيراً لموته موتاً طبيعياً، وليس قَتْلاً، فقد قال: «ما أسفت على شيء قط، أسفى على خلاص ابنِ نسطورس من سيفي، وكنت أوّد ضرب عنقه، لأنَّه أفسد دولتي، وخانني ونافق عليّ، وكاتب حسان بن جراح يداجيه عليّ وطلب منه أن يبعث له من يهرب به إليه»[1].

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٩٣.

وبعد وفاة أبي الخير زرعة بن نسطورس، استدعى الحاكم حسين بن طاهر الوزان، فعيّنه في الوساطة والنظر إلى جانب «غين الخادم الأسود». وخلع عليه الحاكم وفوّضه في الوساطة والتوقيع.

وربما بدر من الخادم «غين» شيء أزعج الحاكم فنزع منه صلاحيات الشرطتين والحسبة سنة ٤٠٤هـ.

وبدأ يظهر في سماء الحكم نجم أبي القاسم أحمد بن علي الجرجرائي، وهو أحد كتّاب قائد القوّاد الخادم الأسود غين.

وأقدم الجرجرائي على التلاعب بالتواقيع والمراسلات التي تتمّ بين معلّمه الخادم غين وبين الخليفة الحاكم، فشعر الحاكم بهذا التلاعب، وأمر بقطع يديه من الكتفين.

ولم يكتف الحاكم بقطع يدي الجرجرائي، فألحقها بقطع يدي معلّمه «غين» ولسانه.

ثم إن الحاكم عاد واسترضى غين وأعاد إليه الوساطة والنظر إلى جانب الحسين بن طاهر الوزّان.

وفي سنة ٤٠٥ هـ، قتل الحاكم مالك بن سعيد وكانت صلاحياته أشبه بصلاحيات الوزير الأول، حيث كانت تشمل النظر في القضاء والمظالم، والأحباس (الأوقاف) والدعوة ودار الضرب ودار العيار، وأمور قصر الضيافة.

وكان سبب قتله أنّه اتهم بموالاة السيدة العزيزية «ست الملك»، «وكان الحاكم قد انفلق منها» ومن تدخّلاتها في شؤون الخلافة.

ثم ارتد الحاكم إلى الحسين بن طاهر الوزان فقتله، وكانت مدة نظره في الوساطة سنتين وشهرين.

وبعد قتل ابن طاهر الوزّان، عين الحاكم أخوين شقيقين للنظر والوساطة، وهما عبد الرحيم بن أبي السيد وأخوه أبو عبدالله الحسين.

ولم يستمر ابنا أبي السيد في مركز الوساطة أكثر من ٧٢ يوماً، حيث ضرب الحاكم عنقيهما بالقصر. وبعد ابني أبي السيد قلّد الحاكم منصب الوزارة أو الوساطة أبا العباس، فضل بن جعفر بن الفرات وقتله بعد خمسة أيام من توزيره.

وبعد مقتل أبي العباس بن الفرات، قلّد الحاكم منصب الوزارة إلى «أبي الحسن علي بن جعفر بن فلاح» ذي الرياستين، ثم أقدم مجهول على قتل «أبي الحسن» ذي الرياستين فولى الحاكم مكانه في الوزارة، «الظهير»، صاعد بن عيسى بن نسطورس، ثم عزل ثم تولاّها مسعود بن طاهر الوزان.

ونعود ونلخّص أسماء الذين تولّوا الوساطة والنظر أو الوزارة للخليفة الحاكم كالتالي:

١ ـ أبو محمد الحسن بن عمار.

٢ ـ عيسى بن نسطورس.

٣ ـ علي بن عمر العدّاس.

٤ ـ أبو الفضل جعفر بن الفرات.

٥ ـ برجوان.

٦ ـ الرئيس فهد بن إبراهيم النصراني.

٧ ـ أبو الحسن مالك بن سعيد الفارقي.

٨ ـ قائد القواد حسين بن جوهر الصقلي.

٩ ـ أبو الفضل صالح بن علي الروذباري.

١٠ ـ أبو نصر بن عبدون النصراني.

١١ ـ علي بن أحمد القشوري.

١٢ ـ أبو الخير بن زرعة بن عيسى بن نسطورس.

١٣ ـ الخادم الأسود غين.

١٤ ـ حسين بن طاهر الوزان.

١٥ ـ عبد الرحيم بن أبي السيد.

١٦ ـ أبو عبدالله، الحسين بن أبي السيد.

١٧ ـ أبو العباس فضل بن جعفر بن الفرات «بن أبي الفضل جعفر».

١٨ ـ أبو الحسن عليّ بن جعفر بن فلاح.

١٩ ـ الظهير، صاعد بن عيسى بن نسطورس.

٢٠ ـ مسعود بن طاهر الوزّان،

وليس غريباً أن يتولى الوزارة هذا العدد من الوزراء في عهد الحاكم، ذلك العهد الذي استمر خمساً وعشرين سنة، ومنهم من لم يستمر في وزارته أكثر من خمسة أيام وقتل، فعهد الحاكم هو عهد الغرابة في تاريخ الدولة الفاطمية، فمن يقدم على إبطال العمل بالخمس والفطرة وحيّ على خير العمل، ويمنع إظهار الحزن على الحسين (ع) في عاشوراء، ويمنع الاحتفال بعيد الغدير، لا مساءلة عليه ولا سؤال.

وزراء الخليفة الظاهر:

ابتدأت خلافة الظاهر لإعزاز دين الله بتوزير حسين بن علي بن دواس، من قبل السيدة العزيزية، «سلطانة» أخت الحاكم وعمّة الظاهر، ولكن هذا التوزير لم يدم أياماً، فبعد أخذ البيعة للخليفة الظاهر، وكان له من العمر ستّة عشر عاماً، قامت وأوعزت لنسيم الصقلبي بقتله، فقتله، وأخذ رأسه ودخل به إلى السيدة العزيزية.

أما سبب قتله، فقد أرادت السيدة العزيزية إخفاء سر تدبير أمر قتل الخليفة الحاكم مع ابن دواس. فقد كانت كلّفت ابن دواس بقتله، ثم قتلت ابن دواس، ودفنت معه سر مؤامرة اغتيال الخليفة الحاكم.

ولكي تبرىء نفسها من هذا العمل، أرسلت نسيماً الصقلبي فداهم بيت ابن دواس وأحضر موجوداته، ومنها صندوق فيه السكين الذي قتل فيه الحاكم، وهي خاصة بالخليفة ومعروفة أنها له، وأنّه كان يحملها دائماً بكمّه.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وبعد مقتل ابن دواس، كلّفت السيدة العزيزية الوساطة والنظر خطير الملك، عمار بن محمد، وكانت قد ألقت القبض عليه، ثم أطلقته، فاستمر في هذا المركز مدة سبعة أشهر ثم عزل.

ثم كلّف بالوزارة، بدر الدولة، أبو الفتوح، موسى بن الحسن، واستمر فيها مدة سبعة أشهر، ثم أُعتقل وسُجن، ثُم قتل.

ثم كلّفت السيدة العزيزية مسعود بن طاهر الوزّان، بالوزارة.

وبدأ بعض الأشراف يتدخّلون في شؤون وصلاحيات الوزير الأول، فاحتج ابن طاهر الوزان على هذه التدخّلات «وامتنع من النظر

في الوساطة حَنَقاً» على هذه التدخّلات وأقام في داره ثلاثة أيام محتجّاً، «فاستدعاه الظاهر وأمره بالعودة إلى خدمته، فعاد إلى النظر والوساطة، وجلس على رسمه في باب الذهب يأمر وينهي»[1].

ثم عاد الظاهر وبدأ يحدّ من صلاحيات ابن طاهر الوزان، فانتزع منه أكثر صلاحياته وردّها إلى القائد عزّ الدولة معضاد الظاهري «الأسود». وبعضها ردّه إلى يمين الدولة سعادة، وسحب منه النظر في أمور ديوان الشام وردّت إلى الشيخ العميد محسن بن بدواس وأبي عبد الله، محمد بن أحمد الجرجرائي. ثم سحب منه النظر في أمور ديوان الكتّاميين.

ويقول المقريزي إن صلاحيات الوزارة وزعت على:

ـ الشريفان، العجميان.

ـ الجرجرائيان، أبو القاسم علي بن أحمد وأبو عبدالله محمد بن أحمد.

ـ الشيخ العميد محسن بن بدواس.

ـ ابن خيران.

وحاول بعض هؤلاء القادة أن ينتزعوا من الخليفة صلاحياته، بحث اتفقوا «أن يكفوه أمر الاهتمام بالدولة ليتفرّغ للّذاته»، وحاولوا الانفراد بالتدبير وهم الشريف أبو طالب العجمي، والشيخ أبو القاسم الجرجرائي. والعميد محسن بن بدواس. ومنعوا بقية كبار موظفي

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١٣٦.

الدولة من مقابلته، مثل ابن طاهر الوزان ومظفر الصقلبي صاحب المظلّة، وابن خيران وداعي الدعاة، ونقيب نقباء الطالبين، وقاضي القضاة. أما هؤلاء الثلاثة «فهم الذين يقضون ويمضون ويشيرون ويفعلون في أمر الدولة ما يرونه».

وسُعي بالعميد محسن بن بدواس بأنّه كاتب الخارج على الدولة، حسان بن جراح، يحرّضه على الفتنة، كما كاتب ملك الروم يطمعه بمصر، فقتل وضربت عنقه وهو يصيح: «والله ما خنت ولا سرقت ولا غششت، وهذه منصوبة نصبت عليّ، وقيل إنه وُجد عنده خط حسّان بن جّراح وخطّه عند حسان، يحثّه على الإيقاع بالدولة»[1].

ثم أوكل الخليفة الظاهر أمر الوساطة والنظر إلى أبي محمد، الحسن بن صالح، الروذباري.

واستمر الروذباري في هذا المركز حتى سنة ٤١٨ هـ، فعزله الخليفة وولى مكانه أبا القاسم علي بن أحمد الجرجرائي.

ومات الخليفة الظاهر سنة ٤٢٧ هـ، بعد أن كان قد أخذ البيعة من بعده لولده المستنصر سنة ٤٢١ هـ، وكان للمستنصر من العمر ثمانية أشهر. فتفرّد بتدبير شؤون الدولة، الوزير الجرجرائي.

وهذه أسماء الذين وزروا للخليفة الظاهر، وزارة نظر أو وساطة أو وزارة محدودة الصلاحيات أو كاملة الصلاحيات، ونلخصّهم كالتالي:

١ ـ الحسين بن علي بن دواس.

---

(١) م.س. ص ١٥٨.

٢ ـ خطير الملك عمار بن أحمد، وكانت السيدة العزيزية قد قتلته في أحد دهاليز القصر.

٣ ـ بدر الدولة، أبو الفتوح، موسى بن الحسن.

٤ ـ مسعود بن طاهر الوزان ـ بدون صلاحيات ـ.

٥ ـ يمين الدولة سعادة.

٦ ـ الشيخ العميد، محسن بن بدواس.

٧ ـ أبو عبد الله، محمد بن أحمد الجرجرائي.

٨ ـ أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي.

٩ ـ ابن خيران.

١٠ ـ أبو محمد، الحسن بن صالح، الروذباري.

وكان عهد الخليفة الظاهر كعهد والده الحاكم، يتّسم بضعف الوزراء وكثرتهم وقوة الخليفة. ولكن الفرق بين عهده وعهد والده، أنّ الظاهر كان ضعيفاً، ولكن مقادير الحكم والملك والخلافة، كانت بيد عمته سلطانه أو ست الملك، أو السيدة العزيزية، التي عينّت وعزلت واغتالت وقتلت كما تريد، حتى وصل الأمر بها لأن تعزل الظاهر نفسه، وتبايع ابن ابن عمه أبي هاشم، العباس بن داوود بن عبيدالله المهدي، ولكنها عدلت بها عن العباس إليه.

وزراء الخليفة المستنصر:

كان المستنصر في الحكم كوالده الظاهر، فالظاهر كان ألعوبة بيد عمته «سلطانه» والمستنصر كان دمية بيد والدته «رصد». ولكن الفرق بينهما طول المدة، فالظاهر حكم مصر والعالم الإسلامي مدة ١٦ سنة، بينما أقام المستنصر في الخلافة مدة ستين سنة.

كان أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي عندما توفي الظاهر الوزير الأول في الدولة الفاطمية، وبعد مبايعة ولده المستنصر سنة ٤٢٧ هـ، استمر في كرسي الوزارة حتى توفي سنة ٤٣٦هـ. وكانت مدة وزارته للظاهر والمستنصر، سبعة عشر سنة وثمانية أشهر.

كتب عنه علي بن منجب الصيرفي فقال: تولّى أخذ البيعة المستنصرية في شعبان سنة ٤٢٧ هـ، وتمادى على رسمه في النظر والتدبير»[1].

وبعد وفاة الجرجرائي، قلّد المستنصر بعده، أبا علي الحسن بن علي الأنباري، ولكنه لم يستمر فيها كثيراً، فقد أفسدها عليه أبو سعيد سهل بن هارون التستري وأخوه أبو ثمر إبراهيم اليهوديان، وكان أبو سعيد، هو تاجر الرقيق الذي اشترى الجارية «رصد» أم المستنصر. فما أن ولي ابنها الخلافة حتى استدعته «وقدمّته عند ولدها المستنصر، ورتّبته فيما يخصّها، فعظم شأنه إلى أن صار

---

(١) الإشارة لمن نال الوزارة، علي بن منجب الصيرفي، ط ١، بيروت، الدار المصرية اللبنانية سنة ١٩٩٠، ص ٧٠.

ناظراً في جميع أمور الدولة، وأقنع الخليفة المستنصر بعزل أبي علي الأنباري، وتوزير صدقة بن يوسف الفلاحي مكانه، المدعو أبي نصر، وكان يهودياً قد أسلم.

ولكي تصفو الأيام لصدقة بن يوسف الفلاحي، عمل على القضاء على ابن الأنباري لميل المستنصر له، «فصودر حتى هلك تحت العقوبة، ودفن بخزانة البنود وكان مسجوناً بها، وصار نصر الفلاحي لا يعمل أمراً إلا بمشورة أبي سعيد التستري»[1].

ولكنّ أبا نصر الفلاحي لم يستطع متابعة النظر والوساطة طرطوراً ودمية بيد سهل بن هارون التستري، فأقدم بعد أن تمكّن من الوزارة وأثبت كفاءته فيها، سنة ٤٣٩ هـ، على قتله.

وقال المقريزي: إنّ السبب أن يد أبي سعيد انبسطت في الدولة، بحيث لم يبق للفلاحي معه في الوزارة أمر ولا نهي، سوى الاسم فقط. وقد حرض عليه الأتراك والمغاربة وبني قرّة بسبب خفضه رواتبهم ومخصّصاتهم، فاعترضه ثلاثة من الأتراك، عسكر الخادم عزيز الدولة ريحان، أو كما يقولون: ثلاثة من الريحانية على باب القصر فضربوه حتى مات، ثم قطعّوه قطعاً، وتناولت أيدي العساكر الريحانية أعضاء جسده فمزّقوها، واشترى أهله ما قدروا على تحصيله من جثّته بمال، حتى يستطيعوا دفنها، ولكن العساكر الريحانية، جمعوا ما قدروا عليه من ثيابه وما تبقّى من جثّته وأعضائه وأحرقوه بالنار، وألقوا عليه التراب. ولم يعطوه لأهله.

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١٩١.

وردّ الخليفة المستنصر بعض صلاحيات الوزير أبي نصر إلى أبناء أبي سعيد التستري ولأخيه أبي ثمر. ولم يسلم أبو نصر صدقة بن يوسف من حقد سيدة القصر أم المستنصر «رصد»، وما زالت به حتى صرفته عن الوزارة واعتقلته بخزانة البنود، قبل صرفه منها، سنة ٤٤٠ هـ.

ويقول المقريزي: إنه لما بدأ السجّانون في خزانة البنود يحفرون الحفرة لقتله ودفنه فيها، ظهر فيها بقايا جثة ورأس فقال أبو نصر: هذا رأس الحسن بن علي الأنباري، وأنا قتلته ودفنته في هذا الموقع وأنشد قائلاً:

رب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحك من تزاحم الأضداد

ويقول ابن منجب الصيرفي عن وزارة الفلاحي: «وظنّ الفلاحي أن الدنيا قد صفت له، وأنه قد أمن ما يكرهه، فما تهنّأ بعمره ولا استمتع بنهيه وأمره، وقبض عليه سنة ٤٣٩ هـ، واعتقل ثم قتل»[1].

وبعد مقتل يوسف بن صدقة الفلاحي، كلفّ الخليفة المستنصر أبا البركات، الحسين بن محمد بن أحمد الجرجرائي، وهو الثالث من هذه العائلة التي استوزرت في الدولة الفاطمية، ولقبّه بالوزير الأجل، صفّي أمير المؤمنين.

وقبل مقتل أبي نصر الفلاحي، أقدم الخادم رفق على تعيين القاضي أبي محمد علي اليازوري في خدمة السيدة «رصد» أم الخليفة المستنصر، فغضب الوزير الجرجرائي كثيراً من هذا الأمر،

---

(١) الإشارة لمن نال الوزارة. م.س. ص ٧٢.

وقرر إزاحة اليازوري. وحاول أبو البركات الجرجرائي إبعاد أبي محمد اليازوري عن خدمة السيدة «رصد»، واقترح على الخليفة المستنصر تعيينه قاضياً لقدرته في هذا المجال، فاقتنع المستنصر وعيّنه قاضياً للقضاة، فعلم اليازوري أن الهدف ليس ترفيعه بل إبعاده عن مصدر القرار فشكا الأمر للسيدة رصد فقالت له:

«خليفتاك في الحكم القضاعي وابن أبي ذكري، هما ينفّذان من الأحكام ما يجوز تنفيذه، فإذا تحرّرت إلى فعل الأحكام، نزلت ففعلت ذلك، وقرّرت لنزولك يومين في الجمعة لفعل الأحكام، وإذا نزلت، كان ولداك ينوبان عنك في تنفيذ أمور حرمتي، وهذا التقرير (القرار) لا يغلبك فعله، فقبل الأرض ودعا وشكر وانصرف».

وكانت تهدف أم الخليفة من وراء تثبيت اليازوري في مركز قاضي القضاة، إلى تقريبه من مركز الوزير الأول، لذلك أقنعته بالقبول به دون اعتراض.

وانتهز أبو البركات الجرجرائي، عملية إبعاد اليازوري عن متابعة أمور السيدة رصد، وأرسل لها بأن يستقرّ ولده في بابها، فرفضت. فقال أبو البركات: «اردنا وضعه والله تعالى يريد رفعه».

ثم وجد أعداء أبي البركات سبيلاً إلى تحريض الخليفة المستنصر عليه، فقبض عليه ونفاه إلى صور معتقلاً في سجونها، فكانت وزارته سنة وتسعة أشهر، ثم أخرج من المعتقل وسمح له بالإقامة الجبرية في دمشق.

وكلّف المستنصر اليازوري بها فرفض التكليف واعتذر، فكلف بها أبا الفضل صاعد بن مسعود، ولكنه كانت وزارة وساطة لا

وزارة تنفيذ. واستمرت وزارة أبي الفضل صاعد وزارة وساطة إلى أول سنة ٤٤٢ هـ، حيث كلّف الخليفة المستنصر، أبا محمد اليازوري فيها، ولقّبه بالوزير الأجل المكين، سيّد الوزراء، قاضي القضاة وداعي الدعاة، ولكن حسبما أعلم أن الوزير اليازوري من أهل السنة، وليس من الممكن أن يكون داعياً للدعاة، حيث اختص هذا المنصب بالمتبحرّين في علوم أهل البيت من الشيعة الإمامية الإسماعيلية، وربما أطلق عليه هذا اللقب من باب التفخيم والتعظيم، ليس إلا، لا من باب تكليفه تكليفاً فعلياً به.

وزارة اليازوري:

في السابع من شهر محرّم سنة ٤٤٢ هـ، «قُرِىء سجل القاضي أبي محمد اليازوري بالوزارة، ولُقّب بالوزير الأجلّ، سيد الوزراء، قاضي القضاة وداعي الدعاة، علم المجد».

ويبدو أن المقريزي كان من المعجبين باليازوري فقال عنه: «ومضى فيها مُضيّ الجواد، ونهض فيها مسرعاً، نهوضاً عزّ به في وجوه من تقدّمه، مع ما بيده من القضاء والدعوة».

ومن أهم الأحداث التي عرفتها وزارة اليازوري: خروج المعزّ بن باديس الصنهاجي عن الدولة، فأرسل له قبائل زغبة وهلال ورياب وعوف كالجراد المنتشر لا يمرّون بشيء إلاّ أتوا عليه، وهزموا جيوشه ففرّ بنفسه من القيروان، بعدما نهبوا جميع ممتلكاته، وتفرّق أهله في البلاد.

وفي وزارته توصّل أبو محمد اليازوري إلى إعادة ثمال بن

صالح بن مرداس إلى خدمة الدولة وقرّب ابن كمال المقّلد وزاد في ألقاب قاضي صور عليّ بن عياض، فأصدر له سجلاً بتسميته عين الدولة.

وعندما قام بني قرّة في منطقة الإسكندرية بالثورة على واليها ناصر الدولة ابن حمدان، أرسل لهم أبو محمد اليازوري جيشاً كسرهم «وقتل منهم خلقاً كثيراً وانهزموا والعساكر تتبّعهم، وأحاط بأموالهم وكل ما يملكونه»، وفرّوا إلى برقة وتبعهم الطلحيّون أنصارهم، وانقطع أثرهم من منطقة البحيرة، بعد أن كانوا سادتها وحكامّها.

وكاتب أبو محمد اليازوري أعداء بني قرّة والطلحيين من بني سنبس، وكانوا يقيمون في فلسطين، فأعطاهم البحيرة، ومحى اسم بني قرّة منها. وانتسب أحد أعيان اليمن إلى حزب الدعوة الفاطمية الإسماعيلية، ويعرف بعلي بن محمد الصليحي، فحسنّ له أبو محمد اليازوري هذه الخطوة وشجّعه عليها، وكان أبوه قاضياً سنّي المذهب وزوجته ابنة عمه «أسماء بنت شهاب» وكانت أجمل خلق الله، وهي أم الدعاة باليمن وكانت تعرّف بالملكة الحرّة.

ودعم أبو محمد اليازوري الداعي الجديد، علي بن محمد الصليحي بالمال والرجال، فاستطاع بأقل مدة زمنية السيطرة على اليمن وبثّ الدعوة الشيعية الإمامية الإسماعيلية فيها. وأصبح اليمن بفضل سياسة أبي محمد اليازوري من أهم مراكز انتشار الدعوة الفاطمية باتجاه الهند وما وراء البحار.

وكادت العلاقات بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية أن تنقطع،

ولكن بحسن سياسة وتدبير اليازوري، حوفظ عليها، بل أصبحت أقوى من الأول، وخطب للخليفة المستنصر في جامع القسطنطينية.

وكان الوزير اليازوري نصير الضعفاء في مصر الفاطمية، فقد روى لنا المقريزي أن خلافاً وقع بين نقيب الخبازين وأحد بائعي الخبز لسبب عدم التزام البائع بالتسعيرة وكسرها، فباع كل خبزه وعريف الخبّازين «بار خبزه»، فما كان من العريف إلا وشى عليه اثنين من أعوانه، أخذا ما معه من دراهم فشكاه للوزير اليازوري، فاستدعى أبو محمد، المحتسب وطلب منه صرف النقيب عن نقابته جزاءً له على فعلته وإعادة ما أخذ من الخباز.

وقد علّق أحد الباحثين المعاصرين على هذا العمل بقوله: «إن الوزير اليازوري، لم يكن يحلم بأنّه يصل إلى كرسي الوزارة ويتقرّب من الخليفة، فلما بلغ ذلك، لم ينس أنّه ابن الشعب المحبب إليه، ولم تلهه المناصب التي تولاّها. ولم يغرّه الجاه، بل تمسّك بشعبيّته العزيزة. وكان لا يمنع مستغيثاً، ولا يرّد ملهوفاً احتمى به أو استجاره يتعالى على العظماء ويواخي الضعفاء، بذل قصارى جهده في معالجة خطر المجاعة، التي كانت تهدّد البلاد، فأغرق الأسواق بالسلع، حتى توفّر للفقراء ما يحتاجونه بلا كلفة، ولا تعب، وينالونه بأبخس الأثمان»[1].

وكان الوزير اليازوري أول وزير يتدخل في بورصة الأسواق

---

(١) الوزير اليازوري، عمر صالح البرغوتي، ط ١، القاهرة، مطبعة الاعتماد بمصر، لا تاريخ، ص ١١٨.

لكسر أسعار السلعة، وذلك بإغراق السوق بالسلعة بأسعار تشجيعية، فقد أقدم سنة ٤٤٦ هـ، بعد أن ارتفع سعر تليّس القمح (٣٧٥ كلغ) إلى ثمانية دنانير، على فتح أهراءات القمح الخاصة بقصر الخلافة والجيوش، وباع تليّس القمح بثلاثة دنانير «وسلّم إلى الخبّازين ما يبتاعونه لإغراق الأسواق بالخبز، وهيّأ ما تحتاج إليه القاهرة ومصر، فكان يخرج من إهراءات القصر ألف تليّس كل يوم» (أي ثلاثماية وخمس وسبعون ألف كلغ أو ثلاثماية وخمس وسبعون طناً من القمح)، واستمر بهذا التدبير أحسن قيام مدّة عشرين شهراً، حتى أدركت الغلة فتوسّع الناس بها، وزال عنهم الغلاء»[1].

وإذ حسبنا ما ظهر من إهراءات قصور الخلافة بأمر الوزير اليازوري خلال عشرين شهراً، نجد أنها بلغت ٢٠ × ٣٠ × ٣٧٥ طناً يومياً = ٢٢٥٠٠٠ (مائتان وخمس وعشرون ألف طن).

إزالة الخلافة العباسية بتدبير من الوزير اليازوري:

عندما طرح أبو الحارث البساسيري قضية دخول بغداد وإزالة الخلافة العباسية منها والخطبة على منابرها للخليفة المستنصر، حضّر الوزير اليازوري للموضوع أفضل تحضير وأعدّ له أحسن إعداد وأرسل ولده خطير الملك محمد «ومعه كل ما يريد، حتى أخذ أحواض الخشب وفيها الطين المزروع فيه سائر البقول، ومعه من خزائن الأموال والأسلحة والآلات والأمتعة ما يجلّ وصفه». وقد كلفت عملية فتح بغداد «مليونان وثلاثمائة ألف دينار».

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٢٢٦.

ولكن كل هذه الانتصارات التي حقّقها اليازوري، خلقت له العديد من الحسّاد والأعداء الحاقدين، الذين لم يتركوه ليلة واحدة دون حفر قبره وتوسيع شقّة الخلاف بينه وبين الخليفة المستنصر.

نهاية الوزير اليازوري:

كان الوزير أبو محمد اليازوري مسلماً من أهل السنة، ولو كان مسلماً شيعياً، لما استطاع أعداؤه النفاذ إلى حصنه واختراقه، فمن خلال تسنّنه، رموه بموالاة الخلافة العباسية السنّية.

وكانت بداية الخلاف بحضور الخليفة المستنصر دعوة صفي الملك ابن اليازوري، فحضرها، وكان صفيّ الملك قد اهتم بهذه الدعوة بما يليق بمائدة الخلفاء فأخذ أعداؤه من موجودات المائدة منطلقاً للإيقاع بين الخليفة والوزير اليازوري.

وبدأ يشعر اليازوري بابتعاد الخليفة عنه وميله إلى أبي الفرج البابلي.

وصدق حدسه، فدعى الخليفة المستنصر البابلي وكلّفه بالوزارة بعد أن عزل اليازوري.

والبابلي لم يكن شيئاً يذكر لولا أبي محمد اليازوري، فهو الذي قدّمه في الخدمة وأعلى مراتبه ورتبه، ولكن اليازوري، كان قد زرع الجميل في أرض قاحلة، حاقدة. فكان أول ما أقدم عليه أبو الفرج البابلي: هو تدبير قتل اليازوري.

ويروى المقريزي نقلاً عن لسان الخليفة المستنصر لنقيب الطالبيّين كيف خطّط البابلي لقتل اليازوري ما مفاده أنّ البابلي كان

في لقاء مع الخليفة، يذمُّ اليازوري ويسبّه والخليفة مستمع إليه دون أن يجيبه. فظنّ أن السكوت علامة الرضا، فأرسل له من يقتله، فعلمت السيدة رصد بالأمر، فأرسلت تعاتب ولدها، فأرسل الخليفة المستنصر أحد غلمانه يمنع هذا الأمر، فاختبأ البابلي في الحمّام بحجّة أنّه يغتسل وأطال الاختباء لأنه يعلم ساعة التنفيذ، وبعد اطمئنانه بأنّ قرار القتل قد نفّذ باليازوري، خرج من الحمّام.

وزارة أبي الفرج البابلي:

قتل أبو الفرج الوزير عبد الرحمن بن علي اليازوري ـ أبو محمد ـ وظنّ أنه بقتله تخلّص من أشد منازعيه هذا المركز، ولكنه لم يكن يعلم أنه بقتله اليازوري ستكون نهايته.

والطريقة التي قتله بها، ظنّ نفسه أنه يتذاكى على الخليفة المستنصر ووالدته «رصد». ولكنّه لم يفلت ولم تطل مدة وزارته.

يقول المقريزي عن البابلي: لما ولي الوزارة بان للناس من رقاعته وحدّته وكثرة شرّه، ما افتُضح أمره. وكان من شدّة كرهه لليازوري وحقده عليه، أمر بنقله من سجنه في القاهرة إلى أحد سجون تنِّيس. وأمر باعتقاله هو وأولاده ونساؤه وحاشيته.

وبعد إقدام البابلي على قتل اليازوري استدعى الخليفة المستنصر نقيب الطالبيّين فخر الدولة يستشيره بما يفعله بالبابلي: ومما قال المستنصر عن البابلي: «والله لقد ظننت أن الدولة تتضاعف قدرتها بنظره (بوزارته). وينضاف إليها مثلها بحسن تدبيره. فإذا ثيابه لا تسع رقاعته من قرعته. واليازوري أقام في خدمتنا عشر

سنين عددنا عليه ثمانية عشر ذنباً، وأقام البابلي اثنين وسبعين يوماً نقمنا عليه من تسعة عشر ذنباً، مع ظاهر كذبه وقلّة احتشامه عندي، وكان من إقدامه على قتل اليازوري».

وثم صرفه عن الوزارة بعد اثنين وسبعين يوماً من تسلّمه مقاليدها، ولما صرف قبض عليه واعتقل، وكان النهار لا يكاد يرتفع فيصرخ: ما يتمّ حبس وجوع، وكان يبدر منه من الرقاعة والجهل مما يدفع السجّانين للتعجب من كبير الفرق بينه وبين أبي محمد اليازوري.

وزارة أبي الفرج، محمد بن جعفر المغربي:

لم تطل وزارة أبي الفرج المغربي لأكثر من سنتين وتمّ فيها استعادة بغداد للعباسيين وخروج الشام من أيدي خلفاء بغداد، فعزل منها، وأعيد إطلاق سراح عبدالله بن محمد البابلي وإعادة تكليفه بالوزارة. وكان ذلك في التاسع من رمضان له ٤٥٢ هـ.

ولم تطل مدة أبي الفرج البابلي في الوزارة، فصُرف عنها وكلّف بها عبدالله بن يحيى بن المدّبر، في الثالث من شهر محرم سنة ٤٥٣هـ، واستمر بها حتى الحادي عشر من رمضان، فصرف منها وكُلّف بها أبو محمد عبد الكريم بن عبد الحاكم.

ويعزو المقريزي كثرة العزل والتعيين في مركز الوزارة وبقية المراكز المهمّة في الدولة، إلى كثرة السعاة (أصحاب التقارير)، وكان الخليفة المستنصر من الناس الذين يديرون إذنهم لكل «سفساف ووغد». فكثرت تقاريرهم ورقاعهم، حتى أصبح يصل للخليفة منهم في اليوم الواحد ثماني مائة تقرير.

ويرى المقريزي أنّ في هذه التقارير، كانت بداية نهاية الدولة.

ولم يستمر ابن عبد الحاكم في الوزارة أكثر من أربعة أشهر، ثم توفي في الثالث من محرّم سنة ٤٥٤ هـ. فكُلّف أخوه أبو علي أحمد بن عبد الحاكم، بها، واستمرّ فيها حتى شهر صفر ثم صُرف عنها، وكلّف بها سديد الدولة أبو عبدالله، الحسين، ابن عيسى العقيلي، فأقام بها إلى شهر شوّال من نفس السنة، ثم صُرف عنها، وأُعيدت إلى أبي الفرج البابلي، فاستمر بها إلى نهاية السنة.

وفي أول سنة ٤٥٥ هـ، رُدّت الوزارة والحكم معاً إلى أبي علي، أحمد بن عبد الحاكم، ثم صُرف عنها في السابع من شهر صفر نفس السنة، وأعيدت لابن المدبّر فاستمر بها إلى أن توفي في آخر السنة، فكلف بها أبو غالب عبد الظاهر بن الفضل، المعروف بابن العجمي. ثم صُرف منها وقبض عليه بأقل من شهر. وكلّف بها أبو محمد الحسن بن أسد، بن أبي كدينة، ثم صرف عنها وأعيدت لأحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم، فاستمرّ بها إلى أول المحرّم من سنة ٤٥٦هـ.

وأُسندت إلى أبي المكارم، المشرّف بن أسعد، بن مقبل، ثم صرف عنها وأعيدت لأبي غالب عبد الظاهر بن الفضل، ثم صُرف أبو غالب بن الفضل، واستُدعي أبو البركات حسين بن عماد الدولة الجرجرائي من صور وكلف بالوزارة. ولم يبق بها أكثر من أربعين يوماً ثم صُرف عنها. وأعيدت لابن أبي كدينة فاستمرّ بها مُديدة، ثم صرف عنها وكُلّف بها أبو علي، الحسن بن أبي سعيد التستري.

واستمرّ التستري بالوزارة إلى أول سنة ٤٥٧ هـ، ثم صُرف

عنها وكلّف بها أبو شجاع محمد بن الأشرف بن خلف وبقي في الوزارة يوماً واحداً ثم صرف عنها. وأعيدت لابن أبي كدينة فأقام فيها أربعة أيام ثم أقيل منها. وأعيدت لأبي شجاع محمد بن الأشرف ثم صرف عنها، وكُلّف بها سديد الدولة، أبو القاسم هبة الله، بن محمد الرحبي، ثم صرف منها، وأعيدت لابن أبي كدينة، ثم عزل وكلّف بها أبو المكارم رئيس الرؤوساء، شرف بن أسعد. ثم قُبض عليه. وكُلّف بها أبو الحسن علي بن الأنباري. فأقام فيها شهراً واحداً ثم صُرف عنها.

ودخلت سنة ٤٥٨، فكلف الخليفة المستنصر أبا أحمد جلال الملك بالوزارة ثم صرفه بعد أيام، وكلّف بها أبا الحسن طاهر بن الوزير، فباشرها أياماً يسيرة، وصرف عنها، ثم كُلّف بها أبو عبد الله محمد بن حامد التنيسي فأقام فيها يوماً واحداً ثم صُرف وقتل، فاستوزر أبو سعد منصور بن زنبور، فلم يقم في الوزارة غير أيام قليلة وهرب. فأقيم بعده أبو العلاء عبد الغني بن سعيد الضعيف، فباشرها أياماً يسيرة ثم صُرف.

وفي هذه السنة، ٤٥٩ هـ، بدأت الحرب بين لواء الأتراك والديلم بقيادة ناصر الدولة ـ أبو علي ـ الحسن بن الأمير أبي الهيجاء بن حمدان، وبين ألوية العبيد بقيادة السيدة رصد أم الخليفة المستنصر، وكلّ لواء لا يقلّ تعداده عن خمسين ألف جندي.

وأسقط بيد الخليفة المستنصر، فلم يعد يحسن الاختيار ولا التصرّف. ففي هذه السنة عزل أبا العلاء عبد الغني بن سعيد الضعيف من الوزارة وأعادها لابن أبي كدينة، ثم صرفه منها بعد

ثمانية أيام وولى أبا القاسم عبد الحاكم المليجي مكانه، ثم صرفه بعد عدة أشهر وأعادها لابن أبي كدينة، فباشرها أياماً ثم صُرف وأعيد المليجي، فلم يقم بمباشرتها سوى ليال معدودة ثم صُرف منها، وأعيدت لابن أبي كدينة، ثم صُرف وأعيدت إلى ابن عبد الحاكم.

وكثرة العزل والتوزير دليل كبير على مستوى الضعف الذي وصلت إليه الدولة الفاطمية في هذه السنة. والخليفة يعزل ويعيد، وألوية الجيوش الفاطمية تتصارع وتتعارك في كل أنحاء القطر المصري، ولا وزير أو أمير أو خليفة استطاع إيقاف هذا التطاحن.

ويصف المقريزي الحالة التي وصل إليها المستنصر في خضمّ هذا التطاحن وسبب عدم وجود وزارة قوية تضع حدّاً لهذا الإقتتال: «وفيها، (سنة ٤٦٠ هـ)، اشتدّ البلاء على المستنصر من قوة الأتراك عليه، وطمعهم فيه، فانخرق ناموسه، وتناقصت حرمته، وقلّت مهابته، وتعنّتوا به في زيادة مخصّصاتهم، وكانت في كل شهر ثمانية وعشرون ألف دينار، فرفعوها إلى أربعمائة ألف دينار في كل شهر».

ويخبرنا المقريزي أن أمر ناصر الدولة بن حمدان قد عظم واستعظم، فاستبدّ بالأمور وأخذ يعيّن ويعزل دون مشاورة الخليفة ولا استشارته، فصرف ابن أبي كدينة من الوزارة وأعاد المليجي مكانه، وباشرها المليجي خمسة أيام فقط وصرفه، وأعاد ابن أبي كدينة.

واستمر ناصر الدولة بن حمدان يمارس سلطته على مرافق الدولة، فصرف من بيت المال «وبغير استحقاق» مبلغ ثلاثين مليون

دينار ذهباً ـ رواتب سلفاً لمدة خمسة عشر شهراً، تبدأ بشهر صفر لسنة ٤٦٠ هـ.

واستمر ابن أبي كدينة يماليء المتقاتلين وينهب مع الناهبين من موجودات قصر المستنصر وقصور والدته والأمراء ومستودعات وخزائن الدولة، وقد وصل الأمر بابن أبي كدينة وابن حمدان أن «شلّحاه» ثيابه للمستنصر، فأخرجا من القصر ثماني مائة بذلة من ثيابه بجميع آلاتها كاملة (من جواهر وذهب).

ولم يرحم ابن أبي كدينة وحليفه ناصر الدولة ابن حمدان حتى الأموات، فأوعزا لعساكرهم، فنهبت كلّ الستور والقناديل الفضة والذهب الموجودة في التربة المعزّية. وآل الأمر بالخليفة المستنصر «إلى أن صار يجلس على حصيرة» في قصره، ينتظر الشريفة بنت صاحب السبيل حتى تبعث إليه كل يوم بصحن من فتات الخبز.

ويخبرنا المقريزي أن ابن أبي كدينة صرف من الوزارة وأعيدت للمليجي ثم صرف منها وكلف بها خطير الملك محمد بن علي بن الوزير اليازوري فباشرها أشهراً ثم صرف عنها، ثم أعيدت لابن أبي كدينة ثم صرف عنها وأعيدت للمليجي.

ولا ندري إذا كانت قرارات الصرف والإعادة صادرة عن الخليفة المستنصر أم عن مغتصبي السلطة، والأرجح، أنها صدرت عن ناصر الدولة بن حمدان، فلا يعقل أن يستطيع الخليفة التدخل وهو في حالة لا يستطيع فيها تأمين لقمة عيشه.

وعندما حاول ناصر الدولة بن حمدان إلغاء الإمامة والخلافة الفاطمية من مصر، وقف له المصريون يدافعون عن إمامهم

وخليفتهم، فوقعت الحروب بين الأتراك والسودان والمصريين، وقد استمرّت ثمانية أشهر ليلاً نهاراً، عطّلت فيها الأسواق والتجارات والزروع وتوقفت دورة الحياة اليومية في القطر المصري، من جرّاء هذه الحروب التي طالت كل محافظات مصر. فهرب من المصريين من استطاع الهروب إلى الشام والعراق والمغرب، ولم يبق إلا قطاع الطرق والعيّارون والفقراء.

واستمرّت سيطرة ناصر الدولة بن حمدان على السلطة والحكم في مصر، دون استطاعته التخلّص من الخليفة المستنصر، حتى سنة ٤٦٥ هـ، ويخبرنا المقريزي سبب قتله وكيف انتهى فيقول: «وكان سبب فنائه وقتله أنه لما استولى على أمور الدولة وبالغ في إهانة المستنصر، وتتبّع أقاربه وحاشيته، وأخذ من قدر عليه منهم (قتله)، وفرّ من وجد سبيلاً إلى الفرار، شرع في قطع دعوة المستنصر وإقناع الناس في إقامة الخطبة للخليفة القائم بالله العباسي بمصر والقاهرة. وأن يزيل من البلاد دولة الفاطميين ويمحو آثارها، فلم يستطع ذلك ولا قدر عليه، لكثرة الأعوان والأتباع. وكان من جملة رجال الدولة، القائد إلدكز، ويلقب بأسد الدولة، وكان شيخ الأتراك والمقدّم عليهم وزوج ابنة ناصر الدولة بن حمدان، ففطن إلدكز لما يريده ناصر الدولة من قطع خطبة المستنصر وإقامة الدعوة لبني العباس، فتشاور بالأمر مع قائد تركي آخر يدعى يلدكوز.

وكانا من أكابر الأتراك، فاستنكرا ما يخطّط له ناصر الدولة وتخوّفاً من عاقبته فحرّضا بقية الأتراك عليه وأعلموهم «إنه إذا تمّ

لناصر الدولة ما يحاوله، لم يبق منهم أحد، والرأي مبادرته قبل أن يستفحل أمره، فتقرّر الأمر على القيام عليه وقتله»[1].

وكان ابن حمدان قد اغترّ بقوته، وظنّ أنّه قد أمن، وأن أعداءه قد تلاشوا وتلفوا، فأتاه الله من حيث لم يحسب، فلم يشعر إلا وقد ركب الأتراك أجمعهم إليه، على حين غفلة، وداهموا داره سحراً وهجموا عليه، فإذا هو في صحن داره، فبادره أحدهم بسيفه وأتبعه صهره «ألدكز» فحزّ رأسه. وقتلوا أخويه فخر الدولة وتاج المعالي، ومن معهم من بني حمدان وتتبعّوا أسبابهم وحاشيتهم حتى لم يبق منهم أحد بديار مصر.

وظنّ الخليفة المستنصر أنه بقتل ناصر الدولة بن حمدان قد ارتاح، ولكن الوزير ابن أبي كدينة، أعاد جمع القادة الأتراك حوله واستطال مجدداً على الخليفة بمساعدة ألدكز، واستمرّا بمناكدته، فتحيّر في أمره، ولم يجد مفرّاً من مكاتبة أمير الجيوش بدر الجمالي والي عكا، فكتب إليه «يستدعيه للقدوم لنجدته وإعانته ويعده بتملك البلاد والاستيلاء عليها، فاشترط بدر الجمالي عليه، أنه يأتي مع عساكره من عكا وأنه لن يبقى أحداً من عساكر مصر ولا وزرائهم، فقبل المستنصر.

وزارة الوزير بدر الجمالي وبداية الحكم الأرمني لمصر:

انطلق بدر الجمالي من ميناء عكا في شهر «كانون أول» سنة ٤٦٦ هـ، وسار بمائة مركب على كل مركب سبعمائة جندي أرمني، أي أنه أتى إلى مصر ومعه ما لا يقل عن سبعين ألف جندي أرمني مشهورين برماية القسيّ والسهام.

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٣٠٩.

وعمل بدر الجمالي الحيلة على أهل الدولة، فلم يظهر لهم العداء، وأخذ يقضي أيامه معهم في شرب وقصف وضيافات. وما أن اطمأنّوا له، حتى أقام لهم مأدبة جمعتهم كلّهم، فرتّب لهم من قتلهم كلّهم وحزّ رؤوسهم بعد «أن سكروا وامتّد عليهم رواق الليل».

وقبض على قيادات الأتراك وتتبعّهم حتى لم يدع أحداً منهم.

وكلّفه الخليفة المستنصر بالوزارة في نفس هذه السنة، وزاد في صلاحياته، وجعل له تسمية قاضي القضاة وداعي الدعاة من هذه الصلاحيات، وأطلق عليه لقباً جديداً وهو «كافل قضاة المسلمين».

وكان أوّل عمل قام به بدر الجمالي هو قيامه بالقبض على الوزير ابن أبي كدينة وقتله «وهو من نسل عبد الرحمن بن ملجم». ويقال إنّ السياف ضربه بالسيف سبع ضربات حتى مات بعدد الوزارات التي كلّف بها.

ثم قتل الوزير أبا شجاع الأشرف بن أبي غالب والوزير عبد الغني بن نصر بن سعيد الضعيف.

ثم ارتد إلى لواء لواته، فقتل منه عشرين ألفاً بسبب فسادهم.

وهدأت أحوال مصر، وبدأت تستعيد عافيتها وعادت إليها الدورة الاقتصادية كما كانت، قبل سيطرة الأتراك بل أفضل، ولكن الجديد على المستنصر هو أنه استبدل وزراء ضعافاً بوزير قوي، فأصبح المستنصر دمية في يد هذا الوزير، ولكن الجديد في الأمر أن الوزير بدر الجمالي، رغم أنّه سيطر على مقاليد الحكم والسلطة في مصر والدولة الفاطمية، إلا أنه كان يعمل لسلطة الشعب والدولة قبل كل شيء.

بدر الجمالي يجعل الوزارة وراثية:

بعد أن استطاع الوزير بدر الجمالي فرض سيطرته وسيطرة الدولة على كل الأوضاع المصرية، وبر الشام وفلسطين واليمن، طلب من الخليفة المستنصر إصدار سجل أو مرسوم يقضي بتعيين ولده الأفضل، خليفة له في الوزارة ووليا لعهده وباعتبار الوزير الأول هو السلطان، أصدر الخليفة المستنصر، مرسوماً يقضي بتعيين ولده الأفضل ولياً لعهد السلطنة. وكان ذلك سنة ٤٧٧هـ.

وقد أشار أيمن فؤاد السيد إلى قضية تعيين بدر الجمالي داعياً للدعاة[١]، ولكن ما أظنّه أن الخليفة المستنصر لقبّه باللقب من باب التفخيم فقط وليس من باب التنفيذ. لأنه لا يعقل أن يكون داعي الدعاة أرمنياً. ولو كان مسلماً فهو مسلم شيعي إمامي إثنا عشري يعترف بإمامة محمد بن الحسن، المهدي المنتظر (عج) ولا يعترف بإمامة الخليفة المستنصر.

وحسب الشرع الإسلامي الشيعي الإمامي الإثني عشري، لا إشكال بالاعتراف بالمستنصر خليفة دون الاعتراف به إماماً، والاعتراف بإمامته يخرج المسلم الشيعي الإمامي الإثني عشري عن أهم مقوّمات المذهب.

من هنا لا يجرؤ كذلك الخليفة المستنصر على تعيين بدر الجمالي داعياً للدعاة، ولو كان تعيينه الداعي يتم بمشورته وموافقته، لأن الداعي يجب أن يكون متدرّجاً في مراتب الدعوة الإسلامية الشيعية الإمامية الإسماعيلية، عارفاً ببواطنها، عالماً بظواهرها.

---

(١) الدولة الفاطمية بمصر، أيمن فؤاد السيد، م.س. ص ٢١٥.

وفاة بدر الجمالي:

توفي أمير الجيوش شاهنشاه بدر الجمالي، سنة ٤٨٧هـ، بعد أن ناهز الثمانين سنة. وهو أرمني، كان مملوكاً لجمال الدولة بن عمار الطرابلسي، فلحقه اللقب وسمي بدر الجمالي. حكم مصر مدة إحدى وعشرين سنة من سنة ٤٦٦هـ حتى سنة ٤٨٧هـ. ومهما وصف من أوصاف ونعوت فهي قليلة بحقّه، فقد حفظ الدولة الفاطمية وأطال بعمرها بعد أن كادت تندثر وتضيع.

ولم يكن هناك مشكلة في تعيين الوزير بعده، فهو مقرّر سلفاً لأن الوزارة أصبحت وراثية، لكن غلمان بدر الجمالي، والأمراء، اعترضوا ورفضوا التنفيذ، ومنهم نصير الدولة أفتكين وأمين الدولة لاون، وسعى لاون لأن يلي أستاذه أمير الجيوش بدراً في الوزارة، وطالب الأمراء بتسميته لدى الخليفة المستنصر، «فأقر أمره المستنصر، وأفاض عليه خلع الوزارة، وجلس في الشباك عند الخليفة كما جرت عادة الوزراء الجدد». فاحتج نصر الدولة أفتكين على هذا التعيين «وقبّح أن يكون أحد خشداشيتّه (زملائه) يتحكّم ويتآمّر عليه مع وجود أولاد أستاذهم بدر الجمالي». وأجبر الخليفة على سحب توكيل لاون بالوزارة، وأمر الأمراء والقواد «بإحضار الأفضل بن أمير الجيوش، وقرّر في الوزارة مكان أبيه».

ومات الخليفة المستنصر في نفس السنة، ولحق بوزيره بدر الجمالي، وكان له من العمر سبع وستون سنة قضى منها في الخلافة ستين سنة.

أهم وزراء الخليفة المستنصر:

عرف عهد المستنصر الكثير من الوزراء، وكانت في أول عهده سلطة العزل والتعيين بيده، وانتهت بخروجها من يده، بعد تطاول الأمراء والوزراء عليه، وبعد قبض بدر الجمالي على السلطة، وكان عدد الوزراء الذين عرفهم عهد المستنصر ستة وعشرين وزيراً وهم:

١ ـ أبو القاسم الجرجرائي.

٢ ـ أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحي.

٣ ـ أبو البركات الحسين بن محمد الجرجرائي.

٤ ـ أبو الفضل صاعد بن مسعود.

٥ ـ أبو محمد علي بن عبد الرحمن اليازوري.

٦ ـ أبو الفرج عبدالله بن محمد البابلي.

٧ ـ أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي.

٨ ـ عبدالله بن يحيى بن المدبّر.

٩ ـ عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقي.

١٠ ـ أبو علي، أحمد بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقي.

١١ ـ أبو عبدالله، الحسين بن سديد الدولة الماسكي.

١٢ ـ أبو أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم.

١٣ ـ أبو غالب، عبد الظاهر بن فضل العجمي.

١٤ ـ الحسن بن أسد بن أبي كدينة.

١٥ ـ أبو المكارم المشرّف بن أسعد.

١٦ ـ أبو الحسن علي بن أبي سعيد التستري.

١٧ ـ أبو القاسم عبدالله بن محمد الرعياني.

١٨ ـ أبو الحسن بن الأنباري.

١٩ ـ أبو علي الحسن بن سديد الدولة الماسكي.

٢٠ ـ أبو شجاع، محمد بن الأشرف.

٢١ ـ أبو الحسن، طاهر بن الوزير الطرابلسي.

٢٢ ـ أبو عبدالله محمد بن أبي حامد التنّيسي.

٢٣ ـ أبو سعد منصور بن سورس بن زنبور.

٢٤ ـ أبو العلاء، عبد الغني بن سعيد الضعيف.

٢٥ ـ أمير الجيوش شاهنشاه بدر الجمالي.

٢٦ ـ الأفضل بن أمير الجيوش، بدر الجمالي.

ويعتبر أهم وزيرين في عهد الخليفة المستنصر: أبو محمد اليازوري وبدر الجمالي، فنشر «اليازوري الأمن في ربوع البلاد وقضى على ناشري الفتن والفوضى. وأجمع المؤرخّون على أن اليازوري كان هادىء الطباع، لا يتحرّج من الاستشارة فيما يعرض له من أمور، قبل أن يتخذ القرار المناسب، وتمكّن من السيطرة على الأمور سيطرة تامة وحدّ من تدخلات أم الخليفة في شؤون الحكم»[1].

كما استطاع بدر الجمالي أن يعيد الأمن والنظام إلى مصر، وأن يضرب على أيدي المفسدين. ويتهم المؤرّخون بدراً بالقسوة وسفك

---

(١) الوزارة والوزراء في العهد الفاطمي. م.س. ص ١٥٧.

الدماء، ولكنه أمر اقتضته المصلحة العامة فقد بلغت مصر قبل وصوله درجة من الفوضى، واضطراب الأمن، جعل الانتقال من مكان إلى مكان يستلزم الخفارة الثقيلة.

وزراء الخليفة المستعلي:

عندما مات المستنصر، كانت الوزارة بيد الأفضل بن بدر الجمالي، وأول عمل قام به الأفضل، أن نقل الخلافة والإمامة قسراً، ومن دون مسوّغ شرعي من نزار ابن المستنصر إلى أخيه الأصغر، أحمد، ولقبّه بالمستعلي بالله، أبو القاسم أحمد.

وشكّل هذا القرار طعنة نجلاء في صدر الدولة والإمامة والخلافة الفاطمية. فقد عرفنا أن الشعب المصري الملتزم بالإسلام الشيعي الإمامي الإسماعيلي، كان يشكل صمّام الأمان للدولة والإمامة والخلافة الفاطمية، وكان يحمل السلاح كلّما استدعى الأمر الدفاع عن الإمامة والخلافة.

ولكن بنقل الإمامة والخلافة لغير مستحقّها، انقسم الشعب المصري قسمين: قسم يؤمن بإمامة وخلافة نزار، ويحارب القسم الآخر، وقسم يؤمن بإقامة وخلافة المستعلي، ويحارب النزارية.

وبعد أخذ البيعة للمستعلي، تتبّع الأفضل نزاراً وأخوته والنزارية. ومنهم من قال إنّه استطاع اعتقاله وقتله بأن بنى عليه حائطاً في الإسكندرية. ومنهم من قال أنّ نزاراً استطاع الفرار إلى قلعة آلموت والتجأ إلى داعي الدعاة فيها وصاحبها الحسن بن الصباح الحميري.

وممّن قتلهم الأفضل بسبب عدم مبايعتهم المستعلي، داعي الدعاة

بركات، وابن الكحّال. وبدأ عهد المستعلي بالحرب بينه وبين نزار ومؤيديه وقد طالت هذه الحرب كلّ مناطق مصر. وكان الأفضل يعتمد كثيراً على جهاز المخابرات التابع له، وحتى أمّه كانت تتخفّى وتطوف الأسواق وتأتي له بالتقارير والمعلومات.

وفي وزارة الأفضل بدأ الزحف الصليبي على بلاد الشام والساحل السوري، وكانت أغلب المدن الساحلية، بيد الأكراد الذين كانوا تارة يخطبون باسم المستعلي والأفضل، وتارة يخطبون باسم الخليفة العباسي. وكانت ولاية دمشق مع دقاق بن تتش وولاية حلب مع أخيه رضوان بن تتش، وكانت المعارك بينهما دائرة على قدم وساق، والصليبيون يحاصرون أنطاكية.

وفي سنة ٤٩١ هـ، نقل الأفضل بن بدر الجمالي رأس الحسين (ع) من عسقلان إلى القاهرة، وبنى له المشهد الحسيني المعروف.

وفي أيّامه احتل الفرنجة القدس، سنة ٤٩٢ هـ وقتلوا من أهلها سبعين ألفاً بين مسلم ومسيحي ويهودي.

وتوفي الخليفة المستعلي سنة ٤٩٥ هـ، بعد ثماني سنوات من الحكم الضعيف، الذي لم يكن له فيه أي رأي أو قرار، بل كانت كل مقاليد السلطة بيد الوزير الأرمني، الأفضل.

مما يعني أن عهد المستعلي عرف وزيراً واحداً وهو الأفضل، وكان الأفضل قد أعطى بعض صلاحياته للحسن بن علي بن أحمد الكرخي، فاستمر معه شهراً واحداً ثم عزل، بعد أن ظهر أنه يملك عصابة، (شال) مسروقة من قصر الخلافة أيام الشدة والمجاعة المستنصرية.

ولم تنته القضية بصرفه، بل صودرت كل أملاكه واعتقل وسجن.

وزراء الخليفة الأمر بأحكام الله بن المستعلي:

عندما توفي المستعلي بويع ولده المنصور أبو علي بالخلافة ولقب بالأمر بأحكام الله وكان له من العمر خمس سنين.

وكان الأفضل، وزير جده وأبيه والقابض على كل السلطات بيديه قبضة حديدية. وقضى كل أيامه في حروب مع الصليبيين، وكانت الحروب بينه وبينهم كرّاً وفرّاً.

واتصل به سنة ٥٠١ هـ، أبو عبدالله محمد بن نور الدين وانضم في سلك الخدمة عنده ثم أدخل أخويه في خدمة الأفضل، فقبلهما الأفضل وهما أبو تراب حيدرة، وأبو الفضل جعفر، أبناء الأمير نور الدين أبي شجاع المعروف بالمأمون البطائحي.

الأفضل بن بدر الجمالي يبني قصراً خاصاً لرئاسة الوزارة:

كان الوزراء قبل الأفضل يداومون في مكتب خاص بهم في قصر الخلافة. واستمرّ العمل بهذا النظام حتى سنة ٥٠١هـ. وفي هذه السنة، بنى الأفضل مبنى خاصاً بالوزارة وسمّاها «دار الملك» في مدينة مصر القديمة.

وبدأ الحسد يدب بين الوالد وأولاده. فقد بانت كراهية الأفضل لأولاده، فاحتجب عنهم أكثر الأوقات. وانقطعوا هم عنه، واستقرّوا بالقاهرة في دار القباب التي كانت بالأصل سكن والدهم. ولم يبق من

أولاده من يتردّد إليه سوى «سماء الملك»، فإنّه كان يؤثره ويميل إليه.

وفي سنة ٥٠٩ هـ، أصيب الوزير الأفضل بفالج نصفي عطّل يده عن التوقيع، فكلّف أخاه أبا محمد جعفر المظفر بالتوقيع عنه، وجعل له علاوة على الراتب لقاء التوقيع عنه خمسمائة دينار شهرياً.

وكلّف ولده الأجل، سماء الملك بالمداومة مكانه في شبّاك قصر الخلافة، «وقرّر له على هذه النيابة في الشهر خمسمائة دينار، وبذلة مذهبة ورزمة كسوة، والبذلة وحدها تساوي خمسمائة دينار».

محاولات اغتيال الوزير الأفضل:

يخبرنا المقريزي أنّه تمّت محاولة لاغتيال الوزير الأفضل وللمرّة الثانية سنة ٥١٢هـ، ويتّهم الأفضل أولاده بهذه المحاولة، «وصرّح بالقول فيهم». فصادر دوابهم، وأبعد حاشيتهم وعساكرهم، ومنعهم من التصرّف، حتى بلغ الأمر من التحفّظ عليهم والاحتراز منهم، أن وضعهم في الإقامة الجبرية.

ومن أعماله التي يذكرها التاريخ، أن قراصنة البحر الأحمر سطوا على السفن والمراكب التجارية المصرية وسرقوا حمولتها، فشنّ هجوماً بحرياً على هؤلاء القراصنة «وعاد وصحبته جميع ما أخذ من التجار من البضائع والأموال، فحملت إلى الجامع العتيق بمصر بحضور الرعايا، وهم يعلنون بالشكر والدعاء، واحتاط متولّي الحكم عليها إلى أن تحضر جماعة التجار ويجري الأمر على ما توجبه الشريعة»[1].

---

(١) م. س. نفسه، ص ١٥٨.

مقتل الأفضل:

بالرغم من كل الإجراءات الأمنية التي اتخذها الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، بعد تعرّضه لمحاولتي اغتيال، فلم يستطع النجاة من المحاولة الثالثة.

يخبرنا المقريزي أن أربعة أنفار متتابعين وثبوا عليه، فرموه عن الفرس، وضربوه بالسكاكين ثمان ضربات وكان معه قائد حرسه أبو عبدالله محمد بن المأمون البطايحي، فحاول إنقاذه بعد أن رموه أرضاً مضرجّاً بدمه، ولكن سبق السيف العزل، فقد قتل، وهجم الحرس على المهاجمين فقتلوا ثلاثة منهم واعتقلوا الرابع «وكان اسمه سالماً».

ولكي لا يقع الهرج والمرج، أوهم الخليفة الآمر الناس بأن الأفضل لم يمت وهو يحضر سماط العيد معه.

وقام الآمر في صباح اليوم التالي بإعلان موته، وختم على خزائنه وأمواله بواسطة متولّي الدفتر وبتحريض من قائده المأمون البطائحي.

وكان الخليفة الآمر، وكأنّه ينتظر هذه الضربة للوزير الأفضل من الله، لأنه كان دمية والعوبة في يديه ولا يتجرّأ أن يخطو خطوة واحدة بدون علم الأفضل وموافقته.

وأول عمل قام به الخليفة الآمر، أنّه كلّف القائد أبا عبدالله محمد بن المأمون البطائحي بتصريف أعمال الوزارة، ريثما يدفن الأفضل.

وبينما كان الخليفة الآمر والقائد أبو عبدالله بن محمد بن المأمون البطائحي يقومان بمراسم دفن الأفضل. وصلت رقعتان

سريعتان على يد أستاذ من أساتذة القصر في القاهرة، تفيد بأن أولاد الأفضل «جمعوا حاشيتهم والأفضلية والأرمن، ويثورون في طلب الوزارة لأخيهم الأكبر». فامتعض الخليفة لهذا الأمر، وهمّ بإرسال من يقتلهم ويستأصل شافتهم. ولكن المأمون البطائحي هدّأ من غضبه وأقنعه بسجنهم، فأرسل إليهم من اعتقلهم، «من غير إهانة ولا قيود» وأودعهم خزانة البنود مع جميع حاشيتهم.

وكان الأفضل مسلماً شيعياً إمامياً اثني عشرياً، أي إمامي غير إسماعيلي، فهو يعترف بإمامة المهدي المنتظر (عج) ولا يعترف بإمامة الخليفة الآمر، ولو كان يعتبر من سلالة الأئمة.

وكان هذا الموضوع لا يشكل عائقاً عند الخلفاء الفاطميين لأن الاثني عشري المعترف بإمامة المهدي المنتظر لن يحرّض المهدي المنتظر على إزاحتهم، ولن يزاحمهم على خلافة.

وقد أمر الخليفة الآمر أن يكفّن الأفضل «حسب مذهبه» وقرأ على قبره في ليلتين «نيّف وخمسون ختمة». كما طلب من داعي الدعاة غسله. وصلى الخليفة عليه بنفسه.

وبعد استيفاء مراسم الدفن، أقام الخليفة الآمر أربعين يوماً في مصادرة أموال وأملاك الأفضل ونقلها إلى قصر الخلافة فقد نقل المقريزي عن ابن مُيَسَّر قوله: «وأقام الخليفة في دور الأفضل، وفي دار الملك بمصر، ودار الوزارة بالقاهرة، مدة أربعين يوماً، والكتّاب بين يديه يكتبون ما ينقل إلى القصور». وكان عدد الوعّاظ والقرّاء والمنشدين في

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، م.س. ص ٥٨.

عزاء الأفضل، أربعمائة وعشرين شخصاً، فخرج أمر الخليفة بأن يصرف لكل واحد منهم ثمانون ديناراً، الصغير مثل الكبير.

ثروة الوزير الأفضل بن بدر الجمالي أكبر من ميزانية دولة معاصرة:

كتب المقريزي نقلاً عن ابن مُيَسرّ يصف ويعدّد ثروة الوزير الأفضل فقال: وأَقام الخليفة في دور الأَفضل، وفي دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة وغيرهما مدة أربعين يوماً، والكُتَّاب بين يديه يكتبون ما يُنقل إلى القصور؛ فَوُجد لَهُ من الذخائر النفيسة ما لا يحصى.

فمِمَّا وجد له ستة آلاف أَلف دينار عيناً، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف أَلف ألف دينار وفي البيت البرّاني ثلاثة آلاف أَلف ومائتا أَلف وخمسون أَلف دينار[1]؛ ومائتين وخمسين إردبّاً دراهم ورِقاً؛ وثلاثين راحلة من الذَّهب العراقي المغزول برسم الرقم؛ وعشرة بيوت في كل بيت عشرة مسامير ذهب كل مسمار وزنه مائتا مثقال، عليها العمائم المختلفة الألَوان؛ وتسعمائة ثوب ديباج ملوّنة؛ وخمسمائة صندوق من دقّ دمياط وتنِّيس برسم كسوة بدنه؛ ولعبة من عنبر على قدر جسده برسم ما يُعمل عليها من ثيابه لتكتسب الرائحة؛ ومن الطّيب والآلات ما لا يُحصى عدده؛ ومن الأبقار والجاموس والأَغنام والجمال ما بلغ ضمان أَلبانه ونتاجه في سنة نحو أَربعين أَلف دينار؛ ودواية يكتب منها مرصّعة بالجواهر، قُوّم جوهرها باثنى عشر أَلف دينار؛ وخمسمائة أَلف مجلَّدة من الكتب العلمية.

---

(١) في نهاية الأرب: وفي البيت البراني ثلاثة آلاف ومائتان وخمسون ديناراً. انظر نهاية الأرب: ٢٨.

قال: وأَخذ الآمر في نقل ما بِدار الأَفضل إلى القصر، وهو يرتّب ما يُحمل بنفسه، هو وأَصحابه؛ واستمرّ ذلك مدّة شهرين وأَيام، والأَموال تُحمل على بغالٍ وجمالٍ إلى القصر، والآمر يطلع إلى القصر ويعودُ كلَّ غداةٍ ويقيم حتى يرتفع النَّهار ويرتِّب ما يفعل.

وذكر متولي الخزانة بالقصر أنّ مما وجد في دار الأفضل ستة آلاف أَلف وأربعمائة أَلف دينار؛ ووَرِقٌ قيمته مائتا أَلف وعشرون أَلف دينار؛ وسبعمائة طوق ما بين ذهب وفضّة[1]؛ ومن الأَسطال والصحاف والشربات والأَباريق والقدور والزبادي[2] الذهب والفضَّة المختلفة الأَجناس ما لا يُحصى كثرة؛ ومن براني[3] الصيني الكبار المملوء بالجواهر التي بعضُها منظوم كالسُّبح وبعضها منثور شيء كثير.

وكان الأَفضل في أَوقات الشرب يصُفّ في مجلسه صواني الذهب وبينها البراني المملوءة بالجواهر، فإذا أَحب أفرغ البرنيّة في الصينيّة فتكون مثلها.

ووُجد له من أَصناف الدّيباج وما يجري مجراه من عتابي ونحوه تسعون أَلف ثوب وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلُّه دبيقي وشرب[4] عمل تنّيس ودمياط، على كلّ صندوق شرح ما فيه وجنسه. وخزانة الطِّيب مملوءة أَسفاطاً، فيها العُودُ وغيره، مكتوب على كل سفط وزنه وجنسه؛ وبراني بها المسك والكافور وشيء

---

(١) في نهاية الأرب: ومن أطباق الذهب والفضة سبعمائة طبق. نفس المصدر.

(٢) جمع زبدية وهي وعاء يشرب به.

(٣) جمع برنية وهي إناء من الخزف اللامع أو من الصيني.

(٤) نوع من الحرير خاص.

كثير من العنبر. ووُجد مجلس يجلس فيه للشرب فيه ثمان جوارٍ متقابلات، أَربعٌ منهن بيضٌ من كافور وأَربعٌ سُودٌ من عنبر، قيام في المجلس، عليهنَّ أَفخر الثياب وأَثمن الحلي، بأَيْديهنَّ مذابٌ من أَعظم الجوهر؛ فإِذا دخل من باب المجلس ووَطِيء العتبة نكَّسْنَ رُءوسَهُنَّ خدمة له بحركات قد أُحْكِمت؛ فإِذا جلس في صدر المجلس استَوَيْن قائمات.

ووُجد له من المقاطع والسُّتور والفرش والمطارح والمخادّ والمساند الدّيباج والدَّيبقي الحريري والذهب على اختلاف الأَجناس أَربع حُجَر، كلّ حُجرة مملوءة من هذا الجنس. ووُجد له عدّة صناديق ملء خزانة فيها أَحقاق ذهب عراقي برسم الاستعمال. ووجد له منقلات عدة تزيد على المائة، ملبّسة بالذَّهب والفضة، مرصعة بالجوهر؛ وثمانمائة جارية منها خمسٌ وستون محظيّةٍ لكلّ واحدة حجرة. وخزائن مملوءة بالكسوة والآلات الذهب والفضة من كلّ صنف.

وكان في مخازنه تحت يد عمّاله والجباة وضُمّان النَّواحي من المال والغلال والحبوب والقطن والكتَّان والشَّمع والحديد والخشب وغير ذلك مما يتعب شرحه.

وحُمِل من داره أَربعة آلاف بساط، وستون حملاً طنافس، وخمسمائة قطعة بلّور، وخمسمائة قطعة محكم برسم النقل، وأَلف عِدْل من متاع اليمن والمغرب، وتسعة آلاف سرج[1].

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، م.س. ص ٧١.

وقال عنه ابن مُيَسَّر أنّه كان من العدل وحسن السيرة في الرعيّة والتجار، على صفة جميلة تجاوز ما سُمِع به قديماً وشوهد أخيراً، فلم يعرف أحد من التجار والأعيان في وزارته صودر أو ضبطت ممتلكاته، وكانت محاسنه كثيرة.

وبعد أن استقرّت الأمور للخليفة الآمر بعد موت الأفضل، أوكل منصب الوزارة إلى أبي عبدالله بن فاتك، واستمرّ بها وزارة غير مطلق الصلاحيات مدة شهرين، ثم خرج من القصر «تشريف الوزارة». ودخل القصر من باب العيد وعاد يداوم في القصر تحت نظر الخليفة وسمعه لا من مبنى مجلس الوزراء في القاهرة.

ولم يستمر أبو عبدالله بن فاتك فيها لأكثر من خمسة أيام وقرىء سجلّ الأجلّ «المأمون البطائحي» وسمح للمأمون بانتساب الأستاذين والخدم والعساكر إليه ـ المأمونية ـ.

ووضع الخليفة الآمر عدة شروط على الوزير الجديد منها: أن تعود كل أموال الجبايات والكسوات وأسمطة الأعياد إلى القصر، ولا يفرّق شيء إلا من القصر.

فوافق عليها المأمون كلّها ولكن طلب بالمقابل أن تكون الوزارة من بعده لأولاده، وأن يأخذ كتاب أمان من الخليفة بذلك، فكتب له الخليفة الآمر تعهّداً وكتاب أمان، ولكن لم يعمل بهما.

وكثرت محاولات القتل والاغتيال والتناتش بين شقّي الشعب المصري: المسلم الشيعي النزاري والمسلم الشيعي المستعلوي، فحاول المأمون ضبط الأمور، فأتى بأخت المستنصر وجمع لها الدعاة من كل البلاد في القصر، فوقفت من وراء الستار وقالت:

«إشهدوا عليّ يا جماعة، وبلّغوا عني جماعة المسلمين بأن أخي شقيقي نزاراً لم يكن له إمامة، وأنني بريئة من إمامته جاحدة لها، لاعنةٌ لمن اعتقدها، لما علمته وسمعته من والدي ووالدتي. وقد شاهدت والدي المستنصر في مرضه الذي توفي فيه، وقد أحضر المستعلي وأخذه معه في فراشه، وقبّله بين عينيه وأسّر إليه طويلاً وقد دمعت عيناه، وفي اليوم الذي انتقل والدي في ليلته (مات)، استدعى عمّتي بنت الظاهر فأسرّ إليها من بيننا، ومدّ يده إليها فقبلها وأعادها، وأشهد الله تعالى معلناً ومظهراً»[1].

وهذا الكلام، لا يؤخذ به لأن نظام انتقال الإمامة عند الشيعة الإمامية، إسماعيلية كانوا أم اثني عشرية يقضي بنقل الإمامة إلى الولد الأكبر. وربما قالت عمة الآمر ما قالته تحت ضغط إقامتها في القصر، أو لحماية الخلافة والإمامة من الضياع.

وفي سنة ٥١٨ هجرية وفي وزارة المأمون بن البطائحي مات الحسن بن الصباح الحميري، أول مُعِدّ ومنفّذ للعمليات الاستشهادية الحسينية في التاريخ الإسلامي، وقد أشار المقريزي إلى أنّ جبال عاملة كانت وحدها من بلاد بر الشام، تتبع مملكته وتنفّذ أوامره.

وفي شهر رمضان لسنة ٥١٩ هـ، قبض الخليفة الآمر على الوزير الأول المأمون بن البطائحي بتهمة مراسلة الأمير جعفر بن المستعلي برسالة يعزّيه فيها بالخليفة الآمر شقيقه، ويطلبه لمبايعته بالخلافة وبتهمة ثانية مفادها أنه أرسل إلى داعي اليمن بسكّ الدينار

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص٨٦.

ويكتب عليه: «الإمام المختار، محمد بن نزار». وبتهمة ثالثة مفادها أنّه سمَّ مبضعاً ودفعه لفصّاد الخليفة، فأعلم الفصّاد الخليفة بالمبضع. وقد صلبه الخليفة الآمر مع أخوته الخمسة سنة ٥٢٢هـ.

وصفه المقريزي فقال عنه: كان المأمون شديد المهابة في النفوس. وعنده فطنة تامة وتحرّز وبحث عن أخبار الناس وأحوالهم، حتى قيل أنّه لا يتحدّث أحدٌ من سكّان القاهرة ومصر بحديث في ليل أو نهار، إلا ويبيت خبره عند المأمون».

اتهم بتدبير مقتل الوزير الأفضل، واتهم أيضاً بأنه وراء مقتل أولاد الأفضل وأولاد أخيه الأوحد وأولاد أخيه المظفّر، وكانوا نحو مائة ذكر ما بين كبير وصغير فقتلوا جميعهم. ولم يبق منهم سوى صبي صغير نحيف الجسم هزيل البنية، عندما أراد قتله، احتقره لهزال جسمه ولم يقتله واسمه أحمد بن الأفضل، أبو علي ولقبه «كتيفات».

ومن التهم التي ألصقت به أنّه ادّعى الخلافة لنفسه، على أنّه ابن نزار ابن المستنصر، من جارية هربت من القصر وهي حامل، عندما هرب نزار إلى الإسكندرية. وحصل الخليفة الآمر على رسائل بخط يد المأمون إلى داعي اليمن الموّفق عليّ بن نجيب الدولة يطلب منه «تحقيق نسبه ودعوة الناس إلى بيعته».

ومما ذكره الخليفة الآمر عن سبب قتله المأمون بن البطائحي «إنّ أعظم ذنوبه عندي ما جرى منه بحق صور وإخراجها من يد الإسلام إلى الكفر».

ولم يعيّن الآمر وزيراً بعد المأمون بن البطائحي وبقيت الدولة بلا وزارة.

واستمرت الحال بدون وزارة من سنة ٥١٩ هـ، حتى سنة ٥٢٢ هـ، فتقدم الراهب أبو نجاح بن فنا برقعة إلى الخليفة الآمر يخبره فيها عن أخذ الكتّاب النصارى لأموال الدولة ويعده باسترجاعها كلّها إذا كُلّف بذلك. فكلّفه الخليفة الآمر باسترجاعها بعد أن أصدر له مرسوماً لقبّه فيه: الأب القديس الروحاني، أبو الآباء وسيّد الرؤوساء، مقدّم دين النصرانية سيد البطريركية، ثالث عشر الحواريين.

فتطاول مقدّم دين النصرانية على الشعب المصري «بحيث لم يبق أحد إلا وناله منه مكروه، إما من ضرب أو نهب أو أخذ مال».

ولم تطل أيام الراهب أبي نجاح، حيث انتهى على يد أحد الأستاذين المتقاعدين في القصر. وصام الخليفة الآمر ثلاثة أشهر تكفيراً عما أصاب المسلمين والمعاهدين النصارى واليهود من الشعب المصري على يد الراهب ابن فنا.

واستمر الخليفة الآمر يدير الخلافة بلا وزير حتى سنة ٥٢٤هـ، حتى قتل على يد الإسماعيلية النزارية.

وكان وزراؤه: الأفضل بن بدر الجمالي والمأمون بن البطائحي، أما الراهب أبو نجاح بن فنا فلم يكن وزيراً بالمعنى المعروف للوزارة.

وزراء الخليفة الحافظ لدين الله:

لما توفي الآمر سنة ٥٢٤ هـ، كان قد وُلد له في نفس السنة ولد سماه «الطيّب أبا القاسم وجعله ولي عهده والخليفة من بعده». لذلك عندما توفي الآمر كان ولده وخليفته من بعده لم يبلغ السنة الأولى من عمره، مما اضُطُّر القيّمون على الدعوة الإسماعيلية للبحث عن كفيل

ووصي ومستودع للخلافة، يقوم مقام الخليفة حتى يبلغ الرشد.

لما قتل النزارية الخليفة الآمر، أقدم كبار مستشاريه وغلمانه وهما العادل «بزغش»، وهزار الملك «جوامرد» على استدعاء أكبر أقارب الآمر سناً وهو «الأمير أبو الميمون عبد المجيد» فكلّفوه بإدارة شؤون الخليفة، كفيلاً ومستودعاً حتى يبلغ القاسم أبو الطيب سنّ الرشد. «فجلس المذكور كفيلاً ونعت بالحافظ لدين الله».

وكان أول مرسوم له هو تعيين هزار الملك جوامرد وزيراً أوّلاً. فما كان من رضوان بن ولخشي والعادل بزغش إلا أن أبديا معارضتهما لتقديم هزار الملك جوامرد عليهما. ورفضا هذا التعيين ولما كانوا كلّهم من صبيان الأفضل بن بدر الجمالي طرحوا تعيين ولده أحمد بن الأفضل الملقب بـ «كتيفات»، وأعلنوا التمرّد والعصيان ونصبوا خيمة خارج القصر، اقعدوا فيها كتيفات وبدأوا يهدّدون بمهاجمة القصر إذا لم يلغ مرسوم تعيين هزار الملك جوامرد وأبلغوا أستاذي القصر بقرارهم.

فدخل الأستاذون إلى الحافظ وأبلغوه ما قاله ابن شاهنشاه أحمد بن الأفضل، ومؤيّدوه، وهزار الملك واقف يستمع. وبعد جدال بينه وبين الحافظ عزل من الوزارة، «فكانت وزارته نصف يوم بغير تصرّف».

ونزعت الخلع عنه وأحيط به، ثم صار إلى مكان قتل فيه «قتلة مستورة وألقيت رأسه إلى المحاصرين للقصر، فسكنوا».

وطيف برأسه في شوارع مصر والقاهرة، واستقرّت الوزارة لأبي علي، أحمد بن الأفضل، «كتيفات».

وأول عمل عمله كتيفات، أن حاصر قصر الحافظ وأفرغه من محتوياته وأعادها كلها إلى دار الوزارة التي كان والده قد بناها في القاهرة، مستعيداً بذلك كل ثروة أبيه التي قضى الخليفة الآمر أربعين يوماً بنقلها من دار الوزارة إلى قصره.

وكان كتيفات «إمامياً متشدِّداً، فالتفّت الإمامية حوله ولعبوا به حتى أظهر المذهب الإمامي الإثني عشري، وتزايد الأمر فيه، وحسنّوا له الدعوة للقائم المنتظر (المهدي)، فضرب الدراهم باسمه ونقش عليها، «الله الصمد، الإمام محمد».

وكان يخطب بنفسه خطبة الجمعة ولكنه «كان أكثر الخلق تخلّقاً وأقلّهم علماً، كان يغلط الغلطة الفاحشة في الخطبة ولا ينكر عليه أحد».

بعد محاصرة القصر، أخذ كتيفات يحاول خلع الخليفة الحافظ، وأخذ الحافظ يدبّر له محاولة يتخلّص منه.

فما كان من كتيفات إلا أن ألقى القبض على الحافظ وسجنه في سجن القصر، وقطع الخطبة له في المساجد ومنع الآذان «بمحمد وعليّ خير البشر»، كما أسقط ذكر الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، وقد أشارت هذه القرارات حفيظة الشعب المصري فقرّروا قتله، وخاصة بعد حبسه للخليفة الحافظ.

وما أن أطلّت سنة ٥٢٦ هـ، حتى قام عشرة من صبيان الخاص، وقتلوه طعناً بالسكاكين، ثم دخلوا القصر برئاسة يانس الأرمني وفكّوا الحافظ من الأسر بعد أن أفهموه أن يانس هو الذي حرّكهم وقادهم.

خلع الحافظ على يانس الأرمني خلعة الوزارة، فارتاح وهدأت نفسه وأعاد كل ما نهبه كتيفات من القصر، ويانس الأرمني هو الوزير الرابع من الأرمن الذين حكموا مصر والثلاثة الذين سبقوه هم بدر الجمالي وابنه الأفضل وكتيفات أحمد بن الأفضل.

وما أن ارتاح يانس في الوزارة، حتى ارتد للتآمر على الخليفة الحافظ، فكان أول عمل عمله أنه بدأ يتتبّع لواء صبيان الخاص (الحرس الخاص) ويقتلهم واحداً تلو الآخر حتى فتك بهم وقتل منهم أكثر من خمسمائة نفر، وشتّت شملهم.

ثم ارتدّ إلى حاشية الخليفة فقبض على قاضي القضاة أبي الفخر صالح بن عبدالله وداعي الدعاة أبي الفتوح بن قادوس وقتلهما. ثم قتل أحد أساتذة القصر، فطلب الخليفة الحافظ من أحد أطباء القصر بتسميمه. وهكذا كان، «ويقال إنّ الحافظ توصّل إلى أن سمّ يانس في ماء المستراح» (البانيو)، فاتسع دبره وسقطت أمعاؤه فمات. وكانت وزارته تسعة أشهر.

وظهر للخليفة الآمر ولد من إحدى الجواري هرّب من القصّر في قفّة مغطاة بالسلق والكرّات فسُمّي «قفيفة» لصغر حجمه، ولكن علم به الحافظ، فقتله بعد قتل الطيب أبي القاسم.

واستقرّت حال الحافظ بعد قتل الطيب أبي القاسم و «قفيفة» والوزير يانس الأرمني. ولم يتجرّأ على تعيين وزير بعده بل «تولى بنفسه تدبير شؤون الخلافة ولم يستوزر أحداً»[1].

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، م.س. ص ٨٦.

ثم عمد الحافظ سنة ٥٢٨ هـ، إلى تكليف ولده البكر سليمان ليسدّ مكان الوزير، «ليستريح من مقاساة الوزراء وجفائهم عليه ومضايقتهم إيّاه في أوامره ونواهيه، فمات سليمان بعد شهرين»، فكلفّ بها وبولاية العهد أخاه حيدرة، فحنق ولده حسن، وكان كثير الأموال والأعوان والحاشية، وناصب أخاه ووالده العداء.

لقد حاول الحافظ التخلّص من حبائل الوزراء فوقع في حبائل الأولاد.

وقد استمرّت المناوشات بينه وبين ولده حسن وأدّت إلى هرب الحافظ وحيدرة والتواري عن الأنظار، وترك الساحة لحسن، الذي لم يترك عيّاراً أو رذيلاً أو سفيهاً من أرذال مصر والقاهرة إلا وجمعه حوله.

فبدأ حسن يلاحق ويقتل كل من يخصّ والده وأخاه حيدرة. ويقول المقريزي أنّ الحرب التي قامت بين أطراف البيت الواحد أدّت إلى قتل ما لا يقل عن خمسة آلاف جندي وتشتيت الآلاف، واعتبر هذه الحرب من أخطر المصائب التي حلّت بالدولة الفاطمية وهيّأت لزوالها.

وبدأ شرّ حسن بن الحافظ يصل لكل الأمراء والقوّاد فاجتمعوا عليه وقرروا قتله، فعلم الحافظ بذلك، فأرسل له يخبره بقرار قتله، والتقى الجمعان، فانهزم حسن وهرب إلى القصر ملتجئاً.

ولكن القوّاد الأمراء لحقوه إلى القصر وأحاطوا القصر من جميع الجهات مطالبين بقتله. فلم تساعد الحافظ قواه أن يقتله بالسيف أو بالسكين فقرّر قتله بالسم. فعمل له الطبيب اليهودي ابن قرقة سقيّة أودت بحياته. وتخلّص منه بهذه الطريقة.

وبعد مقتل حسن، سنة ٥٢٩ هـ، كلّف الحافظ بهرام الأرمني بالوزارة، وكان بهرام أرمينياً نصرانياً، بينما الوزراء الأرمن الأربعة السابقين كانوا قد تخلّوا عن النصرانية والتحقوا بالإسلام الشيعي الإمامي الإثني عشري، فاعترض القوّاد والأمراء على توزيره «لأن بهرام نصرانياً، وقالوا: لا يرضى المسلمون بهذا، ومن شرط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر في الأعياد ليزرّر عليه الستارة الحاجزة بينه وبين الناس، والقضاة نواب للوزير»[١].

فلم يدر الحافظ أذناً صاغية لاعتراضات الناس واستمرّ في تكليف بهرام الأرمني بالوزارة. فشقّ على الناس وزراته. وتطاول النصارى في أيّامه على المسلمين وقد شهد له المؤرخّون بحسن السيرة والتدبير، ولم ينكروا عليه سوى أنّه نصراني.

كان عندما يدخل الخليفة للصلاة والخطبة في الجامع يقعد في دكّان قبالة الجامع ينتظره. «وأقبل الأرمن يردون إلى القاهرة ومصر من كل جهة، حتى صار بها منهم عالم عظيم».

وبدأت المناوشات بينه وبين رضوان بن ولخشي، وكان رضوان حينها برتبة صاحب الباب.

وبدأ رضوان يتصدّى للأرمن الوافدين إلى القاهرة ويمنعهم، وأخذت العامة تؤيّده على هذه الأعمال كرهاً بالأرمن.

أما بهرام فأخذ يستكثر من أهله وأقاربه في مراكز السلطة والولايات ودواوين الدولة، وقد قيل إن حي الأرمن في القاهرة كان

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، م.س. ص ١٤٦.

يخرج منه ثلاثون ألف رام بالقوس والنشّاب «فعظم ضررهم على المسلمين، وكثر تطاولهم، واشتدّ جورهم، وتظاهروا بدين النصرانية، وأكثروا من بناء الكنائس والديارات (جمع دير)، وصار كل قائد منهم ورئيس يبني له كنيسة بجوار بيته. وتفاقم الأمر، فخاف الناس منهم أن يغيّروا الملّة الإسلامية، ويغلبوا على البلاد فيردّوها دار كفر، فتتابعوا النكاية من أهل بهرام وأقاربه».

فاستغلّ رضوان بن ولخشي هذه الحالة، خاصة بعد أن تجمّع حوله أكثر من ثلاثين ألف مقاتل، دخل بهم القاهرة ورقي المنبر يوم الجمعة وخطب بالناس «خطبة بليغة حرّضهم فيها على الجهاد في سبيل الله والاجتماع لقتال بهرام وشيعته من النصارى الأرمن»[1].

بعد الخطبة خرج رضوان بعساكره رافعاً المصاحف على رؤوس الرماح لقتال بهرام والأرمن، فهرب بهرام بمن معه من القاهرة لكثرة ما اجتمع من المصريين حول رضوان تلبية لداعي الجهاد وخوفاً على مصر من أن ترتدّ إلى دين النصرانية.

وهجم العامة على دار الوزارة في القاهرة فنهبوها. وكان هذا النهب هو أول نهب لمقر مجلس الوزراء. ثم ارتدوا إلى بيوت الأرمن وكنائسهم وديارتهم فنهبوها. وهرب بهرام إلى أسوان طمعاً بالتواصل مع نصارى دنقلة في أقصى أراضي مصر.

أما رضوان فعاد إلى القصر وخلع عليه الخليفة الحافظ خلعة الوزارة.

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، م.س. ص ١٥٦.

وأول عمل قام به رضوان، إستعادة كل الوظائف الديوانية التي استخدم فيها بهرام النصارى والأرمن، فعزل من عزل منهم وأعادها للموظفين المسلمين.

وفي سنة ٥٣٢، أفرج عن صاحب باب بهرام الأرمني، شمس الخلافة مختار، وولاه الإسكندرية وأعمالها.

وكان الخليفة الحاكم قد أمر اليهود والنصارى بارتداء ملابس تميّزهم عن المسلمين، فجددها لهم الوزير رضوان وأنشأ ابن الصيرفي منشوراً قرأ على منابر المساجد في مصر والقاهرة أمر فيه النصارى بشد الزنانير المخالفة لألوان ثيابهم وألاّ يجوزوا على معابد المسلمين راكبين ومنعوا من إرخاء الذوائب وركوب البغلات. ومُنع الواحد منهم أن ينزل عن دابته ويقودها بنفسه. كما منعهم بالتكنّى، بأبي الحسن وأبي الحسين وهكذا أسماء مقدسّة عند المسلمين.

كان الوزير رضوان بن ولخشي سنيّاً، متعصّباً لأهل السنّة، فأخذ يضايق مساعدي الخليفة إذا حضروا إليه، وأخذ يذم مذاهب الإمامية من إسماعيلية وإثني عشرية وزيدية. ثم أخذ يضايق الخليفة نفسه. ولطيشه وخفّة عقله، طرح موضوع عزل الخليفة الحافظ وبدأ يصرّح أمام الجميع: «لا هو بخليفة ولا هو بإمام، وإنما هو كفيل لغيره، وذلك الغير لم يصح». والخليفة يكتم في نفسه.

وتطوّر الكلام لدى الوزير رضوان إلى الفعل، فأحضر فقيه الإمامية الإثني عشرية ابن أبي كامل، وفقيه الزيدية أبا الطاهر بن عوف وداعي الدعاة الإسماعيلي ابن سلامة. وفاوضهم في الخلع واستخلاف شخص سمّاه لهم.

فكان جواب الإمامي الإثني عشري أنّه لا يؤمن أصلاً بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وإمامة أبنائه من بعده، فإذا قضى بخلعه من الإمامة، فيكون بذلك اعتراف بإمامته ونقض لإمامة الحجة المنتظر ورفض خلعه.

وكذلك كان رأي الزيدي. أما داعي الدعاة ابن سلامة. فقال هذه سابقة ولا يصح خلعه، لأن في خلعه إنكار لإمامة سابقيه، وأكون قد كذبت على نفسي، فغضب رضوان من الثلاثة وشتمهم بأقبح الشتائم. وبلغ الحافظ على ما جرى بينه وبين الفقهاء الثلاثة.

وكثرت النكايات والمشاحنات بين الخليفة الحافظ والوزير رضوان. فأرسل الحافظ يستدعي الوزير السابق بهرام الأرمني إلى القصر سرّاً لمشاورته في طريقة التخلّص من رضوان.

ولمّا كان عيد الفطر لسنة ٥٣٣ هـ، ركب بهرام الأرمني في موكب الخليفة و «عليه من الملابس ما لم يلبسه أحد من الوزراء» فاغتاظ رضوان وهاجم القصر، ووقف على بابه وتجرّأ على الحافظ بالسباب الشتائم القبيحة. ولما كان الإمام عند الشيعة من المقدّسات، اعتبر أهل مصر أن شتم الإمام بهذه الوقاحة إهانة للإمام ولنبيّ الإسلام، ويعتبرون الخليفة ابن بنت النبي وأهل بيته «فانتفض الناس لذلك بالقاهرة ومصر، وكثرت الأراجيف»[1].

وأرسل الخليفة أحد صبيانه برسالة إلى عليّ بن السّلار أحد

---

(١) م.س. نفسه، ص ١٥٩.

أمراء الدولة، يأمره بالتدبير على رضوان والتخلّص منه، واعداً إياه بالوزارة إذا خلّصه منه.

وهاجم علي بن السلار القاهرة ومصر وحاصر رضوان، فهرب من القاهرة مع خواصّه وأعوانه، ومنهم شاور بن مجير السعدي والتحق بعسقلان، ثم بصلخد. ومن صلخد بدأ رضوان بجمع الأعوان والعساكر، فجمعها وعاد بها إلى القاهرة، فأرسل له الحافظ قوّة مؤلّفة من خمسة عشر ألف فارس، التقيا في باب الفتوح وقامت الحرب بين الطرفين على قدم وساق انتهت بإنكسار رضوان وشاور وعادا إلى صلخد.

ولكن الحافظ أرسل له كتاب أمان مع سليم بن مصال وعاد برضوان وشاور إلى القاهرة وعفا الحافظ عنهما وأدخلهما القصر معزّزين مكرّمين.

وكلّف الحافظ سليم بن مصال بالوزارة بعد أن كان أطمع فيها العادل بن السلار، فغضب بن السلار وبدأ يعمل على طرده منها.

وكان الحافظ عاد واعتقل رضوان في سجن القصر. فاستطاع سنة ٥٤٢ هـ أن ينقب ثقباً في الحائط ويهرب منه والتحق بأنصاره في الجيزة وعاد من باب اللوق وحاصر الخليفة في قصره، فسيّر إليه الحافظ عشرة استشهاديين قتلوه وحزوّا رأسه، وحملوه إلى الخليفة، فسكنت الفتنة وهدأت الغوغاء بمقتله.

ولم يستوزر الحافظ بعده أحداً. واستمرّ يدير شؤون الخلافة من خلال كبار الموظفين ورؤوساء الدواوين وأستاذي القصر.

ومات الحافظ سنة ٥٤٤ هـ.

ملخص لوزراء الخليفة الحافظ:

١ ـ هزار الملك جوامرد.

٢ ـ أحمد بن الأفضل، أبو علي كتيفات.

٣ ـ يانس الأرمني.

٤ ـ الأمير سليمان بن الحافظ.

٥ ـ الأمير حيدرة بن الحافظ.

٦ ـ الأمير حسن بن الحافظ.

٧ ـ بهرام الأرمني.

٨ ـ رضوان بن ولخشي.

٩ ـ سليم بن مصال اللكيّ (المالكي).

وزراء الخليفة الظافر بأمر الله ابن الحافظ:

بعد أن تسلّم إسماعيل بن الحافظ مقاليد الإمامة والخلافة وهو أصغر أولاده، وكان له من العمر سبعة عشر عاماً تكنى باسم الظافر بأمر الله، «أبو المنصور»، كلّف سليم بن محمد بن مصال، بالوزارة بوصية والده الحافظ.

وكالعادة، فقد أصبحت الخلافة العوبة بيد الوزارة، فبعد تعيين ابن مصال وزيراً أول، اعترض والي البحيرة والإسكندرية عليّ بن السلاّر على هذا التعيين.

وحاول الخليفة الظافر دفع ابن مصال لقتال عليّ بن السلار ومدّه بالمال والسلاح، ولكن ابن مصال بدل من أن يهاجم عليّ بن

السلاّر، جمع حوائجه وهرب إلى الصعيد، تاركاً الوزارة والساحة السياسية والعسكرية لعليّ بن السلار.

وفي الصعيد أخذ بن مصال يجمع العربان والسودان وقبائل لواته، ليعود بها إلى القاهرة، وشرع عليّ بن السلار يحرّض ابن زوجته عباس والي الغربية وولده نصر وطلائع بن رزيك لقتال سليم بن مصال. والتقى الجمعان فقتل من الطرفين ما لا يقل عن سبعة عشر ألف قتيل، فكان في هذه الوقعة قصماً لظهر الدولة الفاطمية، وانتهت بمقتل سليم بن مصال، وعاد به عباس على رأس رمح وطيف به على قناة في شوارع القاهرة.

وخلع الخليفة الظافر على عليّ بن السلار خلعة الوزارة.

وكان ابن السلاّر سنيّ المذهب، فبدأ يشد من أزر أهل السّنة ويلحقهم في الدواوين والوظائف، ويحط من الشيعة الإمامية بكل مذاهبها.

وقدم عليه أسامة بن منقذ فاستضافه وأكرمه. وبدأت المناكفات بين ابن السلاّر وبين الخليفة، وعلم أن الخليفة يعد العدّة ليقتله بواسطة حرسه الخاص (صبيان الخاص) وكانت عدّتهم خمسمائة حارس، فحاصرهم ابن السلاّر وفتك بهم.

وولّى ابن السلار ولاية مصر لابن ابن زوجته عباس واسمه نصر، وأطلق عليه لقب «عضد الخلافة ناصر الدين»، نصر بن عباس.

وكان نصر بن عباس من مجايلة الخليفة الظافر بالعمر فتقرّب منه واختص به.

وفي سنة ٥٤٦ هـ، أقدم عليّ بن السلار على قطع الكسوات المقرّرة للناس وللموظفين وهي ست كسوات في السنة، فغمّ ذلك الأمر الأمراء وكُتّاب الدواوين وغيرهم.

وأخذ الخليفة الظافر يحرّض نصر ابن عباس على زوج جدته العادل بن السلار، واعداً إياه بتكليف والده عباس بالوزارة إذا قتل ابن السلار، فدخل عليه وهو نائم فضربه بالسيف ضربة لم تقتله، فأكمل عليه أحد أستاذي القصر وحزّ رأسه.

ففرح الظافر كثيراً بقتله وأخذ الرأس ونصبها أمام باب خزانة الرؤوس ليراها الناس، ثم أودعت الخزانة.

ووصل عباس (قاروط العادل)، إلى القاهرة، فخلع عليه الظافر خلعة الوزارة ونعته بالأفضل ركن الإسلام.

واستمر الظافر يخلو بنصر بن عباس، وكثرت الأراجيف والتشنيع على هذه الخلوة، وخاف عباس على ابنه نصر من الخليفة، كي لا يقتله كما قتل ابن السلار ونصحه، فلم ينتصح نصر. واستمر بالإختلاء بالخليفة.

ويخبرنا المقريزي أن أسامة بن منقذ صديق والده عباس حرّض الوزير وولده على قتل الخليفة فقتله سنة ٥٤٩ هـ.

وكان عدد وزراء الخليفة الظافر:

١ ـ سليم بن مصال اللكي.

٢ ـ العادل علي بن السلاّر.

٣ ـ ركن الإسلام عباس الصنهاجي.

وزراء الخليفة الفائز بنصر الله:

عند مقتل الظافر، نقلت الخلافة إلى ولده أبي القاسم عيسى، وتلقّب بالفائز بنصر الله. وكان له من العمر خمس سنوات. مما يعني أنّه سيبقى ألعوبة بيد الوزراء، والوزراء سوف يتطاحنون في سبيل مركز الوزارة.

ابتدأ الخليفة الفائز عهده والوزير عباس، وابتدأ عباس بهجوم على القصر وأخذ البيعة بالقوة للفائز وقتل كل من وصلت له يده من أقارب الخليفة الجديد.

ووصف المقريزي حالة الهجوم الذي شنّه عباس على القصر بقوله: «وكان في القصر ألف سيف مجرّدة، فشوهد أمر قبيح لم يُر أشنع منه، لما جرى فيه من البغي الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق. وأخرج عباس الفائز، فشاهد القتلى، فحصل له فزع واضطراب، وما زال مدّة خلافته يصاب بالصرع كلّ قليل»[1].

ولم تسكت أخت الخليفة الآمر، عمة الفائز على هذه المجزرة، فراسلت والي الأشمونين والبهنسا، فارس المسلمين أبا الغارات، طلائع بن رُزِّيك بالكتب، وفي طيّها شعور نساء أهل بيت النبيّ، تستصرخه وتستنجد به على الوزير عباس، فاهتاج طلائع بن رُزِّيك عندما وصلت كتب بنات فاطمة (ع) وشعورهنّ داخلها، فبدأ بجمع العربان والأجناد والأعوان.

فبلغ ذلك الوزير عباساً، فخرج من القاهرة هارباً، تاركاً ولده ناصر الدين مكانه في القاهرة. وبينما كان يعمل على خروجه من

---

(١) م.س. نفسه، ص ١٦٩.

القاهرة، أخذ العامة يقذفونه بالهواوين وقدور الطعام الحار.

وما أن وصلّت مقدمة عسكر طلائع بن رُزّيك حتى كان عباس وولده نصر فرّا هرباً، بصحبة أسامة بن منقذ الشيزري، فدخل أبو الغارات طلائع بن رزيك القاهرة بدون قتال.

وبعد دفن الخليفة الظافر، خلع الفائز أو مستشارو الفائز على طلائع بن رُزّيك خلعة الوزارة ونعت بالملك الأجل الصالح، طلائع بن رُزّيك.

وأول عمل قام به طلائع بن رزيك هو مصادرة الأمراء والأعيان وأخذ أموالهم وقتل بعضهم وتشريد البعض الآخر. وكأنّ اللعنة حلّت على كل من يركب هذا الكرسي.

ثم عمد إلى رفع شعار الإسلام الشيعي الإمامي الإثني عشري ونادى بإمامة المهدي المنتظر (ع).

ثم عمد إلى تعيين الولاة لقاء مبلغ معلوم، أي يبيع الولاية بيعاً لمتوّليها، كطريقة الأتراك العثمانيين فيما بعد. وكان لا يسمح بالولاية لأكثر من ستة أشهر.

ولم يعش الخليفة الفائز أكثر من إحدى عشرة سنة، فقد مات سنة ٥٥٥ هـ. قضى منها ست سنوات في الخلافة «ولم يلتذ لحظة ولا رأى فيها خيراً، فإنّ ما شاهده من رؤية عمّه وأهله والخدّام وهم في دمائهم، خبل عقله، وبال على كتف الوزير عباس، فسيّروه إلى أمّه، وقام مختّلاً يصرع وجدّته تكفله»[1].

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، م.س. ص ٢١٤.

وهكذا لم يعرف عهد الفائز سوى وزيرين وهما: عباس بن تميم الصنهاجي وأبو الغارات طلائع بن رزيك.

وزراء الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين:

توفي الفائز ولم يكن له ولد أو عقب يعقبه. وكيف يكون له ولد وهو لم يبلغ الحلم. لذلك عمد أبو الغارات طلائع بن رزيك إلى البحث عن أصغر أمير من أمراء العائلة الفاطمية، فوجد ابن الأمير يوسف ابن الخليفة الحافظ يصلح لهذه المهمّة ومناسباً للشروط التي وضعها، واسمه عبد الله.

فاستدعاه وكان له من العمر تسع سنوات، فأخذ بيده وأجلسه إلى جانبه في القصر، وأمر أن تحمل إليه ثياب الخلافة، فألبسه إياها وبايعه ثم بايعه الأمراء والقواد وكبار الموظفين وعامة الناس. وسماه: العاضد لدين الله.

يقول المقريزي: «واستقرّ العاضد اسماً والصالح معنى، فتمكّن وقويت حرمته. واستولى على الدولة وتمكّن منها، ونقل جميع أموال القصر إلى دار الوزارة، وأساء السيرة باحتكار الغلاّت، فوقع الغلاء وارتفعت الأسعار وأكثر من قتل أمراء الدولة»[1].

ولكن لكلّ ظالم نهاية، فقد أخذ نجم والي الصعيد، شاور بن مجير السعدي يسطع، وظهرت كفايته وبدأ يستميل الناس والرعية.

وطلب طلائع بن رزّيك من العاضد أن يقترن؛ بإبنة طلائع،

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٢٣٩.

فرفض العاضد، فأقدم الوزير على حبس الخليفة وسجنه. ولم يطلق سراحه حتى قبل العاضد، وكان يقصد الوزير بن رزّيك من وراء هذه الزيجة، أن يرزق العاضد بولد تنتقل إليه الخلافة «فيجتمع لبني رُزّيك الخلافة والملك».

وأخذ الوزير طلائع بن رُزّيك يضايق الأمراء والقوادّ والأعيان حتى ضجر منه الجميع، فأقدمت عمّة العاضد الصغرى واسمها ست القصور على ترتيب أمر اغتياله، ثم قتلته على يد بعض العبيد السودان.

ولما تُوفيّ الملك الصالح طلائع بن رُزّيك، كلّف العاضد ولده رُزّيك بن طلائع بالوزارة، فكان أول ما عمله أن أخذ بثأر أبيه مبتدءاً بست القصور، حيث خنقها بيده بواسطة منديل. ٨

ولم يهنيء الوزير الجديد رُزّيك بمركزه، فقد أعلن والي الصعيد، شاور بن مجير السعدي الخروج عن طاعته، وشهر العصيان وقرّر مهاجمة دار الوزارة في القاهرة والقضاء على الوزير رُزّيك.

فأقدم رزيك على عزل شاور من الولاية، وكان هذا القرار كافياً لجعل شاور يجمع جموعه ويهاجم القاهرة.

هرب رُزّيك من القاهرة والتجأ إلى مقدم العرب سليمان بن الفيض لصداقة قديمة تربطه بها أيام والده، فألقى سليمان بن الفيض القبض عليه، وأعاده مكبّلاً بالأصفاد إلى شاور بن مجير السعدي. وهذا دأب الدنيا ـ مع الواقف دائماً ـ فقتله شاور وصادر كلّ أملاكه، فانتهت بموته دولة آل رُزّيك.

وخلع الخليفة العاضد على المنتصر في معركة الوزارة، شاور بن مجير السعدي، وأصبح وزير مصر الأول سنة ٥٥٧ هـ.

ولم تطل أيام وزارة شاور، حيث ثار عليه صديقه ورفيقه ضرغام، فأقدم على نهب داره ودار الوزارة بعد أن ذهب إلى الشام لمقاتلة الفرنجة. ولم يستطع أن يعود فالتجأ إلى بني منصور بفاقوس.

واستصدر ضرغام مرسوم تعيينه وزيراً من الخليفة العاضد، واستولى على دار الوزارة وتلقّب بالملك المنصور.

يصفه المقريزي فيقول عنه «أنّه كان أُذُناً متخيّلاً على أصحابه، (أي يدير أذنه لكل خبر ويصدّقه). وكان إذا ظنّ بإنسان شرّاً جعل الشكّ يقيناً. وكان يستعين بإخوته ملهم وهمام وحسام، فشاركوه في الوزارة في كل شيء حتى في إعطاء الأوامر والتوقيع».

أما شاور فقد التجأ إلى نور الدين زنكي صاحب دمشق يستعين به على استعادة الوزارة في مصر. وضرغام يعمل على قتل كل أمير أو كبير يشكّ بأنه من الممكن أن يقف مع شاور إذا عاد إلى القاهرة.

وبدأت الحرب بين شاور وضرغام، وكل واحد يستعين بالشيطان على الآخر، فلم يتركا، أكراداً ولا أتراكاً ولا فرنجة إلا واستعانا بهم، فأدّت هذه الحروب إلى تدمير الدولة الفاطمية وحرق القاهرة وانقراض الدولة الفاطمية ومقتلهما كليهما، سنة ٥٦٤ هـ.

وبعد مقتل شاور بن مجير السعدي، خلع الحافظ على أسد الدين شيركوه خلعة الوزارة. فكان فيها خلعه وخلع الدولة الفاطمية من جذورها.

واستمر شيركوه في منصب الوزارة مدة ثلاثة وستين يوماً، ومات بعدها، ويقال أنّه مات مختنقاً لكثرة شرهه وأكله «اللحوم

الغليظة». «لِزَلْطِهِ» قطعة لحم كبيرة سدّت مجرى نفسه ومات.

بعد موت شيركوه، أصدر الخليفة العاضد مرسوماً يقضي بتعيين ابن أخي شيركوه في الوزارة، وهو صلاح الدين يوسف ابن نجم الدين الأيوبي وكلاهما مجرمان قتلا قتيلاً في تكريت وهربا ملتحقين بعماد الدين زنكي والد نور الدين زنكي ثم انتقلا في الخدمة من الوالد إلى الولد[1].

وبدأ صلاح الدين الأيوبّي ينفّذ مأربه في استعباد مصر والمصريين، وأخذ بمضايقة الألوية العسكرية المصرية والاستفراد بها، وأخذ يستكثر من استقدام الأكراد من الشام وكردستان وماردين.

ثم أقدم صلاح الدين على حرق أحياء العساكر المصرية فحرقها حياً حيّاً وحارة حارة وتشتت شمل العبيد والأرمن في كل المحافظات المصرية.

ولن نكرّر ما أشرنا إليه في أكثر من موقع كيف دفن صلاح الدين الأيوبي الخلافة الفاطمية وقضى عليها وشرّد المصريين واستعبدهم وأذلّهم وأخذ بيوتهم ومحلاّتهم ومزارعهم ومصانعهم وأعطاها للأكراد الغزّ من أهل جنسه وملّته.

وقطع الخطبة للخليفة العاضد ليلة موته، سنة ٥٦٩ هـ، فكان بقطعها الإعلان الرسمي بنهاية الدولة الفاطمية.

ونختزل أسماء وزراء الخليفة العاضد كالتالي:

طلائع بن رزيك. رزيك بن طلائع. شاور بن مجير السعدي.

---

(١) م.س. نفسه، ص ٢٤٤.

ضرغام وإخوته. أسد الدين شيركوه. صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب.

ويقول محقّق الجزء الثالث من كتاب اتعاظ الحنفا في مقدمة الجزء، موازناً بين وزراء هذا الجزء وخلفائه: «ويشمل هذا الجزء ـ الثالث والأخير، تفصيل أحداث واحد تسعين عاماً من العهد الفاطمي (٤٨٧ ـ ٥٦٧ هـ)، تولّى الخلافة منها ستٌّ من الخلفاء، اتّضعت مكانتهم عمن سبقهم، تاركين مركز الصدارة للوزراء الذين أصبحوا، منذ تولّي بدر الجمالي منصب الوزارة، أيام المستنصر بالله، يتحكّمون في الأمور تحكّم المستبّد، ويقضي واحدهم فيها قضاء المتسلّط المسيطر، لا يبالي برأي الخليفة ولا يقيم له وزناً، حتى يمكن القول أن هذا العصر، يعدّ بحقّ، عصر نفوذ الوزراء»[1].

ميزانية الوزارة السنوية:

ذكر المقريزي أن راتب الوزير وهو أعلى راتب في الدولة الفاطمية كان خمسة آلاف دينار شهرياً. أما مخصّصات مقرّ الوزارة وموظفيها، فقد ذكره ابن المأمون فحدّده كالتالي قائلاً: وأما ما قرّر للوزارة عيناً في الشهر، ويقبض من بيت المال، فهو ثلاثة آلاف دينار وفصّلها ابن المأمون على الوجوه التالية:

- راتب التوقيع على المعاملات ألف دينار.
- علاوة على الراتب ألف وخمسمائة دينار.

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، المقدّمة، ص ٨.

ـ مخصّصات مائة من الخدم والمرافقين خمسمائة دينار.

وهذا يخرج «كمّا يرغب في إثباته من الغلمان الركابية وغيرهم من الفرّاشين والطبّاخين».

ولها في السنة خمسون ألف دينار حصيلة ضمان بساتين بلدة دهشور وبلدة جزيرة الذهب ولها حواصل ثلاثة بساتين وهي بستان الأمير تميم وبستانان في كوم أشفين.

ويخصص لها في السنة من القمح والشعير ستّةٌ وعشرون ألف أردب قمحاً وشعيراً. وأن عدد الأغنام المخصّصة لمطابخ دار الوزارة كانت ثمانية آلاف رأس غنم. أما ما يخصّ الحيوانات والأحطاب والتوابل، «فمهما استدعاه متولّي المطابخ، يطلق له من دار أفتكين وشُؤون الأحطاب دون مسائلة»[1].

وقد تراوح وزراء الدولة الفاطمية بين الوزير المثقّف والعادل أمثال يعقوب بن كلّس وأبي محمد اليازوري والوزير بدر الجمالي، والوزير المثقّف غير العادل أمثال الأفضل بن بدر الجمالي وطلائع بن رُزّيك والوزير الرقيع أمثال رضوان بن ولخشي وعليّ بن السلاّر وشاور وضرغام وهم كثر.

أما الوزراء الذين أتوا لمركز الوزارة لا طمعاً بها بل للقضاء على الإسلام الشيعي الإمامي وعلى ذكر أهل البيت في مصر منهم الأكراد أمثال عليّ بن السلار وأسد الدين شيركوه، وصلاح الدين يوسف.

وقد حدّد المقريزي الوزارة في العهد الفاطمي بثلاثة أنواع ـ

---

(١) أخبار مصر، ابن المأمون، ص ٨٤.

وزارة أصحاب القلم وهي وزارة الوساطة ووزارة النظر ووزارة أصحاب السيف وهي وزارة الوزير الكامل الصلاحيات. وكانت وزارة الوساطة والنظر في العهود الأولى للدولة.

عدد وزراء الدولة الفاطمية:

عرفت الدولة الفاطمية منذ دخول جوهر الصقلي وحتى وفاة الخليفة العاضد عدداً من الوزراء، منهم من قضى في مركزه أكثر من عشرين سنة كبدر الجمالي شاهنشاه ومنهم من قضى فيها نصف يوم، أي قتل قبل أن يبلغ بها.

وقد بلغ عددهم كالتالي:

وزراء المعزّ: ٢ وزيران. وزراء العزيز: ٦ وزراء.

وزراء الحاكم: ٢٠ وزيراً. وزراء الظاهر: ١٠ وزراء.

وزراء المستنصر: ٢٦ وزيراً. وزراء المستعلي: ٣ وزراء.

وزراء الآمر: ٣ وزراء. وزراء الحافظ: ٨ وزراء.

وزراء الظافر: ٣ وزراء. وزراء االفائز: ٢ وزيران.

وزراء العاضد: ٦ وزراء.

٨٩ تسعة وثمانون وزيراً

منهم من وزر لأكثر من خليفة كيعقوب بن كِلّس والأفضل بن بدر الجمالي وابن أبي كدينة ومنهم من وزر لخليفة واحد كالوزراء الباقين.

الباب الثاني
مصر منارة الإسلام الشيعي الأصيل

- الإسلام الشيعي في مصر قبل الفاطميين.
- الدعوة الفاطمية أول تنظيم حزبي سري في مصر.
- التشيّع الفاطمي الإسماعيلي في دور الستر.
- الإسلام الشيعي الفاطمي في الميزان.
- السبأية أول دعوة للإلحاد في الإسلام /خرافة/ أم حقيقة.
- مظاهر الاختلاف بين السنة والشيعة.
- المذهب الإمامي الإسماعيلي وبقية المذاهب الإمامية.
- بين القاهر المعزّية والكعبة المحمّدية: إشعاع روحي متواصل.
- مصر تعلم المسلمين الشيعة طريقة الاحتفال بعاشوراء.
- الأذان الأصيل: «حيَّ على خير العمل».
- بين زواج المتعة والزنا في مجال التطبيق العملي.
- الاستشهاديون الأوائل أو «الحشاشون».
- قبور أهل البيت في مصر.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإسلام الشيعي في مصر قبل الفاطميين

إذا أردنا أن نتعمّق في أصول التشيّع الإسلامي لوجدنا أن كلمة الشيعة تطلق على أشياع وأنصار الخليفة الرابع والإمام الأول، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). وكل من انتصر لعلي على مناوئيه وشايعه أصبح من شيعته.

وبذرة التشيّع الأولى انطلقت من مخاصمة بني أمية وخليفتهم الثالث عثمان بن عفان (رض) لأنصار علي بن أبي طالب والمصريّون منهم. فما كان من المصريين إلا أن ثاروا على عثمان (رض) وقتلوه. وكان مقتل عثمان أول ثلمة في حقل الإسلام وأول افتراق للمسلمين بين شيعة وسنّة.

ويخبرنا محمد بن يحيى بن أبي بكر، أن مالك بن الأشتر وبعض المصريين قد اختلفوا مع عثمان بن عفان في أمور كثيرة، وبدأوا يحرّضون الناس عليه[1].

---

(١) راجع: التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان. م.س. ص ٥٤.

وقد أجمع أكثر الكتّاب والمؤرّخين الذين أرّخوا لحادثة مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رض)، أن المصريين هم الذين قتلوه، ومنهم من قال إنّ عبدالله بن سبأ ـ وسوف نثبت أنّه أسطورة من اختراع دعاة الفتنة ـ هو الذي دعا لعلي بن أبي طالب وحرّض على مقتل عثمان.

وفي جدل «تجاري» بين معاوية بن أبي سفيان وعمر بن العاص، ذكره نصر بن مزاحم المنقري، يطلب فيه عمرو بن العاص من معاوية أن يعطيه مصر لقاء مساندته له في حربه ضد علي ونفهم من النصّ أنّ مصر كانت علوية الهوى والميول يوم مقتل عثمان بن عفان (رض) وقد سأل عمرو بن العاص معاوية:

«ألم تعلم أن مصر مثل العراق؟، قال بلى! ولكنها تكون لك إذا كانت لي، وتكون لك إذا غلبنا علياً على العراق. وقد كان أهل مصر بعثوا بطاعتهم إلى عليّ». ويخبرنا نصر بن مزاحم أنّ معاوية رفض هذا الشرط من عمرو بن العاص، فدخل عليه عتبة بن أبي سفيان وقال له: أما ترضى أن تشتري عمراً بمصر إن هي صَفَتْ لك. فلم يجبه معاوية وطلب منه التريّث والبيات عنده الليلة للتشاور، فبات عتبة الليل ونظم هذه القصيدة وأسمعها لمعاوية[1]:

أيها المانع سيفاً لم يُهَزّ ... إنّما ملت على خَزٍّ وقِزْ
إنما أنت خروف ماثلٌ ... بين ضرعين وصوف لم يُجَزْ
أعطِ عمراً أن عمراً تاركٌ ... دينه اليوم لدنيا لم تُحَزْ

(١) وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري، تحقيق عبد السلام هارون، ط ٢ ـ مكتبة الخانجي بمصر، سنة ١٩٨١، ص ٤٠.

أعطِه مصراً وزده مثلها إنما مصر لمن عزَّ وبزْ
واترك الحرص عليها ضَلَّةً واشببْ النار لمقرور يُكَزْ
إن مصراً لعليّ أولنا يُغلبُ اليوم عليها من عَجزْ

فلما سمع معاوية قول أخيه عتبة، أرسل إلى عمرو بن العاص وأعطاها إياه».

ويخبرنا نصر بن مزاحم أن عمرو بن العاص لمّا خرج من قصر معاوية سأله ولداه: ما صنعت؟ قال: أعطانا مصر! فلما يعجبهما هذا العطاء وقالا له: وما مصر من ملك العرب فأجابهما: لا أشبع الله بطونكما إن لم تشبعكما مصر.

ويخبرنا نصر بن مزاحم أيضاً نقلاً عن لسان ابن أخي عمرو بن العاص أنه قال لعمه حين خرج مسروراً من عند معاوية: أترى ـ يا عمّاه ـ أن أهل مصر، وهم قتلة عثمان، يدفعونها إلى معاوية وعليّ حيّ؟.

وإذا عدنا إلى كتاب «الفتنة ووقعه الجمل» برواية سيف بن عمر الضبي المتوفي سنة ٢٠٠ هجرية، نجده يمّهد لوقعة الجمل برواية الفتنة الأولى في الإسلام وهي مقتل الخليفة عثمان (رض) ونجده في بداية كل مقطع أو فقرة أو فصل يبدأه بالحديث عن الثوار المصريين، وعن مواقفهم من عثمان، مما يدل على أن بداية الانقسام في الإسلام بين السنّة والشيعة بدأ من مصر وابتدأه المصريّون[1].

(١) راجع: الفتنة ووقعة الجمل، سيف بن عمر الضبيّ، ط ٧، بيروت دار النفائس، سنة ١٩٩٣، ص ص ٥٦ ـ ٥٩.

وبالعودة إلى العهد الذي أرسله الإمام عليّ إلى واليه على مصر، مالك بن الأشتر، نجد أساسيات الإسلام الأصيل الخالص من الشوائب والأكدار. وكأن الإمام علي، عليه السلام، يتنبّأ أن مصر ستكون محط رحال شيعته وأهل بيته، وستبقى على الدوام وفيّة للإسلام الأصيل ولأصحاب البيت الإسلامي المحمّدي.

وإذا كان بعض المدلّسين والوّضَاع نسب إسلام أهل البيت، في مصر، الإسلام الشيعي الأصيل إلى الرجل الخرافة عبدالله بن سبأ، فهذا في سبيل الدس على شيعة أهل البيت في مصر، فقد أخبرنا ابن عبد الحكم في كتابه «أخبار مصر وفتوحها، عن وصول الصحابي الجليل، أبي ذر الغفاري إلى مصر، ونقل ابن عبد الحكم عن أبي ذر، عن النبي ﷺ عدة أحاديث، توصي بمصر وأهلها وتمدحها وتمدح أهلها، مما يجعل من مصر نوراً مشعّاً من أنوار الإسلام الشيعي الأصيل، الذي شكّل أبو ذر أول دعاته، والذي نُفِيَ من أجله[1].

وعن رواية دخول عبدالله بن سبأ مصر، يقول الدكتور محمد كامل حسين: «ونحن نُعجب لهذه الرواية، إذ لم أجد في كتب التاريخ التي وضعها المصريون عن بلدهم وعن تراجم رجال مصر، مثل كتاب فتوح مصر، لابن عبد الحكم، وكتب الكندي، وابن الداية وابن زولاق، أو في كتب المتأخّرين الذين نقلوا عن هؤلاء المؤرّخين القدماء، ما يشير إلى وفود شخصية عبدالله بن سبأ إلى مصر، أو أن أحداً من المصريين قال بمثل هذه المقالة التي زعم الطبري أن ابن

---

(١) فتوح مصر وأخبارها، عبد الرحمن بن عبد الحكم، ط ١، مطبعة ليدن، سنة ١٩٣٠، ص ٢٨٤.

سبأ علّمها للمصريين، فلو صحّت رواية الطبري، لرأينا شيئاً من إنكار الصحابة الذين كانوا في مصر إذ ذاك لهذه الدعوى السبأيّة ومعارضتهم لها. فقصة ابن سبأ في مصر، وأنّه بثّ التشيّع بين المصريين، هي أقرب إلى الخرافات، منها إلى أي شيء آخر»[1].

ويروي لنا محمد كامل حسين أن المصريين بايعوا علياً وعادوا إلى مصر يغنّون ويرتجزون فرحاً وسروراً وفي نفس الوقت يذكّرونه أنّه إذا سار على سيرة عثمان سوف يحاربونه كما حاربوا عثمان:

خذها إليك واحذرنّ أبا الحسن

إنّا نمرّ الحرب إمرار الرسن

بالسيف إن نخمد نيران الفتن

ويحدّثنا محمد كامل حسين نقلاً عن المقريزي، عن الثورات الشيعية في مصر ضد الاضطهاد العباسي فقال: إن كتب التاريخ تذكر قصصاً عديدة عما أتاه الوالي العباسي يزيد بن عبدالله (٢٤٢ ـ ٢٥٥ هـ) من اضطهاد للشيعة، من ذلك أن ضرب جندياً عندما أقسم على شيء وُجب عليه: بحقّ الحسن والحسين، فاعتقله وأرسله إلى بغداد بسبب حلفانه اليمين عن السبطين، فأمر الخليفة بضربه مائة سوط. وحدّثنا المقريزي أيضاً عن إقدام يزيد بن عبدالله على محاصرة محمد بن علي بن الحسن بن علي زين العابدين في إحدى الحارات في مصر، فأحرق يزيد بن عبدالله الحارة، وضيّق عليه حتى اضطرّته النار أن يخرج من مخبئه، فقبض عليه.

---

(١) أدب مصر الفاطمية. م.س. ص ٧.

وفي أيام هذا الوالي، استصدر من الخليفة في بغداد منشور يقضي «بأن لا يملك علوي ضيعة ولا يركب فرساً، وأن لا يغادر الفسطاط (إقامة جبرية)، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد، ومن كانت بينه وبين أحد العلويين خصومة، قُبِلَ قول الخصم فيه وكُذِّب قول العلوي»[1].

ويحدّثنا محمد كامل حسين عن خروج بغا الأصغر ابن طباطبا العلوي على دولة أحمد بن طولون من الإسكندرية وكذلك خروج ابن الصوفي عليه أيضاً، وهو من نسل عمر بن أبي طالب، وصمدت ثورته أربع سنوات. ولكنه قتل بغا الأصغر وهرب ابن الصوفي ملتجئاً إلى مكة.

وينهى الدكتور كامل حسين مداخلته عن وضع الشيعة بمصر قبل دخول جوهر الصقلي إليها بقوله: «وهكذا كان حال الشيعة بمصر، فقد أصابهم ما أصاب غيرهم من الأقطار الإسلامية من اضطهاد العباسيين لهم ونقمتهم. وهذه الأمثلة التي أوردنا بعضها، إن دلّت على شيء، فإنّما تدل على أنّ التشيّع بدأ يدخل مصر ويقوى ويشتد، حتى أصبح الشيعة يؤثّرون في الحياة العامة بمصر ويقومون بثورات ضد الولاة». ولو لم يكن لهم الأنصار يشجعّونهم ويدعونهم لاسترجاع حقّهم المغتصب لما استطاعوا إعلان الثورة تلو الثورة.

وعندما مات كافور الأخشيدي ومرّت مصر بحالة فراغ سلطوي، لو لم يكن للشيعة شأن في الحياة المصرية، لما كاتب أهلها المعزّ الفاطمي وطالبوه بدخولها سلماً.

---

(١) راجع: أدب مصر الفاطمية. م.س. ص ١١.

الدعوة الفاطمية
أول تنظيم حزبي سرّي معاصر

عندما يحاول أحدنا أن يعطي تعريفاً للتنظيم الحزبي المعاصر، يجد أن الحزب يتألّف، من خلايا سرّية أو علنية تبدأ بالخلية الجديدة وتنتهي بقيادة الحزب. ويكون لهذا الحزب نظام داخلي، وبرنامج عمل سرّي، وقيادات دنيا، وقيادات وسطى، وقيادات مناطق وفروع في المناطق، ترتبط بالقيادة المركزية له. ويكون له تمويل وتبرّعات واشتراكات مالية سرّية، يقدّمها أعضاء الحزب وأنصاره. ويكون له برنامج فكري وتثقيفي يخدم البرنامج أو الهدف العملي.

فلنر أين كانت الدعوة الفاطمية بعقيدتها وهيكليّتها من هذا الحزب.

أصغر خليّة أو خلية الأنصار:

١ ـ **المناصر:** أو الأنصار وتتكّون من أنصار تمَّ إدخالهم جديداً في مراتب الدعوة.

٢ ـ **المكاسر:** وهو المسؤول عن خلية الأنصار الجدد وهو الذي أقنع

أفرادها بالدخول في صفوف الدعوة الإسماعيلية الفاطمية، يبلّغهم قرارات قيادة الدعوة أو الإمامة، ويجبى منهم الاشتراكات بإيصالات موقعّة إما من النقيب، أو الداعي، أو داعي الدعاة، أو الحجّة أو من الخليفة نفسه، حسب قيمتها، وكلّ ما كان الاشتراك أو التبرّع كبيراً، كلّ ما كان إيصاله من قيادة أعلى، حتى تعاد بعض الإيصالات بتوقيع وشكر من الخليفة نفسه.

كما أنّ المكاسر يعمل على تثقيف الأنصار الجدد بمبادىء الدعوة الإسماعيلية، وبتميّزها عن غيرها من الدعوات الإسلامية الشيعية، أو السنيّة. وبعد أن يصبحوا كوادر، يبدأون بشرح مواقف الدعوة والدولة في صفوف الناس، ويستقطبون مناصرين جدداً.

٣ ـ **الماذون المحدود:** وهو المسؤول عن حلقات المكاسرين والأنصار في حي أو حارة أو مدينة، وهو المسؤول المباشر عن جذب الأنصار الجدد.

٤ ـ **الماذون المطلق:** وهو المسؤول عن الماذونين في عدة أحياء أو مدن وقرى، حسب اتساع المنطقة وكثافتها السكانيّة. ومن صفاته التي تميّزه عن صلاحيات من هم أدنى منه، أنه هو الذي يبلغ الأنصار الجدد بانتقالهم من رتبة النصير في الدعوة إلى رتبة العضو العامل، حيث يأخذ عليهم العهد والميثاق.

وقد حدثّنا المقريزي عن أخذ العهد والميثاق على المنتقلين من رتبة المناصرين للدعوة إلى رتبة الماذون المكاسر فقال: «صفة العهد الذي يؤخذ على المدعو. وهو أنّ الداعي يقول لمن يأخذ عليه العهد ويحلّفه: جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه، وذمّة رسوله وأنبيائه وملائكته وكتبه ورسله، وما أخذه على النبيين من عقد وعهد

وميثاق: أنّك تستر جميع ما تسمعه وسمعته وعلمته وتعلمه، وعرفته وتعرفه، من أمري وأمر المقيم بهذا البلد لصاحب الحقّ، الإمام الذي عرفت إقراري له، ونصحي لمن عقد ذمتّه، وأمور إخوانه وأصحابه وولده وأهل بيته، المطيعين له على هذا الدين، ومخالصته له من الذكور والإناث، والصغار والكبار. فلا تظهر من ذلك شيئاً، قليلاً ولا كثيراً، ولا شيئاً يدلّ عليه، إلا ما سمحت لك أن تتكلّم به، أو أطلقه لك صاحب الأمر المقيم بهذا البلد. فتعمل في ذلك بأمرنا، ولا تتعدّاه ولا تزيد عليه. وليكن ما تعمل عليه قبل العهد وبعده، بقولك وفعلك أن: تشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، وتشهد أنّ الجنّة حقّ وأنّ النار حقّ وأنّ الموت حقّ وأنّ البعث حقّ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها. وأنّ الله يبعث من في القبور. وتقيم الصلاة لوقتها، وتؤتي الزكاة لحقّها، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت الحرام، وتجاهد في سبيل الله حقّ جهاده، على ما امر الله به ورسوله. وتوالي أولياء الله وتعادي أعداء الله. وتقوم بفرائض الله وسننه وسنن رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وعلى آله الطاهرين، ظاهراً وباطناً، وعلانية وسرّاً وجهراً. فإنّ ذلك يؤكّد هذا العهد ولا يهدمه، ويثبته ولا يزيله، ويقرّبه ولا يباعده، ويشدّه ولا يضعفه، ويوجب ذلك ولا يبطله، ويوضحه ولا يعميه. كذلك هو الظاهر والباطن، وسائر ما جاء به النبيّون من ربّهم، صلوات الله عليهم أجمعين، على الشروط المبيّنة في هذا العهد، جعلت على نفسك بذلك، فقل نعم، فيقول المدعو: نعم».

ويزيد المأذون المكاسر على حلفان اليمين وأخذ العهد شروط إفشاء سرّ الدعوة أو الحزب، يعني الطرد من الحزب أو الدعوة.

والطرد يؤدّي به لأن يكون ملعوناً مخلّداً في النار، ولكي يمحو هذه الغلطة عليه أن يحجّ إلى «بيت الله الحرام ثلاثين حجة، حجّاً واجباً ماشياً حافياً»، وكلّ ما يملك في وقت هذه الغلطة هو «صدقة على الفقراء والمساكين الذين لا رحم بينه وبينهم، وكلّ نسائه وجواريه ظهار له ومحرّمات عليه» وبعد أن يملي عليه عواقب الطرد من الحزب، ويقبل بها يقول له: قل نعم: فيقول نعم[1].

وهذا الحلفان أو العهد الذي يحلف عليه الأنصار الجدد الداخلون في الدعوة الشيعية الإسماعيلية وهو مأخوذ بنصه الكامل من الخطط، يدل دلالة كاملة لا لبس فيها ولا غموض على الإسلام الأصيل الذي كان الفاطميون الإسماعيليون يدعون له.

وقد علمنا من طيّات هذا العهد أو الحلفان أن المأذون المطلق، مطلق الصلاحيات في المدينة التي يتزعّم الدعوة فيها.

٥ ـ **الداعي المحدود:** وهو المسؤول عن كلّ المأذونين في قطر معين ويسمون القطر أو البلد «الجزيرة»، ينقل إليهم أوامر الخلافة وتوّجهاتها السياسية والدينية، ويأخذ منهم اشتراكاتهم وتبرّعاتهم ومحاضر جلساتهم المتضمّنة الأسئلة حول الأمور التي لا يستطيع المأذون المطلق الإجابة عنها، كما أنه غير مسموح له بالغوص في مسائل العقيدة الباطنية والتأويلية والفلسفية، بل عليه الإجابة على الأسئلة حسب مقتضى التفسير الظاهر والبسيط الذي يتبعّه أهل السنّة في فهمهم لما استشكل عليهم من الإسلام.

---

(١) راجع: الخطط المقريزية، الأول. م.س. ص ٣٩٦.

٦ ـ **الداعي المطلق:** ويتميّز عن الداعي المحدود بالسماح له بإقامة مجالس الدعوة التأويلية في البلد أو القطر أو الجزيرة التي يقود فيها الحزب أو الدعوة.

٧ ـ **داعي الدعاة:** وهو كبير الدعاة، ويكون وجوده في المكان الذي يتواجد فيه الإمام أو الخليفة، وله سلطة كاملة على دعاة الأقاليم والجزر في كلّ ما يختصّ بشؤون الدعوة أو الحزب من أمور مالية وفقهية وعقيدية.

٨ ـ **الحجّة:** وتكون له سلطة قاضي القضاة في البلد أو الجزيرة، فإذا اختلف الدعاة فيما بينهم يرجعون إليه «فله رتبة الحكم فيما كان حقاً أو باطلاً»(١).

٩ ـ **الباب:** وله رتبة فصل الخطاب، أي لا ردّ لحكمه حتى ولو تجاوزه الدعاة واتصلوا بالإمام أو الخليفة فالخليفة يرجع إليه في معضلات الأمور ويستشيره.

١٠ ـ **الإمام:** وهو الخليفة في نفس الوقت إذا كان الحزب أو الدعوة يحكم بلداً أو قطراً، وله رتبة الأمر والنهي، وهو معصوم، له صفات الإمام المعصوم ولا تفصله عن صفات النبي غير النبوة والوحي.

١١ ـ **الأساس:** وهو وصي النبي الذي يملك علم التأويل أو تفسير التنزيل من محكم ومتشابه، وهو الإمام عليّ بن أبي طالب (ع) وارث علوم الأولين والآخرين، وفاتح مغلق علم التأويل، الذي أورثه لذريّته من الأئمّة المعصومين عليهم صلوات الله أجمعين.

---

(١) في أدب مصر الفاطمية، محمد كامل حسين، ط ١، بيروت، دار الفكر العربي لا تاريخ، ص ٤٠.

١٢ ـ **الناطق**: وله رتبة التنزيل: وهو النبي محمد ﷺ لا يملك هذه الرتبة غيره من عناصر تراتبية الدعوة الفاطمية. وهو فقط الذي اختص بنزول الوحي والقرآن عليه. وهو الناطق الأول والأخير بلسان هذه الدعوة وهذا الحزب، من خلال الوحي الذي أنزل عليه والأحاديث القدسية الشريفة التي نقلها عنه الحَفّاظ العدول والثقاة.

وكانت الاجتماعات الحزبية تتم يومين في الأسبوع: الاثنين والخميس، تقرأ في هذه الاجتماعات مجالس الدعوة وشرح الآيات القرآنية من باطن وظاهر، وشرح علوم أهل البيت من خلال تفسير أحاديث الأئمة وشرح خطب الإمام عليّ وأدعية الإمام السجاد عليهم السلام.

وقد قال الخليفة المعَزّ لدين الله عن هذا الحزب وهذه الدعوة:

«إنّ أكثر الناس يجهلون أمرنا، ويظنّون أنّنا لا نُعْنَى إلاّ بمن شاهدناه وكان بحضرتنا. ولو كان ذلك، لكنّا قد ضيّعنا من بعد عنّا. وقد أوجب الله على جميع خلقه، ولايتنا ومعرفتنا واتّباع أمرنا، والهجرة والسعي إلينا، من قرب ومن بَعُدَ. ولكنّا للرأفة بالناس، ولما نرجوه ونحبّه من هدايتهم، قد نصبنا بكل جزيرة لهم، من يهديهم إلينا ويدلّهم علينا»[1].

ترى هل عرفت الأمم المعاصرة حزباً أكثر تنظيماً وأشد تماسكاً من هذا الحزب وهذه الدعوة؟ ولو لم تسنح الفرص للوزراء الذين كنا قد أشرنا إليهم وأدى تدخّلهم إلى تعيين الخلفاء حسب رغباتهم

---

(١) م.س. ص ٤١.

ومصالحهم، وإحلال سيوفهم محل النص الإلهي حسب شروط الإمامة، لما كانت الدعوة الفاطمية الإسماعيلية تشظّت إلى شظايا دعوات ولما استطاع الحاقدون حسرها وحصارها وهدم دولتها.

أما محمد حسين المظفّر فهو يعتبرهم من الشيعة الإثني عشرية لأنه لم يجد أي فرق في معتقدهم ومعتقد الشيعة الإثني عشرية حيث يقول:

ومنها أنهم كانوا يجعلون أيام مولد النبي وعلي والزهراء والحسنين، عليهم السلام، أعياداً ومواسم جليلة، ينفقون فيها الأموال الجسيمة، ويظهرون فيها الجذل والبشر، ويعمل الناس مثل عملهم من الإطعام وصنع الحلوى وغير ذلك من إظهار شعائر الأعياد.

ومنها، أنهم نصبوا فقهاء يعلمون الناس فقه أهل البيت، وأجروا لهم رواتب ومخصّصات سنية، وأنفقوا على المتعلّمين والحضور لاستماع الحديث الأموال الجليلة.

فبهذا ومثله جعلوا التشيع يسير في مصر ويستولي على البلاد، ويكون مذهب أهل البيت المذهب المعروف بين عامة الناس.

وإنّ المشهور بين أرباب السيرة والتاريخ ـ ولم نتحقّقه ـ أنّ الفاطميين كانوا إسماعيلية في المذهب والرأي، وصاروا على مذهب الإمامية أيام الوزير أبي علي، الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي الإمامي المذهب في دولة الحافظ لدين الله. ولما قتل الوزير عام ٥٢٦ عاد المذهب إسماعيلياً، وكيف كان، فإنّ المذهب الإمامي في دولتهم كان ينتشر ويسرع في سيره، من دون أن يجد عثرة في سبيله، أو يشاهد حاجزاً دون قصده.

ولو أردنا أن نقيم الأدلة على انتحالهم المذهب الاثني عشري لكان لنا متّسع من القول، كما أن الزعم بأنهم إسماعيليون مذهباً قد يكون له وجه من التاريخ، غير أن آثارهم في الإمامية أظهر[1].

وبقيت عقيدتهم الشيعية في دور الستر، معرّضة لطعن الحاقدين، حيث لم يصل لنا من رسائلهم أو كتبهم مباشرة مما يدلّ على إلحادهم، وأما رسائل ومواقف غيرهم من فرق الشيعة البائدة، فلا دخل لهم فيها وحتى الباحث الكبير أيمن فؤاد السيد، لم يستطع في الفصل الذي خصّصه عن العقيدة الإسماعيلية أن يسلّط الضوء على هذه العقيدة رغم إطلاعه على الكثير من المخطوطات التي لم أستطع الوصول إليها.

وقد حذّر الإمام السجّاد، علي بن الحسين، زين العابدين (ع) من خطورة التأويل إلى باطن وظاهر فقال[2]:

إنّي لأكتم من علمي جواهره ... كي لا يُرى الحقُّ جهلاً فَيُفْتَتنا
وقد تقدّم في هذا أبو حسن ... إلى الحسين وأوصى قبله الحَسَنا
يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحلّ رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وفي كلام الإمام السجاد تنبؤٌ ونبوّة، لأن الجهل والعمى دفع بعض العلماء المسلمين، أعداء تفسير الباطن والظاهر، إلى إخراج المسلمين الشيعة من الملّة الإسلامية وإلى هدر دمهم وقتلهم.

---

(١) تاريخ الشيعة، محمد حسين المظفّر، م.س. ص: ١٩١.

(٢) المهدي، صدر الدين الصدر، ط ١، بيروت، دار الزهراء، سنة ١٩٧٨، ص ١٧٢.

التشيّع الفاطمي الإسماعيلي في دور الستر من الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق حتى إمامة عبيد الله المهدي

إذا رجعنا إلى كتب التاريخ التي أرخّت للدعوة الشيعية الفاطمية الإسماعيلية، لا نجد ضالّتنا في كتب المؤرّخين المعاصرين لدور الستر، وهم: محمد بن جرير الطبري، والمسعودي في مروجه، فكلا الكتابين يشيران إلى الوقائع العسكرية ومقاتل الطالبيين، والحرب التي دارت بينهم وبين أنصارهم ودعاتهم من جهة، وبين الخلفاء العباسيين.

ولم يتحدّث المسعودي عن الإسماعيلية مباشرة بل تحدّث عن بعض الفرق التي انشقت عنها مثل القرامطة. «والظاهر أنه لم يستطع التحدّث عن معتقداتهم وعما كانوا ينادون به من مبادىء وآراء، بسبب ما كانت تقوم به الدولة العباسية من محاربتهم به من جيوش أو من دعاية. وبالرغم من تعرّضه لبعض الأخطار بسبب أحداث القرامطة، إلا أنه لم يتحدّث عنهم بما يشوّه أفكارهم، أو يحاول الرد عليهم أو تسفيه آرائهم. ومعلوماته عنهم جاءت حيادية»[1].

---

(١) منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية، هادي حسين حمود، ط ١، بغداد، دار القادسية للطباعة، سنة ١٩٨٤، ص ٢٧٦.

وقد هاجم أبو الحسن النوبختي وهو شيعي إمامي الإسماعيلية، وهو معاصر لهم واعتبرهم مع القرامطة طائفة واحدة واتهمهم بالخروج عن ملة الإسلام[1].

أما الشهرستاني صاحب كتاب الملل والنحل (٤٧٩ هـ ـ ٥٤٨هـ) فقد تحدّث عن الإسماعيلية وتدرّجها وإيمانها بالإمام القائم والمستور وبعلم الظاهر والباطن، و «قالوا: لن تخلو الأرض من إمام حي قائم، إما ظاهر مكشوف، وإما باطن مستور.. وقالوا إن الأئمه تدور أحكامهم على سبعة سبعة كأيام الأسبوع. والنقباء (الدعاة) تدور أحكامهم على اثني عشر... ومن مذهبهم أنّ من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية. وكذلك من مات ولم يكن في عنقه بيعة إمام، مات ميتة جاهلية... ولهم دعوة في كلّ زمان، ومقالة جديدة بكلّ لسان. وأشهر ألقابهم الباطنية إنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً»[2].

ولم يشر الشهرستاني إلى إلحادهم أو كفرهم أو زندقتهم مما يدلّ على اعتبارهم من قبله، من الملّة الإسلامية.

أما عبد القاهر البغدادي المتوفي سنة ٤٢٩ هجرية، فقد كان أشد قساوة في حكمه على الإسماعيلية، فقد نفى عنهم النسب الفاطمي وأتبعهم لميمون بن ديصان المعروف بالقدّاح، و «أن أصحاب التواريخ ذكروا أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد

---

(١) راجع: فرق الشيعة، أبو الحسن النوبختي، ط ٢، بيروت دار الأضواء، سنة ١٩٨٤، ص ٧٢.

(٢) الملل والنحل الأول. م.س. ص ١٩٢.

المجوس» وهو يعني به الفاطميين الإسماعيليين لأنه يشير إلى أنه خرج منهم عبيد الله بن الحسين (المهدي) بعد أن يشتمه ويسبه ويشتم أتباعه ويقول عنهم إنهم دهرية زنادقة[1].

أما علماء الشيعة المعاصرون، أمثال محمد صادق بحر العلوم وهبة الله الشهرستاني فهم يعتبرون الإسماعيلية من الفرق الإسلامية الشيعية الملتزمة بأركان الإسلام حيث يقول بحر العلوم: «الموجود من فرق الشيعة الآن: الإمامية الإثنا عشرية، والعبرة بهم وبكتبهم، وهم منتشرون في أرجاء العالم، والزيدية في اليمن وضواحيها، والإسماعيلية في الهند وغيرها. وأما الغلاة فهم عندنا كفّار»[2].

ويقول هبة الله الشهرستاني وهو شيعي اثنا عشري إمامي: «أقول إنّ الفرق المذكورة في هذا الكتاب قد انقرضت في الأكثر وبادت أبناؤها، وتتشّتت آراؤها، وطويت في سجلّ الزمان وصارت في خبر كان، ولمّا لم يبق منها اليوم إلا ثلاث: الزيدية والإسماعيلية والإمامية الاثنا عشرية، انضوى تحت ألوية هذه الفرق، جلّ أبناء الفرق الغابرة، وذابت مقالاتها (اعتقاداتها) بطبيعة الزمان، وتطوّرت بحسب مقتضيات العصور والأمصار، ثم بقيت بالرغم من تبدلّ الثقافة وتطوّر العلوم، رواسب ثقيلة من هاتيك المقالات الذائبة بفعل الحوادث. والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل»[3].

---

(١) راجع: الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي، ط ١، بيروت، دار المعرفة لا تاريخ، ص ٢٩٥ ـ ٣٠٠.

(٢) فرق الشيعة. م.س. المقدمة، ص أ.

(٣) م.س. نفسه. المقدمة، ص (حي).

ونحن لا ننكر أن تأويل الآيات والأحاديث القدسية وجعلها ظاهر وباطن، أدّى ببعض الدعاة والفلاسفة إلى الشطط والغلو مِمَّا دفع بعضهم بالخروج عن الإسلام والملّة الإسلامية، ولكن الفاطميين، الذين حكموا مصر والعالم الإسلامي، باستثناء شطحات الحاكم وما حاك الحاقدون حوله من خبريات، لم يخرجوا عن الإسلام الشيعي الجعفري الأصيل، وسوف نأخذ نصوصاً وسلوكيات لكل خليفة منهم تثبت تمسكه بالإسلام.

ولكن هذا التأويل الذي كان نقمة على المسلمين في العصور المملوكية والعثمانية أصبح نعمة في العصر الراهن، لأننا، إذا أخذنا ظاهر الآيات لما استطعنا أن نجابه أساطنة الفلسفة الأوروبية الحديثة ولا نظريات الاستنساخ والجينات وغزو النجوم والموروثات الجينية وخريطة الجينات وكلّ صرعات العولمة، الفلسفية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

الشهادة بصحة إمامة عبيد الله المهدي:

روى ثابت بن سنان صاحب تاريخ أخبار القرامطة أنّ علي بن عيسى، قائد شرطة بغداد، اعتقل رجلاً بسبب وشاية تفيد أنّه من أتباع مذهب القرامطة: وأنّه يكاتب أبا طاهر القرمطي، وكان ذلك سنة ٣١٥هـ. فأحضره وسأله؟ فأقر الرجل وقال: «ما عرفت أبا طاهر إلاّ لمّا صحّ عندي مذهبه، وأنّه حق، وأنت وصاحبك كفّار، تأخذون ما ليس لكم. ولا بدّ لله من حجة في أرضه. وإمامنا المهدي محمد بن فلان بن فلان بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد

المغرب. ولسنا كالقرامطة والإثني عشرية الذين يقولون بجهلهم أنّ لهم إماماً ينتظرونه»[1]. وانتهت المقابلة بقتل الإسماعيلي.

والأغلب أن ثابت بن سنان، هو الذي استبدل أسماء أئمة الإسماعيلية، بلفظة فلان بن فلان توخيّاً للإختصار أما باقي النص فيشير إلى أن الرجل ذكرهم كلهم بالإسم.

رأي أبي حامد الغزالي بالإسماعيلية:

أما الفيلسوف الشهير أبو حامد الغزالي، وهو من المعاصرين للدولة الفاطمية، وبالرغم من انحياز الغزالي للخليفة المنتصر بالله العباسي، فلم يخرجهم من الملة الإسلامية، بل قال عنهم ما يلي: «وأما الإسماعيلية، فهي نسبة لهم إلى أن زعيمهم محمد بن إسماعيل بن جعفر، ويزعمون أن أدوار الإمامة انتهت به. إذا كان هو السابع من محمدﷺ وأدوار الإمامة سبعة عندهم. فأكبرهم يثبتون له منصب النبوّة. وأن ذلك يستمر في نسبه وأعقابه. وقد أورد أهل المعرفة بالنسب في كتاب «الشجرة» أنّه مات ولا عقب له»[2].

الدسّ والتدليس على العقيدة الفاطمية الإسماعيلية:

وقد أصبح التدليس والدسّ على الفكر الإسلامي الشيعي الإمامي عند مؤرّخي الدولتين الأيوبية والمملوكية، سُنّة وواجب وفرض. لذلك لا نتصفّح أي كتاب من كتب مؤرّخي هاتين الدولتين، إلا ونجد أنّها

---

(١) فضائح الباطنية، أبو حامد الغزالي، ط١، القاهرة، سنة ١٩٦٤، ص١٦.

(٢) تاريخ أخبار القرامطة، ثابت بن سنان، ط١، بيروت، دار الأمانة سنة ١٩٧١.

تعج بالتفاسير والمعلومات المغرضة والخاطئة عن الإسلام الشيعي الإمامي وخاصة الإسماعيلي منه.

يقول ابن أبي الفضائل في تفسير الصلاة والزكاة من وجهة نظر المذهب الإسماعيلي الفاطمي، والصلاة والزكاة سبعة أحرف، دليل على «محمد وعلي» صلّى الله عليهما، لأنّهما سبعة أحرف. فالمعنيّ بالصلاة والزكاة ولاية محمد وعلي، فمن تولّاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة. فيوهمون على من لا يعرف لزوم الشريعة والقرآن وسنن النبيﷺ، فيقع هذا من ذلك المخدوع بموقع الإتفاق والموافقة، لأنّ مذهب الراحة والإباحة يريحهم مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله، ويبيح لهم ما حُظر عليهم من محارم الله. فإذا قبل ذلك المغرور هذا، قالوا له: قرّب قرباناً يكون لك سُلّماً ونجوى، ونسأل لك مولانا يحّط عنك الصلاة، ويضع عنك هذا الأصر، فيدفع إثني عشر ديناراً. فيقول ذلك الداعي: يا مولانا: إنّ عبدك «فلان» قد عرف الصلاة ومعانيها، فاطرح عنه الصلاة، وشع عنه هذا الأصر. وهذا نجواه إثنا عشر ديناراً. فيقول: إشهدوا إنّي قد وضعت عنه الصلاة ويقرأ له: «ويضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم»، فعند ذلك يقبل إليه أهل هذه الدعوة، يهنّئونه ويقولون له: الحمد لله الذي وضع عنك «وزرك الذي أنقض ظهرك». ثم يقول له ذلك الداعي الملعون بعد مدة: قد عرفت الصلاة وهي أول درجة. وأنا أرجو أن يبلغك الله إلى أعلى الدرجات، فاسأل وابحث، فيقول عَمَّ أسأل؟ فيقول الداعي: سل عن الخمرة والميسر اللذين نهى الله تعالى عنهما أبا بكر وعمر لمخالفتهما على عليّ وأخذهما الخلافة دونه. فأما ما يعمل من العنب والزبيب والحُنة وغير ذلك فليس بحرام، لأنّه مما أنبتت الأرض

ويتلو عليه: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق﴾، إلى آخر الآية...

ثم يقول له: ادفع النجوى تكون لكَ سلّماً ووسيلة حتى نسأل مولانا يضع عنك الصوم، فيدفع إثني عشر ديناراً، فيمضي به إليه فيقول: «يا مولانا: عبدك فلان قد عرف معنى الصوم على الحقيقة، فأبح له الأكل برمضان». ويتابع ابن أبي الفضائل دسّاً وتدليساً وتفسيراً لأهم الأمور الدينية على هواه، وينسب تفسيره إلى دعاة الإسماعيلية، فالصوم هو الصوم عن إفشاء أسرار الأئمة والطهارة طهارة القلب والجنابة موالاة الأضداد، أضداد الأئمة، والمنّي ليس ينجس «فكيف يكون نجساً وهو مبدأ خلق الإنسان!»[1].

والمضحك أن الداعي لا يطلع المنتسب الجديد للدعوة على أسرار ومعاني الأحكام الدينية إلا بعد أن يقبض منه تبرعاً للخليفة قيمته إثنا عشر ديناراً. مع العلم أن كلّ السجلات والمراسيم والكتابات التي تركها المصريون الفاطميّون لا تخرج أبداً عن مسلّمات الإسلام الشيعي الأصيل، حتى كتب فلاسفتهم ودعاتهم، رغم أنها غاصت في الماورائيات والفلسفات ولكنها لم تخرج عن أصول الإسلام، تنضح برش الذهب على الناس بدل استغفالهم و «تشليحهم».

ولكن كلّ كتابات أعدائهم، هي على شاكلة كتابات أبي الفضائل.

---

(١) كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، محمد بن مالك بن أبي الفضائل، ط١، القاهرة، مطبعة الأنوار، سنة ١٩٣٩، ص١٢.

رأي الفاطميين بالصحابة شعراً:

وقال الشاعر المصري أبو الحسن بن جبير يعبر عن الشعور الإسلامي المصري تجاه أهل البيت وصحابة النبي صلوات الله عليهم أجمعين:

أحبّ النبيّ المصطفى وابن عمّه ... عليّاً وسبطيه وفاطمة الزهرا
هم و أهل بيت أذهب الرجسَ عنهمُ ... وأطلعهم أفق الهدى أنجماً زهرا
موالاتهم فرض على كلّ مسلم ... وحبّهمو أسنى الذخائر للأخرى
وما أنا للصحب الكرام بمبغض ... فإنّي أرى البغضاء في حقّهم كفرا
همو جاهدوا في الله حقّ جهاده ... وهم نصروا دين الهدى بالظبا نصرا
عليهم سلام الله ما دام ذكرهم ... لدى الملأ الأعلى وأكرم به ذكرا

ترى؟ لو لم يستطع الإسماعيليّون الوصول إلى حكم العالم الإسلامي والبقاء في كرسي قيادته ما يناهز القرون الثلاثة، واندثروا مثلهم مثل أي فرقة إسلامية لا نسمع عنها إلاّ في كتابات عبد القاهر البغدادي والشهرستاني! هل كان الحقد يذوب بذواب هذه الفرقة؟ أم يبقى مستمرّاً باستمرارها؟.

ونجد أنفسنا مضطرّين لمراقبة العقيدة الشيعية الفاطمية الإسماعيلية من خلال الممارسة الميدانية لهذه العقيدة، عبر الخلفاء الفاطميين.

الإسلام الشيعي الفاطمي في الميزان

قال رسول الله ﷺ، عليه أفضل الصلوات: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة. وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة، وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة».

ورواه آخرون بإضافة: كلّهم إلى النار إلاّ ملّة واحدة. قالوا: يا رسول الله، وما الملّة التي تتغلّب؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي. ومنهم من رواه بأن قال على لسان النبي صلّى الله عليه وآله وسلم: «كلّها إلى النار إلا واحدة، وهي الجماعة».

وانطلاقاً من هذا الحديث أخذ مؤرّخو الإسلام يضعون شروط ومواصفات الفرقة الناجية، وبالمقابل، مواصفات الفرق الضالة.

وسنستعرض آراء الذيّن فسروا هذا الحديث وألّفوا الكتب فيه وفي الفرقة الإسلامية الناجية والملل التي خرجت عن الإسلام، أمثال عبد القاهر البغدادي، وأبي بكر الشهرستاني والحسن بن موسى النوبختي.

والفرقة الناجية هي التي أخذت تعاليم الإسلام من منابعه

وأصوله، حسب ما يقتضيه منطق التطوّر وطبّقته في حياتها اليومية، على العائلة والعشيرة والمؤسّسات والدولة.

ومنابع الإسلام وأصوله هي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. ولما كان القرآن واحداً لدى كلّ الفرق الإسلامية وطوائفها ولا مجال للتلاعب في آياته، ظهر الخلاف في تفسير هذه الآيات.

أما الحديث النبوي الشريف، فقد وضع علماء الحديث قواعد وأصول لتفريق الأحاديث المروية عن الرسول ﷺ بأسانيد صحيحة ومُتَّفَقٍ عليها، من الأحاديث الموضوعة على لسانه، لدعم وجهة نظر فلان أو الفرقة الإسلامية الفلانية.

فإذاً مصدر الاختلاف بين الفرق الإسلامية، سببه تأويل أو تفسير الآيات، حيث أوّلها وفسّرها كلّ فريق على هواه. وانطلقوا من وضع أسباب لنزول الآية تؤدّي إلى نتائج تدعم وجهة نظرهم: فأسباب النزول روتها كلّ فرقة حسب ما تقتضيه وجهة نظرها.

ونحن لن نتطرّق إلى روايات كلّ الفرق الإسلامية بل سنتحدّث عن الأسس التي بنت فرق الشيعة نظرياتها عليها، وكلها تتصل بفكر الإمام جعفر الصادق عليه السلام. والاختلاف فيما بينها جاء بعد إمامة الصادق.

كيف ترى فرق الشيعة منابع الإسلام الأصيل؟

يجيبنا على هذا السؤال السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي الموسوي في معرض ردّه على شيخ الأزهر، البشري، الذي سأله عن الأسباب التي تمنع فرق الشيعة من الأخذ عن مذاهب السنة الأربعة،

فيجيبه «أن تعبدّنا في الأصول وفي الفروع بغير المذاهب الأربعة، لم يكن لتحزّب أو لتعصّب. ولا لريب في اجتهاد أئمّة تلك المذاهب، ولا لعدم عدالتهم وأمانتهم ونزاهتهم وجلالتهم علماً وعملاً. لكن الأدلّة الشرعية... تجبرنا للأخذ بمذهب الأئمّة من أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف (مكان هبوط) الملائكة، ومهبط الوحي والتنزيل، فانقطعنا إليهم في فروع الدين وعقائده، وأصول الفقه وقواعده، ومعارف السنّة والكتاب، وعلوم الأخلاق والسلوك والآداب، وتعبّداً بسنة سيد النبيين والمرسلين. ولو سمحت لنا الأدلّة بمخالفة الأئمّة من آل محمد»، ولكننا عملنا كما عمل جمهور المسلمين «واقتفينا أثر أصحاب المذاهب»[1].

ويؤكذد السيد عبد الحسين، أنه لا مانع بتاتاً من الأخذ بفتاوى أصحاب هذه المذاهب، ويعتبرهم من خيرة علماء المسلمين، ولكن في حال عدم وجود فتوى لأي معضل أو مشكل عند الأئمة من أهل بيت النبي. ورغم أن أصحاب هذه المذاهب من أخيار المسلمين وفضلائهم لا يظنّ السيد عبد الحسين «أن أحداً يجرؤ على القول بتفضيلهم، في علم أو عمل، على أئمّتنا، وهم أئمّة العترة الطاهرة وسفن نجاة الأمة، وباب أمانها من الاختلاف في الدين، وأعلام هدايتها، وثقل رسول الله وبقيّته في أمّته».

ويؤكّد السيد عبد الحسين أن أصحاب المذاهب الأربعة لم تنتشر مذاهبهم إلا في بداية القرن الرابع الهجري، وأنّ المسلمين قبلهم كانوا

---

(١) المراجعات، السيد عبد الحسين شرف الدين ط خمسة، دار الأندلس بيروت، سنة ١٩٦٣، ص ٤٠.

يدينون بالإسلام الأصيل المأخوذ من منابعه، ولم يكن هناك لا شافعي ولا حنفي ولا مالكي ولا حنبلي ولما كان المسلمون الشيعة يدينون بالإسلام عبر فهم أهل بيته له «فأهل البيت أدرى بالذي فيه»[1].

وإذا كان جمهور المسلمين يعملون بمذاهب هؤلاء العلماء الأفاضل، فما الذي أوجبهم للابتعاد عن أصول هذا الدين؟، «وما الذي عدل بهم عن أعدال كتاب الله وثقل رسول الله، وسفينة نجاة الأمة وقادتها وبوابة أمانها؟».

ويتساءل السيد عبد الحسين؟ الإسلام، دين الكون، ودين التطوّر وليس دين الجمود، والتطوّر يقتضي الاجتهاد، فلماذا، أقفل أهل السنّة باب الاجتهاد؟ ولماذا جعل فهم الإسلام حكراً على أصحاب هذه المذاهب فقط «ومنعوا من الوصول إلى أي شيء إلا عن طريقهم، حتى كأنّ الدين الإسلامي بكتابه وسنّته وسائر بيّناته وأدلّته من أملاك أصحاب المذاهب الأربعة، ولم يبيحوا التصرّف لأي مسلم على غير رأيهم، فهل كان أصحاب هذه المذاهب من ورثة الأنبياء؟ وعلمهم علم ما كان وعلم ما سيكون وأتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين»؟.

ويؤكّد السيد عبد الحسين أن أصحاب المذاهب «كانوا كغيرهم من أعلام العلم ورعاته، وسدنته ودعاته، وحاشا أن يوصدوا بابه، أو يصدّوا عن سبيله».

ويتساءل السيد هازئاً: ما الذي أوجب أن تكون المذاهب المقبولة في الإسلام أربعة، ولماذا لا تكون خمسة أو ستّة، فسنّة التطور لا

---

(١) راجع: م.س. ص ٤٢.

تتوقف وباب الاجتهاد مفتوح، «فإن أجاز أن تكون المذاهب أربعة، فلماذا لا يجوز أن تكون خمسة، وكيف يمكن أن تكون الأربعة موافقة لاجماع المسلمين، وإذا زادت مذهباً خامساً تمزّق الاجماع؟ وتفرّق المسلمون».

فالمتعمّق في هذه النصوص يستنتج أن فرق الشيعة لها منطقها القوي في الدفاع عن وجهة نظرها ولا تستطيع بقية المذاهب أن تخرجها من الإسلام.

أما إمامة الشيخين ـ أبو بكر وعمر (رض) ـ وخروج عائشة أم المؤمنين (رض) على الخليفة الرابع في حرب الجمل، وهل هو خروج على الإسلام أم لا، فهذا لا يدخل في صميم العقيدة الدينية للإسلام، والإيمان به أو عدمه لا يخرج الإنسان من دينه، وهذه الأمور تتدرج تحت عنوان الإسلام السياسي.

ثم يؤكّد السيد عبد الحسين، أن الشيعة عملوا بتعاليم القرآن وسنّة نبيه وأقوال وصيّه، فيورد الحديث النبوي الشريف التالي: «يا أيّها الناس إنّي تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي» وينقل عن الإمام علي (ع) قوله: نحن شجرة النبوة، ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكمة، ناظرنا ومُحِبّنا ينتظر الرحمة، وعدونا، ومبغضنا ينتظر السطوة».

وينقل قول النبي ﷺ أيضاً: «ألا أن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق».

وبعد إيراد هذه الأقوال، يؤكّد السيد، أنه لا مجال للعودة في أي مشكل أو معضل أو متشابه إلا لنصائح الرسول الكريم عليه أفضل

الصلوات، وفي حال عدم وجود التفسير الواضح والساطع عند الأئمة من أهل البيت وعند أوليائهم من الفقهاء، فلا مانع للأخذ من أصحاب المذاهب الأربعة، أو رأي أي مجتهد أو عالم من علماء الإسلام.

من هذا المنطلق، يفسر علماء الشيعة كلّ الأمور التي وقع فيها الاختلاف مع جمهور السنة بأحاديث وأسانيد ومرويات مأخوذة من القرآن والسنة وتفسيرات الأئمة الاثني عشر، ويأخذون بما قرّره الأئمة وورثة علمهم من فقهاء الشيعة، وكلّها أمور تدخل في فروع الدين الإسلامي ولا تمسّ الأصول أبداً. فكلّ فرقة إسلامية من فرق الشيعة، لا تقيم الصلاة ولا تأتي الزكاة ولا تشهد بالشهادتين ولا تصوم شهر رمضان ولا تحج إلى بيت الله الحرام فقد خرجت عن الملّة، ولا علاقة لها بالإسلام.

ومن أهم الأمور الفرعية التي اختلفت فيها فرق الشيعة عن فرق الإسلام السنّي هي:

١ ـ متعة الحج إذ نهى عنها عمر.

٢ ـ متعة النساء.

٣ ـ اسقاط «حيّ على خير العمل» من الأذان وأضافوا «الصلاة خير من النوم» في آذان الصبح.

٤ ـ زواج المحلّل بعد إجراء الطلاق لفظاً باللسان ثلاثاً.

٥ ـ صلاة التراويح[1].

---

(١) هي من النوافل وليست واجباً، سنّها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) في السنة الأولى من خلافته (١٤ هجرية، وجعلها واجباً في الأول من كل شهر، ويجب أن تصلّى جماعة، في أول الليل وجعلها حكماً مبرماً، يعاقب عليها تاركها، وسميت التراويح، للاستراحة فيها بعد كل أربع ركعات.

وقد نقل البخاري عن عبد الرحمن بن عبد القاري، أن عمراً لما شاهد الناس يصلّون التراويح، سرّ جداً لالتزام الناس بأوامره وقال معترفاً أنها بدعة: «نعمت البدعة هذه»[1].

٦ ـ التكبيرات في صلاة الجنائز، وقد أجبر الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب (رض) الناس على أن تكون أربع تكبيرات.

٧ ـ الاختلاف في حصر كلّ الإرث بالبنت الوحيدة أو بالبنات عند الشيعة وإعطاء البنت أو البنات نصف الإرث عند السنة.

٨ ـ الجمع بين صلاتي الظهر والعصر، ثم المغرب والعشاء.

٩ ـ المسح على الخفّين بدل غسل الرجلين غسلاً مطلقاً، وشروط هذا المسح.

١٠ ـ دفع خمس أموال المسلم لبيت مال المسلمين إقامة للزكاة وشروطه.

١١ ـ الإيمان ببقاء الإمام الثاني عشر/ محمد بن الحسن، المهدي المنتظر (عج) على قيد الحياة وأنّه غائب لم يمت.

١٢ ـ إنكار خلافة وإمامة معاوية والخلفاء الأمويين والخلفاء العباسيين واعتبارهم مغتصبين للخلافة.

١٣ ـ الجهر بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» قبل كلّ سورة من سور القرآن الكريم.

١٤ ـ حذف كلمة آمين من الصلاة بعد سورة الفاتحة.

---

(١) النص والاجتهاد، عبد الحسين شرف الدين، ط ٤، العراق، كربلاء مؤسّسة الأعلمي، سنة ١٩٦٦، ص ٢١٣.

شروط اعتبار أي فرقة من الإسلام:

يحدّد أبو القاسم الكعبي: المسلم: «بكل شخص أقرّ بشهادتي الإسلام لفظاً وقال: «لا إله إلا الله محمّد رسول الله» فهو مؤمن حقاً وهو من أهل ملّة الإسلام، سواء كان مخلصاً فيه أو منافقاً مضمراً للكفر فيه والزندقة».

أما عبد القاهر البغدادي فيري «أن أمة الإسلام تجمع المقرّين بحدوث العالم وتوحيد صانعه وقِدمه وصفاته وعدله وحكمته ونفي التشبيه عنه، وبنبوّة محمد صلى الله عليه وسلّم، وبرسالته إلى الكافة، وبتأييد شريعته، وبأنّ كلّ ما جاء به حق، وبأنّ القرآن منبع أحكام الشريعة، وأنّ الكعبة هي القبلة التي تجب الصلاة إليها. فكلّ من أقرّ بذلك كلّه ولم يُشْبه ببدعة تؤدّي إلى الكفر فهو السنّي الموحّد»(١).

فالشروط التي وضعها البغدادي تندرج تحتها كلّ فرق الشيعة موضوع بحثنا: الإمامية والزيدية والإسماعيلية الفاطمية، فكل أتباع هذه الفرق الثلاث يؤمنون بما حدّده البغدادي. ولكن البغدادي وضع شروط الانتساب لملّة الإسلام، وانتهى بأنّ هذه الشروط تنطبق على السنّي فقط حتى ولو كان يؤمن بها فهو ليس مسلماً ما لم يكن سنّياً.

ويضيف البغدادي، «وإن كانت هذه بدعة هذا الإنسان من جنس بدع المعتزلة، أو الخوارج، أو الرافضة الإماميّة، أو الزيدية فلا تجوز

---

(١) الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي، ط ١، بيروت، دار المعرفة، لا تاريخ، ص ١٣.

الصلاة عليه ولا خلفه، ولا تحلّ ذبيحته ولا نكاحه لامرأة سنّية، ولا يحلّ للسنّي أن يتزوج المرأة منهم»[1].

فالبغدادي وغيره من كبار أئمة ومؤرّخي الإسلام السنّي، وضعوا شروط الانتساب للإسلام بنفسهم وعندما أتوا لتحديد الفرقة المسلمة من الفرقة الخارجة عن الإسلام، نسوا الشروط، واعتبروا المعتزلة خارجين عن الإسلام، رغم أن المعتزلة كانت تشكل الواجهة المثقّفة للإسلام السني المتطوّر، واعتبروا الخوارج من الخارجين أيضاً عن الملّة الإسلامية رغم أنّهم يطبّقون كلّ الشروط التي وضعوها للانتماء إلى الإسلام، وأن تسميتهم بالخوارج فليس لخروجهم عن الإسلام، بل لخروجهم عن سلطة الخليفة الرابع، علي بن أبي طالب عليه السلام. والمغرب العربي، بدءاً من ليبيا كلهم ينتسبون إلى عبدالله بن إباض الخارجي. واعتبروا الزيدية من الملاحدة، فأخرجوا اليمن كلها من الإسلام واعتبروا الرافضة الإمامية ليست من الملّة، فأخرجوا نصف المسلمين من الإسلام. رغم أن كلّ هذه الفرق تقيم الصلوات الخمس وتنطق بالشهادتين وتصوم رمضان، وتؤمن بالله وباليوم الآخر وتحجّ إلى بيت الله الحرام.

وقد شبّهت هذا الصراع بين هذه الفئة التي فرضت نفسها قيّماً على الإسلام وأهل بيته وعلى المسلمين، وبين الفرق التّي أخرجتها من الإسلام، كالصراع بين اليهود الذين أتوا من أطراف الدنيا إلى فلسطين وطردوا الفلسطنيين من بيوتهم واعتبروهم غرباء عن

---

(١) م.س. ص ١٤.

فلسطين، رغم أن الفلسطينيين، هم أصحاب الأرض والحق فأصبح اليهودي الغريب صاحب البيت وأصبح الفلسطيني غريب عن بيته. وهم يريدون من المسلمين ترك أهل بيت رسول الله وفتاواهم ورؤيتهم للإسلام، واتباع أصحاب المذاهب الأربعة وفتاوى ابن تيميّة ومحمد بن عبد الوهاب، وكلّ من سياتي على شاكلتهم في القرون المقبلة.

أما الشهرستاني فقد حدّد الإسلام بنقله الخبر المعروف في دعوة جبريل عليه السلام حيث جاء على صورة رجل أعرابي، وجلس حتى ألصق ركبته بركبة النبي صلّى الله عليه وسلم وسأل الرسول ﷺ: «يا رسول الله، ما الإسلام؟» فقال: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأنّي رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت»[1]. فإذا أخذنا هذا التعريف الذي نقله الشهرستاني عن النبي ﷺ للإسلام، نجد أن الإمامية والزيدية والإسماعيلية الفاطمية، لم تخرج عن أطر هذا التعريف. أما الفرق التي شطحت بأفكارها وشذّت عن الإسلام كالقرامطة والنزارية والدروز والبهرة (بقايا الإسماعيليين بعد الدولة الفاطمية، فلا تندرج تحت إطار تعريف النبي ﷺ للإسلام. فهذه الفرق عطلّت الصلاة، وتوقّفت عن الصوم وهذان الركنان يعتبران من أهم أركان الإسلام الخمسة، رغم أنها تؤمن بالله وباليوم الآخر وتنطق الشهادتين وبعضها يحجّ إلى بيت الله الحرام

(١) الملل والنحل، الشهرستاني، الجزء الأول، بيروت دار المعرفة، لا تاريخ، ص ٤٠.

كالبهرة والنزارية.

فالنزارية والبهرة اعتبروا أن علياً فيه شيء من روح الله، وهذا كفر، كما أن الشيعة الإسماعيليين الموحدين الدروز رأوا أنّ الروح الإلهية تجلّت في جسم الحاكم بأمر الله الفاطمي وقالوا إنّ الحاكم وهو باب المعرفة، وضع عنهم كلّ التكليفات الشرعية، من صلاة وصوم والحج إلى البيت العتيق.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التشيّع الفاطمي الإسماعيلي
قبل عبيد الله المهدي وبعده

لقد مرّ التشيّع الفاطمي الإسماعيلي بعدة أدوار:

الدور الأول: وهو المنابع والأصول، ويبدأ من إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام حتى وفاة إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام. وهو الدور الذي يشترك فيه مع الشيعة الإمامية الإثني عشرية والزيدية.

الدور الثاني: وهو دور الأئمة المستورين من محمد بن إسماعيل بن جعفر، حتى وصول عبيد الله المهدي إلى المغرب وإعلان الإمامة والخلافة معاً.

الدور الثالث: وهو الإمامة والخلافة قبل الانتقال إلى القاهرة.

الدور الرابع: وهو حكم العالم الإسلامي وتطبيق الفكر الشيعي الفاطمي الإسماعيلي على المؤسسات والمجتمع والدولة وسنبحث في نتائج هذا التطبيق.

الدور الخامس: نهاية الدولة الفاطمية أو دور الشتات.

العقيدة الإسماعيلية الفاطمية:

لكي نثبت انتساب أي فرقة من الفرق إلى الإسلام أو إلى الالحاد، علينا أن نراقب شعائرها ورسومها وأنظمتها ومدوّناتها الدينية، فإذا كانت هذه الشعائر والرسوم والنظم تتّبع ما اتبعه المسلمون في تنفيذها، وإذا كانت مدوّناتهم الدينية والفكرية والسياسية لا تخرج عن الإطار الذي حدّده الرسول الكريم وأئمة المسلمين لانتساب أي فرقة إلى ملّة الإسلام، يكون الفاطميّون مسلمون من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

أما إذا كانت تخالف تعاليم القرآن وسنّة نبيه صلى الله عليه وآله وفتاوى الأئمة من أهل بيت الرسول، فهم ملاحدة باطنية زنادقة، كما قال عنهم ابن تيمية دون أن يطّلع على رسومهم ونظمهم ومدوّناتهم، بل أخذ مدوّنات بعض الذين شطوّا منهم بعد انهيار الدولة الفاطمية وقبلها، وحكم على الكل بجريرة الجزء أو البعض وكان أجدر وأجدى أن يستثنى حكمه الفاطميين والشيعة الإمامية والشيعة الزيدية لأنّهم، كما أشرنا، لم يعطلّوا شعائر الإسلام وأركانه الخمسة، بل اختلفوا مع جمهور السنة في فروع الإسلام، لا في أصوله.

لم تكن الدعوة الإسماعيلية الفاطمية في دور أئمّة الستر أو دور خلفاء المغرب، أو دور خلفاء مصر، دعوة سرّية من ناحية العقيدة والفكر، بل كانت سرية فقط من ناحية التنظيم، فعقائدهم كانت معروفة من الأنصار والأخصام، وهم كانوا يدعون للإسلام الشيعي الأصيل، وإن كانوا قد اختلفوا مع الزيدية في تسمية الإمام، أو مع

الاثني عشرية في شخصه، ولكنهم لم يخرجوا عن التفسير الشيعي الجعفري لكل العقائد والمراسم والفتاوى الإسلامية الشيعية. وقد كانت كتبهم التي حمّلوها أفكارهم وعقائدهم في متداول كلّ الناس، وبالأخص كتب القاضي النعمان، محمد بن حيّون المغربي وكتب أحمد بن إبراهيم النيسابوري، وأبي يعقوب السجستاني، وأحمد حميد الدين الكرماني، وداعي الدعاة، عماد الدين إدريس القرشي وداعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي. فهذه الكتب وكتب غيرهم كجعفر بن منصور اليمن كلها تؤكّد على إيمانهم بأركان الإسلام الخمسة وإقامتهم لشعائره.

أركان الإسلام عند الشيعة الإسماعيلية الفاطمية:

وسنبدأ بأخذ نصوص من هذه الكتب ومطابقتها على أركان الإسلام الخمسة، علّنا نحدّد عقيدتهم الإسلامية، أو الإلحادية! يقول القاضي النعمان محمد بن حيّون المغربي واضع أسس ومرتكزات المذهب الإسماعيلي الفاطمي، معرّفاً الإيمان: «والإيمان شهادة أن لا إلّه إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمّداً عبده ورسوله، وأن الجنّة حقّ، والنار حقّ، والبعث حقّ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، والتصديق بأنبياء الله ورسله والأئمة، ومعرفة إمام الزمان والتصديق به والتسليم لأمره والعمل بما فرض الله تعالى على عباده والعمل به، والانتهاء عمّا نهى عنه، وطاعة الإمام والقبول منه»[1].

---

(١) دعائم الإسلام، القاضي النعمان، ج ١، ط ٢، مصر، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٦٥، ص ٤.

طريقة إقامة الصلاة:

وعن إقامة الصلاة، قال القاضي النعمان: «عن أبي جعفر محمد بن عليّ عليه السلام (الباقر)، أنّه سُئل عما فرض الله عزّ وجلّ من الصلوات، فقال: فرض خمس صلوات في الليل والنهار وسمّاها في كتابه. قيل له: سمّاها؟ قال نعم. قال الله عز وجلّ:

ـ ﴿أقم الصلاة لدِلُوك الشمس إلى غسق الليل﴾ (المغرب والعشاء) وقال: ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ (الصبح) وقال: ﴿أقم الصلاة طرفي النهار﴾ وطرفاه المغرب والغداة (الظهر والعصر).

ونقل النعمان عن علي عليه السلام قوله: أوصيكم بالصلاة التي هي عمود الدين وقِوام الإسلام، فلا تغفلوا عنها[1].

صوم رمضان:

وعن صوم شهر رمضان قال ابن حيّون: عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: صوم شهر رمضان فرض في كلّ عام، وأوفى ما يتمّ به فرض صومه، العزيمة من طلب المؤمن على صومه بنيّة صادقة، وترك الأكل والشرب والنكاح في نهاره كلّه، وأن يجمع في صومه التوقّي لجميع جوارحه، وكفّها عن محارم الله، متقرّباً بذلك كلّه إليه، فإذا فعل ذلك، كان مؤدّياً لفرضه»[2].

وعن فريضة الحج إلى بيت الله الحرام: قال واضع أسس المذهب

---

(١) راجع: م.س. نفسه، ص ١٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٨.

الشيعي الإسماعيلي الفاطمي:

«عن جعفر بن محمد ﷺ: أنّه سُئل عن رجل يسوّف الحجّ، لا يمنعه منه إلا تجارة تشغله أو دَيْنٌ له. فقال: لا عُذْرَ له. ليس ينبغي له أن يُسوِّفَ الحجَّ فإن مات، فقد ترك شريعة من شرائع الإسلام.

ونقل عن الصادق ﷺ أيضاً: أنه قال: من مات ولم يحج حجّة الإسلام، ولم تمنعه من ذلك حاجة تُجحفُ به، أو مرض لا يطيق فيه الحج، أو سلطان يمنعه، مات يهودياً أو نصرانياً[1].

حكم الملاحدة عند القاضي النعمان:

وتحدث القاضي النعمان عن حكم الزنادقة والملاحدة والمرتدين عن الإسلام فقال: عن علي ﷺ أنه أُتي بزنادقة من البصرة، فعرض عليهم الإسلام واستتابهم، فأبوا، فحفر لهم حفيراً وخاطبهم قائلاً: والله لأشبعنّكم اليوم شحماً ولحماً. ثم أمر بهم، فضُربت أعناقهم، ثم رماهم في الحفير، ثم أضرم عليهم النار فأحرقهم. وكذلك كان يفعل بالمرتدّ ومن بدّل دينه. وأمر بإحراق نصراني، أسلم، ثم ارتدّ. فبذل أهل النصراني في جثّته مائة ألف درهم، فأبى عليهم، فأمر به، فأحرق بالنار. وقال ﷺ: لأكون عوناً للشيطان عليهم. ولست ممن يبيع جثّة كافر»[2].

وكانّ القاضي النعمان تنبّأ بإقدام الحاقدين والموتورين من مؤرّخي الدولتين الكردية والتركية على اتهام فرق الشيعة المقيمة لأركان الإسلام بالإلحاد والزندقة، فقد نسي هؤلاء المؤرخوّن أركان

---

(١) م.س. ص ٢٨٨.

(٢) م.س. ص ٤٨٢.

الإسلام الخمسة وحصروا الإلحاد والكفر والزندقة فقط ببيعة الشيخين (رض) والاعتراف بفضائل عائشة أم المؤمنين (رض). واعتبروا كلّ من لا يقبل بيعة الشيخين ولا يعترف بفضائل أم المؤمنين على الإسلام، كافراً زنديقاً ملحداً مرتداً عن الإسلام والملة الإسلامية، ووجب قتله.

ويروي القاضي النعمان «عن أهل البيت صلوات الله عليهم، أن الزنديق يستتاب ويعرض عليه الإسلام ثلاثة أيام فإن تاب وإلا قتل. وإذا ارتدت المرأة لم تقتل، ولكن تحبس حتى تموت»[1].

وفي مقدمة كتاب اختلاف أصول المذاهب يقول القاضي النعمان: «الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده محمد، البشير النذير، وجعله، كما قال عزّ وجلّ، شفاء لما في الصدور، ونوراً وضياءً للمؤمنين، وتبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة، وبشرى للمؤمنين. وصلّى الله على محمد خاتم النبيين، وسيّد المرسلين، وعلى الأئمة من ذرّيته الأبرار الطاهرين».

ويدخل النعمان في صلب موضوع الكتاب فيؤكّد «أنّ أهل القبلة بعد اتفاقهم على ظاهر نصّ القرآن، وتصديق الرسول، قد اختلفوا في الفتوى في كثير من الفروع وفي بعض الأصول»[2].

وهذا التقديم لا يخرج عن أدبيات الإسلام والمسلمين وقد أشار النعمان في النصّ إلى الأسباب التي أدت إلى الخلاف والاختلاف بين

---

(١) كتاب الاقتصار، القاضي النعمان، ط ١، بيروت، دار الأضواء سنة ١٩٩٦، ص ١١١.

(٢) اختلاف أصول المذاهب، القاضي النعمان، ط ١، بيروت، دار الأندلس، لا تاريخ، ص ٢٨.

الإسلام والمذاهب الإسلامية، وحصرها في وجود تفسيرين للآيات القرآنية، تفسير ظاهر بسيط، وتأويل باطن لا يقدر على تفسيره إلا الأئمّة من أهل البيت والراسخون في العلم. ومن هنا بدأ الاختلاف.

يقول الباحث المعاصر فيليب حتي عن الشيعة الزيدية والإثني عشرية[1]:

إن فرق النصيرية والحشاشين والدروز والقرامطة وغيرها من الفرق الإسماعيلية هي في نظر الشيعة نفسها (أي الإثني عشرية التي تؤلف أكثرية الشيعة) من الغلاة وذلك لأنّها تغضّ من ألوهية الله وتتغاضى عن أنّ محمداً هو آخر النبيين.

وعلى نقيض هؤلاء، الزيدية في اليمن، وهم أتباع زيد (حفيد الحسين) الذي يحسبونه مؤسّس فرقتهم فهم أقرب الفرق الشيعية إلى أهل السنّة وأكثرها تساهلاً من وجوه كثيرة. وبين الطرفين الغلاة من ناحية، والزيدية من ناحية أخرى، تقع الإثنا عشرية فهي درجة وسطى بين فرق الشيعة.

رأي القاضي النعمان بالأئمة:

يرى القاضي النعمان «إن الأئمّة صلوات الله عليهم، فوق الخلق بما لا يدرك به علمٌ، والذي يجب لهم، أعظم وأجلّ من أن يدرك بعلم وعقل. وما عسى أنّه ذُكر وأُلّف في تعظيم ملوك الدنيا وآداب أهلها، فأولياء الله أحقّ به وهو أقل ما يجب لهم»[2].

---

(١) تاريخ العرب، فيليب حتى، ط٥، بيروت دار غندور، سنة ١٩٧٤، ص٥٢٣.

(٢) كتاب الهمة في إتباع آداب الأئمّة، القاضي النعمان، ط ١، بيروت دار الاضواء، سنة ١٩٩٦، ص ٨.

وقد اتهم المؤرّخون الشيعة بأنهم يدّعون أنّ ائمّتهم تملك علم الغيب، وأنّهم يدّعون الرسالة والنبوة، فيردّ على هؤلاء المؤرّخين بترديد قول للمعزّ الفاطمي الذي قال: «نحن عباد من عباد الله مخلوقون مربوبون، لا علم لنا إلا ما علّمنا وصار إلينا عن نبيّه ـ جدّنا محمد ﷺ، مما أودعه الله إيّاه، وأورثناه ممن بعده وأودعناه. لا نحيط من علمه إلا بما شاء، ولا من غيبه إلا ما اطلع عليه منا من ارتضاه كيف أحبّ وشاء. لا ندّعي النبوة والرسالة، بل نحن المتحفّظون على الإمامة. حلالنا من كتاب الله وحرامنا منه. من عرفنا فقد عرف الله. ومن جهلنا فقد جهله. نحن الدّالون بحكمته عليه، والقائمون بأمره على عباده، نحن دون ما يقول الغالون، وفوق ما يظن الجاهلون»[1].

وهذا القول للإمام المعزّ، إشارة واضحة ردّت على المتخرّصين. ومثله كمثل الضيف الثقيل الدم الذي يدخل إلى البيت ويعامل أصحابه كأنّه صاحب البيت، فالمعزّ الفاطمي هو واحد من أصحاب هذا البيت الإسلامي العريق، ويأتيه المتخرصّون ينزلون ضيوفاً عليه وعلى أهل بيته ويحددّون من هو المسلم ومن هو الملحد والزنديق.

في مقدمة كتاب افتتاح الدعوة، يقول القاضي النعمان: «الحمد لله مؤيّد الحق، وناصر أهله، ودافع الباطل ومذلّ حزبه. القائل وهو أصدق القائلين: «إلا أن حزب الله هم المفلحون» و «أن جندنا لهم الغالبون» و «أن الأرض يرثها عبادي الصالحون». الذي ختم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم نبوّة النبيين، وبرسالته رسالة المرسلين،

---

(١) المجالس والمسايرات، القاضي النعمان، ط ١، بيروت، دار المنتظر سنة ١٩٩٦، ص ٥٢٣.

وأبقى الإمامة في ذرّيته وعقبه إلى يوم الدين، إكراماً له وإعزازاً لدينه. وتكفّل لأهله بالغلبة والتمكين والتأييد والإعزاز، والتحصين. ولم يُخلِ الأرض من إمام فيها للأمّة وقائل بالحقّ وقائم بالحجّة، وإن تغلّب فيه المتغلّبون»[1].

وهذا النص، يعتبر من أساسيّات الإسلام الشيعي الجعفري الأصيل، إسلام الرسول الكريم وأهل بيته. هذا الإسلام الذي لن يسمح للدخلاء بتحديد شروطه وأصوله، فأهل البيت أدرى بالذي فيه. والشجرة الطيبة لا تطرح إلا الثمر الطيّب والرائحة العطرة. أما الشجرة الملعونة فهي كخضراء الدمن لا تزهو ولا تزهر إلا في المزابل والروائح الكريهة وجور المراحيض، فشتّان ما بين الشجرة الطيبة وخضراء الدمن.

وقد نظم واضع أسس المذهب الشيعي الفاطمي الإسماعيلي أرجوزة سمّاها الأرجوزة المختارة، ضمنّها كلّ مبادىء الدعوة الفاطمية الإسماعيلية. بدأ القاضي النعمان أرجوزته بقوله[2]:

في صفات الله:

الحمد لله بديع ما خلق ... عن غير تمثيل على شيء سبق
لم يتخذ صاحبةً ولا ولد ... ولم يكن جلَّ له كُفواً أحد
ولا له من خلقه وزير ... ولا شريك له ولا ظهير
فهو إله صمد معبود ... مُوحّد مُعظّم محمود

---

(١) كتاب افتتاح الدعوة، القاضي النعمان، ط ١، بيروت، دار الأضواء سنة ١٩٩٦، ص ١٥.

(٢) الأرجوزة المختارة، القاضي النعمان بن حيّون، ط ١، بيروت، دار الأضواء، سنة ١٩٩٩، ص ١٠.

في صفات الرسول الكريم والأئمة من أهل بيته:

والحمد لله الذي قد انتجب ... مُحمّداً من خلقه لمّا انتخب
فخصّه بالوحي والنبوة ... وخصّ بالإمرة والأخوّة
من بعده أبا الحسين والحسن ... فسلّم الأمر إليه إذ ظعن
فاختصّهم بالفضل والكرامة ... وجعل الحجّة والإمامة
فيهم، فلم تزل عليهم تقتصر ... حتى انتهت إلى الإمام المنتظر

في صفات المهدي المنتظر:

إلى الذي قد جاءت الرواية ... بوصفه والنعت والحكاية
عن النبيّ حين قال المهدي ... يقوم بعد برهة من بعدي
أشبه من ترونه بي خلقاً ... وسيرة وسنّة وخُلقا
فيملأ الأرض التي قد دُحيت ... عدلاً وقسطاً مثل ما قد ملئت
جوراً وظلماً ذالكم من عترتي ... سمّي باسمي وتكنّى كنيتي

في ضرورة قيام الإمام الحجة أو وليّ الأمر في كلّ عصر:

أجْمَعَ من يُعْزَى إلى الإسلامِ ... بأنّه لا بُدَّ من إمامِ
يجمع إلفَةَ الجميعِ منهم ... ويدفع الأعداءَ طُرّاً عنهم
ويُنفذ الأحكامَ للخصومِ ... ويقمع الظالِمَ للمظلومِ
وَهْوَ يُقيم الحجَّ والحدودا ... ويُنصب الجهادَ والجنودا
ويُصلح السُبُلَ والبلادا ... ويقطع البِدَعَ والفسادا
ويقسم الفَيْءَ على المُقاتلَةْ ... والصدقاتِ في الوجوهِ الكامِلَة
وَهْوَ يُقِيمُ لهمُ الصّلاتَا ... ويقبض الجُزْيَةَ والزّكاتا
وكلّما إليه قد يحتاجوا ... ولو أضاعوا أمْرَهُ لَمَاجُوا

وعُطِّلَتْ معالِمُ الأحكامِ ... ونَزَلَ المكروهُ بالإسلامِ
وأهْلَكَ المُستضعَفَ القويُّ ... ولَمْ يكن للمسلمين فَيُّ
وارتكب الفروجَ مُسْتَحِلُّها ... غَصْباً إذا ضَعُفَ عنها أهلها
فانقلبوا الذاك جاهِليَّة ... وتركوا الشرائعَ النَّبَويَّة
لو كان هذا، وأَبَاهُ اللَّهُ ... بل حاطَ دِيْنَهُ الذي ارتضاهُ
بقائمٍ يقوم كلَّ عَصَرِ ... يعني بذاك من وُلاةِ الأمْرِ
فلو أطاعوا أمْرهَم في وقتهم ... لأكَلُوا من فَوْقِهم وتَحْتِهم
لكنّهم عصوهم ونكبّوا ... إلى ولاة دونهم تغلّبوا
وأذهبوا دينهم فزالا ... وانقلبوا لغيّهم ضلالا
إذ خالفوا المهيمن العليا ... واتخذوا من دونه وليا

في صفات الإمام العادل:

أجمع أصحابُ النُّهَى والطيشِ ... أنّ الإمامَ العَدْلَ من قريشِ
وأنّه لا بُدَّ فيما وصفوا ... من نَصْبِهِ ضرورةً، واختلفوا
في نَعْتِهِ ووَصْفِهِ أفْراقا ... أربعةً، وافترقوا افتِراقا
كلُّ فريقٍ، قيل، للأهواءِ ... عِدّةُ أفراقٍ على الآراءِ
يطول ما يقوله فروعُها ... لو قلتُ ما قد قاله جميعُها
وفي الذي أذكرهُ في الوَصْفِ ... من أصْلِ كلِّ فرقةٍ ما يكفي
حتّى إذا فرغتُ من جميعهم ... رجعتُ في الشيعة مع فروعِهم
من بعد أنْ أرُدَّ في مقالي ... على جميع فِرَقِ الضلالِ
ثم أعودَ بعدُ في أصحابي ... فأُثبِتَ الحقَّ على الصوابِ
أوّلُهم طائفةٌ تشيّعوا ... وسوفَ أحْكِي كيف قد تفرّعوا
ثمّ الخوارج الذين خرجوا ... على جميع الناس إذْ تحرّجوا

ثـمَّ الـذيـن ذُكِـروا بـالإرْجـا ... قـال بـه جـمـيـعُـهـم واحـتـجَّـا
وفـرقـةٌ بـانَـتْ بـالاعـتـزالِ ... تُـدْعـى بـذاك الإسـم لا تُـبـالـي
فـهـذه الأفـراقُ إذْ تـفـرَّقَـتْ ... لـم تَـعْـدُ مـا قـالـت ولا مـا أصَّـلَـتْ
فـي وَصْـفِ مـن يـقـوم بـالإمـامَـةْ ... جـمـيـعَ مـن وَصَـفَـهُ إذْ رامَـهْ
وذِكْـرُ مـن وافَـقَـهـم مُـعـاقـدَةْ ... يـطـول وَهْـوَ لـيـس فـيـه فـائـدَةْ

في صفات الإمام عند فرق الشيعة:

جـمـاعُ أصْـلِ مـا تـقـول الـشـيـعَـةْ ... فـي صـفـة الـقـائـمِ بـالـشـريـعَـةْ
بـأنّـهُ فـي صـفـة الـرسـولِ ... ولـيـس لـلـرسـول مـن عـديـلِ
لـكـنّـه أقْـدَمُـهـم إسـلامـاً ... يـكـون بـعـد الـمـصـطـفـى إنْ قـامـا
أعْـلَـمَـهـم بـمـا يـراد عِـلْـمـا ... وأعـظـمَ الـنـاسِ تُـقَـى وحِـلـمـا
وورَعـاً وعِـفّـةً وسـابِـقَـةْ ... ونِـيَّـةً فـي الـصـالـحـات صَـادِقَـةْ
وأكـثـرَ الأمّـةِ فـي الـجـهـادِ ... عَـنًـى وفـي الإنـفـاق والإعـدادِ
أقْـرَبَـهـم مـن الـنـبـيِّ قُـرْبَـا ... وطـاعـةً لأمـرِه وحُـبّـا
وأزْهَـدَ الـنـاسِ وأعْـلاهـم تُـقـى ... وأحـسـنَ الـنـاسِ رُواً وخُـلُـقـا
هـذا الـذي قـد أصّـلـوا فـي صـفـتـهْ ... وسـوف أحْـكـي بـعـدُ فـي مـعـرفـتـهْ
عـنـد فـروعِ قَـوْلِـهـم مـا ذكـروا ... عـلـى الـذي قـد وصـفـوا وخـبّـروا
والـقـولُ فـيـه إنْ تُـرِدْ تـمـامَـهْ ... قـلـت بـأنّ الـمـصـطـفـى أقـامَـهْ
وكـان هـذا فـيـه كَـيْـلاَ يَـشْـتَـبِـهْ ... مـن طَـلَـبَ الـقِـيـامَ فـي ذلـك بِـهْ
ولَـيَـعْـلَـمَ الـمـاضـي ويـدري الـبـاقـي ... بـأنّـه قُـدْمَ لاسـتـحـقـاقِ
ولـم يـكـن يُـقـيـمـه الـرسـولُ ... حـتّـى أتـى بـأمْـرِهِ جـبـريـلُ

وعن قيام طلحة والزبير بتحريض عائشة على الإمام علي، بينما

نساؤهم بقيت في خدورها يقول:

فخرجا نحو طريق مكّة ... وفارقاه واستحلاّ تَرْكَه
ونَكَثَا ببيعته وكانا ... فيمن على عثمان قد أعانا
وكان فيمن سرَّهُ ما لحقه ... أيضاً حُمَيّرا ومضت منطلقه[1]

ويتحدّث عن ابن مُنبِّه عامل عثمان على اليمن الذي أهدى عائشة الجمل ـ عسكر ـ:

وكان عاملاً لهم على اليمن ... وخان فيمن خان منهم وافتتن
وكان صهراً للزبير، زوجتهُ ... بنت الزبير فانتهت حميّته
إن سار، قالوا مع أبيها وانقلب ... وكان أيضاً صهره أبو لهب
وهو الذي أتى حُمَيّرا بالجمل ... وكان قد جهَّز، قالوا، وحَمَل

وبعد أن شرح اجتماعهم وافتراقهم وخروجهم يقول:

في ذاك ثم استعملوا ضرب الحيل ... فنصّبوا أمَّهم على جَمَل
وقصدوا بها لأهل البصره ... فيا لها مصيبةٌ وحسره
لكشف حرمة النبيّ المصطفى ... وهتكهم من ستره ما انكشفا
لم يحفظوا نبيّهم في حرمته ... ولا رعوا ذمامه في زوجته
وأشمتوا بهتكها الأعادي ... وما على النساء من جهاد

ويتساءل النعمان: إن كان طلحة والزبير قد زعما أن هذا القيام واجب عليهما، فلماذا حجبوا نساءهم ولم يخرجوها مع زوجة النبي في هذا الواجب؟

فإن يكونوا زعموا فيما ادّعوا ... بأن ذاك واجب فيما سعوا

---

(١) حميرا: لقب عائشة أم المؤمنين لأنها كانت شقراء الشعر المائل إلى اللون الأحمر.

فيه، ففيم حجبوا نساءَهم وخلّفوا أزواجهم وراءهم

ويذكّر بتحذير النبي لعائشة بأنها ستخطىء في حق الإسلام والمسلمين ويعطيها الإشارة والدليل بنباح كلاب مياه الحوأب عليها:

وخرجوا بحرمة النبيّ للسَفَرِ النائي بلا وليّ
حتى إذا ما نُبِحَتْ في الحوأب تذكرت في ذاك ما قال النبي
فصرخت بالويل والعويل وبالبكاء الدائم الطويل
وأمرت بردّها فامتنعوا فاظهرت خلافهم فاجتمعوا
وحلفوا بالله كاذبينا ما هم على الحوأب نازلينا

وعن إمامة الحسن بن علي يقول:

وكان قد أوصى عليّ إذْ ظعن بالناس فيما رُوي إلى الحسن

وعن إمامة الحسين يقول:

وقام بعد الحسن الحسينُ فلم تزل لهم عليه عينُ
ترعى لهم أحواله وتنظره في كلّ ما يُسَرُّه ويجهره

وبعد أن يروي سيرته وثورته ومقتله ينهي الأرجوزه بقوله:

فيالتسكاب دموع عيني إذا ذكرتُ مصرع الحُسَيْنِ
لولا رجائي للإمام الهادي أن ينقم الثار من الأعادي
فلا يخلّي من بني أُميَّةْ على جدير الأرض نفساً حَيَّه
ولا من الحكّام بين الناس بالظلم والجَوْر من بني العبّاس
لأذهبت دموع عين العَينا إذا ذكرتُ قتلهم حُسَيْنا
وما لَقِيَ من قبله أبوه من العِدى وما لقي بنوه

وعن إمامة علي بن الحسين زين العابدين يقول:

وكان قد أوصى الحسينُ إذ غبر بأمره إلى عليٍّ فاستترْ

وعن إمامة الباقر يقول:

وقام بالأمر الإمام الباقر ... محمّدٌ صلّى عليه القادر

وعن إمامة الصادق يقول:

وفوّض الأمر الإمام كُلَّهُ ... محمّدٌ إلى أبي عبد الله
فقام بالأمر الإمام جعفرُ ... فسار في ذاك على ماخبّروا
وزال في أيّامه ومدّتِه ... ملك بني مروان عن كلّيته
وانقرضوا وصار أمر النَاس ... تغلّباً إلى بني العبّاس
وقتلوا جماعة من شيعته ... ومن بني آبائه وعترته
فلم يزل في الخوف والتقيه ... حتى أتاه حادث المنيّه

ويحيّرنا القاضي النعمان، وكأنّه شيعي إمامي اثني عشري قلباً وفاطمي إسماعيلي ظاهراً، فكان من الواجب أن يذكر الأئمة بعد جعفر الصادق عليه السلام بالإسم، ولكنه يستعمل التقية ولا يذكرهم بالاسم بل يذكرهم بالعدد ويسمّيهم أئمة الستر وهم خمسة. وهم من صلب إسماعيل بن جعفر عليه السلام، وكذلك أئمة الاثني عشرية هم خمسة ولكنهم من صلب أخيه موسى الكاظم عليه السلام. والإمام الثاني عشر عند الإمامية وعند الفاطميين يحمل نفس الاسم محمد المهدي.

ذكر أئمة الستر من أبناء جعفر الصادق حتى عبيد الله المهدي المنتظر:

واشتدَّت المحنةُ بعدَ جَعْفَرٍ ... فانصرفَ الأمْرُإلى التَستُّرِ
وكان قد أقامَ بعضَ وَلَدهْ ... مقامَهُ لما رأى من جَلدِهْ
فجَعَلَ الأمْرَ له في سَتْرِ ... فلم يكن قالوا بذاك يَدْرِيَ
لَخوْفِهِ عليه من أعْدائِهِ ... إلاّ ثقاتُ مَحْض أوْليائه

وأهلُه الذين قد كانوا مَعَهْ فقامَ بالأمْرِ، وقاموا أرْبَعَهْ
لمّا مَضَى كلُّهمُ لصُلْبِهِ مُسْتَتِرِين بعدَهُ بحَسبِهِ
قد دخلوا في جملةَ الرَّعِيَّهْ لشدَّةِ المحنة والرَّزِيَّهْ
وكلّهم له دُعاةٌ تسري ودَعْوَةٌ في الناس كانت تجري
يعرفُهم في كلِّ عَصْرٍ وزَمَنْ وكلِّ حين وأوانٍ، كلُّ مَنْ
والاهمُ، وكلُّ أوْلِيائهم يعلمُ ما عُلِّمَ من أسمائهم
ولم يكن يَمْنَعُني من ذكرهم إلا احْتِفاظي بمَصونِ سِرِّهم
وليس لي بأنْ أقولَ جَهْرا ما كان قد أدّي إليَّ سِرّا
وهم على الجملة كانوا استتروا ولم يكونوا إذْ تَوَلّوا ظهروا
بل دخلوا في جملة السوادِ لخَوْفِهم من سَطوَةِ الأعادي
حتّى إذا انتهى الكتابُ أجَلَهْ وصارَ أمْرُ اللهِ فيمن جَعَلَهْ
بمَنِّهِ مفتاحَ قُفْلِ الدينِ أيَّدَهُ بالنصرِ والتمكينِ

ثم يشير إلى الإمام القائم بأمر الله ـ أبو القاسم محمد، وأبي المنصور بنصر الله ـ أبو الطاهر إسماعيل. ولكنه لم يذكر المعزّ رغم أنه وقفَ حياته في خدمته، ووضع أكثر كتبه، بأمر وتمحيص من المعزّ.

والأرجوزة طويلة يردّ فيها على رأي كلّ الفرق الإسلامية في صفات الإمام، من مرجئة ومعتزلة والخوارج وجمهور السنة. ويشير إلى حجة الوداع وخطبة النبي في غدير خمّ، ومواقف الصحابة بعد وفاة النبي، من الإمام عليّ عليه السلام. وكلّ آرائه وطروحاته تندرج تحت سلك الموقف الإسلامي الشيعي الجعفري ونظرته تجاه كلّ هذه الأمور. ويعتبر القاضي النعمان بن حيّون التميمي المغربي أحد أهم

واضعي أسس المذهب الشيعي الفاطمي الإسماعيلي، وقد توفي سنة ٣٦٢ للهجرة، قبل وفاة الخليفة الرابع المُعزّ لدين الله.

وكلّ الكتب الإسماعيلية التي كتبت قبل قيام الخلافة تعتبر أصدق وأنقى الكتب التي تدلنا على مراتب وأسس وهيكلية الدعوة الفاطمية.

ومن هذه الكتب المبكرة والمتقدمة على إعلان الخلافة: كتب داعي الدعاة جعفر بن منصور اليمن (٢٨٠ هـ - ٣٤٧هـ)، وهي عدة كتب، سنأخذ منها نصاً يظهر إسلام الفاطميين أو بعدهم عن الملّة الإسلامية.

فنبدأ باستعراض بعض ما ورد في كتاب «الكشف» وهو كتاب يشرح فيه جعفر بن منصور اليمن بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. وقد أشرنا إلى أن دعاة الإسماعيليين قد شطّوا وغالوا في تأويل هذه الآيات وحمّلوها من المعاني الفلسفية اليونانية ما لا تحمله. فيفسر أو يؤوّل على سبيل المثال قول الرسول الكريم: «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته» أنه ﷺ أراد أن أصمتوا على معرفة الحقّ ولا تفطروا أي لا تتكلّموا إلا عند ظهور ناطق الدور أو إمامه. وفي تأويل قوله عزّ وجل: ﴿والتين والزيتون﴾ الحسن والحسين، ﴿وطور سنين﴾، محمد عليه السلام، سيّد المرسلين، ﴿وهذا البلد الأمين﴾ يعني أمير المؤمنين علياً[1].

---

(١) راجع: كتاب الكشف، جعفر بن منصور اليمن، ط ١، بيروت، دار الأندلس سنة ١٩٨٤، ص ٤١٠.

وعندما يتحدث داعي اليمن جعفر بن منصور عن صفات الله يقول: «فلا يُعلم إلاّ من حُجّابه، ولا يُؤتي إلاّ من بابه، ولا يطاع إلاّ من أسبابه. اختصّ لنفسه ديناً، وأقام فيه حدوداً، وأرسل به رسولاً حميداً. وأنزل فيه قرآناً مجيداً. صلّى الله عليه، بعث رسمه، وعالم سرّ جهده. محمّد النذير بوعيده، والمبشّر بوعده، والمبلغ رسالة ربّه، والموفي بعهده. وعلى زوج ابنته وينبوع حكمته، وقاتل أعدائه ومردته، وحامل لواء حمده، وأبي ولديه وذريّته، وآيته الكبرى، ومعجزته، وصاحب تأويله وعصمته، ومجمع شريعته وسنّته، الذي أكمل الله به دينه، وتمّم به نعمته، وعلى الأئمة الراشدين من عترته وصفوته»[1].

ويروي جعفر في هذا الكتاب، (الكشف)، قصص الأنبياء، من آدم حتى نبوّة محمد ﷺ ولكن من منظور، فلسفي روحاني، يؤوّل فيه الآيات التي أنزلت في كلّ نبي حسب ما عرفه من فلسفات هندية ويونانية قديمة. لكنها لا تخرج عن أركان الإسلام التي حدّدها العلماء والأئمة.

أما ـ أبو يعقوب السجستاني المتوفي سنة ٣٣١ هـ، أي قبل دخول جوهر الصقلي مصر بخمس وعشرين سنة، وهو من أشهر الدعاة الفاطميين، وقد قتله أخصامه من أهل السنة بعد أن اتهموه بالإلحاد والزندقة فقتل «صلباً وسلخاً وتمثيلاً» كأكثر دعاة الشيعة على مرّ العصور.

يقول أبو يعقوب السجستاني في كتابه «الافتخار» الذي حدّد فيه

---

(١) سرائر وأسرار النطقاء، جعفر بن منصور اليمن، ط ١، بيروت دار الأندلس، سنة ١٩٨٤، ص ١٧.

نظرة الشيعة إلى الكثير من الأمور الإيمانية والفلسفية: «الحمد لله المعبود بلا ولالا. الذي سنا مجده في صور أوليائه يتلالا. بأنّه الله بعد أن لا إله إلا الله المبدع ذي الجود. الغفور الودود. الذي علا أمره عن مقارنة الأصوات والألغاز. ومباشره الأدوات والحركات، إلا كلّها مبدعة بأمره. الذي لا تخلو عنه فطرة، ولا تستغني دونه خلقة... وأت وكلّ عليه توكّل من أبرأ نفسه من الحول والقوة، معترفاً بأن الحول والقوة لله خالقه. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. شهادة تنفي عنه كلّ أنية مؤيّسة وأنيّة مشيّاة. المتعزّز بالكبرياء والجبروت، والمتفرّد بالعظمة والملكوت، والمتوحّد بكلمة اللاهوت. العزيز في سلطانه فلا يغالب. الظاهر بقدرته في جميع بريّته فلا ينكر. المحتجب بصمديته عن أن يكون كمثله شيء. له من التنزيه أسناه، ومن التسبيح أعلاه، ومن التقديس أهناه. وأشهد أنّ محمّداً عبده المختار الزكي. وأمينه البرّ التقي. المنصور بالقرآن المبين، والمقرون بصاحب يوم الدين، المبعوث إلى خير الأمم رحمة للعالمين. وعلى من هو من شجرته، الخليفة من بعده في أمتّه، سيّد الأوصياء وخير الأتقياء، العليّ باسمه، والعليّ بعلمه والعليّ بحلمه، والعليّ بسيفه، والعليّ بزهده، والعليّ بنسبه، والعليّ بأولاده الغرّ البهاليل، والعليّ بأشياعه (شيعته) العلماء النحارير، والعليّ بحبّ الله ورسوله له، وحبّه لله ولرسوله»[1].

ويتابع أبو يعقوب السجستاني فيذكر «خلفاء الدين الذين ورثوا العلم فلم يضيّعوه وأقاموا الأدلاّء في البقاع لتكون حجّة الله بالغة،

(١) كتاب الافتخار، أبو يعقوب السجستاني، ط ١، بيروت، دار الأندلس لا تاريخ، ص ١٧.

ونعمته سابغة».

وإذا اطلعنا على كلّ مدوّنات دعاة الدولة الفاطمية قبل إعلان الخلافة وخلالها، نجد أنها لا تخرج عن أدبيات الإسلام الشيعي الجعفري.

ومنهم حميد الدين أحمد الكرماني، المتوفي سنة ٤١١ هجرية. وقد ذكر المؤرّخون، ومنهم المقريزي، في اتعاظ الحنفا، أن الحاكم بأمر الله، استدعاه إلى القاهرة ليردّ على الغلاة ويعيد من انحرف منهم عن الإسلام الشيعي الفاطمي.

وقد جمع مصطفى غالب رسائله التي ردّ فيها على الغلاة والمتفلسفين، بطلب من الخليفة الحاكم، ومن داعي الدعاة ختكين الضيف، وصنّفها في كتاب واحد سمّاه: «مجموعة رسائل الكرماني».

يقول الكرماني مفتتحاً الرسالة الدرّية في معنى التوحيد والموحِّد:

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله الذي عزّ أن يكون له مثال، وجلّ أن ينعته بوجه من الوجوه مقال، وأشهد حقاً من أنّ الإلهية ليست بشيء مما يدرك بفعل أو نفس، ولا ممّا يحكم عليه بوهم أو حسّ، إلاّ لما تضطرّ الأنفس عند الإقرار به إلى القول بأنّه الله الذي لا إله إلاّ هو، ولا معبودٌ سواه.

وأشهد أنّ محمّداً المتوّج بأنوار التأييد والتقديس، والمكرّم بسيادة من تقدّم وتأخرّ من الإنس، عبده ورسوله. فصلّى الله عليه صلاة زاكية ما غسق ليل وسفر صبحٌ، وعلى المؤيّد بجوامع الأنوار، والمكثر بالأئمّة من ذرّيته الميامين الأبرار ووصيّه ووارث علمه، وخليفته وحافظ حكمه، عليّ بن أبي طالب، وليُّ الدين وتاجه،

وصاحب الصراط المستقيم ومنهاجه، سلام يدوم بدوام الأبد، ويتضاعف على بقاء السرمد، وعلى الأئمّة الطاهرين آباء أمير المؤمنين، الإمام الحاكم بأمر الله. وعليه وعلى المنتظرين منهم إلى يوم الدين، أفضل الصلاة والتسليم»[1]. ويشرح الداعي الكرماني في هذه الرسالة معنى التوحيد ويقول المؤرّخون، أن داعي الدعاة ختكين الضيف. لما غلا بعض الإسماعيليين بالحاكم وادّعوا أن الروح الإلهية تجلّت فيه (الدروز)، استدعى الكرماني، بناء على طلب الخليفة الحاكم، ليقف ضد هذا التيّار المغالي فيه وفي الأئمّة من قبله.

وفي الرسالة الثانية يبدأها الكرماني بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب الوحدة والآحاد، وخالق الفردانية والأفراد، فسبحانه من معبود بقاء النفوس في توحيده، ولا إله غيره ولا شريك له، ولا ضدّ له... أحمده وأعبده، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله ليكون للمؤمنين إلى جنّاته محجّة، وعلى الكافرين نقمة ثم حجّة، صلّى الله عليه وآله صلاة نامية دائمة، وسلّم على ركن الشريعة وأحكامها، وعماد الملّة الحنيفة وأعلامها، علي بن أبي طالب، خليفة محمد ووصيه ووليّ الله تعالى ومختار نبيّه، وعلى الأئمّة الطاهرين كواكب الإيمان ومفاتيح الجنان، وعلى القائم فينا، أمير المؤمنين الإمام الحاكم بأمر الله وآبائه الطاهرين، والمنتظرين من بعده إلى يوم الدين»[2].

---

(١) مجموعة رسائل الكرماني، أحمد حميد الدين الكرماني، ط ١، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات، سنة ١٩٨٣، ص ٩.

(٢) م.س. ص ٢٧.

ولم يخرج الكرماني في هذه الرسالة عن أدبيات الشيعة، ولم يشر إلى الحاكم بأسلوب الموحدين الدروز، بل أشار إليه على أنه «الإمام القائد فينا أمير المؤمنين».

الدروز بين الإسلام والغلوّ:

ومن أدبيات الموحدين الدروز الذين غالوا في الحاكم وقالوا بتجلّي الروح الإلهية فيه، وردت على لسان الداعي حمزة بن علي في الرسالة الموسومة بـ «ميثاق وليّ الزمان». إضافة إلى غيرها من الرسائل التي عالجت القضايا الإيمانية

أما القرامطة فقد شطّوا وجنحوا عن الإسلام أكثر من الموحدين الدروز، فالدروز وضعوا أحاديث ورسائل تبرّر تركهم الصلاة والصوم والحج بينما القرامطة، لم يتركوا أركان الإسلام فقط، بل دعوا إلى نقيضها. يقول أحد شعراء الجنيد القرمطي حين دخل اليمن[1]:

خذي الدفّ يا هذي والعبي ... وغنّي هزاريك ثم اطربي
تولّى نبيّ بني هاشم ... وهذا نبيّ بني يعرب
لكل نبيّ مضى شرعةٌ ... وهذي شرائع هذا النبي
فقد حطّ عنا فروض الصلاة ... وحطّ الصيام ولم يتعب
فلا تطلبي السعي عند الصفا ... ولا زورة القبر في يثرب

فالموحدون الدروز لم ينكروا نبوّة محمد كما أنكرها القرامطة.

---

(١) أروى بنت اليمن، عارف تامر، ط ١، القاهرة، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٠، ص ٢٧.

ورسائل الكرماني، كلّها تنحو نفس المنحى الشيعي الجعفري الذي لا يشوبه شائبة ولا يختلف عن الفكر الشيعي الزيدي والفكر الشيعي الاثني عشري إلا في تسمية الإمام.

وكان الدعاة الموحدّون الدروز قالوا في بعض رسائلهم أنّ معرفة الباب أي باب الحقيقة وإمام الزمان يرفع عنهم كلّ التكليفات الشرعية، من صلاة وصوم وزكاة وخمس، والحجّ إلى بيت الله فالصلاة عندهم هي «صلة قلوبهم بتوحيد الحاكم، وهذه هي الصلاة الحقيقية»[1].

والزكاة عند الموحدين الدروز هي «الاعتراف بولاية علي بن أبي طالب والأئمة من ذرّيته والتبرّي من أعدائه أبي بكر وعمر وعثمان»[2].

والصوم عند الدروز هو الصوم عن الكلام، حيث يفسرّون الآية الكريمة عن السيدة مريم عليها السلام: **﴿كلي واشربي وقرّي عيناً﴾**، ويعني الأكل، علم الظاهر، والشرب علم الباطن. فما ترين أحداً من البشر. يعني أهل الظاهر. فقولي إنيّ نذرت للرحمن ـ يعني، الإمام صوماً، أي السكوت. فلن أكلّم اليوم أنسيّاً. يعني فلن أخاطب أحداً من أصحاب الشريعة الظاهرة.

ويفسروّن الآية الكريمة: «**﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾** يعني بالشهر علياً بن أبي طالب، فالشهر ثلاثون يوماً. كذلك لعليّ ثلاثون حداً. فمن عرفه وعرف حدوده، وجب السكوت عند سائر العالمين» أي الصوم عن الكلام «إلا عند إخوانه الثقات».

---

(١) راجع: رسائل الحكمة، الرسالة المعروفة بالنقض الخفيّ. ص٥٦.

(٢) م.س. ص ٥٧.

أما فريضة الحج إلى مكة فيفسّرها الداعي الدرزي حمزة بن علي: «وقال (الله): «ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا» ويقول أهل الظاهر: (الإسلام الرسمي السنّي والشيعي) أنّ الحجّ هو المجيء إلى مكة والوقوف بعرفات وإقامة شروطه». ويتحدّث حمزة عن قطع الحاكم للحج سنين طويلة، وقطع كسوة الكعبة، ويتخذ منها سبباً لإبطالها، علماً أن توقفّ الحج وقطع كسوة الكعبة كانت لدواع أمنية خارجة عن يد الخليفة الحاكم وليس بإرادته.

أما الجهاد فيفسّره حمزة بأنه «الجهاد الحقيقي هو الجهد في توحيد مولانا جلّ ذكره ومعرفته ولا يشرك به أحداً من سائر الحدود».

وقد تعمّدت إيراد أدبيات المسلمين الشيعة الإسماعيليين الموحدّين الدروز ومقارنتها مع أدبيات المسلمين الشيعة الإسماعيليين لإظهار ابتعاد المسلمين الدروز عن الإسلام الشيعي الجعفري، الذي ما زالت تتمسّك به سائر الفرق الإسلامية الشيعيّة، من زيدية، واثني عشرية وإسماعيلية فاطمية.

ولن نتطرّق إلى كتاب ومؤلّفات الدعاة بعد اندثار الدولة الفاطمية، لأنّ انقسامهم إلى قرامطة ودروز ومستعلية ونزارية وطيبيّة أدى ليس فقط إلى دفن دولتهم، بل أدّى إلى شططهم وخروجهم عن الإسلام.

وسنحاول أخذ نصوص من أقوال ورسائل وسجلاّت الخلفاء الفاطميين لتأكيد بقائهم على إسلامهم أو خروجهم عن الملّة الإسلامية.

رأي المؤرّخين الشيعة في ألوهية الحاكم:

وفي معرض الدفاع عن الخلفاء المصريين والخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي، قال الشيخ محمد حسين الزين العاملي وهو من علماء الإمامية: «إنّ ما رأيناه في التاريخ من أعمال الخلفاء الفاطميين الشهيرة في مصر، وأقوالهم المأثورة في التمسكّ بالدين، لممّا يوجب الظنّ، بأنّهم ليسوا على مقالة الباطنيّة وتعاليمهم. وإن وافقوهم بسوق الإمامة في المستورين، ثم في الظاهرين، بل احتمل أنّ الخليفة الحاكم بأمر الله، الذي قال بعض الباطنية بإلهيته، كان ممن يسخر من مقالة الباطنية فيه، ويعاقب عليها، لو كانت في حياته، ولكنها، على الأرجح، كانت بعد وفاته».

ويقول عن الفاطميين: «وجلّ البيت الفاطمي، إن لم نقل كلّهم، كانوا متشدّدين في إسلاميّتهم، وفي ولائهم لأمير المؤمنين وأهل بيته عليهم السلام، وكانوا يقيمون شعائر الإسلام أينما حلّوا، ويعمّروا المساجد والمعاهد العلمية الإسلامية، ويبالغون في الإنفاق عليها، وعلى فقراء المسلمين، وخصوصاً في مصر، حتى قيل بحقّ أنّ ايامهم بمصر، كانت كلّها أعياداً.

فكيف نحكم بكفرهم! من دون أن يقوم لنا دليل صريح موجب لكفرهم من طريق صحيح أو من اعتراف منهم وتصريح بالكفر.نعم كيف نحكم بكفرهم، كما حكم السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء؟[1].

---

(١) الشيعة في التاريخ، محمد حسين الزين، ط١، صيدا، مطبعة العرفان، سنة ١٩٣٨، ص١٩٠.

الرسالة الأولى من رسائل كتاب الحكمة عند المسلمين الموحدين الدروز

نسخة السجل الذي وُجِد مُعلَّقاً على المشاهد في غيبة مولانا الحاكم:

بسم الله الرحمن الرحيم. لمن تيقّظ من وسن الغافلين، وانتقل عن جهل الجاهلين، وأخلص منه اليقين، فبادر إلى الله تعالى وإلى وليّه وحجّته على العالمين، وخليفته في أرضه وأمينه على خلقه أمير المؤمنين، واغتنم الفوز مع المتطهّرين والمتّقين، ولم يكذّب بيوم الدين، وكان بالغيب من المسدّقين به والموقنين، واعتقد أنّ الساعة آتية بغتة لا ريب فيها، وأنّ الله لا يضيع أجر المحسنين، ولا عدوان إلاّ على الظالمين، المردة الشياطين، الفسقة المارقين، وكلّ حلاّف مهين، الناكثين الباغين، المفسدين الطاغين، أهل الخلاف والمنافقين، المكذّبين بيوم الدين، المغضوب عليهم والضالّين، والحمد لله حمد الشاكرين، حمداً لا نفاذ لآخره أبد الآبدين.

وصلى الله على سيّد المرسلين، محمد المبعوث بالقرآن إلى الخلق أجمعين ومبشّراً ونذيراً بائمّة من ذريّته هاديين مهديّين، كراماً كاتبين، شهداء على العالمين، ليبيّنوا للناس ما هم يختلفون، وعنه

يتساءلون، ويرشدونهم إلى النبأ العظيم، والصراط المستقيم، سلام الله السني السامي عليهم إلى يوم الدين.

أمّا بعد أيّها الناس فقد سبق إليكم من الوعد والوعظ والوعيد من وليّ أمركم وإمام عصركم وخَلَفِ أنبيائكم وحجّة باريكم وخليفته الشاهد عليكم بِمُوبِقاتِكم[1]، وجميع ما اقترفتم فيه من الأعذار والإنذار ما فيه بلاغ لمن سمع وأطاع واهتدى، وجاهد نفسه عن الهوى، وآثر الآخرة على الدنيا، وأنتم مع ذلك في وادي الجهالة تسبحون، وفي تيه الضلالة تخوضون وتلعبون، حتى تُلاقوا يومكم الذي كنتم به تُعدون، **﴿كلاّ سوف تعلمون، ثمّ كلاّ سوف تعلمون، كلاّ لو تعلمون علم اليقين﴾**[2]، وقد علمتم معشر الكافّة أنّ جميع ما ورّثه الله تعالى لوليّه وخليفته في أرضه أمير المؤمنين سلام الله عليه من النعم الظاهرة والباطنة، قد خوّل إمام عصرِكم لشريفكم ومشروفكم من خاصّتكم وعامّتكم من ظاهر ذلك وباطنه على الإكثار والإمكان بفضله وكرمه حسب ما رأى سلام الله عليه ولم يَبخل بجزيل عطائه، وهنّاكم مَنَّةً منه مع ذلك ما أوجبه الله تعالى له عليكم في كتابه من الحقّ فيما مَلَكْتهُ أيمانكم، ولم يشارككم في شيء من أحوال هذه الدنيا نزاهة عنها، ورفضاً منه لها، على مقداره ومُكنته، لأمر سبق في حكمته، وهو سلام الله عليه أعلم به. فأصبحتم وقد حُزتم من فضله وجزيل عطائه ما لم يَنُف مِثله بشر من الماضيين من أسلافكم، ولا أدرك قوّة أنباء منه أحدٌ من الأمم الذين خَلوا من قبلكم، من المهاجرين والأنصار، في متقدّم الأزمان والأعصار. ولم

---

(١) الموبقات هي الذنوب، واقترف تعني اكتسب.

(٢) سورة التكاثر، آية ٥.

تنالوا ذلك من وليّ الله باستحقاق ولا بعمل عامل منكم من ذكر.

أيّها الناس كلام الله تعالى أوعظ وبيّن منه وعظكم بهذه الموعظة من الفقر والحاجة إلى عفو الله تعالى وعفو وليّه أمير المؤمنين سلام الله عليه أعظم منكم. فبالنسيان تكون الغفلة، وبالغفلة تكون الفتنة، وبالفتنة تكون الهلكة، وقد قال الله تبارك وتعالى: **﴿ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله غفوراً رحيما﴾**[1]. وقال عزّ من قائل: **﴿إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً أن الله يحبّ التوّابين ويحب المتطهرين﴾**[2]. وقال تبارك وتعالى: **﴿فإذا سالك عبادي عنّي فإنّي قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني﴾**[3].

فالبِدار البِدار معشر الناس إنْ وقفتم على بَراح من الأرض يكون أوّل طريق سلكها أمير المؤمنين سلام الله عليه وقت أن استتر نضو أعينكم[4] وتجتمعوا فيها بأنفسكم وأولادكم، وطّهروا قلوبكم، واخلصوا نيّاتكم لله ربّ العاملين. وتوبوا إليه توبة نصوحا وتوسّلوا إليه بأوجه الوسائل بالصفح عنكم، والمغفرة لكم، وأن يرحمكم بعودة وليّه إليكم، ويعطف بقلبه عليكم، فهو رحمة عليكم وعلى جميع خلقه، كما قال تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وعلى آله: **﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾**[5].

---

(١) سورة النساء، آية ٦٤.

(٢) سورة البقرة، آية٢٢٢.

(٣) سورة البقرة، آية١٨٦.

(٤)معناه: عندما استتر أمام أعين الجميع.

(٥) سورة الأنبياء، آية ١٠٧.

فالحذر الحذر أن يقفُو أحدٌ منكم لأمير المؤمنين سلام الله عليه أثراً ولا تكشفوا له خبرا[1]، ولا تبرحوا في أوّل طريق يتوسّل جميعكم. كذلك آراؤنا فإذا أطلّت عليكم الرحمة خرج وليّ الله أمامكم باختياره راضياً عنكم، ظاهراً في أوساطكم. فواظبوا على ذلك ليلا ونهارا قبل أن تحقّ الحاقّة وتقرع القارعة، ويغلق باب الرحمة، وتحلّ بأهل الخلاف والعناد النقمة، وقد أعذر من أنذر، ونصح من قبلكم نفسه وحذّر، والخطاب لأولي الألباب منكم والتّعيين عليهم والمشيئة لله تبارك وتعالى، والتوفيق به والسلام على من اتّبع الهدى وخشي عواقب الردى، وسدّق بكلمات ربّه الحسنى.

وكتب مولى دولة أمير المؤمنين سلام الله عليه في شهر ذي القعدة سنة إحدى عشرة وأربع مائة، وصلّى الله على محمد سيّد المرسلين، وخاتم النبيين، وسلّم على آله الطاهرين وحسبنا الله ونعم الوكيل[2].

يحتفظ أصحاب العمل بهذه الموعظة من المتّقين، ولا يمنع أحد من نسخها و«قرائتها» نفّع الله من وفّق للعمل بما فيها من طاعة الله وطاعة وليّه أمير المؤمنين سلام الله عليه، حرام حرام على من لا ينسخها ويقرؤها على التوّابين في جامع أسفل. وحرام حرام على من قدر على نسخها وقصّر. والحمد لله وحده.

---

(١)من المعروف أن الحاكم غاب أو اختفى دون أن يُترك له أثر أو خبر، يروى عنه انه ركب حمارا وخرج بأصحابه إلى الجبل ليلا فتوارى عن أعينهم. ثم رأوا له قميصا مزرّرة، لم تفك أزرارها وقد انسل منها وانسحب منتظرين رجوعه.

(٢) يلاحظ أن هذه الرسالة أو «الموعظة»، وإن كانت الأولى في مجموعة الرسائل فهي من تاريخ متأخر بالنسبة إلى سواها. فمنها ما كتب سنة ٤٠٠ هـ ومعظمها ٤٠٨هـ وغيرها.

الرسالة الثانية من رسائل الحكمة

السجل المنهيّ فيه عن الخمر:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي أعزّ الإسلام بأوليائه المتّقين، وخصّ حدوده لمن استحفظه من أئمة دينه وأمنائه الميامين، وصلّى الله على جدّنا محمد خاتم النبيين، وسيّد المرسلين، صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين.

إنّ أمير المؤمنين بما قلّده الله ووجّل إليه من أمور الدين والدنيا وجعل كلمته فيها السامية العليا، مصروف الهمّة والرأي والرويّة إلى المحاماة عنها والمراعاة لنفي خلل يدخل فيهما، والرّغبة في إعلاء معالمهما، والتوفّر على ما شيّد دعائمهما، والإيثار لما حفظ نظامهما والعناية بما صار من التغيير والإنتقاض لكمالهما وتمامهما. والله جلّ وعزّ معينُ أمير المؤمنين على ما يرضيه، موفقهُ لما يُزلفه[1] عنده ويحظيه بِمنّهِ وقدرته.

إنّ أحسن الأمور عائدة على الإسلام والمسلمين. وأجمعهم

---

(١) يزلفه: من الزلفى، أي يقرّبه.

إصلاحاً في حراسة أصول الدين، نَهْيُ الكافّة عن الإلمام بالمسكر واستحسان المناكر من الإصرار على المسكر الذي هو مُجمّع السيّئات، والقائد إلى قبائح الأفعال والسّوءات.

وقد أمر أمير المؤمنين وبالله توفيقه بكتب هذا المنشور ليقرأ على الخاصّ والعامّ من الأولياء والرعيّة بالنهي عن التعرّض لشرب شيء من المسكر على اختلاف أصنافه، وأسمائه وألوانه وطعومه، وكلّ شراب متأوّل فيه ممّا يسكر قليله وكثيره، وترك التعرّض لشربه والأقوال والفتاوى، والنهي عمّا يتمسّك به الرعاع من التأويلات والدّعاوى، فإن أمير المؤمنين قد حذّر ذلك جملة وأخبره، ونهى عن المسكر واقتنائه واذخاره والتعرّض لعمله واعتصاره، حتى تهزّ الممالك من سوء آثاره.

وجعل ذلك أمانة في أعناق المخلصين من أوليائه، وبيعته عند أهل طاعته ونصحائه. ووكّل إليهم الفحص عنه وانهاء ما يقفون عليه من أمره. وبراءة أمير المؤمنين إلى الله عزّ وجلّ من تبعه ذلك وغائلته عاجلا وآجلا.

فيُعلَم ذلك من أمير المؤمنين، ويَعْمَلُ عليه سائرُ الأولياء والمؤمنين، ومن شملته دعوة الحق من كافة الناس أجمعين. وليسارعوا لامتثاله والحذر من تجاوزه. فقد قرّب أمير المؤمنين بأعداء المرسوم أليم العقاب والتنكّل، وقبيح النكّلة والتبدّل والله حسبُ أمير المؤمنين ونعم الوكيل.

وكُتب في شهر ذي القعدة سنة أربع مائة والحمد لله وحده وصلواته على رسوله خاتم النبيّين وآله الطاهرين، وسلامه.

الرسالة الثالثة من رسائل الحكمة

خبر اليهود والنصارى:

وسؤالهم لمولانا الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه، عن شيء من أمر دينهم باعتراض اعترضوه فيه، وانكار أنكروه عليه، والجواب على ذلك بما اختصّهم من القول وأسكتهم وانصرفوا مقهورين، والحمد لله ربّ العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم، حدّث من وُثق به وسُكِن إلى قوله مع إشهار الحديث في ذلك الوقت، أنّه حضر في موقف من مواقف الدهر وصاحب العصر مولانا الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين سلام الله عليه، إذ وقف بين يديه بالقرافة في مقابر تعرف بقباب الطّير نفر، فسلّموا عليه فوقف عليهم حسب ما كان يقف على من سلّم عليه، فذكروا أنّهم من أهل الذمّة وأنّ لهم حاجة وأنّهم يهود ونصارى.

فقال عليه السلام: قولوا حاجتكم.

فقالوا: نسأل حاجتنا إذا أمّنتنا على نفوسنا.

فقال: إن طلبة الحوائج لا تحتاج إلى أمان.

فقالوا: هي حاجة صعبة وسؤال عظيم.

فقال عليه السلام: اسألوا فيما عسى أن تسألوا ولو كان في الملك.

فقالوا: يا أمير المؤمنين ما هو شيء يتعلّق بأمر الدنيا، وإنّما هو شيء يتعلّق بأمر الدين وخطر عظيم، فإن أمنتنا على أنفسنا ذكرناه وسألناك عنه، وإن لم تؤمّنا سألناك العفو وانصرفنا آمنين، فعدلك وأمنك قد مليا الغرب والشرق، وعطاؤك وجودك قد غمرا جميع الخلق.

قال عليه السلام: اسألوا عمّا أردتم وأنتم آمنين بأمان الله تعالى وأمان جدّنا محمد. وأماننا لا منكوث عليكم في ذلك ولا متأوّل.

قالوا: يا أمير المؤمنين إن الذي نسألك عنه خطر عظيم وأمر جسيم، وأنت صاحب السيف والملك ولا نشكّ في أمانك، ولكنّنا نخشى من سفهاء الأمّة.

قال عليه السلام: قولوا وأنتم آمنون من جميع الناس والأمّة.

قالوا: يا أمير المؤمنين أنت تعلم أن صاحب الشريعة الذي هو محمد ابن عبد الله الرسول المبعوث إلى العرب الذي لهجرته كذا وكذا سنة. وذكروا عدد السنين التي لهجرته إلى تلك السنة التي خاطبوه فيها. إنّه حين بعث إلى العرب وجاهد سائر الأمم، لم يسعنا الدخول في شريعته إلاّ أن اخترنا ذلك بلا إكراه وأداء الجزية ولم يكلّفنا إلا هذا. وكذلك كلّ واحد من أئمّة دينه، وخلفاء مذهبه، ومتفقّهي شريعته. لم يسمنا ما سمتنا أنت إيّاه من هدم بيعنا وأديارنا وتمزيق كتبنا المنزلة على رسلنا من عند ربّنا، فيها حكمه بالحلال والحرام

والقصاص حتى أنّك أبحت التوراة والإنجيل يشدّ فيها الدّلوك والصابون وتباع في الأسواق بسعر القراطيس الفارغة. وقد أخبر صاحب الملّة والشريعة عن ربّه فيما نزل عليه أنّ التوراة فيها حكمة الله. ثم أنّه ذكر في غير موضع في الكتاب. وأكثر القرآن المنزل عليه فيه ذكر موسى وعيسى ويوشع وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وزكريا ويوحنا، وهؤلاء كلّهم أنبياؤنا وأئمّة شرائعنا، ومثل ما ذكروا الفضلاء منّا، مثل بقايا موسى وحواريّ عيسى. وما حكاه أيضاً في الكتاب المنزل عليه من تفضيل قسسنا ورهباننا، بقوله: **﴿إن فيهم قسساً ورهباناً وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول تفيض أعينهم بالدمع ممّا عرفوه من الحق﴾**[1]. ولو استقصيناه كلّ ما جاء في الكتاب المنزل عليه من تفضيل رسلنا وتفخيم كتبنا، لكان أكثر ما نزل عليه في هذا المعنى. ثم قد كان من خلفاء الملّة وأئمّة الشريعة من المحمودين آبائك والمذمومين أعدائهم وأعدائك، مثل بني أميّة وبني العباس ممّن عتا في الأرض وملكها طولا و«عرض» مع اتّساع ملكهم وعظم سلطانهم وكان يخطب لهم في كلّ بقعة بلغت إليها دعوة رسولهم وصاحب شريعتهم ولم يحدثوا علينا رسما، ولا نقضوا لنا شرطا، اقتداء منهم بصاحب ملّتهم وشريعتهم، ولعلمهم بتفضيل رسلنا وتعظيم كتبنا وملّتنا وشريعتنا المذكورة على لسان نبيّهم.

فمن أين جاز لك أنت يا أمير المؤمنين أن تتعدّا حكم صاحب الملّة والشريعة وفعل الخلفاء والأئمّة الذين ملكوا قبلك البلاد والأمّة.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٨٢ ـ ٨٣.

وليس أنت صاحب الشريعة. بل أنت أحد أئمة صاحب الشريعة وأحد خلفائه، والقائم في شريعته، لتتممّها وتشدّ أركانها وبنيانها. وبذلك نطقت في كلامك في غير موضع من مواقفك التي خاطبت بها وأشتهر ذلك عنك عند أقرب الناس إليك من أوليائك وأنت تفعل معنا ما لم يفعله الناطق[1] معنا، ولا أحد من أئمّته وخلفائه كما ذكرناه.

وهذه حاجتنا التي سألناها وأمرنا الذي قصدناه وطلبنا الأمان عليه. ونريد الجواب عنه. فإن يكن حقًا وعدلا آمنا به وسدّقناه، وإن يكن متعلّقا بالملك والدولة والسلطان بقينا على أديانّنا، غير شاكّين في مذاهبنا، وأزلنا الشبهة عن قلوب المستضعفين من أهل ملّتنا، وما جئناك إلاّ مستفهمين غير شاكّين في عدلك ورحمتك وإنصافك. وعلى هذا أخذنا أمانك وقد قلنا الذي عندنا وأخرجناه من أعناقنا، كما تقتضيه أديانّنا. والأمر إليك. فإن تقل لنا سمعنا وأطعنا وأجبنا. وإن أذنت لنا ولم تقل انصرفنا ونحن آمنون بأمانك الذي أمنتنا.

فقال عليه السلام: «أمّا الأمان فباق عليكم، وأمّا سؤالكم فما سألتم إلاّ عمّا يجب لمثلكم أن يسأل مثله. وأمّا نحن فنجيبكم إنشاء الله. ولكن امضوا وعودوا إليّ ها هنا ليلة غد. وليأت كلّ واحد منكم، يعني من اليهود والنصارى، برفقه من يقدر عليه من أهل ملّته في هذا البلد ليكون الجواب لهم، والكلام معهم.

أما بقية الرسائل فهم يضمنّونها نظرية التجلّي الإلهي، حيث يرون أنّ الروح الإلهية تجلّت في روح الإمام الحاكم بأمر الله الفاطمي.

---

(١) الناطق هو محمد بن عبدالله صاحب الشريعة الإسلامية الظاهرة.

الإسلام الشيعي الجعفري الإسماعيلي الفاطمي في مجال التطبيق العملي:

عندما تحدّثنا عن دخول جوهر الصقلي إلى مصر، كنّا قد أشرنا إلى بعض المحاولات التي قام بها المهدي بالله وولده القائم في دخول مصر، وأشرنا إلى وصولهم إلى الإسكندرية والبقاء فيها فترة طويلة. وكان القائم بأمر الله حينها ولي عهد والده المهدي وقائد جيوشه. ويخبرنا الداعي الفاطمي عماد الدين إدريس القرشي كيف دخل القائم بأمر الله أبو القاسم محمد إلى الإسكندرية «وأمر المؤذنيّن فأذّنوا فيها بحيّ على خير العمل يوم دخوله إليها».

«ولما كان عيد الفطر والقائم بأمر الله، عليه السلام، مقيم بالإسكندرية خرج صلوات الله عليه، فصلّى بالناس صلاة العيد وخطب عليه السلام خطبته في الإسكندرية».

خطبة الخليفة الثاني، القائم بأمر الله:

سنأخذ بعضاً من نصوص هذه الخطبة لنرى إذا كانت تندرج تحت أطر الإسلام الشيعي الجعفري، أم تخرج عن ملّة الإسلام، وخاصة أنها صادرة عن ابن أول خليفة فاطمي أخرج معتقداته من حيّز الستّر والتقيّة والتخفيّ إلى حيّز الإعلان والظهور والممارسة. يقول أبو القاسم محمد ابن عبيد الله المهدي في خطبته: «بسم الله الرحمن الرحيم، الله أكبر، الله أكبر، ولا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، لا حكم إلا الله، ولا طاعة لمن عصى الله. ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً. ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس. الحمد لله الخلاّق العليم، المدبّر الحكيم، قال الله

عزّ وجلّ: **﴿يا أيها الذين آمنوا، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾**. فجعل الطاعة فريضة، ووصل بها طاعة ولاة أمره، فهم القائمون لله بحقّه والدّاعون إليه من رغب إلى طاعته، واستخصّهم بالإمامة التي هي أعظم الدرجات بعد النبوّة. وفرض على العباد حقوقها، وأمرهم بأدائها وجعلها موصولة بطاعته.

وختمها بقوله: «اللهم صلّي على المهدي بالله عبدالله أبي محمد أمير المؤمنين، كما صلّيت وباركت على الخلفاء الراشدين المهديّين. اللّهم انصر جيوشنا وسرايانا في مشارق الأرض ومغاربها وبرّها وبحرها وسهلها وجبلها. اللّهم إلعن أعدائك وأهل معاصيك من الأوّلين والآخرين، وقوم نوح الظالمين. وجبابرة بني أميّة وبني مروان، ومعاوية بن أبي سفيان. والعن عمر بن العاص، والمغيرة ابن شعبة وزياد بن سميّة (ابن أبيه) وعبيد الله بن زياد وعبد الرحمن بن ملجم والناكثين المارقين المبتدعين المرجئين القاعدين عن الجهاد مع أمير المؤمنين. اللهم انصر الحق وطلابه وأذل الباطل وأحزابه إنّك أنت العزيز الحكيم»[1].

وهذه الخطبة التزم فيها القائم بأمر الله الدعوة للخلفاء الراشدين وربما كي لا يخاف ولا يجفل منه أهل الإسكندرية، لأنهم ظلّوا على تسنّنهم طيلة حكم الخلفاء الفاطميين لمصر.

(١) عيون الأخبار، عماد الدين إدريس القرشي، السبع الخامس. م.س. ص ١٣١.

خطبة الخليفة الثالث المنصور بالله:

ويخبرنا الداعي القرشي عن الخطبة التي خطبها الخليفة الثالث المنصور بالله أبو الطاهر إسماعيل ابن القائم، بمناسبة اعتقال السفياني مخلد بن كيداد الخارجي، يوم عيد النحر من سنة ٣٣٥ هجرية، فوقف في الجامع الذي كان قد بناه في المدينة التي سمّاها باسمه: «المنصورية» فقال:

«الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، (ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون)، إلهاً معبوداً، وربّاً محموداً، لا نتّخذ من دونه آلهة ولا نشرك به شيئاً. سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون. سبحان ربّك رب العزّة عما يصفون. وسلام على المرسلين. إنّه كما وصف نفسه حيّ قيّوم، لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم. ليس كمثله شيء لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار. وأشهد أن محمّداً عبده المصطفى، وأمينه المرتضى، أرسله بالنور الساطع، والبرهان القاطع إلى جميع بريته، شاهداً لمن كان قبله من الرسل. ودليلاً على الله، وداعياً إليه.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي لا غناء لكم عنه، ولا موئل لكم دونه، في موت أو حياة، ولا آخرة ولا دنيا.

أيّها الناس: إنّ الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه، ثمّ ثنّى بملائكته فقال: (إنّ الله وملائكته يصلّون على النبيّ، يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما). اللّهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك، صلاة تامة باقية، تزيده كرامة إلى كرامته، وشرفاً إلى شرفه، وصلِّ على جميع أصحاب أهل الكساء الطاهرين الأزكياء، وعلى أمير المؤمنين،

وفاطمة الزهراء، سيدة نساء العالمين، والحسن والحسين الأكرمين الأبرّين، وعلى الأئمّة المهديين من ذريّة الحسين، أعلام الهدى وبدور الدجى وسادات الورى، أولياء الرحمن وحجج الأزمان، ودعائم الإيمان.

اللّهم صلِّ على الإمام القائم بأمر الله بن المهدي بالله وارث سيف جدّه ذي الفقار، صلاة تفضل صلاة المصلّين خالدة في الغابرين، باقية إلى يوم الدين. اللّهم إنّي عبدك ووليك أنعمت عليّ فأعظمت، وأفضلت فأجزلت، ورفعتني وكرّمت بما أفضيت إليّ من خلافة الآباء الأكرمين، الأئمّة المهديين ونصّبتني علماً للدين، وأقمتني إماماً للمؤمنين. اللّهم فاتمم عليّ نعمتك، كما أتممتها من قبل على الآباء الأجواد، الأكارم الأمجاد، حملة علمك، وخُزّان وحيك وأمناؤك على خلقك، وصفوتك من عبادك، وخيرتك من آل نبيّك، الذين جمعت لهم شرف الدارين، وفضل المقامين.

اللّهم أعنّي على رعاية عهدهم، وإنجاز وعدهم، وقضاء دَيْنهم وإتمام أمرهم، وإحياء ذكرهم، وإعزاز أوليائهم وإذلال أعدائهم. واجمع بيني وبينهم، اللّهم في مستقرّ رحمتك وقرار جنّتك، ومجاورة نبيّك، مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين. آمين يا رب العالمين».

وأنهى المنصور بالله خطبته بوعظ أهل المنصورية قائلاً: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر، والبغي، يعظكم لعلّكم تذكّرون. والحمد لله رب العالمين»[1].

---

(١) عيون الأخبار، السبع الخامس. عماد الدين إدريس القرشي. م.س. ص ٢٨٣.

والمتصفّح في ثنايا سطور هذه الخطبة يجدها إسلامية المضمون، شيعية الهوى، جعفرية العقيدة، فاطمية القصد لا خروج فيها عن أدبيات العقيدة الشيعية ولا مروق عن الإسلام.

وصول المعزّ إلى مصر:

يخبرنا المقريزي أنّ أول عمل قام به المعزّ الفاطمي فور وصوله إلى القاهرة: عمّم على المشايخ في سائر مدينة مصر: «خير الناس بعد رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ.

وعندما صام المعزّ شهر رمضان بعد وصوله إلى القاهرة، «صلّى بالناس صلاة العيد تامة طويلة، قرأ في الركعة الأولى «بأمّ الكتاب»، و «هل أتاك حديث الغاشية، ثم كبّر بعد القراءة، وركع فأطال، وسجد فأطال».

وينقل المقريزي عن ابن زولاق قوله:

«أنا سبّحت خلفه في كلّ ركعة وفي كلّ سجدة نيّفاً وثلاثين تسبيحة. وكان القاضي النعمان بن محمد يبلّغ عنه التكبير. وقرأ في الركعة الثانية بأمّ الكتاب وسورة «الضحى». ثم كبّر أيضاً بعد القراءة. وهي صلاة جدّه عليّ بن أبي طالب. وأطال أيضاً في الثانية الركوع والسجود. وأنا سبّحت خلفه نيّفاً وثلاثين تسبيحة، في كلّ ركعة وفي كلّ سجدة. وجهر ببسم الله الرحمن الرحيم في كلّ سورة. فلما فرغ من الصلاة، صعد المنبر، وسلّم على الناس يميناً وشمالاً»[1].

---

(١) اتعاظ الحنفا، الأول. م.س. ص ١٣٧.

وعندما يتحدّث مؤرّخو الأيوبيين والمماليك والأتراك عن الخليفة المعزّ، يفيضون بالتحدّث عن عدله وكرمه وعفّته وشمائله الحسنة، وينهي كلّ واحد منهم حديثه بلعنه كونه (رافضيّ سبّاب)، فمن رفض الظلم يكون رافضيّاً ومن سبّ المغتصب يكون سبّاباً. هذا دأبهم عند ترجمة أي علم من أعلام الإسلام الرافضين للظلم والاغتصاب.

وعلى سبيل المثال: اسْتُفْتِيَ ابن تيمية عن إسلام يزيد بن معاوية، بالسؤال التالي: «ما تقول السادة العلماء، أئمة الدين، رضي الله عنهم أجمعين في يزيد بن معاوية؟ هل كان صحابياً، وما حكم من يعتقد أنه كان صحابيّاً؟ أو أنّه كان نبياً؟.

فأجاب ابن تيميّة: الحمد لله رب العالمين: يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي تولّى على المسلمين بعد أبيه معاوية بن أبي سفيان، لم يكن من الصحابة، ولكنّ عمه يزيد بن أبي سفيان كان من الصحابة... وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، هو ابن عم النبيّ، ويزيد هذا الذي ولي الملك هو أول من غزا القسطنطينية، غزاها في خلافة أبيه معاوية. وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور له.

ومن قال أنّ يزيد هذا كان من الصحابة فهو كاذب مفتر.

وأما من قال أنّه كان من الأنبياء، فهو كافر مرتدّ يستتاب، فإن تاب وإلا قتل.

ومن قال أيضاً إنّه كان كافراً وأنّ أباه معاوية كان كافراً وأنّه قتل الحسين تشفّيا وأخذ بثأر أقاربه من الكفار فهو أيضاً كاذب مفتر.

ومن قال أنّه تمثّل لما أُتي برأس الحسين:

لما بدت تلك الحمول وأشرفت تلك الرؤوس على ربى جيرون
نعق الغراب وقلت نح أو لا تنح فلقد قضيت من النبيّ ديوني

أو من الحسين ديوني. فقد كذب.

وإنّ من ينسب إليه قول:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
قد قتلنا الكبش من أقرانهم وعدلناه ببدر فاعتدل

وأنّه تمثل بهذا ليالي الحرّة. فهذا كذب.

ومع هذا فيزيد لم يأمر بقتل الحسين، ولا حُمل رأسه إلى بين يديه، ولا نكث بالقضيب على ثناياه، بل الذي جرى منه هذا، هو عبيد الله بن زياد. ولا طيف برأسه في الدنيا، ولا سبي أحد من أهل الحسين. بل الشيعة كتبوا إليه وغرّروه.

وكان بالعراق طائفتان: طائفة من النواصب تبغض علياً وتشتمه. وكان منهم الحجاج بن يوسف، وطائفة من الشيعة تظهر موالاة أهل البيت، منهم المختار بن أبي عبيد الثقفي. وقد ثبت في صحيح مسلم عن أسماء عن النبي ﷺ أنّه قال: سيكون في ثقيف كذّاب ومبير. فكان الكذّاب هو المختار ابن أبي عبيد الثقفي والمبير هو الحجاج بن يوسف الثقفي»[1].

ويقف واحدنا مدهوشاً مشدوهاً أمام هؤلاء العلماء الذين

(١) سؤال في يزيد بن معاوية ـ شيخ الإسلام أحمد ابن تيميّة، ط ٣، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٨٥، ص ١٤ ـ ١٥.

يسخّرون علمهم وعقلهم وقلمهم وضميرهم للدفاع عن مارق، قاتل، فاسق، آبق والتنكيل بمظلوم مقتول قهراً وعدواناً؟

ونتساءل لماذا فصّل حديث الرسول ﷺ على قياس المختار الثقفي؟ مع أنّ مقدّمات حديثه واعتبار الحجاج بن يوسف من النواصب الذين ناصبوا أهل البيت العداء، تؤدّي لأن يكون هو الكذاب وليس المختار ابن أبي عبيد.

ولقد تعمّدت إيراد فتوى ابن تيمية بيزيد لكي يرى كلّ قارىء ومثقّف عربي ومسلم طريقة معالجة هؤلاء، الذين يسمّون أنفسهم علماء، الأمور والمحطّات التاريخية التي قصمت ظهر الإسلام وقسّمته فرقاً وشيعاً وطوائف.

إسلام الحاكم:

ونحن إذا أردنا أن نأخذ خطباً أو سجلاّت من عهد الحاكم تدلّ على تمسّكه بالإسلام الشيعي الأصيل، نخرج عن الموضوعية، فعهد الحاكم أساء إلى الإسلام الشيعي الجعفري بقدر ما كان فيه من تصرّفات مميّزة تدل على حسن العقيدة وعمق التجربة.

فالقرارات المتناقضة التي كان يأخذها الحاكم أوقعت المؤرّخين المحايدين في حيرة من أمرهم وأعطت المؤرّخين الحاقدين هامشاً كبيراً لتفسير هذه القرارات وتحميلها أكثر ما تحمل من المروق عن الدين والخروج عن الملّة الإسلامية.

ورغم أن الحاكم هو الخليفة الفاطمي الوحيد الذي منع الأذان «بحيّ على خير العمل» واستبدله في «الصلاة خير من النوم»، فلم

يشر إلى هذا الأمر إشارة تدلّ على حسن نية، أي مؤرّخ، بل أشاروا إليها على أنّها من باب الجنون[1].

وقد دافع الكثير من المؤرّخين المعاصرين عن الحاكم أمثال عبد المنعم ماجد ومصطفى غالب وعارف تامر وأثبتوا أن كلّ الذين قتلهم هم من كبار موظفي الدولة الذين أساؤوا بحق الشعب المسلم أو بحق الدولة الفاطمية. وقد قضى الحاكم بسبب زهدّه وتعبّده في جبل المقطم. وقد روى لنا المقريزي أنّه في شهر رجب من سنة ٤٠٣ للهجرة، وكان قد اكتمل نضجه السياسي، والفكري والديني، ولم يعد ولداً يلعب به المستشارون وموظفو القصر، «أنزل من القصر سبعة صناديق فيها ألف ومائتان وتسعون مصحفاً إلى الجامع العتيق، ليقرأ فيها الناس. وأحصيت المساجد التي لا غلّة لها فكانت ثمانمائة مسجد ونيّف. فأُطلق لها في كلّ شهر تسعة آلاف ومائتا درهم وعشرون درهماً. لكل مسجد إثنا عشر درهماً.

وأنزل إلى جامع ابن طولون ثمانمائة مصحف وأربعة عشر مصحفاً وصلى بالجامع العتيق بمصر صلاة جمعة. وهو أول من صلّى فيه من الخلفاء الفاطميين. وأخذ الرقاع بيده ووقف لأهلها وسمع كلامهم، وخالطه العوام، وحالوا بينه وبين موكبه واستماحه قومٌ، فوصلهم بصلات كثيرة. وأهدى إليه قوم مصاحف فقبلها وأجازهم عليها. وكثرت في هذا الشهر إنعاماته فتوقّف أمين الأمناء حسين بن طاهر الوزان عن الدفع، فكتب إليه الحاكم بخطّه بعد البسملة:

الحمد لله كما هو أهله:

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الثاني، م.س. ص ٨٢.

أصبحت لا أرجو ولا أتّقي سوى إلهي وله الفضل
جدّي نبيّ وإمامي أبي ودِيني الإخلاص والعدل

المال مال الله عزّ وجل، والخلق عباد الله، ونحن أمناؤه في الأرض. أطلق أرزاق الناس، ولا تقطعها. والسلام»[1].

هذا هو الحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمي الشيعي الإسماعيلي، الذي أخرجه المؤرّخون من الملّة الإسلامية، وأخرجوا بسببه كلّ المسلمين الشيعة من الإسلام. قالوا عنه أنّه قتل العلماء ولم يذكروا لنا من هم هؤلاء العلماء، في الوقت الذي أشار فيه المؤرّخون الموضوعيّون إلى أنه سمح للمذاهب الأربعة في الفتوى إلى جانب مذاهب الشيعة الجعفرية.

بينما لم نجد أي مؤرّخ من مؤرّخي الدولتين الأيوبية والمملوكية يشير إلى إقدام عبدالله بن الزبير على محاصرة أبناء عليّ وفاطمة في إحدى شعاب المدينة المنورة و «جمعه الحطب لتحريقهم» بسبب امتناعهم عن مبايعته. وحين باشر بإحراق الأحطاب في المكان الذي حصرهم فيه، وصل أبو عبدالله الجدلي بأربعة آلاف فارس من قبل المختار بن أبي عبيد الثقفي وخلّصهم من الحريق[2].

ولم يشر أي واحد منهم إلى أخيه مصعب بن الزبير الذي اعتقل عمرة بنت النعمان بن بشير زوجة المختار الثقفي، وهي صحابية وابنة صحابي. فسألها: ما تقولين عن المختار؟ فقالت: رحمة الله

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الثاني، م.س. ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، الجزء الثالث، ط ١، بيروت، دار الأندلس، لا تاريخ، ص ٧٦.

عليه. إنّه كان عبداً من عباد الله الصالحين. فزجّ بها في السجن. وكتب إلى أخيه أنها تزعم أن زوجها نبيّ. فكتب إليه عبدالله أن أخرجها فاقتلها. فأخرجها بين الحيرة والكوفة بعد العتمة وضربها ثلاث ضربات بالسيف. ورثاها عمر بن أبي ربيعة القرشي فقال[1]:

إن من أعجب العجائب عندي ... قتل بيضاء حُرّةٍ عطبولِ
قُتلت هكذا من غير جرم ... إن لله درّها من قتيلِ
كُتب القتل والقتال علينا ... وعلى المحصنات جرّ الذيولِ

أما الظاهر، فكما قال عنه المقريزي، «كانت أيّامه كلّها سكوناً ولیناً، وهو مشغول بملاذه ونزهاته وسماع الغناء، وأمور الدولة كلّها بيد عمته ست الملك».

وأما المستنصر فقد قضى في الخلافة ستين سنة. وكنا قد أشرنا إلى عهده وما جرى على الدولة الفاطمية من محن ومصائب وشدائد وأفراح وانتصارات وانكسارات في هذه الحقبة، والتي كانت نهاية حقبة الخلفاء الأشداء وبداية عهد الخلفاء السجناء.

ويحدثنا المقريزي عن طريقة إفطار الخليفة الآمر فيقول: «ثم كبّر مؤذنّو القصر، فسمّى الخليفة (قال بسم الله الرحمن الرحيم) وأخذ تمرة وأكل بعضها وناولها للقائد، ثم ناول الثانية لولد الأفضل (ابن كبير الوزراء). فقام كلّ منهما وقبّل الأرض ولم يجلس، وتقدّم كلّ من الحاضرين فأخذ من يد الخليفة من التمر ووقف، وختم المقرؤون. وصلّى القاضي بالناس وتليّ القرآن العظيم.

---

(١) أخبار المختار بن أبي عبيد الثقفي، برواية أبي مخنف، ط ١، بيروت، دار المحجة البيضاء، سنة ٢٠٠٠، ص ١٤٦.

وكانت وفاه وزيره الأفضل بن بدر الجمالي يوم عيد الفطر. فكلفّ الوعّاظ والقرّاء والمنشدين بتغطية مراسم العزاء، وإجرائه على أكمل وجه، فكان عددهم ٤٢٠ شخصاً. وذكر أنّه «خُتم القرآن عليه في ليلتين نيّف وخمسون ختمة». فخرج أمر الخليفة أن يعطى كلّ واحد منهم ثمانين ديناراً، الصغير مثل الكبير، فجاء مبلغ ما دفع نحواً من أربعة وثلاثين ألف ديناراً»[1].

فكيف استطاع مؤرّخو الأكراد نعت هؤلاء الخلفاء بالإلحاد والزندقة، إذا كان هذا التصرّف نموذجاً إسلامياً حيّاً من تصرّفاتهم تجاه أحد رعيّتهم.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الثالث، ص ٦٨ ـ ٧٢.

إسلام الخليفة الآمر في مجال التطبيق العملي

مسامحة كلّ سكان القاهرة باجرة شهر رمضان:

لما كان الخلفاء الفاطميون يملكون عشرين ألف دار وعشرين ألف دكان وآلاف المصابن والأفران ومعاصر قصب السكر والحمّامات في القاهرة ويؤجّرونها للناس، لذلك كانوا يعتبرون من أغنى الناس.

والآمر وهو عاشر الخلفاء الفاطميين المتوفي سنة ٥٢٤ للهجرة، كان له هذا المنشور الذيّ عمّمه على كافة رعايا الخلافة بمناسبة عيد الفطر، وسنستعرضه لكي يدقّق فيه القاريء ويحكم منه على الدولة الفاطمية أو عليها: جاء في هذا المنشور: «من عبدالله ووليه المنصور أبي علي، الآمر بأحكام الله، أمير المؤمنين... بأننا لم نزل منذ ناطت بنا الحضرة المطهرّة، (مقام الإمامة والخلافة)، صلوات الله عليها، الأمور، وعوّلت على كفايتنا في سياسة الجمهور. وردّت إلينا النظر فيما وراء سرير خلافتها، وفوّضت إلى إيالتنا من مصالح دولتها، وعبيدها ورعيّتها، في محاسن الأفعال ناظرين، وعلى بسط العدل والإحسان على الكافة متوفرّين. وبحسن توفيق الله تعالى لنا واثقين، وبمراشده الهادية مسترشدين، فلا ندع وجهاً من دعوة البر إلا قصدناه، ولا باباً

من أبواب الخير إلاّ ولجناه. ولا نعلم أمراً فيه قُربى إلى الله سبحانه إلا أتيناه. ولا شيء يعود بثواب الله وحسن الأحدوثة إلا اعتمدناه. شيمة خصّنا الله تعالى بميزتها، وسجيّة أسبغ علينا جلابيب أمنها وسعادتها، وذلك عملاً بشريف آراء الحضرة المطهّرة، صلوات الله عليها، وبجميل سيرتها، واستمراراً على منهج الدولة الزاهرة، خلّد الله ملكها وبكريم عاداتها، وذهاباً في ذلك مع سجيّتها الحسنى، ونشراً لأريج ذكرها في الأبعد والأدنى. والله تعالى المسؤول أن يعيننا على مصالح الدنيا والدين، ويقضي لنا بالفوز المبين، ويصلح لنا وبنا كلّ فاسد، وينظم لنا عقود السعادة والمحامد، بمنّه.

ولما كان أحسن ما تطرّز به محاسن السير، وتتناقل ذكره ألسنة البدو والحضر، وتجنى ثمرته في الدنيا والآخرة، وتحمد مغبّته في العاجلة والآجلة، التقرّب إلى الله تعالى في كلّ آوان، وابتغاء ثوابه في كلّ زمان، لا سيما شهر رمضان، الذي تزكو فيه أفعال البرّ والصلاح، وتتضاعف فيه الحسنات في الغدو والرواح. رأينا فيه ما خرج منه أمرنا بمسامحة كافة سكّان الرباع السلطانية، بأجرة شهر رمضان من كلّ سنة. إحساناً يسير ذكره كلّ مسير، وتعظيماً لحرمة هذا الشهر الخطير، الذي فضّله الله على جميع الشهور، وأنزل فيه قرآنه المجيد، وفرض صيامه على أهل التوحيد ينسخ في جميع الدواوين حُجّة بمودعه، وليجّلد بالمسجد الجامع العتيق بمدينة مصر، منعاً لمن يروم المماطلة في تنفيذه»[1].

---

(١) الحنفا الثالث، م.س. ص ١٠٤.

وإذا كان الخليفة الفاطمي كلّ همّه «التقرب إلى الله تعالى في كلّ أوان، وابتغاء ثوابه في كلّ زمان». ويسامح كلّ مستأجري «الدور والحمامات والحوانيت والمعاصر والخانات، والطواحين» العائدة ملكيتها لقصر الخلافة في كافة أنحاء بلدان الخلافة، بالإيجار السنوي لسنتي ٥١٦ و٥١٧ هـ. ولمدّة سنتين، فهل هذا الخليفة خارج عن الملّة الإسلامية؟ ومن يحكم بمروقه؟ الأكراد الطارئون، أم أهل بيت الإسلام وبنو الإسلام؟ وما هي موازين الحكم؟.

النصوص الصادرة عنه والتصرّفات الظاهرة التي لم تخرج عن مناسك الإسلام؟ أم نفتح صدرّه وقلبه ونستخرج منه ما وَصَمَهُ به هؤلاء الأدعياء الطارئون من إلحاد وزندقة وخروج عن الملّة الإسلامية.

العاضد آخر خليفة مصري مسلم:

وكان العاضد، آخر الخلفاء الفاطميين، قد أصدر مرسوماً بتعيين أسد الدين شيركوه، وزيراً أولاً في الدولة الفاطمية، فكان كمن أتى بالدبّ إلى كرمه لحمايته وحماية كرمه، فأكله الدبّ وأكل الكرم. ونحن، إذانستعرض هذا المرسوم، فإننا نستعرضه بقصد مطابقته مع العقيدة الإسلامية أو بعده عنها، وخاصة كانت كتابة هذا المرسوم، في آخر سنة من سني الدولة الفاطمية. وقد جاء في هذا المرسوم:

«من عبدالله ووليه، عبدالله أبي محمد، الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجلّ، ... شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين...

سلام عليك: فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلّي على سيدنا محمّد خاتم النبيين، وسيد المرسلين، صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين، الأئمة المهديين، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فالحمد لله القاهر فوق عباده، القادر الذي يعجز الخلق عن دفع ما أودع ضمائر الغيوب من مراده، مؤتي الملك من يشاء بما أسلفه من ذخائر رشاده، ... مؤيِّد امير المؤمنين بإمام أقرّ الله به عينهم، وقضى على يده من نُصرة الدين دَيْنَهم: **﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم﴾** [سورة الأنفال: ٦٣].

والحمد لله الذي خصّ جدنا محمّداً بشرف الاصطفاء والاجتباء. وأقام به القسطاس، وطهر به من الأدناس وألبس شريعته من مكارم الأفعال والأقوال أحسن لباس. وجعل النور سارياً منه في عقبه لا ينقصه كثرة الاقتباس: **﴿وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾** [سورة يوسف: ٣٨].

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لأن يقوم في أمتّه مقامه، وأوضح به منار الحقّ وأعلامه، وجعله شهيد عصره وحجّة أمره، وسبيل حقّه، وشفيع أوليائه، المفترض الطاعة على كلّ مكلّف، والغاية التي لا يقصّر عنها بولائه، إلاّ من تأخّر في مضمار النجاة وتخلّف. والمشفوع الذكر بالصلاة والتسليم، والهادي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم. لا يقبل عمل إلاّ بخفارة ولائه، ولا يضلّ من استضاء بانجم هدايته اللامعة. ولا دين إلاّ به ولا دنيا إلا معه، ليتضح النهج

القاصد، ولتقوم الحجة على الجاحد. وليكون لشيعته إلى الجنّة نعم الشافع والرائد. وليبيّن لهم الذي اختلفوا فيه، وليعلموا إنّما هو إله واحد.

ويسأله أن يصلّي على سيّدنا محمّد الأمين، المبعوث رسولاً في الأميّين، الهادي إلى دار الخلود، والمعدود أفضل نعمة على أهل الوجود. وعلى أبينا، أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب، ناصر شريعته، وقسيمه في النسب والسَّبب. ويد الحقّ التي حُكِمَ لها في كلّ طلب بالغَلَب، وعلى الأئمة من ذرّيتهما، وسائط الحِكم، ومصابيح الظُّلَم، ومفاتيح النِعَمْ.

وإنّ أمير المؤمنين لِما فوّضه الله تعالى إليه من إيالة الخليقة، ومنحه من كَرَم السجية وكرم الخليقة، ... قد ارتضاك، واختارك على ثقة من أن الله تعالى يحمدْ فيك عواقب الاختيار...»[1].

وعندما توفي أسد الدين شيركوه، قلّد الخليفة العاضد مكانه ابن أخيه صلاح الدين يوسف ومما جاء في مرسوم تعيينه:

«أما بعد، فالحمد لله مصرّف الأقدار، ومشرّف الأقدار ومُحصي الأعمال والأعمار، ومُبتلي الأخيار والأبرار، وعالم سرّ الليل وجهر النهار، وجاعل دولة أمير المؤمنين فلكاً تتعاقب فيه أحوال الأقمار... وإنّ الله سبحانه، ما أخلى قطّ دولة أمير المؤمنين، التي هي مهبط الهدى، ومحطّ الندى، ومورد الحياة للوليّ والرّدى للعِدا... وصرّف أمور

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا المجلّد العاشر القلقشندي، ط ١، بيروت دار الكتب العلمية، سنة ١٩٨٧، ص ٨١.

المملكة، فإليك الصرف والتصريف، واملأ لحظاً من نور الله تعالى حين تتّقي الابصار لُجين الأجفان، إنّ هذا لهو الفضل المبين، فاربطه بالتقوى التي هي عروة النجاة، وذخيرة الحياة والممات وصفوة ما تلقّى آدم من ربِّه من الكلمات، وخيّر ما قدّمته النفوس لغدها في أمسها. قال الله سبحانه، ومن أصدق من الله قولاً؟ ﴿**والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا**﴾ [سورة النساء: ٧٧]. (واستَتِمْ بالعدل نِعَم الله تعالى عليك، وأحسن كما أحسن الله إليك. وأمُرْ بالمعروف فإنك من أهله. وأنْه عن المنكر كما كنت تنزّهت عن فعله»[١].

هذا هو رأي الخليفة العاضد بأسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف، وهو الشاب الغرّ الذي مات عن ثلاث وعشرين سنة، مات غمّاً وقهراً من اعتداء وتعدّي هؤلاء الأكراد على إمامته وخلافته وشعبه ونبيّه وأهل بيته).

وكان القاضي النعمان الذي وضع أسس المذهب الفاطمي الإسماعيلي قد أشار إلى خروج بعض الدعاة عن أسس هذا المذهب وخلطهم الفلسفة بالدين[٢].

وكان الفاطميون يرون أن خلفاء بني العباس دخلاء على هذا المنصب الإلهي الخطير، وهم وإن كانوا يرتبطون بأواصر القرابة مع النبي، ولكنها آصرة بعيدة، لا تمكنّهم من تسلّم منصب خطير كمنصب الخلافة، «فأما الخلافة، فما جعل الله عزّ وجلّ للعبّاس بن

---

(١) صبح الاعشى، المجلّد العاشر، م.س. ص ٩٨.

(٢) راجع: المجالس والمسايرات. م.س. ص ٤٠٨.

عبد المطلب فيها حظّاً، وما هو منها بشيء، لأنّه ليس من المهاجرين، ولا من العشرة المبشّرين بالجنة، ولا من العشرة الذين تُوفّي رسول الله وهو عنهم راض، ولا أدخل في الشورى، ولا التمسها لنفسه في وقت من الأوقات. وإنّما خصّ الله بها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عليه السلام. وامتُحِن بها من بعد رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلّم، رفعاً لدرجته في جنّات النعيم، فصبر على مضض، ابتغاء لما يبقى في الدار (الإسلام) التي لا تبيد ولا تغنى. وصارت لولده من بعده. وكانوا أحقّ بها وأهلها. فغصبهم بنو أمية الكفرة الفجرة، الشجرة الخبيثة الملعونة في القرآن، ثم بنو العباس، رضوان الله على العباس، من بعدهم. فأطفأوا نور الله، وبدّلوا الحقّ بالباطل، وكانوا مثل الملوك الذين عتوا بالأرض من قديم الدهر، وجعلوا الملك بينهم ميراثاً»[1].

ولم يسلم خلفاء بغداد من هجاء الشعراء فمن مليح ما قاله ابن حيّوس في هجاء الخليفة القائم العبّاسي[2]:

عجبت لمدّعي الآفاق ملكاً ... وغايته ببغداد الركود
ومن مستخلف بالهون يرضى ... يذاد عن الحياض ولا يذود
وأعجب منهما شعبٌ بمصر ... تقام له بسنجار الحدود

وكانت الدعوة الإسماعيلية مثلها مثل أي حزب له مقرّات ومكاتب حزبية في القرى والمدن والأقطار وقد أخبرنا المقريزي حين تحدّث عن الخلاف الذي وقع بين والي القيروان المعزّ بن باديس

---

(١) عيون الأخبار، وفنون الآثار، السبع الخامس. م.س. ص ١٣٤.
(٢) اتعاظ الحنفا، الثاني. م.س. ص ٢٣٤.

الصنهاجي والوزير أبي محمد اليازوري، حيث أقدم المعزّ بن باديس، نكاية باليازوري «إلى تحويل الدعوة لبني العباس، وقطع الدعاء للمستنصر، وأزال اسمه من الطراز والرايات، ودعا للقائم العباسي، ونشر الرايات السود (أنصار بني العباس) وهدم دار الدعوة الأسماعيلية في القيروان»[1].

وقد كان الخلفاء الفاطميّون يميّزون الدعاة بالاحترام الزائد والرواتب الزائدة والمخصّصات الزائدة عن أي موظف آخر حتى ولو كان كبير الوزراء. وكبير الوزراء له سلطة على كلّ الموظفين بما فيهم القضاة، ما عدا الداعي، وقد أخبرنا المقريزي الكثير عن اعتقال القضاة وعزلهم من قبل الوزراء ولكنه لم يخبرنا أبداً عن اعتقال داع وعزله من قبل الوزراء أو الخلفاء[2].

وكان لداعي اليمن احترام خاص وميزة خاصّة وكان الخلفاء الفاطميّون يقدّمون داعي اليمن على كلّ الدعاة. فمن أصول مراسم عيد الأضحى (النحر) أن تكون أول ناقة ينحرها الخليفة، «تقدّد وترسل إلى داعي اليمن فيفرّقها على المعتقدين (الحزبيّن) بمعدل نصف درهم إلى ربع درهم وزناً، تبرّكاً من يد رئيس الحزب أو رئيس الدعوة وهو الإمام والخليفة في نفس الوقت[3]، وهذا ما يفسر لنا الارتباط الروحي الذي ما زال قائماً بين اليمن ومصر حتى اليوم.

---

(١) م.س. نفسه ص ٢١٦.

(٢) راجع: أخبار مصر في سنتين، ابن المأمون، ط ١، القاهرة، طبعة المعهد العلمي الفرنسي، سنة ١٩٨٣، ص ٨٠٠.

(٣) راجع: الخطط المقريزية: الأول، ص ٤٣٧.

وكان راتب الداعي يبلغ مئة دينار شهرياً علماً أن الحد الأدنى للأجور كان حينها ثلاثة دنانير شهرياً أي ما يقارب سبعة آلاف دولار أميركي بسعر صرف الدولار في لبنان حين كتابة هذه السطور.

وكان من الممكن أن يتسلم الداعي منصب القاضي، ولكن لا يحق للقاضي أن يكون داعياً، لأن القاضي ربما كان سنّياً أو شيعياً إمامياً أو زيدياً. بينما الداعي يجب أن يكون فاطمياً إسماعيلياً مُلِّماً بعلوم أهل البيت حسب التفسير الفاطمي الإسماعيلي لها.

وصف مكاتب القيادة:

وكان لداعي الدعاة في القاهرة مكتباً خاصاً به يطلق عليه اسم المحوّل. ولماذا أطلق هذا الاسم على مكتب قيادة الحزب أو الدعوة، ربما لأن الخليفة حوّل كلّ مشاكل الحزب والدعوة إلى هذا المكتب أو القصر. وقد وصف محقّق كتاب اتعاظ الحنفا مكتب قيادة الحزب الإسماعيلي أو الدعوة الإسماعيلية الرئيسي في القاهرة فقال: المحوّل وهو مجلس الداعي في القصر الذي خصّص لنشاط الدعاة الرسميين الفاطميين بالقاهرة. ويعرف بقصر البحر ويدخل إليه من باب الريح وبابه من باب البحر. وكان داعي الدعاة يصلّي بالناس في رواقه أثناء انعقاد الاجتماعات (الحزبية) فيه. ومما يروى عن نشاط الدعاة فيه، أن القاضي محمد بن النعمان جلس على كرسي بالقصر لقراءة علوم آل البيت، كعادته وعادة أخيه بمصر وأبيه بالمغرب، فمات في الزحمة أحد عشر رجلاً فكفّنهم العزيز بالله»[1].

---

(١) اتعاظ الحنفا، الثالث. م.س. ص ١٦٨.

رأي المقريزي بالدعوة الإسماعيلية الفاطمية:

عندما يتحدّث المقريزي عن نزار بن المستنصر يقول: «والإسماعيلية، وملاحدة العجم وملاحدة الشام، تعتقد إمامته وتزعم أنّ المستنصر كان قد عهد إليه وكتب اسمه على الدينار والطرز (الأعلام)، وأنّ المستنصر قال للحسن بن صباح: إنه الخليفة من بعدي»[1].

ونلاحظ أن المقريزي لم ينعت الإسماعيلية بالإلحاد وفرّقهم عن ملاحدة العجم وملاحدة الشام. ولو كان يؤمن بخروجهم عن الملّة الإسلامية لما تردّد عن الإشارة إلى إلحادهم.

وبالرغم من خروج بعض الدعاة والشعراء عن الحدّ، واتجاههم إلى الغلوّ في العقيدة، وفي موقع الإمامة والخلافة، فلا يجوز أن نلصق تهمة الإلحاد، بالفاطميين وبالإسماعيلية. ويقول محمد كامل حسين أنّه: «في الوقت الذي نرى فيه أنّ الفاطميين أقاموا دولتهم على أساس ديني إسلامي، وأنّ الخلفاء الفاطميين اتخذوا سندهم من نسبتهم إلى الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، وأنّ الفاطميين احتفلوا بالأعياد الدينية الإسلامية احتفالاً لم يعهد من قبل، وأنّهم أسّسوا المساجد لإقامة الصلوات، وكانوا يخرجون لإمامة الناس والخطبة في الأعياد، إلى غير ذلك من المظاهر التي تشعر بأنّ الفاطميّين كانوا من أشد الناس حرصاً على الإسلام وتقاليد المسلمين، نرى في الوقت نفسه كتباً تذهب إلى أنّ الفاطميين كانوا

---

(١) اتعاظ الحنفا، الثالث. م.س. ص ١٥.

يقولون بالإباحة وتحليل ما حرّمه الله تعالى، ونبذوا الصلاة والصوم والحج، بل عملوا على طرح الأديان، ودانوا بالتناسخ والحلول والتلاشي، وادّعوا معرفة الغيب... إلى غير ذلك. قرأنا ذلك كلّه وعجبنا أشد العجب لهذا التناقض»[1].

ويخبرنا محمد كامل حسين بأنّ الحل هو العودة إلى أدبيات الفاطميين وكتبهم، لأنّ محبّهم أنصفهم، ومبغضهم ظلمهم في أحكامه عليهم.

ويقول محمد كامل حسين عن المذهب الإسماعيلي والدعوة الإسماعيلية: «وإذا قرأنا كتب الفقه الإسماعيلي مثل كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان وكتاب المجالس المستنصرية، وجدنا أنّ الفقه الإسماعيلي لا يكاد يختلف عن فقه أهل السنّة وفقه مالك على وجه خاص. مع أنّ الإسماعيلية لا يأخذون أحكامهم بالرأي ولا بالقياس، إنما يأخذون بالأحكام التي يشرّعها الإمام.

إذاً فالمؤرخ والكاتب الكبير محمد كامل حسين يعتبر أن ليس هناك كبير فرق أو خلاف بين العقيدة الإسماعيلية وعقائد أهل السنّة.

ويقول أيضاً أنّ: «القدماء أخطأوا في إطلاق لقب الباطنية على الفرقة الإسماعيلية، لأنّ هذه الفرقة تدين بالباطن، والإسماعيلية يقولون بالباطن حقاً، ولكنّهم يقولون بالظاهر أيضاً. وأوجبوا الاعتقاد بالظاهر والباطن معاً. بل كفّروا من اعتقد بالباطن دون الظاهر، أو بالظاهر من دون الباطن. وفي ذلك يقول الداعي المؤيّد في الدين

---

(١) أدب مصر الفاطمية، ص ٥.

هبة الله الشيرازي من عمل بالباطن والظاهر معاً فهو منّا، ومن عمل بأحدهما دون الآخر، فالكلب خير منه، وليس منّا. فالإسماعيليون لا يقولون بالباطن فقط، كما توَهَّمَ القدماء، بل أنّ الظاهر أساسٌ من أسس عقيدتهم أيضاً»[1].

ولكن نتساءل؟: من أين هذا الحقد التاريخي على الشيعة والتشيّع في مصر الفاطمية وفي كافة العالم الإسلامي؟.

يجيبنا على هذا التساؤل أحد المؤرّخين المعاصرين حيث يقول: «يأبى الكثير من المؤرّخين إلا أن يتأثّروا بالدعايات الكاذبة، ويأخذوا بأقوال المنحرفين عن الحقّ الذين أصبحوا آلة طيّعة بيد حكّام دفعتهم شهواتهم، وحرصوا على سلطان الاستبداد بأمور الأمّة، ألاّ يروا فضيلة لأهل البيت إلا ضيّعوها، ولا مكرمة إلا أخفوها، حسداً منهم، وخوفاً على سلطانهم. نعم يأبى كثير من المؤرّخين إلا أن يسيروا مع التيار الجارف من آراء قوم يصعب عليهم وحدة الصفّ، ويثقل على أنفسهم جمع الكلمة، فتعمّدوا إثارة الفتن، وتشويه الحقائق بالدسّ والافتراء والتقوّل بالباطل. وهدفهم في ذلك كلّه أنّهم لا يريدون أن يحصل صفاء بين المسلمين، فربطوا تاريخ الغلاة بتاريخ الشيعة، وعقائدهم بعقائد الشيعة»[2].

---

(١) طائفة الإسماعيلة، محمد كامل حسين، ط ١، القاهرة: مكتبة النهضة العصرية، سنة ١٩٥٩، ص ١٤٧.

(٢) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، أسد حيدر، المجلّد الرابع، ط ٢، بيروت دار الكتب العربي، سنة ١٩٧١، ص ٣٦٩.

مؤرخو الأكراد يخرجون عترة النبي من بيته ويدخلون الأكراد مكانهم:

لقد تحدثنا عن محاضر الطعن بنسب الأئمة الخلفاء الفاطميين التي دأب خلفاء بني العبّاس على تنظيمها وإجبار علماء وقضاة السنة على توقيعها، وكنا قد أشرنا إلى تمنّع الشريف الرضي التوقيع على أحد هذه المحاضر، وبدل أن يوقع نظم قصيدة ربط فيها نسبه بنسب خلفاء مصر والتي جاء فيها[1]:

ما مقامي على الهوان وعندي ... مِقْوَلٌ صارمٌ وأنفٌ حَمِيُّ
ألبس الذلّ في ديار الأعادي ... وبمصر الخليفة العلويُّ
من أبوه أبي ومولاه مولاي ... إذا ضامني البعيد القصيُّ
لفّ عِرْقي بعرقه سيّدا الناس ... جميعاً، محمّدٌ وعليُّ

وقد ذكر ابن الأثير في تاريخه هذه الحادثة وهذه القصيدة وقال إنّ الخليفة القادر عاتب والده النقيب أبي أحمد الموسوي عليها، وأن النقيب الموسوي طرد الشريف الرضي من بيته بسبب تمنّعه عن إنكاره القصيدة[2].

وبالرغم من كلّ هذه المقدّمات التي أشرنا إليها في الفصل الذي تحدّثنا فيه عن محضر الطعن بنسبهم، أصرّ مؤرّخو الأكراد أن يطردوهم من بيت جدّهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولفّقوا بالمقابل نسباً جديداً للغزاة الجدد، الذين غزوا مصر وذلّوا شعبها أيّما إذلال، الأكراد الأيوبيّون، وأوصلوهم فيه لبني أمية.

---

(١) ديوان الشريف الرضي، الجزء الثاني، ط ١، بيروت، دار بيروت للطباعة سنة ١٩٩٦، ص ٥٧٦.

(٢) راجع: الكامل في التاريخ السادس، م.س. ص ١٢٤.

يقول ابن أيبك الدواداري: «قال العبد الفقير المعترف بالتقصير، واللسان القصير[1]، مؤلّف هذا التاريخ سألت ذات يوم ـ ناصر الدين محمد الملقب بالملك الكامل ـ رحمه الله ـ ذات يوم، عن جدّهم أيّوب، ابن منّ؟ فقال: أيوب بن شاذي ابن مروان، أكراد من جبل نهاوند... وادّعى بعضهم النسب إلى بني أميّة. وكان الملك إسماعيل بن سيف الإسلام ـ صاحب اليمن يدّعي ذلك. ولقّب نفسه المُعزّ لدين الله، وخطب لنفسه بالخلافة باليمن. والذين ادّعوا هذا النسب قالوا: أيوب بن شاذي، بن مروان، بن الحكم، ابن عبد الرحمن، بن محمد، بن عبد الرحمن، ابن الحكم، بن هشام (عبد الرحمن الداخل) بن معاوية بن هشام، بن عبد الملك، بن مروان بن الحكم بن العاص، بن أمية، بن عبد شمس، ابن عبد مناف وفي عبد مناف يجتمع نسب رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ مع نُسب بني أميّة. فهذا قول من جعل نسبهم في بني أمية»[2].

وهكذا وصل الحدّ بمؤرّخي الأكراد إلى طرد أصحاب البيت من بيتهم وإخراجهم من ملّة أبيهم وجدّهم وإحلال الآبقين[3] مكانهم في البيت والعقيدة والنسب. فلعن الله كلّ من دلّس ووضع وتجنّى على العترة النبوية الطاهرة، وغفر لكل من أظهر الحق، ونطق الصدّق وتواضع واتعظ، لأن الوضع من الوضاعة والحقّ من الحقيقة.

فأين ملوك بني أمية من الخلفاء الفاطميين وأين ملوك بني

---

(١) إذا كان لسانه وصل ما بين الجزيرة العربية وكردستان فكيف ينعته بالقصير.

(٢) الدر المطلوب في أخبار بني أيّوب، م.س. ص ٦.

(٣) الآبق: هو العبد الهارب من سيده.

العباس من أئمة الفاطميين، وأين قول يزيد:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحيٌ نزل

وقول تاج الملوك بوري شقيق صلاح الدين الأيوبي في وصف شهر رمضان[1]:

رمضان بل مرضان إلاّ أنّه أخطوا إذاً في قولهم وأساءوا

مرضان فيه تخالفا فنهاره سلٌ ولكن ليله استسقاء

ومن قول الخليفة المُعزّ لدين الله الفاطمي[2]:

«طلبت الرفعة وجدتها في التواضع، وطلبت المودة وجدتها في الصدق، وطلبت الرياسة وجدتها في العلم، وطلبت الكرامة وجدتها في التقوى، وطلبت النصرة وجدتها في الصبر، وطلبت العبادة وجدتها في الورع، وطلبت الغنى وجدته في القناعة، وطلبت الشكر وجدته في الرضا وطلبت الراحة وجدتها في ترك الحسد، وطلبت ترك الغيبة وجدتها في الخلوات، وطلبت الملك وجدته في الزهد، وطلبت العافية وجدتها في الصمت، وطلبت الأنس وجدته في ترتيل القرآن، وطلبت قتل الحيران وجدته في ذكر الله، وطلبت البر وجدته في الأنفس السخية، وطلبت رحمته يمن علينا بها».

معدّ أبو تميم (المعز لدين الله)

فهؤلاء هم أصحاب الإسلام الأصيل الذين لا يشوب كلامهم عجمة ولا لكنة.

---

(١) الدر المطلوب في أخبار بني أيوب. م. س. ص٧٧.

(٢) ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، عبد المنعم ماجد، م.س. ص ٥.

السبأية: أول دعوة للإلحاد في الإسلام
خرافة أم حقيقة

أخذ كلّ من يريد قذف الشيعة بجميع فرقها بالإلحاد والزندقة والخروج عن ملّة الإسلام، بإلحاق هذه الطائفة أو تلك بعبدالله بن سبأ أو بالسبأية. فمن هو عبدالله بن سبأ ومن هي السبأية[1]؟.

يقول مرتضى العسكري: «منذ ألف سنة، والمؤرّخون يكتبون عن ابن سبأ كثيراً، وينسبون إليه وإلى السبئيين، أتباعه ـ أعمالاً مدهشة خطيرة. فمن هو ابن سبأ، ومن هم السبئيون؟ وما هي دعاواه؟ وما هي أهم أعماله؟ ويجيبنا مرتضى العسكري على هذه الأسئلة فيقول: يتلخّص ما زعموا بأن يهودياً من صنعاء اليمن، أظهر الإسلام في عصر عثمان واندسّ بين المسلمين، مبشرّاً بأن للنبيّ محمد ﷺ رجعة، كما أن لعيسى ابن مريم رجعة. وأن علياً هو وصيّ محمد ﷺ. كما كان لكل نبي وصي، وأن علياً خاتم الأوصياء، كان

(١) راجع: عبدالله بن سبا وأساطير أخرى، السيد مرتضى العسكري، ط ٦، بيروت، دار الزهراء، سنة ١٩٩١، ص ٧٦.

محمد ﷺ خاتم الأنبياء، وأن عثمان غاصب حق هذا الوصي وظالمه، فيجب مناهضته لإرجاع الحق إلى أهله وسمّوا بطل قصّتهم عبدالله بن سبأ، ولقّبوه (بابن الأمةِ السوداء).

ويحدثنا مرتضى العسكري عن كلّ ما ذكرته الأسطورة عن عبدالله بن سبأ وعن نشاطاته ودعوته لعليّ ومحاربته لعثمان. وبعد أن ينتهي من تلخيصه أسطورة عبدالله بن سبأ، يعالج النصوص التاريخية التي ذكرت هذه الأسطورة بدءاً بالطبري وانتهاء بالحافظ ابن كثير، ويخرج بمحصّلة أنهم كلهم نقلوا عن الطبري وكلّ ناقل حرّف وزاد في هذه الأسطورة عن سابقه.

وبعد أن ينتهي من نصوص المؤرّخين ودحضها وتبيان تحريف اللاحق عن السابق من مؤرّخين متأخرّين ومتقدّمين يتجه إلى النص الأساسي المأخوذ من تاريخ الطبري، فيجد أن الطبري أخذه عن سيف بن عمر التميمي فيعرّف بسيف المتوفي سنة ١٩١ هجرية أي بعد مئة وستين سنة لمقتل عثمان بن عفان (رض). فيستعرض آراء الرواة الثقاة العدول بسيف بن عمر التميمي فنقل عدة آراء لهؤلاء الرواة، منهم[١]:

يحيى بن معين في كتابه ميزان الاعتدال الذي قال عنه: ضعيف الحديث، فِلْسٌ خير منه.

وعن أبي داوود: ليس بشيء، كذاب.

---

(١) المراجعات، السيد عبد الحسين شرف الدين، ط خمسة، بيروت دار الأندلس، سنة ١٩٦٣، ص ٤١.

وعن النسائي: متروك الحديث وليس بثقة.

وعن ابن أبي حاتم: متروك الحديث.

وعن ابن حبان: كان يضع الحديث، اتهم بالزندقة.

وعن الحاكم: متروك، اتّهم بالزندقة.

وعن الفيروزآبادي: صاحب تواليف.

وينتهي مرتضى العسكري بالاستنتاج أنّ سيف بن عمر التميمي، هو نسخة طبق الأصل عن أسطورته عبدالله بن سبأ، وأنّه وضع كلّ هذه المرويات ودلّس كلّ هذا التدليس للطعن على الإسلام والمسلمين، ولشقّ صفوف هذا الدين وقد دأب كلّ مؤرّخي الأكراد والأتراك بإلصاق تهمة السبأية والديصانية بالشيعة الإمامية والشيعة الفاطمية الإسماعيلية والشيعة الزيدية.

واعلم أيها القارىء أنّ الفرق الإسلامية الشيعية براء من عبدالله بن سبأ وديصان وكلّ ما يخالف أركان الإسلام وعهوده ومواثيقه التي وردت في العهد وحلفان اليمين الذي يأخذه المأذون على المكاسرين والأنصار الجدد.

مظاهر الاختلاف بين السنة والشيعة

لم تعرف الإنسانية خلافاً فكرياً وعقائدياً استمر ولا يزال مستمرّاً عبر تاريخها الطويل، كالخلاف السنّي الشيعي، فالخلافات بين الطوائف المسيحية ضمرت وارتدّت إلى النفوس وكمنت فيها حتى اختفت من أكثرها، بعد اضمحلال وتراجع الفكر المسيحي وحلول العولمة في نفوس مريديه مكانه.

أما الخلاف الإسلامي السنّي الشيعي، فهو بدأ منذ بيعة السقيفة واستمر حتى اليوم، فنجده متمثلاً في الكتب الحديثة، ككتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، حيث نجد محقّق الكتاب الشيخ خليل الميس، يضيف في حاشية كلّ خبر أو شاعر يذكره ابن الأثير في المتن عن أي فقيه أو عالم شيعي، أنّه «رافضي سبّاب لعنه الله»، ولا تخلو صفحة أو هامش من صفحات أجزاء الكتاب التسعة من شتيمة أو لعنة بحق الإسلام الشيعي والتشيع الإسلامي.

وكذلك أشرنا إلى تعليقات أحمد عرفات القاضي في كتابه عن الباطنية.

ولما كان الإسلام دين عبادات ومعاملات وتعاملات، أدّى الخلاف في تفسير الآيات والأحاديث النبوية الشريفة إلى خلاف في تطبيق العبادات والمعاملات. من هنا كان الخلاف يتفجّر يومياً بين طرفي الإسلام في تطبيق أي أمر من أمور العقيدة والمعاملات، وما أكثرها يومياً، في المسجد والسوق والبيت والدواوين الرسمية.

مظاهر الاختلاف بين الشيعة:

لم تختلف فرق الشيعة التي استطاعت الاستمرار كالإمامية والزيدية والإسماعيلية في العبادات والمعاملات، فكلها تعتمد على فقه الإمام جعفر الصادق وعمّه الإمام عليه السلام زيد في تفسير هذه العبادات والمعاملات، ولكنها اختلفت في تسمية الإمام، وما زال الاختلاف على الإمام لا يؤدّي إلى الخلاف في المسجد والبيت والسوق والدواوين فكل هذه الفرق تنفذ العبادات والمعاملات بنفس الطريقة، ولا تستطيع تفريق مريديها من بعضهم إلاّ إذا سألته عن إمام زمانه.

مظاهر الاختلاف بين السنة والشيعة:

بدايتها:

بدأت تظهر الخلافات بين السنّة والشيعة منذ بيعة السقيفة واستمرّت بعد تولّي الخلفاء الراشدين منصب الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله. فقد قام عمر بن الخطاب(رض)، بتطبيق بعض العبادات والمعاملات خلافاً للنص القرآني والأحاديث النبوية الشريفة ـ حسب قول علماء الشيعة ـ، وازدادت الخلافات بعد مقتل عثمان بن

عفان(رض)، وحروب الجمل وصفّين وتولّي معاوية الخلافة ولعنه على المنابر، الإمام علي ومقتل الحسين ـ عليه السلام ـ. وبعد مقتل الحسين، انحسرت موجة الخلافات، ولم يعد يصدر أي موقف جديد يؤدي إلى خلاف مستجّد وسنوجز هذه الخلافات وأثر كلّ خلاف على التطبيق العملي في الحياة اليومية، وخاصة أيّام الدولة الفاطمية.

الإمامة خلافة ظلّ:

بعد أن اغتصب الأمويون منصب الخلافة من الطالبيّن ومن بعدهم العبّاسيّون، جعل الطالبيون من الإمامة خلافة ظلّ، وقد روت كتب التاريخ، التحريض الذي كان يحرّضه الحاقدون، لهارون الرشيد ولولده المأمون، على موسى الكاظم وولده عليّ بن موسى الرضا، عليهما السلام. إذ كانوا يقولون لهما، إنّ الأموال تجبى لهما من أقاصي الدنيا.

واستمرّت الإمامة بخطٍّ متواز مع الخلافة بالرغم من انقسامها بين زيدية وإمامية وإسماعيلية، حتى استطاعت بناء خلافة لها في المغرب ومصر، ومن ثمّ العالم الإسلامي كلّه.

وكان للإمامة وللخلافة الشيعية في نفوس أنصارها ومريدها من الأثر، أكثر بكثير من أثر الخلافة العباسية في نفوس أنصارها. فالخليفة أو الإمام الشيعي، كان يملك النفوس ويعتبره أنصاره أنّه نصف إله ـ معصوم عن الخطأ، يملك أرواحهم وأموالهم وأولادهم، وما زالوا حتى اليوم ينظرون لإمامهم المنتظر نفس النظرة، ولولّي الفقيه الذي يقوم مقام الإمام المغيّب، نفس صلاحيات الإمام المنتظر(عج)، باستثناء العصمة، والعصمة لا تمنع ولي الفقيه عن امتلاك النفوس والنصوص

والأموال. فولّي الفقيه الحالي، الإمام السيد علي الخامنئي، علوي طالبي هاشمي قرشي، وحفيد أصحاب الكساء عليهم السلام، يملك جميع صلاحيات الإمام المنتظر، وصفاته ما عدا العصمة.

الخلافات في الفروع لا في الأصول:

تؤمن الطائفتان الإسلاميتان: السنّة والشيعة بكلّ أركان الإسلام من صلاة وصوم وحجّ وجهاد وزكاة وخمس والإيمان بالله وباليوم الآخر.

وعندما أتى المسلمون يطبّقون هذه العبادات في حياتهم اليومية ظهر الخلاف، ففرق الشيعة تقول بلسان أحد أئمّتها المعاصرين: «إنّ تعبّدنا في الأصول وفي الفروع بغير المذاهب الأربعة، لم يكن لتحزّب أو تعصّب، ولا لريب في اجتهاد ائمّة تلك المذاهب، ولا لعدم عدالتهم وأمانتهم ونزاهتهم وجلالتهم علماً وعملاً. لكنّ الأدّلة الشرعية أخذت بأعناقنا إلى الأخذ بمذهب الأئمة من أهل بيت النبوّة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي والتنزيل. فانقطعنا إليهم في فروع الدين وعقائده، وأصول الفقه وقواعده، ومعارف السنّة والكتاب، وعلوم الأخلاق والسلوك والآداب، نزولاً على حكم الأدلّة والبراهين، وتعبّداً بسنة سيّد النبيين المرسلين، صلّى الله عليه وآله وعليهم أجمعين. ولو سمحت لنا الأدلّة بمخالفة الأئمة من آل محمّد، أو تمكّنا من تحصيل نيّة القربى لله سبحانه في مقام العمل على مذهب غيرهم، لقصصنا أثر الجمهور، وقفونا اثرهم... وما أظنّ أحداً يجرؤ على القول بتفضيلهم، في علم أو عمل، على أئمتّنا، وهم أئمة العترة الطاهرة وسفن نجاة الأمة، وباب حطّتها،

وأمانها من الاختلاف في الدين، وأعلام هدايتها، وثقل رسول الله، وبقيّته في أمته. وقد قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: فلا تقدّموهم فتهلكوا، ولا تقصّروا عنهمه فتهلكوا، ولا تعلّموهم فهم أعلم منكم»[1].

ونقل السيد عبد الحسين شرف الدين أيضاً عن الإمام علي عليه السلام قوله:

نحن الشعار، والأصحاب والخزنة والأبواب، ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سُمِّيَ سارقاً».

وقوله أيضاً: «نحن شجرة النبوّة، ومحطّ الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكمة، ناظرنا ومحبّنا ينتظر الرحمة، وعدوّنا ومبغضنا ينتظر السطوة».

ونقل قول النبي صلى الله عليه وآله: يا أيّها الناس: إنّي تركت فيكم ما إن تمسّكتم به، لن تضلّوا بعدي: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردّا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[2].

وانطلقت فرق الشيعة من هذه الأقوال والأحاديث كي تردّ على كلّ من خالف طريقة تنفيذ الأئمة من أهل البيت للعبادات والمعاملات.

ولن ندخل في رأي أئمة الشيعة وعلمائها في طريقة تنفيذ كلّ معاملة أو تعبّد وبراهينهم على صحة تنفيذها، فهي موجودة كلّها في كتاب المراجعات، وهو عبارة عن أسئلة تقدّم بها شيخ الأزهر للسيد

---

(١) المراجعات، السيد عبد الحسين شرف الدين، م. س. ص ٥٠.

(٢) راجع: النص والاجتهاد، ص ٢١٣.

عبد الحسين شرف الدين، تتضمّن كلّ الخلافات التاريخية في العبادات والمعاملات وقد أجابه السيّد عليها كلّها وأوردها في كتابيه المراجعات، والنص والاجتهاد.

وأهم هذه الخلافات هي:

١ ـ الخلافة أو الإمامة:

ترى فرق الشيعة أنّ الخلافة يجب أن تكون بعلي وبنيه حسب ما نصّ عليها النبي ﷺ في غدير خمّ وأنّ خلافة الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين خلافة مغتصبين لحقّ علي وبنيه وأنّ علياً عليه السلام، إن بايع، فهو بايع لرأب الصدع ومنع الفرقة بين المسلمين.

٢ ـ زواج المتعة:

ترى فرق الشيعة أن هذا الزواج حلّله القرآن بنص صريح وحلّله النبيّ بأحاديث واضحة، وحرّمه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في خطبته المشهورة، فكيف لخليفة أن ينسخ أمراً إلهياً مؤكداً بأمر نبوي؟

٣ ـ الأذان:

تعتبر فرق الشيعة أن بلالاً مؤذّن الرسول أذّن بحي على خير العمل في الأذان، في المدينة وأن عمر بن الخطاب أبطل هذا الأذان، واستبدله: الصلاة خير من النوم في أذان الصبح.

٤ ـ تختلف فرق الشيعة عن السنة في قضية الطلاق:

فالطلاق عند الشيعة لا يتم إلا بوجود شاهدين عدلين، وعن طريق وكيل الإمام أو وليّ الفقيه وهو الشيخ أو العالم، ومهما طلّقها بلسانه لا يتمّ الطلاق إلا بعد أن يحصل فعلاً، ويحصل فراق ثم رجعة وفراق ثم رجعة وفراق ثم رجعة فتحتاج إلى إنكاح غيره أو ما يسمّى بالمحلّل.

صلاة التراويح:

وهي الصلاة التي يقيمها المؤمن في رمضان وقد أجبر عمر بن الخطاب(رض) المصلّين على تنفيذها في أوقات محدّدة ومعلومة وهي بدعة، وقد اعترف بنفسه أنّها بدعة حين قال: نعمت البدعة هذه[1].

صلات الجنائز وعدد التكبيرات فيها:

روى علماؤنا وائمّتنا أنّ التكبيرات على الميّت يجب أن تكون أربعة، بينما يكبّر أهل السنّة خمس مرات.

توريث البنت:

تعمل فرق الشيعة على توريث البنت كلّ مال أبيها إذا لم يكن لها أخ، بينما يرى أهل السنّة بتوريثها نصف تركة أبيها والنصف الثاني يذهب لإخوته وأهله.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الوضـوء:

ليس هناك كبير فرق في الوضوء بين الطائفتين باستثناء مسح الشيعة على الخفين دون غسلهما في حالات محدّدة، وإباحة الوضوء بالخمر في حال فقدان الماء عند الإمام أبي حنيفة[2].

---

(١) راجع: مسائل فقهية: السيد عبد الحسين شرف الدين، ط ١٠، بيروت مؤسسة الوفاء، سنة ١٩٨٣، ص ١٦٠.

(٢) نقض الوشيعة، السيد محسن الأمين العاملي، ط ٤، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، سنة ١٩٨٣.

أبو هريـرة:

تعتبّر فرق الشيعة أنّ أبا هرّيرة من الوّضاعين والمدلّسين ولا يأخذون بروايته للحديث، بينما يجده أهل السنّة من أهم المحدّثين وأصدقهم.

عائشة أم المؤمنين:

تقف فرق الشيعة موقف العاتب على زوجة النبي ﷺ عائشة ـ أم المؤمنين رضي الله عنها ـ ويتهمّونها بالخروج على خليفة النبي وخليفة المسلمين وانحيازها لآل الزبير ولبني أمية. رغمّ أنها كانت أول المحرّضين على قتل عثمان (رض).

بسم الله الرحمن الرحيم:

يعتبرها الشيعة أنّها جزء من كلّ سورة ما خلا سورة براءة ويجب قراءتها جهراً في بداية كلّ سورة، بينما يعتبرها أهل السنّة أنّه يجب الجهر بها في سورة الفاتحة فقط.

الجمع بين الصلاتين:

ترى فرق الشيعة أنّ الصلاة في أوقاتها واجبة وأنّ الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء مستحبّاً، ولكنهم ينفذون المستحبّ على الواجب بدليل رحمة أصحاب المصالح وتسهيل أمورهم في تنفيذ أحكام الدين.

التقيـة:

تعتبر فرق الشيعة أنّ العمل بالتقية واجب في حال وجود سلطان غاشم وظالم، ولولا التقية لما استمر الإسلام على مذهب أهل

البيت. ولنا عودة إلى هذا العنوان ومناقشة له. بينما يرى أهل السنّة أنّ التقية أسلوب من أساليب مذاهب الباطنيّة.

الخمس:

ترى فرق الشيعة أنّ تقديم خمس الأموال للإمام أو لوليّ الفقيه واجب على كلّ مسلم، بينما يرى السنّة أنّ الخمس واجب فقط في غنائم الحرب ومناجم الذهب والكنوز المكتشفة.

وقد كثرت الكتب المعاصرة التي اتخذت من هذه الفروقات في الفروع، مجالاً لبث الفرقة والشقاق في صفوف المسلمين كوشيعة موسى جار الله التركستاني[1] وأباطيل إبراهيم علي شعوط[2] وغيرهم من سدنة المعبد الأميركي والإسرائيلي في العالم الإسلامي.

ولنستعرض بعض التطبيقات والمواقف التاريخية لهذه الخلافات الفرعية؛ باستثناء عصر الحاكم بأمر الله، لأن تصرّفاته لا يؤخذ عليها، حيث كان يعطي الأمر ونقيضه في اليوم الواحد.

يحدد المقرّيزي الفرق الإسلامية بخمس فرق، فيقول: «إعلم أن فرق المسلمين خمسة: أهل السنّة والمرجئة والمعتزلة والشيعة والخوارج، وقد افترقت كلّ فرقة منها على فرق. فأكثر افتراق أهل السنّة في الفتيا ونبذ يسيرة من الاعتقادات. وبقية الفرق الأربع، منها

---

(١) نقض الوشيعة، السيد محسن الأمين العاملي، ط ٤، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، سنة ١٩٨٣.

(٢) أباطيل، إبراهيم محمد علي شعوط، ط خمسة، بيروت، المكتب الإسلامي، سنة ١٩٨٣.

من يخالف أهل السنّة الخلاف البعيد، ومنهم من يخالفهم الخلاف القريب. وأقرب مذاهب الشيعة أصحاب الحسن بن صالح بن حيّ، وأبعدهم الإمامية»[1].

منع صلاتي الضحى والتراويح:

كان الفاطميون يمنعون صلاتي الضحى والتراويح لأنّ الذي سنّها وأجبر المسلمين على تنفيذها هو الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب (رض)، فصلاة التراويح أقامها في شهر رمضان من سنة ١٤ هجرية بمجمع من الصحابة وطلب من أبيّ بن كعب أن يؤمّ الناس في المدينة وكتب فيها إلى كلّ عمال الأمصار لإقامتها. ويعتبرونها بدعة من البدع التي ابتدعها طيلة خلافته.

وكما يعتبر الشيعة أن صلاتي التراويح والضحى من بدع الخليفة الثاني، يعتبر أهل السنّة أن صلاة ليلة النصف من شعبان بدعة، فحين يتحدّث الحافظ ابن كثير عن حوادث سنة ٧٠٧ هـ، يقول «وفي ليلة النصف من شعبان، أبطلت صلاة ليلة النصف من شعبان لكونها بدعة»[2].

وأخبرنا المقريزي أنّه في سنة ٣٩١ هـ، على عهد الحاكم بأمر الله، «قبض على رجل شامي قال: لا أعرف عليّ بن أبي طالب، وأقول إنّ النبي، صلى الله عليه وسلّم، مرسل، غير أنيّ لا أعرف عليّ بن

---

(١) الخطط المقريزية، الثاني، م.س. ص ٣٤٥.

(٢) البداية والنهاية، الرابع عشر، م.س. ص ٤٤.

أبي طالب، فحُبس ورُوجع، فأصرّ على أنّه لا يعرف علياً، فرفق به القائد، وأصرّ على أخذ اعترافه بعليّ، فرفض، فخرج الأمر بقتله، فضرب عنقه وصلب»[1].

البنت الوحيدة ترث كلّ التركة في مذهب الشيعة:

يخبرنا المقريزي أن الوزير الأول، المأمون البطائحي طلب من القاضي أبي بكر الطرطوشي أن يورث البنت الوحيدة النصف، وأن يحوّل النصف الثاني للمودع (مصرف الدولة)، فلم يقبل القاضي وقال له إنّ هناك سجلاً (مرسوم) يقضي «بأنّ كلّ من مات يعمل في ميراثه بحكم مذهبه، وقد مرّ على ذلك سنون وصار أمراً مشروعاً فكيف يجوز تغييره؟، وأنا نائب الخليفة، ومذهبه ومذهب جميع الشيعة من الزيدي والإمامي والإسماعيلي، أنّ الإرث جميعه للإبنة خاصا، بلا عصبة ولا بيت مال، ويتمسّكون به من كتاب الله، كما يتمسّك غيرهم، وأبو حنيفة، رحمه الله، يوافقهم في القضية».

ويخبرنا المقريزي أنّ نتيجة الخلاف، رفع الأمر إلى الخليفة الآمر، فصدر مرسوم بتأكيد إعطاء البنت كلّ إرثها[2].

زواج رجل سني من شيعية وحيدة أبيها يجعله اغنى اغنياء السوق:

ويخبرنا المسبّحي في تاريخه كيف أن أحد المصريين السنّة أصبح من كبار الأغنياء لزواجه من امرأة شيعية فيقول: «وفي يوم

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الثاني، ص ٣٩.

(٢) راجع: اتعاظ الحنفا، الثالث، ص ٨٩.

الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة من ذي القعدة سنة ٤١٥ هـ توفي العدني المسلماني، الساكن في زقاق ريدان في دار أبي العقلين. وخلّف من الأموال العين (الذهب) والآلات والأمتعة ما لا يحصى كثرة، ومن الغلمان الروم والجواري أمراً عظيماً، وقيل: كان في داره سبعون وصيفة ومعه مزاود (المزود: الخِرج) مملوءة مالاً عيناً وصُلّي عليه في الجامع العتيق، ورثه الشرافي الشاهد وهو من الشوافع، بسبب أنّه زوج أحد أولاده إلى ابنة العدني الوحيدة، فحاز النعمة بذلك السبب»[١].

رأي الفاطميين بالمهدي المنتظر:

ويرى الإسماعيليون الفاطميون أنّ المهدي المنتظر هو حقيقة إيمانية، وله نفس صفات الإمام الغائب عند الشيعة الإثني عشرية، وهو عائد ولا شك في عودته. ولكنّهم يختلفون في التسمية فهو «القائم بالأمر، صاحب الزمان والمعصوم الذي خصّنا الله بحبّه وطاعته، وجعلنا من تابعيه والسائرين على خطاه بمنّه وكرمه، إنه على كلّ شيء قدير»[٢].

فالشيعة الإثنا عشرية يعترفون بمحمد بن الحسن، الإمام الثاني عشر المعصوم(عج)، الذي اختفى بسرداب سامراء، هو المهدي المنتظر، وهو قائم آل محمد في كلّ زمان ومكان.

---

(١) أخبار مصر في سنتين، المسيّحي، م.س. ص ٢٣٢.

(٢) كتاب شجرة اليقين، تأليف الداعي القرمطي عبدان، ط١، بيروت، منشورات دلار الآفاق الجديدة، لا تاريخ، ص٩.

أما الفاطميون، فهم يرون أنّه من ذريّة الأئمة المعصومين لا يحددّون، ولا يعرفون اسمه.

وكتب داعي الدعاة الإسماعيلي الفاطمي أبو يعقوب السجستاني رأيه بالمهدي المنتظر فقال[1]:

في دور القائم ورسومه:

إنّ القائم سلام الله على ذكره في الولادة والإغتذاء، وظهور النسل عنه كآبائه عليهم السلام، ولا فرق بينه وبينهم من هذه الجهة إلاّ بشرف الرتبة. والقائم هو متمّم النطقاء، فإذا ظهر ظهرت الآيات وتكشّفت المستورات، وفطر المؤمنون من صيامهم. وإنّ القائم هو نهاية الكلّ من الرسل، وهو يجمع بين النواميس المختلفة، المتفرّقة المتباينة بالكشف عن حقائقها، فتصير مجموعة كأنها شريعة واحدة وكأنّ أممها أمّة واحدة.

وإننّا إذا نظرنا إلى الأسابيع نجدها كلها متناهية إلى السابع كمثل الكواكب السبعة السيارة وكلها منتهية إلى كيوان. وكذلك الأقاليم قد انتهت صعداً من جهة العمران إلى السابع. وكذلك الأيام تنتهي إلى السابع، ثم تعود في الإبتداء. وإنّ في عهد القائم يكون بعث الصور الروحانية. إذاً فنهاية الكلّ من الرسل إلى القائم سلام الله على ذكره. والقائم من القيامة، وهي موسومة بيوم الفصل، لأنّ الفصل، إنّما يكون بعد الخصومة والمنازعة وهكذا القائم يفصل بين

---

(١) كتاب إثبات النبوءات، أبو يعقوب السجستاني ط١، بيروت، المطبعة الكاثولكية، سنة ١٩٦٦، ص١٩١.

أهل الأديان ويظهر الحقائق، والقائم ألزم أهل الأديان الرجوع إلى الحقائق والقرار عليها فاعرفه.

إبداء الفرح بسبب إقدام الأتراك على كسر شوكة المسلمين الشيعة بمكة:

عندما يروي أبو المحاسن ابن تغري بردي مقتل رجل سنّي على يد صاحب مكة الشريف محمد بن أبي هاشم في حوادث سنة ٤٤٥هـ، يقول: «وكان سبب موت هيّاج بن عبيد الحطّيني - وحطّين قرية غرب طبرية، أن بعض الرافضة شكاه إلى صاحب مكة محمد بن أبي هاشم، وقال له: إن أهل السُنّة يستطيلون علينا بهيّاج. وكان صاحب مكة المذكور رافضيّاً خبيثاً، فأخذه وضربه ضرباً عظيماً بالرغم من كبر سنّه، فبقي أيّاماً ومات. وقد نيف على الثمانين سنة. ولما مات هيّاج، قال بعض العلماء: لو ظفرت النصارى بهيّاج لما فعلوا به ما فعله صاحب مكة هذا الخبيث! قلت: وهم الآن على هذا المذهب، سوى أنّ الله تعالى قمعهم بالدولة التركية، ونصر أهل السنّة عليهم. وجعلهم رعايا ليس لهم بمكة الآن غير مجرد الاسم»[1] بهذا الكلام، أنهى أبو المحاسن ابن تغري بردي خبر وفاة هيّاج بن عبيد، مسروراً بقمع الإسلام الشيعي في مكة. مرتاحاً لسيطرة الأتراك، والفرق بين بين وفاة هيّاح الحطينيّ ورواية أبي المحاسن لخبر وفاته، أربعمائة سنة فقط.

وعندما يذكر أبو المحاسن وفاة أمير مكة محمد بن أبي هاشم

---

(١) النجوم الزاهرة، الخامس، ص ١٠٩.

سنة ٤٨٧ هـ، يقول عنه: «وفيها توفي الشريف أمير مكة محمد بن أبي هاشم، كان ظالماً جبّاراً، فاتكاً، سفّاكاً للدماء، مسرفاً، رافضياً، سبّاباً، خبيثاً متلوّناً، تارة مع الخلفاء العباسيين، وتارة مع المصريين، وفرح المسلمون وأهل مكة بموته»[١].

أما إذا تصفّحنا كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، فنجد ما يثير الضحك والدهشة من عمق هذا الخلاف التاريخي في نفوس الناس، ونتأكّد من صعوبة استئصال شأفته من هذه النفوس.

يخبرنا ابن الأثير أنّه حينما قام الأتراك بمهاجمة حي الكرخ الشيعي في بغداد «قام أهل السنّة وساعدوا الأتراك على أهل الكرخ»[٢].

وعندما يتحدّث أبو المحاسن عن وفاة الشيخ المفيد يقول: وفيها توفي محمد بن محمد بن النعمان، أبو عبدالله، فقيه الشيعة وشيخ الرافضة وعالمها، وكان له منزلة عند بني بويه وعند ملوك الأطراف الرافضة. قلت: كان ضالاً مضلاً هو ومن قرأ عليه ومن رفع منزلته»[٣].

وعندما تحدّث ابن الأثير عن أحداث سنة ٤١٥ هـ، لم يشر إلى وفاة ابن النقيب البغدادي، فتبرّع محقّق الكتاب، الشيخ خليل الميس في الهامش بالإشارة إلى وفاة هذا الشخص، ليس لأنّه من

---

(١) راجع: م.س. ص ١٣٧.

(٢) الكامل في التاريخ، السابع، ص ٢١١.

(٣) النجوم الزاهرة، الرابع، ص ٢٥٨.

الأشخاص المهمّين، بل لأنّه يملك ما «يدل على حسن اعتقاده وبغضه للشيعة، فإنه لما بلغه موت ابن المعلم فقيه الشيعة (الشيخ المفيد) سجد لله شاكراً وجلس للتهنئة»[1].

ويخبرنا ابن العماد الحنبلي في معرض ذكره لحوادث سنة ٥٢٣هـ، عن إقدام طغتكين والي دمشق على قتل ستة آلاف شيعي، والأخير كان تارة يدعو للخليفة الفاطمي في مصر وطوراً للعباسيين في بغداد، فالدعوة كانت لمن يدفع أكثر.

ويحدثنا ابن كثير أيضاً في حوادث سنة ٣٩٨هـ، عن إقدام القادر بالله على طرد الشيخ المفيد من بغداد وإحراق حيّ الكرخ الشيعي من قبل الدولة، لمعاونة أهل السنّة من حي الطعام المقابل لحيّ الكرخ. وكان سبب مقابلة أهل الكرخ بهذا العنف بسبب إطلاقهم شعارات تنادي بخلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي، مما أغاظ القادر بالله.

ويحدثّنا المقريزي عن يوم عاشوراء لسنة ٤٩٠ هـ، فيقول: «وفيها تجمّع الرعاع والعامة في يوم عاشوراء بمشهد السيدة نفيسة، وجهروا بسب الصحابة، فسّير الأفضل إليهم ومنعهم من ذلك، وأرسل ذخيرة الملك ابن علوان والي القاهرة جماعة وضربهم»[2].

وكأنّ المقريزي يريد أن يقول لأهل السنّة، أنّ الخلاف التاريخي بين السنّة والشيعة حول الخلافة والإمامة هو خلاف قائم، لم يستطع الرعاع والعامة فهم أبعاده الفلسفية والتكليفية، وإذا أقدم

---

(١) الكامل في التاريخ، السابع، هامش، ص ٣١٩.

(٢) اتعاظ الحنفا، الثالث، ص ٢١.

هؤلاء الرعاع على سب الصحابة والسلف الصالح، لا يعني أنّ علماء الشيعة وفقهاءها وقادتها ومثقّفيها يرضون عن هذا العمل.

وعندما يتحدث أبو المحاسن ابن تغري بردي عن أهل الكرخ يقول: أهل الكرخ طائفة نشأت على سبّ الصحابة وليس للخلافة عليها أمر. ويتحدث عن أحداث سنة ٤٤٢هـ. فيبدأ بالتالي: «وفيها من العجائب أنّه وقع الصلح بين أهل السنّة والرافضة، وصارت كلمتهم واحدة، وأذنّ بباب البصرة (الحي السنيّ) بـ حيّ على خير العمل، وقرىء في الكرخ فضائل الصحابة، ومضى أهل السنّة والشيعة إلى مقابر قريش، فعُدَّ ذلك من العجائب، فإنّ الفتنة كانت قائمة والدماء تسكب، والملوك والخلفاء يعجزون عن ردّهم. فللّه الأمر من قبل ومن بعد»[١].

ونحن نرى أنّ الخلاف يبقى مستمراً إذا استمرّ وجود أمثال أبي المحاسن في الطائفتين، وإذا خلت الأمة من أمثاله، فوحدة الإسلام والمسلمين واقعة لا محالة.

ويقول الشيخ محمد أبو المجد مبعوث الأزهر الشريف عن هذا الخلاف شعراً[٢]:

قد جئت من مصرٍ إلى مصرٍ فما ... بين الأخوّة من خلاف منكرِ
إن التسنّن والتشيّع دوحةٌ ... وجذورها القرآن غير مُغَيَّرِ
إن التسنّنَ والتشيّعَ دوحةٌ ... سقيت بماء واحد لم يكدرِ

---

(١) النجوم الزاهرة، الخامس، ص ٥١.

(٢) العرفان، المجلد ٤٨، بيروت، العدد رقم ٤، كانون الأول سنة ١٩٦٠، ص ٣٩٠ وصفحة ١٠٠٨.

في الصبح أو في الظهر أو في العصر أو في مطلع النجم المضيء النيّرِ
تقف الوجوه لبعضها في قبلة وتحجّ للبيت العتيق الأطهر
كلّ ابن أنثى سوف يلقى ربّه وشفيعهم أعمالهم في المحشر
المسلمون تفرّقت أهواؤهم وأتوا بكلّ كبيرة لم تؤثر
ردّوا الخلاف إلى الكتاب وسنّة هي سنّة الهادي البشير المنذر

وما يسعني إلا أن أختم هذا الفصل برأيين فيهما إزالة التفرقة ووحدة المسلمين:

الرأي الأول: وهو انتفاء وجود أمثال الفقيه ابن تيميّة الذي يقول إن أهل البيت هم: «آل علي وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس، وأنّ الحسن العسكري عقيم»[1]..

الرأي الثاني: وهو سؤال للإمام السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي: «إذا جاز أن تكون المذاهب أربعة، فلماذا لا يجوز أن تكون خمسة، وكيف يمكن أن تكون الأربعة موافقة لاجماع المسلمين؟، فإذا زادت مذهباً خامساً تمزّق الاجماع، وتفرّق المسلمون طوائف بدداً. فهل ترون اتباع مذهب أهل البيت سبباً في قطع حبل الشمل ونثر عقد الاجماع»[2].

عندما يجد مثقّفو الإسلام وعلماؤه رأياً موحّداً حول هذين الأمرين، وموقفاً واحداً منهما، تزول الإحن من القلوب، والضغائن من النفوس، وتزول الفرقة وتحل الوحدة محلّها.

---

(١) حقوق أهل البيت، تقيّ الدين احمد بن تيميّة، ط ١، بيروت دار الكتب العلمية، سنة ١٩٨٦، ص ٢٨.

(٢) المراجعات، م.س. ص٤٣.

وجهات نظر غير قابلة للتقارب:

وبالرغم من هذه الإجابات المنطقية التي تثبت أن المسلمين الشيعة هم الإسلام وأهله وحماته وأصحاب البيت الإسلامي، فهم من كثرة الظلم والتعسّف الذي أصابهم عبر تاريخهم الطويل، أضحوا، لا همّ لهم إلا قبولهم في بيتهم شراكة مع الطارئين والغرباء. وأصبحوا من أشد دعاة وحدة الإسلام والمسلمين، لكنّ لم يخل أيّ زمن من قيام أحدهم بنبش الماضي وبذر الفتنة والتفرقة من جديد، في صفوف المسلمين. فالموقف من وزير المستعصم بالله العباسي، مؤيّد الدين ابن العلقمي الشيعي الجعفري، هو أحد نقاط الخلاف التاريخية.

الموقف من ابن العلقمي:

قام الباحث الدكتور صلاح الدين المنجّد بنشر بحث في مجلة العربي[1] الكويتية عن ابن العلقمي واتّهمه بممالأة هولاكو وخيانة العرب والمسلمين فردّ عليه الشاعر الشيعي طالب الحلباوي شعراً، يدعوه ويدعو المسلمين إلى الوحدة الإسلامية فقال:

ـ يا بن المنجّد لا تتعصب ـ

لا تنفضن القطن (يابن منجّد) ... من قوس حقدك فالغبار أثارا

ماذا بغيت بنبش ما قد مهّدت ... كفّ الزمان فرحت تشعل نارا

هل كنت تضمر من وراء مقالة ... ملأت سموماً أن تزيد أوارا

---

(١) مجلة العربي، الكويت، عدد كانون الثاني، سنة ١٩٦٠، رقم ١٤ مقالة بعنوان: نكبتان أصابتا العرب والمسلمين.

و (مجلة العربي) ماذا غرّها ... وهي الشهيرة لا تزال منارا
نشرت مقالاً أغفلت عن شرّه ... عهدي بحكام (الكويت) خيارا
ليست مجلتنا لقطر واحد ... وخبرتها لبني العروبة دارا
شعب العروبة في (الكويت) موحّد ... عرف الورى أمراءه أحرارا
من مهّد الأسباب حتى جرّأت ... (ابن المنجّد) أن يقول شنارا؟
إنّي أحاذر أن تسوق لفتنة ... (لا تهملن إذا رأيت شرارا)
ليس (المنجّد) شاعراً في قومه ... يتقحّم الأزهار والأشعارا
ليس (المنجّد) كاتباً ومؤرّخاً ... يتخيّر الأقوال والأخبارا
لو كان هذا كاتباً متحرّراً ... يوما أثار (ربيعة) و (نزارا)
ما باله يأتي إلى تاريخنا؟! ... وبكلّ قوم قد نرى أشرارا
فيشرّح التاريخ شرحاً مغرضاً ... ويصبّ من جام التعصّب نارا
ويقول كان العلقميُّ مؤيّدا ... لـ (هلاكو) في بغداد يبغي الثارا
ويقول هذا (رافضي) مجرم ... يبغي على (السنّي) فيه جهارا
فقضى بقتل المسلمين تعصّباً ... ضد الخليفة كي يحوز فخارا
ويقول للعلويّ هذا منكم ... كان الوزير (الرافضيُّ) مرارا
ويقول (للسنيّ) هذا ضدكم ... قد خان دولته فمات وجارا
أبمثل هذا الشرح يدعو مسلم ... يرجو السلام لقومه (مزمارا)
أبمثل هذا الحقد ينشر كاتب ... للمسلمين مثالباً وضرارا؟!
أيصحّ تأويل المقال بأنّه ... للقوم كيما يدرأوا الأخطارا؟!
أتجوز في عرف العروبة طعنة ... بجهالة لمذاهب إصرارا؟!
أيجوز هذا أن يشوب صحافة ... والقوم قد نبذو التعصب نارا؟!

* * *

الدين يجمعنا فكلٌّ مسلمٌ ... لله وجهاً نتخذه شعارا...
ما ضرّنا لو أن نسينا ما جرى ... فيما مضى لا نكشف الأستارا!
ونعيش شعباً واحداً متعاوناً ... حفظ الحقوق لمسلم ونصارى

* * *

يا أيها الكتّاب يا شعراءنا ... (غنّوا المحبة) واعزفوا القيثارا
لا تكتبوا أو تنظموا إلا الذي ... يضفي علينا الخير والأنوارا
هذا نداء من أخ في أمة ... بحّت ـ لنيل حقوقها ـ تزآرا
يبكي بشعر ما مضى ويسره ... صوغ (المحبة) للورى أشعارا

من هم أهل البيت:

يرى المسلمون الشيعة أنّ أهل البيت هم أصحاب الكساء: علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

أما أهل السنّة فيرون أنّ أهل البيت هم «الذين حرموا الصدقة: آل علي، آل جعفر، وآل عقيل وآل عباس».

من هو يزيد بن معاوية:

يرى المسلمون الشيعة أن يزيد بن معاوية هو قاتل الحسين، وهو مرتدّ ملحد حيث قال:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل

أما أهل السنّة فيرون:

«إنّ يزيد هو أوّل من غزا القسطنطينيّة. وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور له.

ومن قال أنّ يزيداً قتل الحسين تشفّياً وأخذ بثأر أقاربه فهو كاذب مفترٍ.

ومن قال إنّه تمثّل لمّا رأى رأس الحسين:

لما بدت تلك الرؤوس وأشرقت تلك الشموس على ربى جيرون
نعق الغراب فقلت نح أو لا تنح فلقد قضيت من النبيّ ديوني

فقد كذب.

ومن قال أنّه إمام ابن إمام، فهذا صحيح. ويزيد لم يأمر بقتل الحسين، ولا حَمَلَ رأسه إلى بين يديه، ولا نكث بالقضيب على ثناياه، ولا طيف برأسه في الدنيا، ولا سبى أحداً من أهل الحسين. بل الشيعة كتبوا إليه وغرّروه وخرج منهم عسكر مع عمر بن سعد وقتلوا الحسين»[1].

وهناك الكثير من وجهات النظر لبعض الأشخاص إضافة إلى المواقف التاريخية التي يحلّلها كلّ طرف من وجهة نظره، كالموقف من أهل البيت، ومن مقتل الحسين، ومن يزيد بن معاوية، ستبقى تقف عائقاً في طريق وحدة المذاهب ووحدة المسلمين.

---

(١) راجع: حقوق آل البيت، ابن تيميّة، ط ٢، بيروت دار الكتب العلمية، سنة ١٩٨٧، ص ٢٨.

المذهب الإمامي الإسماعيلي
وبقية المذاهب الإمامية

في الحديث عن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام، أشار ابن أيبك الصفدي إلى أنّه الإبن الأكبر للإمام الصادق، وأنّ إليه تنسب الفرقة الإسماعيلية.

ويصنّف الصفدي الإسماعيلية إلى ثلاثة أصناف أو أدوار: المتقدمّون والمتوّسطون والمتأخّرون ويرى أن المتقدّمين وهم واضعو أسس الدعوة، والمتأخرين، لم يخرجوا عن الملّة الإسلامية. ونقل عن ابن أبي الدم قاضي حماه الذي ترجم لهم أنّهم «لم ينقل عنهم أمر آخر (غير طاعة الإمام) في الاعتقادات، مخالف لقواعد الدين، كما نقل عن الباطنية وغيرهم[1].

أما المتوّسطون فهم الفرقة التي «تستّرت بالانتماء إلى الشيعة وتقيّةً من السيف، ويلقبّون بالباطنية والقرامطة والبابكية والسبعية والخرّمية والمحمّرة.

---

(١) راجع: الوافي بالوفيات، المجلد التاسع. ص ١٠٣.

رأي السيد محسن الأمين بالإمامية الإسماعيلية: (البُهرة):

يحدثنا السيد محسن الأمين الحسيني العاملي في مقالة كتبها سنة ١٩٢٨، أنّه عندما كان يقطن دمشق الشام، زاره بعض الشيعة الإمامية الإسماعيلية، وبعد محادثات بينه وبينهم قال: إنّهم يوافقون الإمامية الإثني عشرية في الإمامة إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام ويجعلون الإمامة بعده في ولده إسماعيل، ثم يسوقون الإمامة في ذرّية إسماعيل واحداً بعد واحد، من الأب إلى الابن الأكبر هكذا:

إسماعيل بن جعفر.	محمد بن إسماعيل.
عبدالله المستور بن محمد.	أحمد المستور بن عبدالله.
المهدي بن أحمد.	الحسين بن المهدي.
القائم بن الحسين.	المنصور بن القائم.
المعزّ بن المنصور.	العزيز بن المعزّ.
الحاكم بن العزيز.	الظاهر بن الحاكم.
المستنصر بالله بن الظاهر.	المستعلي بن المستنصر.
الآمر بن المستعلي.	الطيّب بن الآمر.

وهذا الأخير يقول السيد محسن نقلاً عن زوّاره أنّه المهدي المنتظر عندهم. فعدد الأئمة عندهم إذاً إثنان وعشرون.

ويقول السيد أنهم يقيمون شعائر الإسلام ويلتزمون بجميع أحكامه، ويوافقون فيها الإمامية الإثني عشرية وهم غير الإسماعيلية المعروفين في الهند بالآغا خانية، نسبة إلى آغا خان، الذين منهم أهل سلمية، فالآغا خانية يسوقون الإمامة إلى الخلفاء المصريين

ويختلفون عن البهرة عند المستعلي فهم يعتقدون بإمامة نزار[1].

وقد أورد ابن أيبك الصفدي مقولتهم ورأيهم الذي يخالفون به الملّة الإسلامية ـ حسب رأيه ـ وهي حول الإمامة. فهم يقولون: إنّ الإمامة لا تخرج عنهم (أي عن أهل البيت). ولا يجوز أن يكون للناس إمام سواهم، وأن أئمّتهم مُعْرِضون عن الرذائل والذنوب، مُطهَّرون من الدنايا والنقائص، وهم حُجج الله تعالى على عباده. وقاعدة مذهبهم القول بوجوب الإمام المعصوم، وأنّه حجّة الله على خلقه، وأنّ عصمته واجبة وتقليده مُتعيّن، وأنّ الرأي والقياس في الدين باطل، فلا يصدرون إلا عن رأي إمامهم المعصوم، ولا يدينون إلاّ بما يأمرهم به، لاعتقادهم وجوب عصمته. وأنّه لا يجوز خلّو عصر من العصور من الإمام المعصوم، فمن أطاعه سلم ومن عصاه هلك، وأنّ الإمام يكون ظاهراً إذا أمن على نفسه من أعدائه، وأنّ دعاته مأمورون بدعوة الناس إلى طاعته، حتى يتهيّأ له النصر على أعدائه. «هذا عين مذهبهم».

وقد أشرنا إلى أن الصفدي أكّد أن هذه المقولة (الإمامة) هي فقط التي تجعلهم خارج الملّة الإسلامية، علماً أنّ الشيعة الإمامية بفرقهم الثلاثة يرون أنّ من لا يعرف إمام زمانه، ليس بمسلم أما الشيعة الإمامية الزيدية الذين ينتسبون للإمام زيد بن علي بن الحسين (الإمام السجاد)، وهو أخو الإمام محمد الباقر، قتله

---

(١) راجع: العرفان، المجلد ١٦، سنة ١٩٢٨، مقالة بعنوان: الشيعة الإسماعيلية، بقلم السيد محسن الأمين الحسيني، ص ٢٥٦.

هشام بن عبد الملك في كناسة، وكان النبي ﷺ قد تنبّأ بمقتله. فلم ينتشر مذهبه حتى أواخر القرن الثالث الهجري، حيث قام أحد أتباعه والمؤمنون بإمامته الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام هو الإمام الزيدي الأول في اليمن ومؤسس الإمامة الزيدية وناشرها فيه، وقد لقب بالإمام الهادي، وقد استمرت الزيدية في حكم اليمن من سنة ٢٨٤ هجرية حتى سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٠م)[١].

ونحن نعلم أنّ المذهب الإمامي الإسماعيلي كان قد سيطر على الحكم في اليمن دون الإساءة إلى الزيدية، بل تعايش معها تعايش أصحاب المذهب الواحد والعقيدة الواحدة. ولنا عودة إلى هذا الموضوع حين الحديث عن العلاقة بين مصر واليمن.

أما مذهب الفاطميين الشيعة في مصر، فهو مذهب أهل البيت، مذهب الاثني عشرية والزيدية، وقد عرّفه الباحث أسد حيدر بقوله:

هو مذهب أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وهو أقدم المذاهب نشأة وأقواها عاملاً، يستمد تعاليمه من الينبوع الإسلامي الفياض: القرآن الكريم وسنة نبيه، وقد غرس النبي ﷺ بذرته ووجّه الناس إليه بتعاليمه وإرشاداته، وعمل به في زمن الصحابة، وقام بنشره جماعة منهم، كأبي ذر الغفاري، وسلمان والمقداد، وعمار بن ياسر وغيرهم كما يأتي بيانه. وقد اختص هذا

---

(١) العرفان، المجلد ٥٢، سنة ١٩٦٤، مقالة بعنوان: الزيدية في اليمن، السيد حسن الأمين، ص ١٩١.

المذهب بالإمام الصادق، للأسباب التي مرّ ذكرها عند حصول تلك الفترة بين شيخوخة الدولة الأموية، وطفولة الدولة العباسية. وفيها اتّسع المجال للإمام الصادق، عليه السلام، لنشر العلم وبث الأحكام الإلهية، ونشر التعاليم النبوية التي استقاها عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ، عند رفع تلك الرقابة التي جعلها الأمويون للحيلولة بين الأمة وبين أهل البيت، فاشتهر في ذلك العصر ذكر جعفر بن محمد، واتّسعت أمامه حرية القول، وحرية النقض والإبرام في شأن الحقائق الدينية من جهة، والمشتبهات والموضوعات على غير أساس صحيح من الأحاديث والسنّة من جهة أخرى، وازدحم طلاب العلم على أبواب مدرسته، وكثرت الهجرة إليها، فنسب المذهب إليه في عهد ازدهار العلم، لأنّ كلّ ما ذهب الإمام الصادق إلى تصويبه، والوثوق بصحّته من الأحكام، أصبح بجملته يسمى (مذهب جعفر الصادق عليه السلام).

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ولم يكن المذهب الجعفري كسائر المذاهب الإسلامية في تطور نشأته، وعوامل انتشاره، بل امتاز باستقلاله عن مقوّمات المادة ومؤزارة السلطة، واستطاع بمؤهلاته الذاتية، إخضاع الزمن، واجتياز العقبات التي تقف في طريق نشره.

ولولا فيض من القدسية في مبادئه، وقوة روحية في تعاليمه، وعناية قبل كلّ شيء من الخالق الحكيم رحمة بهذا الخلق المتعوس، لقضت عليه السلطات بمحاولتها القضاء عليه ولكن ذهبت تلك المحاولات ضد المذهب دون جدوى، فكان نصيبها الفشل ونصيبه النجاح.

وقد اتضح لنا بالبحث عن المذاهب الإسلامية ودراساتنا للظروف التي تكوّنت فيها، والعوامل الرئيسية لنشر البعض، وخمول البعض الآخر، إنما هو لتدخل السلطة التنفيذية، فقد أخذت على عاتقها نشر ما ترتضيه منها، ومعارضة المذهب الذي لا يروق لها نشره، وكانت الأسباب التي أدّت إلى محو تلك المذاهب البائدة بعد شهرتها بين المسلمين هي عدم المؤازرة والترغيب من قبل الدولة، كما مرّت الإشارة إليه.

العقيدة الإسماعيلية بعد الإمام الطيب أبي القاسم، حتى سنة ١٣١٣هـ لم تخرج عن الإسلام الشيعي الأصيل:

وبعد انقسام الدعوة الفاطمية إلى مستعلية ونزارية. استمرّت النزارية بقوة على يد الحسن بن الصباح الحميري وأولاده، أما المستعلية فقد استمرّت على يد حفيده الطيب أبي القاسم، الذي هرّب طفلاً إلى اليمن وقد استمرت الطيبية وهي الأكثر انتشاراً اليوم باسم الطيبة أو البُهرة في الهند واليمن.

وفي رسالة لداعي الدعاة الإسماعيلي الطيبي حاتم بن ابراهيم الحامدي المسمّاة «زهر بذر الحقائق» نجد أن العقيدة الإسلامية الشيعية الإمامية، حتى وقت هذا الداعي، ما زالت ضمن العقيدة الفاطمية الصافية، البعيدة عن الشوائب والأكدار. وقد كتبت هذه الرسالة سنة ١٣١٣ هـ، أي قبل مئة وعشر سنوات. وقد بدأها الداعي بقوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وبه أستعين:

الحمد لله الذي خرست الألسن الناطقة عن صفاته، وانقطعت العقول الزكية عن الإدراك بأدنى وهم لشيء من مبدعاته....

وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة منزّهة عن الغلو والتقصير مقرونة بتوحيد العليّ الكبير، أرجو بها الخلاص، وأنال الفوز حين لا مناص.

وأشهد أنّ محمداً صفوته من جُميع العالمين، وثقته الأمين، أنار به معالم الهدى، وهدى به سبحانه من اهتدى. فانقشع به ظلام الدجى، وقطع ببيانه حجج أهل الجهل والعمى.

نطق أول ما نطق بالتوحيد، وأبان معالم الحقّ بالتنزيه والتجريد. قنّن في الإسلام قوانين لا ينكرها إلا كافر جاحد، وأسسّ بنياناً في الإيمان لا يزيله إلا ظالم معاند. رمز في غضون شريعته بالرموز وكَنَزَ للأئمة من أهل بيته من التأويل والحقائق أجلّ الذخائر والكنوز، فلا يستخرج ما كنز فيها إلا من كان من طيب عترته، ولا يظهر المكنون إلا من كان من أبرار أرومته وخلصاء ذريّته، إذ هو، عليه السلام، شجرة هم لها الأغصان، ودوحة عالية هم لها الأفنان.

وأشهد أنّ عليّ بن أبي طالب وصيّه وخليفته في أمّته وأبو عترته، أشرف وصيّ لأفضل نبي، حاز من بعده جميع الرتب، وفُضّل على كافة الخلق بما يتّصل به من النسب، وحلّ منه محلّ هارون من موسى، وشمعون من عيسى، فصلوات الله عليه وبركاته، صلاة لا يعرف مقدارها إلا من خلقهما.

وعلى سبطيهما الزكيين، وفرعيهما الناضرين غصنيّ النبوة والرسالة، وفرعي الوصاية والإمامة، الحسن المسموم، والحسين

الشهيد المظلوم، وعلى ثمرة التأييد ونور التوحيد والتجريد، نسل النبي، وسلالة الوصي، الأئمة من نسل الحسين بن علي، غصون الكرم، وفروع العلوم والحكم، لباب اللباب، وحملة علم الكتاب، بحار العلوم وخزنة علم الله المكتوم، الحائزين لعالي ذروة الإمامة، والحالّين في إنهاء قمم المجد والكرامة، المنتقلة فيهم الإمامة بالنصوص، المستحقّين لها دون غيرهم حقّ الله بالخصوص. يرثها الولد من الوالد، السالكة في الواحد منهم بعد الواحد. لا تنقسم في اثنتين، كما قال رسول الله ﷺ: «بعد الحسن والحسين، سنّة الله الجارية وحكمته الماضية». وخصّ الله الأئمّة من نسل الحسين بن علي بالصلوات، واحداً بعد واحد، ومولوداً عقب والد إلى يوم الدين، والتحيّة والتسليم.

واجعل اللهم أفضل صلواتك الزاكية، وتحيّاتك النامية، وبركاتك الرائحة الغادية، على من انتهت إليه الإشارات، وحاز عن آبائه البركات، بالنصوص والتوقيفات، الكلمة الباقية في عقب ابراهيم، والذرية المباركة من أصل النعيم، الحائز لفضل النبيّ، والمستحقّ لإرث الوصي، السابع الثالث من نسل الحسين بن عليّ، سابع الأشهاد وباب الرشاد، المنعوت من الله بنعوت العباد، الإمام الطيّب أبي القاسم أمير المؤمنين، قبلة الركع السجاد، سلالة سيد الوصيّين وسفينة النجاة للمتزمّتين، أهل الولاية واليقين، الذي التزم بولايته أهل الحجى، وتمسّك بمحبّته أهل الهداية والتقى، سرّ الله المحجوب، وباب هدايته المنصوب، الممتحن في زمانه الأولياء بصنوف المحن، الصابرون على ما أصابهم من جنسه من البلاء في السر والعلن،

وسلّم عليه وعلى آبائه الأكرمين، المتصل حبلهم إلى يوم الدين وسلّم تسليماً كثيراً متصلاً»[1].

لم يخرج هذا النص الإسلامي الشيعي الإمامي الإسماعيلي المعاصر، عن أدبيات الإسلام الشيعي الإمام الجعفري الأصيل، ولكنه يختلف عن النصوص الإمامية الأخرى بتسمية الإمام.

والإمام أبو القاسم، الطيب بن المستعلي، هو عنده السابع الثالث، فالسابع الأول هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، والسابع الثاني هو الخليفة المعزّ لدين الله، وهو السابع الثالث الطيّب.

موقف الحكام من أهل البيت ومن مذهبهم:

يقول أسد حيدر: أما مذهب أهل البيت فقد بذلت السلطات كلّ إمكانياتها لعرقلة نشره واتساع دائرة اتباعه، وكان لكل دولة غايات تعمل على تحقيقها في مقابلة أهل البيت، والوقوف في طريق انتشار مذهبهم في البلاد الإسلامية، أما الدولة الأموية فكانت مدفوعة للمعارضة بأمور ثلاثة:

١ ـ العداء للبيت النبوي عداء ذاتياً متأصّلاً، توارثه الأبناء عن الآباء، ولم يغير الإسلام من وجهة نظرهم هذه أي شيء، بل ازداد حقدهم كلما زاد انتشار الإسلام بالصورة التي أرغمتهم على الدخول فيه استسلاماً لقوته.

---

(١) منتخبات إسماعيلية، تحقيق عادل العوا، ط١، دمشق مطبعة الجامعة السورية، سنة ١٩٥٨، ص١٦٠.

٢ ـ إنّ مذهب أهل البيت بانتشاره في عهدهم وعدم معارضتهم له، معناه الضربة القاضية للدولة بسبب، التفاوت العظيم بين سياسة أهل البيت وسياسة الأمويين في إشاعة العدل والمساواة بين الطبقات، ونشر التعاليم الإسلامية.

٣ ـ إنّهم بدون شك، لا يجهلون أنفسهم ومؤهلاتها للخلافة الإسلامية، ويعرفون الأمة واتجاه أنظارها لآل محمد ﷺ. ولا توجد أي نسبة بين الأمويين وبين أهل البيت، فإذا تركوا الأمور تسير بمجراها الطبيعي يوشك أن يتأخر فوز الأمويين بالخلافة (حتى يلج الجمل في سم الخياط) وهم يعلمون هذا فاتخذوا تلك التدابير لنجاح أمرهم وإن كان في ذلك تأخر المسلمين عن التقدم السريع حيناً من الدهر[1].

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) راجع: الإمام الصادق، والمذاهب الأربعة م.س. الجزء الأول، ص ٢١٦.

بين القاهرة المعزّية والكعبة المحمدّية
إشعاع روحي متواصل

كانت الكعبة ـ أعزّها الله ـ وما زالت مصدر إشعاع روحي وفكري لكلّ العرب والمسلمين عبر التاريخ. فكيف وإذا كان حكام مصر، هم ورثة نبيّ الإسلام وعترته أهل بيته. فلا شك أنّ الكعبة ومكة، كانت بالنسبة لهم شيئاً غير عادي، مقدّساً، مميّزاً، يشدّهم إليها صبيحة كلّ أذان، وعشاء كلّ صلاة. فهي الأصل وهي الأساس وهي المنطلق، ومن بابها المعاد.

فكيف كان الخلفاء الفاطميون يتعاملون مع مكة ومع الكعبة؟.

كنا في فصول سابقة، أشرنا إلى أنّ الخليفة المعزّ أرسل سفيراً من قبله إلى مكة وأصلح بين أبناء عمّه الطالبيّين حكام مكة، الحسنييّن والحُسينيّين، ودفع الديّات من ماله الخاص، وأعاد الصلح والوئام بين أبناء العائلة الهاشمية الواحدة.

وبعد عودة السفير بنجاح مهمّته، أبطل حاكم مكة جعفر بن محمد الحسني الطالبي الخطبة للخليفة العباسي وأقام الخطبة للمعزّ.

وبدأت رسائل أمير مكة تصل إلى مصر، وكلّها تُنفّذ ولا يُردّ له طلب. وأصبحت مكة بالنسبة للقاهرة المعزّيّة على مرمى حجر منها، لكثرة الاتصالات وسهولة المواصلات.

ويخبرنا المقريزي عن المحراب الذي أرسله الخليفة العزيز إلى مكة مع قافلة الحج المصري سنة ٣٦٨ للهجرة. وهو يدلّ على «مبلغ عناية الخلفاء الفاطميين بالكعبة وبالحج وقافلته»[١]. كما حمّل القافلة الصلات والأعطيات لأشراف مكة الطالبيّين، مع حمولات القمح والشعير والدقيق والزيت وسائر الحبوب، دعماً لهم ومساعدة لمهمّتهم في تأمين الحجيج.

وكون الحج براً يقتضي مرور الحجاج المصريين عبر فلسطين وبرّ الشام، ولما كان أمراء هذه المناطق يدعون لمن يدفع أكثر، مما يعني أن ليس فيها حكماً مستقرّاً للعباسيين أم للفاطميين. والحكم الغير مستقرّ، لا يؤمن السلام لأهاليه، لذلك كان الحجّ مقطوعاً برّاً، ومسموحاً بحراً عبر البحر الأحمر، ولكن بعد أن استطاع الخليفة العزيز القضاء على القرامطة، وغيرهم من مرتزقة الرملة واللد، نُودي من على منابر جوامع القاهرة ومصر، وكافة بلاد الخلافة الفاطمية: «الحج في البر» لأنه كان قد انقطع منذ سنين.

ويخبرنا المقريزي أنّه بعد عودة قافلة الحج المصري ودول المغرب، أخبر العائدون الخليفة أن الذين حجّوا هم فقط رعايا الدولة الفاطمية في مصر والمغرب واليمن، بينما بقية الحجاج الذين يمرّون

---

(١) اتعاظ الحنفا، الأول، هامش، تحقيق جمال الدين الشيال، ص ٢٤٦.

تحت حراسة العباسيين لم يستطيعوا الوصول إلى مكّة بسبب فقدان الأمن لدى العباسيين[1].

حج العجم بحماية الخليفة الفاطمي:

ويخبرنا المقريزي أن رسول السلطان البويهي محمود بن سبكتكين، المعروف بـ «حَسنَّك»، وصل إلى القاهرة من خراسان بهدية إلى الخليفة الظاهر، وطلب منه حماية طريق الحجّ، لأنهم انقطعوا عن الحجّ من سنة ٤١١هـ أي لأكثر من ست سنوات، فما كان من الخليفة الظاهر، إلا أن أكرمه أحسن إكرام، ووعده بالحماية، فأرسل الرسول إلى محمود بن سبكتكين بذلك، فقصد الحجاج مكة وكانوا قد وصلواإلى مكة عن طريق بغداد، فالرملة، ومعهم ستين ألف جمل ومائتا ألف حاج، فلما وصل خبرهم إلى الظاهر، «كتب إلى جميع ولاته في الشام باستقبالهم وإنزالهم وإكرام مقدّميهم، وعمارة البلاد لهم، بالطعام والعلوفات، وإطلاق الصلات والأعطيات للفقهاء والقرّاء، وإقامة الأنزال الكثيرة لحسنّك»، والتناهي في إكرامه. وتقدّم إلى مقدّمي عساكر الشام بحفظهم والمسير بصحبتهم وحراستهم، وأمر صالح بن مرداس أن يتسلّمهم من دمشق ويوصلهم إلى الرحبة (قرب الكوفة). وعلم الخليفة أنّ من بين الحجاج، أبو الحسن محمد بن الحسن الأقساسي الطالبي، فسطّر أمراً إلى صالح بن مرداس أن يدفع للشريف الطالبي ألف دينار وعدّة كثيرة من الثياب، ومثلها لحسنّك قائد قافلة حج العجم، وقيّد لحسنّك فرساً بسرج من

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الأول، ص ٢٨٥.

ذهب. «فساروا من الرملة موقورين مجبورين شاكرين حتى وصلوا بغداد».

ويخبرنا المقريزي أنّهم فور وصولهم إلى بغداد اعتقلهم الخليفة العباسي «وشلّحهم» كلّ ما أخذوه من الخليفة الفاطمي الظاهر، «واستدعى الفرس والقماش والخلع وأحرقها ببغداد»[1].

ويخبرنا المقريزي أنّ الظاهر، كسب من الناس حسن الثناء والقادر بالله الشتيمة والمذّمة.

أما المسبحّي وهو مؤرّخ مصري، يعيش داخل قصور الخلافة الفاطمية، فقد أخبرنا خبر ورود الحجّاج من خراسان بشكل ألطف حيث قال: «وفيه وصل الخبر بأن أهل خراسان تعذّرت عليهم الطريق التي كانوا يسلكونها من بغداد إلى مكة، فقادتهم الضرورة إلى المسير إلى أيلة (إيلات) ومن أيلة إلى الرملة، ومن الرملة على طريق الشام إلى بغداد، فوصلوا في ستين ألف ناقة ومائتي ألف إنسان، فنفذت السجلاّت المعظّمة (الأوامر) من الحضرة المطهّرة (دار الخلافة في القاهرة) إلى سائر الولاة بالشام، بتلقّيهم وإنزالهم، وإكرام مقدّميهم، وعمارة البلاد لهم بالطعام والعلف، فَفُعِلَ ذلك. وشاهد الواصلون من عدل الحضرة المطهّرة وعمارة بلادها، ما لم يكونوا يقدّرونه. وزال ما كان يتّهمون به أهل هذه الدولة المباركة من الكفر وفساد الدين. وانصرف القوم إلى بلادهم وهم شاكرون مكرّمون»[2].

---

(١) اتعاظ الحنفا، الثاني، ص ١٣٨.

(٢) أخبار مصر في سنتين، م،س. ص ٤٣.

ونلاحظ العبارة التي أنهى بها المسبحّي مداخلته وهي زوال تهمة الكفر وفساد الدين من رأس الحجّاج بسبب معاينتهم ميدانياً لسلوك هذه الدولة. وتلك هي المشكلة مع الفاطميين، أنّ الدعاية المعادية أقوى من الواقع المعاش.

والصراع على بركات الكعبة، كان كرّاً وفرّاً، فعندما أرسل الوزير العباسي ابن جهير، وزير المقتدي بأمر الله العباسي، منبراً من ذهب إلى الكعبة وكان ذلك سنة ٤٧٠ للهجرة، وكانت الدعوة حينها في مكة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، كسره أهل مكة وأحرقوه. وكان هذا المنبر مصنوع من الذهب ونقش عليه: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، الإمام المقتدي بأمر الله، أمير المؤمنين، مما أمر بصنعه محمّد بن محمّد بن جهير».

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

حاكم مكة قرصان بحري:

وليس من الضروري أن يكون حاكم مكة بمستوى البلد الذي يحكمه من العز والرفعة وعلو القدر، فقد أخبرنا المقريزي أن حاكم مكة قاسم بن أبي هاشم شنّ هجوماً بحرياً على مراكب التجار المصريين في البحر الأحمر، وصادر كلّ حمولاتهم، فوصل الخبر إلى الوزير الفاطمي الأول الأفضل بن بدر الجمالي فغضب وقال: «صاحب مكة يأخذ تجاراً من مصر، أنا أسير إليه بنفسي بأسطول أوله عيذاب (الشاطىء من الجهة المصرية) وآخره جدّة (الشاطىء من جهة مكة). فتدخل الأشراف الطالبيون في مصر وكاتبوا ابن عمّهم حاكم مكة يلومونه، وفي نفس الوقت، فرض الأفضل حصاراً

اقتصادياً برّياً وبحرياً على مكة. وكانت النتيجة «أن أعيد جميع ما أخذ من التجار المصريين من البضائع والأموال، فحملت إلى الجامع العتيق بمصر بحضور الرعايا، وهم يعلنون بالشكر والدعاء. واحتاط متوليّ الحكم على البضائع إلى أن تحضر جماعة التجار ويجري الأمر على ما توجبه الشريعة»(١).

وكان الحجاج يزورون بيت المقدس بعد زيارة مكة، ويخبرنا ناصر خسرو أنّ الحاكم الفاطمي لبيت المقدس، كان يعدّ فنادق للحجّاج وللضيوف الوافدين على حساب الدولة، وكانوا يقدّمون لهم «الخبز والزيتون وطبقاً من العدس المطبوخ بالزيت وزبيباً كلّ يوم، وفي بعض الأيام يبلغ عدد الضيوف خمسمائة، فتهيّأ الضيافة لهم جميعاً»(٢).

الميزانية السنوية لقافلة الحج المصري:

ويخبرنا المقريزي عن سنة ٣٨٧ للهجرة كيف سارت قافلة الحجّ المصري «بالكسوة للكعبة، والزيت والدقيق والقمح والشمع والطيب» لفقراء مكّة والمدينة. كما يخبرنا أنّ ما أطلق لمكة من القمح: ثمانية آلاف وتسعماية وأربعون إردباً، مصحوبة بتخوت من الثياب وخلع مال وبخور، دعماً لأمير مكة، وكأنّ هذه الهدية بمثابة درس لمن يحكم مكة، للحفاظ على الاسم الذي يحمله، والمركز الذي يمثّله.

---

(١) اتعاظ الحنفا، الثالث، ص ٥٨.

(٢) سفرنامه، ناصر خسرو، م.س. ص ٧٣.

ونقل المقريزي عن كتاب الذخائر والتحف للقاضي الرشيد ابن الزبير، أنّ المنفق على موسم الحجّ في كلّ سنة (الميزانية السنوية) كانت تتراوح بين ١٢٠ ألف دينار ومائتي ألف دينار ذهباً، عدا الطيب والحلويات والشمع التي كان تبلغ كلفتها سنوياً عشرة آلاف دينار ذهباً، بالإضافة إلى كلفة ومخصّصات عناصر بعثة الحجّ الرسمية المؤلّفة من ممثلين، لكلّ الدول التابعة للخلافة الفاطمية البالغة أربعين ألف دينار.

أما عناصر المواكبة والحراسة من عسكر ورجال أمن، ورئيس البعثة الرسمية، وخدم القافلة وكلفة تجهيز آبار الشرب، خلال طريق القافلة وحماية هذا الآبار، ذهاباً وإياباً، تبلغ ستين ألف دينار. وينهي المقريزي مداخلته بقوله: «لم تبلغ النفقة على موسم الحاج، مثل ذلك في أي دولة من الدول»[1].

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

كسر الحجر الأسود وموقف الفاطميين من هذا العمل:

أول من أورد خبر محاولة كسر الحجر الأسود هو أحد المؤرّخين المعاصرين لهذا العمل الشنيع، وهو المؤرّخ النصراني يحيى بن سعيد الأنطاكي. أي أنّه لا شيعي يتّهم السنّة بكسره ولا سنّي يتهم الشيعة بكسره، حيث لا مصلحة له رمي هذا الفعل الشنيع على أي طائفة. فجاء إيراد الخبر عادياً حيث يقول: «وفي يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجّة سنة ٤١٣ هجرية، ضرب

(١) الخطط المقريزية، الجزء الأول، م.س. ص ٤٩٢.

إنسان عجمي بمكة الحجر الأسود، الذي في سكن البيت بعد انقضاء الحج بدبّوس (رمح قصير وثقيل الوزن). وكسره وشظا فيه شظايا. وبودر وقُتل هو وجماعة معه وأحرقوا بالنار. واستنفر أهل مكة في طلب الحجيج، فقُتل من الناس زهاء خمسمائة وهرب عدة كثيرة منهم ونهب من أموالهم جملة عظيمة»[1].

وإيراد الخبر بهذه الطريقة، لا يدلّنا على الجهة أو الفرقة الدينية التي قامت بهذا العمل، وجلّ ما نستنتجهُ، أن أهل مكة استغلّوا هذا الحدث وقتلوا الحجيج ونهبوا أموالهم.

وقد استغلّ المؤرّخون المعارضون للوجود الشيعي الفاطمي في دنيا العالم الإسلامي السياسي والديني هذا الحدث، فنسبوه إلى أنّه تم بتحريض من خلفاء مصر.

يقول ابن الأثير: «وفي هذه السنّة (٤١٤ هـ)، كان يوم النفر الأول، يوم الجمعة، فقام رجل من مصر بإحدى يديه سيف مسلول وفي الأخرى دبّوس، بعدما فرغ الإمام من الصلاة، فقصد ذلك الرجل، الحجر الأسود، كأنّه يستلمه، فضرب الحجر ثلاث ضربات بالدبوس وقال: إلى متى يعبد الحجر الأسود؟ ومحمد، وعليّ. فليمنعني مانع من هذا. فإنّي أريد أن أهدم البيت. فخاف أكثر الحاضرين وتراجعوا عنه. وكاد يفلت، فثار به رجلٌ فضربه بخنجر فقتله، وقطّعه الناس وأحرقوه، وقتل ممّن أتُّهم بمصاحبته وأحرقوا. وثارت الفتنة. وكان الظاهر من القتلى أكثر من عشرين رجلاً، غير ما

---

(١) صلة تاريخ أوتيكا، يحيى بن سعيد الأنطاكي، م.س. ص ٣٧٠.

اختفى منهم. وألّح غيرهم. وتقشّر بعض وجه الحجر من الضربات، فأخذ ذلك الفتات وعُجن بلكّ واعيد إلى موضعه»[1].

والجديد في خبر ابن الأثير، أن ليس الحجر الأسود فقط كان مقصوداً، بل محمد ﷺ وعليّ عليه السلام كانا مقصودان وهو يريد منع عبادة الثلاثة.

أما المقريزي فيقول إن ضرب الحجر حصل سنة ٤١٨ هـ، حيث يقول: «وفي سنة ثمان عشرة وأربعمائة في ذي الحجة والناس يطوفون بالكعبة. قصد رجل ديلمي من الباطنية، الحجر الأسود، فضربه بدبوس فكسره، وقتل في الحال، وقتل معه جماعة، ذكر أنّهم كانوا معه، وعلى اعتقاده الخبيث».

ولم يعلّق المقريزي على هذا الحدث، كما أنّه لم يتهم سوى الباطنية، ولا يعني الباطنية هم الفاطميون، ففرق الملاحدة كثيرة ولا علاقة للفاطميين بهم.

أما الحافظ ابن كثير، فهو يرى أن سنة ٤١٣ للهجرة جرى بدخولها «كائنة غريبة عظيمة، ومصيبة عامة. وهي أن رجلاً من المصريين من أصحاب الحاكم اتفق مع جماعة من الحجّاج المصريين على أمر سوء، وذلك أنّه لما كان يوم النفر الأول، طاف هذا الرجل بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر الأسود، جاء ليقبّله، فضربه بدبّوس كان معه، ثلاث ضربات متواليات وقال: إلى متى نعبد هذا الحجر؟ ولا محمد ولا علي يمنعني مما أفعله. فإنّي أهدم اليوم هذا

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير.

البيت. وجعل يرتعد، فاتقاه أكثر الحاضرين وتأخرّوا عنه، وذلك لأنه كان رجلاً طويلاً جسيماً أحمر اللون أشقر الشعر، فتقدّم إليه رجل من أهل اليمن معه خنجر فوجأه بها، وتكاثر الناس عليه فقتلوه وقطّعوه قطعاً».

والحادث تمّ سنة ٤١٨ هـ، فذكره الحافظ ابن كثير في حوادث سنة ٤١٣ هـ، وهو المتوفي سنة ٧٧٤هـ، أي بعد مرور ثلاثماية وستين سنة، ورواه وكأنّه عنصر مخابرات مدسوس على الجماعة المصرية، فالتفاصيل التي أوردها تشير كأنّه موجود، ولم يقم بزيادة سوى حرفي «لا» على خبر ابن الأثير حيث قال: إلى متى نعبد هذا الحجر؟ و (لا) محمد و (لا) علي يمنعني، فأصبح محمد وعلي مانعين بعد أن كانوا معبودين مع الحجر الأسود[١].

وعندما رمى عبدالله بن الزبير الكعبة بالمنجنيق وهدمها، ذكر ابن كثير الخبر على «أن الجدار مال من رمي المنجنيق» بعد أن استشار خالته عائشة أم المؤمنين، «فجزاه الله خيراً»[٢].

أما ابن العماد الحنبلي فنقل ما كتبه الحافظ ابن كثير حرفياً. كما أنّه دافع عن الحجاج بن يوسف الثقفي في هدمه الكعبة وحرقها.

بينما أقدم أبو المحاسن ابن تغري بردي على ذكر الخبر، وأتحفنا ببيان صادر عن الحضرة المقدّسة في القاهرة تعطي فيه وجهة نظر الخليفة الظاهر في هذا الأمر. ولحسن الحظّ أنّه الوحيد

---

(١) راجع: البداية والنهاية، م.س. المجلد ١٢، ص ١٣.

(٢) البداية والنهاية، الثامن، ص ٢٥٠.

الذي نقل لنا بيان الخليفة الظاهر، ولولاه لبقينا في حيرة من أمرنا تجاه موقف قصر الخلافة في مصر، وهو المتّهم الأول تجاه هؤلاء المؤرّخين المشكّكين.

يقول أبو المحاسن: «وكان الظاهر لإعزاز دين الله كثير الصدقات، منصفاً، لا يدّعي دعاوى والده وجدّه في معرفة النجوم وغيرها من الأشياء المنكرة. ولا سيما لما وقع من بعض حجاج المصريين، كسر الحجر الأسود بالبيت الحرام في سنة ٤١٣ هـ، وكان أمر الحجر أنّه لما وصل الحاجّ المصري إلى مكّة المشرفة، وثب شخص من الحاج إلى الحجر الأسود، وضربه بدبّوس كان في يده، حتّى شعّثه وكسر قطعاً منه. وعاجله الناس فقتلوه. وثار المكيّون بالمصريين، فقتلوا منهم جماعة ونهبوهم، وقيل أنّ الرجل الذي فعل ذلك كان من الجهال الذين استغواهم الحاكم وأفسد عقائدهم. فلما بلغ الظاهر ذلك شقّ عليه وكتب كتاباً بهذا المعنى».

بيان صادر عن الحضرة المطهرّة في القاهرة حول محاولة كسر الحجر الأسود:

وأورد أبو المحاسن نصّ الكتاب أو البيان الذي أصدره الظاهر بشأن كسر الحجر الأسود فمما جاء فيه: «وذهبت طائفة من النصيرية إلى الغلوّ في أبينا أمير المؤمنين، رضوان الله عليه، وغلت وادّعت فيه ما ادّعت النصارى في المسيح. ونجمت من هؤلاء الكفرة فرقة سخيفة العقول، ضالّة يجهلها عن سواء السبيل، فغلوا فينا غلّواً كبيراً، وقالوا في آبائنا وأجدادنا منكراً من القول وزوراً، ونسبونا

بغلّوهم الأشنع وجهلهم المستفظع، إلى ما لا يليق بنا ذكره، وإنّا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضُلاّل. ونسأل الله أن يحسن معونتنا على إعزاز دينه وتوطيد قواعده وتمكينه، والعمل بما أمرنا به جدّنا المصطفى، وأبونا عليّ المرتضى، وأسلافنا البررة أعلام الهدى. وقد علمتم يا معشر أوليائنا ودعاتنا ما حكمنا به من قطع دابر هؤلاء الكفرة الفُسّاق، والفجرة المُرّاق. وتفريقنا لهم في البلاد كلّ مفرَّق. فظعنوا في الآفاق هاربين، وشرّدوا مطرودين خائفين. وكان من جملة من دعاه الخوف منهم، إلى الانتزاح رجل من أهل البصرة أَهْوَجٌ أَثْوَلٌ (مجنون) ضالّ مضلّ، سار مع الحجيج إلى مكة ـ حرسها الله ـ فَرَقاً (خوفاً) من وقع الحسام وتَسَتُّرَ بالحج إلى بيت الله الحرام. فلما حصل من في البيت المفضّل المعظّم، والمحلّ المُقدّس المُكرّم. أعلن الكفر، وما كان يخفيه من المكر وحَمَله لَمَمٌ في عقله على قصد الحجر الأسود، حتى قصده، وضربه بدّبوس، ضربات متواليات أطارت منه شظايا وُصِلت بعد ذلك. ثم أنّ هذا الكافر عوجل بالقتل على أسوأ حاله وأضلّ أعماله وأُلحق بأمثاله من الكفرة الواردين موارد ضلاله. ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم. ولعمري إنّ هذه لمصيبة في الإسلام قادحة، ونكاية فادحة. فإنّا لله وإنّا إليه راجعون»[1].

والعجب أيضاً أنّ أبا المحاسن، ذكر هذا الكتاب الذي يظهر الحقّ ناصعاً، ولم يحذف منه إشارة الخليفة الظاهر إلى سابقة حرق الكعبة

---

(١) النجوم الزاهرة في

وهدمها بأكملها حيث أنهى بيان الحضرة المقدسة بقوله: «لقد ارتقى هذا الملعون مرتقى عظيماً، ومقاماً جسيماً، أذكر به ما كان أقدم عليه غلام ثقيف المعروف بالحجّاج ـ لعنه الله ـ من إحراق البيت وهدمه، وإزالة بنيانه وردمه».

ونستنتج من بيان قصر الخلافة في القاهرة أنّ الرجل الذي أقدم على كسر الحجر الأسود هو من أهل الكوفة وليس من بعثة الحاج المصرية الرسمية، كما أنّه معروف بأنه: «أثول أهوج مجنون». ومكّة كانت من الولايات الفاطمية ولا يعقل أن تهان بعثة الحاج الرسمية في منطقة محكومة من قبل الدولة الفاطمية وبيان الخليفة الظاهر، كاف لإثبات أن الملّة الشيعية الفاطمية هي الأصل، وأن غيرها من طارئين وغرباء هم الفرع. وإذا كان قد غالى بهم بعض الغلاة، فحساب هؤلاء الغلاة عند ربّهم وليس عند المؤرّخين المعارضين.

الجوهرة التي تعلّق كلّ سنة بالكعبة أو شمسة الكعبة:

كان الحكام العرب يتباهون في تكريم الكعبة ـ أعزّها الله ـ باستثناء بعضهم كالحجّاج بن يوسف الثقفي وعبد الله بن الزبير. ومنهم من كان يعلّق عليها الستائر والثيّاب المحلاّة بالذهب، والموّشاة بجميع أنواع الرسوم والتصاوير، ومنهم من كان يرسل لها المنابر كمنبر ابن جهير، أو أي شيء يعبّر فيه عن احترامه لهذا الركن العتيق والبيت المقدّس.

ومن هؤلاء الحكام، الخلفاء الفاطميون. وتخبرنا كتب التاريخ أنّ الفاطميين، كانوا يرسلون بعثة حاج رسمية كلّ سنة بقيادة أحد

الأشراف الطالبيّين. وكانت البعثة تصطحب معها الشمسة الكبيرة لتعلّق على الكعبة أثناء الحاج، وتعاد مع البعثة إلى القاهرة فما هي هذه الشمسة أو الشمسية؟.

يقول المقريزي: «وفي يوم عرفة (سنة ٣٦١ هـ) نصب المعزّ الشمسة التي عملها للكعبة على إيوان قصره. وسعتها إثنا عشر شبراً في مثلها (قطرها). وأرضها ديباج أحمر، ودورها اثنا عشر هلال ذهب. وفي كلّ هلال أترجة (ليمونة كبيرة) ذهب مشبّك، في جوف كلّ أترجة خمسون درّة (ألماسة) كبيض الحمام. وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق. وفي دَوْرها مكتوب آيات الحج بزمرّد أخضر، وحشوا الكتابة (النقط) درّ كبير (ألماس) لم يُرَ مثله وحشو الشمسة المسك المسحوق. فرآها الناس في القصر ومن خارجه لعلو موضعها. ونصبها عدّة فراشّين وجرّوها لثقل وزنها».

ويخبرنا المقريزي أن الخليفة المعزّ: «أذن للناس عامة فدخلوا القصر والشمسة منصوبة على حالها، فلم يبق أحد حتى دخل من أهل مصر والشام والعراق. فذكر أهل العراق وأهل خراسان ومن يواصل الحج أنّهم لم يروا قط مثل هذه الشمسة، وذكر تجار الجواهر ووجوههم أنّه لا يستطيع أحد تقييم ما فيها لندرتها، وأنّ شمسة بني العباس كان أكثرها مصنوع من حجر الشبّة»[1].

وكان الخليفة العباسي المتوكّل على الله يرسل كلّ سنة سلسلة من ذهب مع ياقوتة تعلّق على الكعبة ثم يعودون بها بعد انتهاء مراسم الحج.

---

(١) اتعاظ الحنفا، الأول. ص ١٤٠.

ووصف جمال الدين الشيال محقّق كتاب اتعاظ الحنفا الشمسة بقوله: «إن الشمسة حلية ضخمة كانت ترسل إلى الكعبة في موسم الحج في صحبة قائد خاص لتعلّق في وجه الكعبة. وأنّها تشبه الشمس، ولها إثنا عشر ذراع تشبه أشعة الشمس أو عدد شهور السنّة، فموسم الحج يحلّ بعد مضي اثني عشر شهراً، أي سنة كاملة. والأهلّة الموجودة في نهاية الأشعة، تمثّل الشهور القمرية الهجرية»(١).

ذلك هو موقف الخلفاء الفاطميين من أهمّ معلم إسلامي وأعزّ موقع وأشرف مكان، وهذا الموقف هو الموقف الطبيعي لأبناء فاطمة، لأنّ الكعبة كعبة والدها أي كعبة جدّهم وكعبة أبيهم. فلا يعقل أن يكسروا حجرها أو يشعثّوا جدرانها أو يحرقوها.

وطريق مكّة كانت طوال حكم الدولة الفاطمية سالكة من الاتجاهين ـ القاهرة مكة ومكة القاهرة، بالرغم من أن المؤرّخين المعارضين لوجود الفاطميين يتّهمونهم بأنّهم منعوا الناس من الحج لعدة سنين دون أن يذكروا تواريخ هذه السنين. واستمروا برمي التهم جزافاً وبالمطلق وبدون تحديد.

بينما إذا أردنا أن نصف موقف أعداء الفاطميين من الحج والحجاج لوجدنا العديد من الحالات التي إذا ذكرناها نخرج عن موضوع كتابنا، ونكتفي ببعض منها.

يخبرنا المقريزي أنّه بعد إزالة الدولة الفاطمية على يد

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الأول، هامش ص ١٤٠.

صلاح الدين الأيوبي. فرض الأيوبيون على كلّ من أراد الحج إلى بيت الله الحرام عن طريق ميناء عيذاب من جهة الشاطىء المصري على البحر الأحمر، إلى ميناء جدّة، فريضة قدرها «سبعة دنانير مصرية ونصف على كلّ إنسان، وكانوا يؤدّون ذلك بعيذاب أو بجدّة، ومن لم «يؤدي» ذلك مُنع من الحاج وعُذّب بتعليقه من أُنثييه (خصيتيه)»[1].

كما يخبرنا المقريزي في خططه، أنّ الملك الناصر محمد بن قلاوون كتب إلى أمير مكة الشريف عطيفة يطلب منه أن يخلّصه من أحد قواده المشاغبين المدعو «الدمر». وأنّه سيكلّفه ببعثة الحاج الرسمية. ولما وصل الدمر قتله عطيفة. ولكي يغطي السلطان المملوكي فعلته، جرّد إلى مكة من العساكر ألفي فارس مزوّدين بجميع آلات الأسلحة والهدم وقال لهم: «إذا وصلتم إلى مكة، لا تدعوا فيها أحداً من الأشراف ولا من القوّاد ولا من عبيدهم يسكن بمكة ونادوا فيها: من أقام بمكّة حلّ دمه. ولا تدعوا شيئاً من النخل حتى تحرقوه جميعاً. ولا تتركوا بالحجاز دمنة عامرة. وأخربوا المساكن كلّها».

ولم يحترم محمد بن قلاوون سنّة العرب والإسلام وحلّل القتل أثناء الحج وهي حرام.

فهذه هي علاقة مكة بالفاطميين وعلاقتها بغيرهم. فانظر واحكم واعتبر.

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، القسم الأول، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، ط ٢، القاهرة، لجنة التأليف والنشر، سنة ١٩٢٧، ص ٨٦.

مصر تعلم المسلمين الشيعة طريقة الاحتفال بعاشوراء

لم تكن ذكرى الاستشهاد الحسيني نقطة عابرة في حياة المصريين أيام حكم الشيعة الفاطميين، بل كانت لها نكهة خاصة جعلت منها نقطة عبور من الظلم والقهر والقتل والاستعباد، إلى الحرية والتحرّر والتصدي لكل ظلم ولكلّ ظالم، في كلّ الأقطار والعصور الإسلامية، وما كتاب مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني، وأدبيات الشيعة الزيدية، وسيرة الحسن بن الصباح الحميري واستشهاديّي ثغر عاملة في جنوب لبنان، على تخوم شمال فلسطين، إلا خير دليل وخير معبّر من تحوّل هذه الذكرى الأليمة في تاريخ الإسلام والمسلمين، إلى ذكرى جليلة عظيمة موحية رامزة إلى أفضل المعاني الإنسانية.

أول من أقام مجالس العزاء الكربلائية في الإسلام:

تروي كتب التاريخ أن السيدة زينب عليها السلام هي التي أقامت أول مجلس عزاء على أخيها الشهيد الحسين عليه السلام في الإسلام.

وكانت السيدة زينب أصغر من الإمام الحسين بسنتين ومن ألقابها:

الصديقة الصغرى، عقيلة بني هاشم، عقيلة الطالبيّين، العارفة، العالمة توفيت بعد مقتل الحسين بخمس سنين من الخامس عشر من شهر رجب سنة ٦٥هـ[١].

ونقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «احيوا أمرنا، غفر الله لمن أحيا أمرنا». ويعني بإحياء الأمر، ذكر المصائب التي نزلت بأهل البيت وخاصة مقتل الحسين عليه السلام.

وقد أشرنا إلى أنّ ابن تيمية لا يتّهم يزيد بن معاوية بقتله، ولا عبيد الله بن زياد ولا عمر بن سعد، بل يقول، «فيزيد لم يأمر بقتل الحسين، ولا حمل رأسه إلى بين يديه، ولا نكث بالقضيب على ثناياه، ولا طيف برأسه في الدنيا، ولا سبي أحد من أهل الحسين، بل الشيعة هم الذين كتبوا إليه وغرّوه وخرجوا مع عسكر عمر بن سعد حتى قتلوه مظلوماً شهيداً»[٢].

فالشيعة حسب رأي ابن تيمية هم الذين خرجوا مع عسكر عمر بن سعد وقتلوه!!!.

وأخذ الشيعة في كلّ أنحاء العالم الإسلامي وخاصة في المناطق التي تسمح ببعض الحرية، يقيمون مجالس العزاء في مناطقهم وأماكن تجمّعاتهم، يبكون الحسين ويظهرون فظاعة ظلم بني أمية وعسفهم الذي أنزلوه بأهل بيت النبي.

وجاء العصر العباسي الأول، فكان أشد ظلماً وفتكاً بالشيعة

---

(١) راجع: أدب الطف، ج ١، جواد شبّر، م.س. ص ٣٦.

(٢) سؤال في يزيد بن معاوية، م.س. ص ١٧.

وبأهل البيت، وخاصة أبو جعفر المنصور الملقب بالدوانيقي، فقد ذكر أنّه وجد في أحد سجونه مئات الجثث التي تدلّ على أن أصحابها من أبناء علي بن أبي طالب.

بداية الاحتفالات بعاشوراء:

يصف لنا محقّق كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير في الهامش، إقامة مجلس العزاء في بغداد لأول مرة في تاريخ الدولة العباسية بشكل علني مسموح، أيام البويهين فيقول في هامش حوادث سنة ٣٦٠هـ: «وفي هذه السنّة في عاشر المحرّم عملت الرافضة بدعتهم الشنعاء، فغلقت الأسواق وتعطّلت المعايش ودارت النساء سافرات عن وجوههن، ينحن على الحسين بن علي، رضوان الله عليهما، ويلطمن وجوههن، والمسوح معلّقة في الأسواق والتبن مذرور فيها»(١).

شرح المحقّق في هامش الكتاب عن احتفالات عاشوراء وأطلق عليها صفة البدعة الشنعاء وعندما تحدث في الصفحة ٤٤ عن قيام أهل الشام وحلب بالمظاهرات ضد الخليفة المطيع في بغداد «وقيامهم في الجوامع والمشاهد باستنفار المسلمين وذكر ما فعله الروم بهم من القتل والأسر والسبي والنهب». مرّ على ذكر هذه المظاهرات دون أي إشارة في الهامش. وعندما ورد ذكر إحراق سبعة عشر ألف إنسان في حي الكرخ على يد الوزير العباسي أبو الفضل» وهم من الشيعة الإمامية، كونه «شديد العصبية السنية»، لم

(١) راجع: الكامل في التاريخ، الجزء السابع، ص ٤١.

يعلّق المحقّق على هذا الخبر، رغم أنّ ابن الأثير نفسه، شمت بموت الوزير المتعصّب وقال إنّ سبب شماتته هو إقدامه على إحراق هذا العدد من الناس في الحي الشيعي المذكور.

وفي هامش صفحة ٢٦٥ من الكتاب نفسه يصف لنا محقّق الكتاب الاحتفالات بيوم عاشوراء فيقول: ومن حوادث هذه السنّة أيضاً أعني سنة ٤٠٢هـ، في المحرّم أذن الوزير فخر الملك للروافض أن يعملوا بدعتهم الشنعاء والفضيحة الصلعاء من الانتحاب والنوح والبكاء وتعليق المسوح (تلطيخ الوجوه بالسواد)، وأن تغلق الأسواق من الصباح إلى ا لمساء، وأن تدور النساء حاسرات عن وجوههنّ وعن رؤوسهنّ، يلطمن خدودهنّ كفعل الجاهلية الجهلاء، على الحسين بن علي. فلا جزاه الله خيراً (الوزير فخر الملك)، وسوّد الله وجهه يوم الجزاء، إنّه سميع الدعاء» ويقول إن هذه الإضافات والشروح في هامش ابن الأثير أخذها من البداية والنهاية لابن كثير[1].

وفي هامش ص ٣٠٠، يخبرنا المحقّق الشيخ خليل الميس، أنّ محمود بن سبكتكين قتل «المعتزلة والرافضة والإسماعيلية، حتى صار ذلك سُنّة في الإسلام ويتأوّه متمنّياً: آه لو فعل حكّامنا في عصرنا الحاضر مثل فعلهم، لقضوا على الزنادقة والملحدين».

ويشير ابن العماد الحنبلي إلى أن أول مأتم للحسين أقيم في بغداد كان سنة ٣٥٢هـ.

ووصف هذا الاحتفال أبو المحاسن ابن تغري بردي بقوله:

---

(١) راجع: الكامل في التاريخ الجزء السابع، م.س. ص ٢٦٥.

وفي سنة ٣٥٢ هـ في ولاية الخليفة المطيع لله «وفي يوم عاشوراء، ألزم معز الدولة (البويهي) الناس بغلق الأسواق ومنع الطباخين من الطبخ، ونصبوا القباب في الأسواق، وعلّقوا المسوح (التلطيخ بالسواد) وأخرجو النساء منشورات الشعور، يقمن المآتم على الحسين بن علي، رضي الله عنه. قلت: وهذا أول يوم وقع فيه هذه العادة القبيحة الشيعيّة في بغداد. وكان ذلك في صحيفة معزّ الدولة بن بويه. ثم اقتدى به من جاء بعده من بني بويه. وكلّ منهم رافضيّ خبيث»[1].

عاشوراء في مصر قبل دخول جوهر الصقلي:

ما زال أمر الشيعة يقوى بمصر بسبب سيطرة الشيعة البويهيّين على مصدر القرار السياسي في بغداد، وما أن دخلت سنة ٣٥٠ هـ، كانت منازعة بين جند علي بن الإخشيد وبين العامة عند قبر أم كلثوم، يوم عاشوراء، بسبب النوح على الحسين وسب السلف، وقد تصدى العامة للعساكر الإخشيدية حيث قتل في هذا التصدّي جماعة من الفريقين، مما يدلّ على انتشار التشيّع في صفوف العامة بمصر.

ويروي المؤرّخون أن السودان كان أكثرهم سنّياً وكانوا إذا التقوا بواحد من عامة مصر يسألونه: من خالك؟، فإذا لم يقل معاوية خالي، فيعرفون أنّه شيعي فيبطشون به. وقد اشتد الصراع بين السنّة والشيعة في عهد علي بن الإخشيد، حتى وصل الأمر إلى وقوف شيخين من أهل السنّة أمام الجامع العتيق بمصر يناديان في كلّ يوم جمعة في وجوه الداخلين والمارين أمام الجامع: «معاوية

---

(١) النجوم الزاهرة، المجلّد الثالث، م.س. ص ٣٨٤.

خالي وخال المؤمنين وكاتب الوحي ورديف رسول الله، صلى الله عليه وسلّم. ويقال أنّهم كانوا يتحرّشون بالنقيب أبي جعفر مسلم الحسيني، وهو أحد مفاوضي جوهر الصقلي ويقولون ذلك في وجهه، وكلّفوا رجلاً أسود أن يسير بشوارع مصر ويصيح بشكل دائم: معاوية خال علي، وقد قتل هذا الرجل الأسود على يد العسكر الشيعي أثناء دخول جوهر مصر»[1].

أول احتفال بعاشوراء في مصر:

نقل القاضي النعمان عن المعزّ لدين الله عن آبائه عن الأئمّة عن النبي ﷺ: «أنّه سمع نساء الأنصار يبكين قتلى أحد. فقال: لكن حمزّة (عمّه) بينهم ولا بواكي له؟ فبلغ ذلك نساء الأنصار، فأتين بأجمعهن إلى دار حمزة، فجعلن يندبنه ويبكين عليه فقال النبي ﷺ: ما هذا؟ فأخبر بما بَلَغَهُنَّ عنه، وأنّهنّ فعلن ما فعلن، فأثنى عليهنّ خيراً، فصارت إلى يوم سُنّة في المدينة، لا تندب نادبة ميتها حتى تندب حمزة عليه السلام.

والنوح على الحسين عليه السلام اليوم بثلاث سنين وأصبحت سُنّة وخاصة اليوم الذي أصيب فيه (العاشر من محرّم)، فعل ذلك نساءُ بني عبد المطلب بحضرة علي بن الحسين عليه السلام وكان من بقي من الصحابة والتابعين يأتون إلى ماتم الحسين فيستمعون إليهنّ ويبكون[2].

---

(١) راجع: تاريخ الشيعة، م.س. ص ١٨٢.

(٢) راجع: المجالس والمسايرات. م.س ص ١٠٢.

ووصف المقريزي أول مجلس عزاء أقيم في مصر بمناسبة عاشوراء لسنة ٣٦٣ هـ على عهد الخليفة المُعِزّ لدين الله فقال:

«وفي يوم عاشوراء انصرف خَلْقٌ من الشيعة واتباعهم من المشاهد، من قبر كلثوم بنت محمد بن جعفر بن محمد الصادق ونفيسة، ومعهم جماعة من فرسان المغاربة ورجَّالتهم بالنياحة والبكاء على الحسين، وكسرّوا أواني السقّائين في الأسواق، وشقّوا الروايا، وسبّوا من ينفق في هذا اليوم، فقويت أنفس الشيعة بكون المعزّ في مصر».

وفي مكان آخر وصف المقريزي ما كان عمل في عاشوراء فقال: وفي يوم عاشوراء استفتح المقرئون، واستدعي الأشراف على طبقاتهم، والخليفة على باب طاقة القصر بغير مخدّة متلثّماً هو وجميع حاشيته، وسلّم على القاضي والداعي والأشراف والأمراء وهم بغير مناديل (عمائم) ملثّمون حفاة. ثم جلس الخليفة على الأرض متلثّماً يرثى به الحسين، فإذا كان يوم العاشر من المحرّم، احتجب الخليفة عن الناس، أما القاضي والداعي والأشراف والوزير، يتّجهون إلى المشهد الحسيني، فيجلس الوزير صدر المجلس، والقاضي والداعي عن جانبيه، والقرّاء يقرأون مصرع الحسين نوبة بنوبة، وينشد قوم من الشعراء وهم غير شعراء الخليفة شعراً يرثون به أهل البيت عليهم السلام، فإن كان الوزير رافضياً (شيعياً) تغالوا، وإن كان سنيّاً اقتصدوا، ولا يزالون كذلك إلى أن تمضي ثلاث ساعات، فيستُدعون إلى القصر عبر نقباء الرسائل، فيركب الوزير إلى داره، أما القضاة والداعي ومن معهما من الأشراف والأمراء فيعودون

إلى القصر ويدخلون من باب الذهب فيجدون الدهاليز قد فرشت مصاطبها بالحصر (القش) بدل البسط (القماش)، فيجدون صاحب الباب جالساً على مصطبة، فيجلس القاضي والداعي إلى جانبه والناس ملتفّة حولهم على اختلاف طبقاتهم، فيقرأ القرّاء مجالس العزاء وينشد المنشدون الأشعار.

سماط عاشوراء: الفرش مقلوبة وعدس أسود وخبز أسود والثياب سوداء:

ووصف أبو المحاسن ابن تغري بردي احتفالات الخليفة المستعلي بالله يوم عاشوراء فقال[1]:

««وكان المستعلي حسن الطريقة في الرعيّة، جميل السيرة في كافّة الأجناد، ملازماً لقصره كعادة أبيه، مكتفياً بالأفضل فيما يريده، إلا أنّه كان مع تقاعده عن الجهاد، وتهاونه في أخذ البلاد متغالياً في الرَّفْض والتشيّع؛ كان يقع منه الأمور الشنيعة في مأتم عاشوراء، ويبالغ في النَّوْح والمآتم، ويأمر الناس بلبس المُسُوح وغلق الحوانيت واللطم والبكاء، زيادة عما كان يفعله آباؤه، مع أنّ الجميع رافضة، ولكنّ التفاوت نوع آخر.

وأما الذي كان يفعله آباؤه وأجداده من النَّوْح في يوم عاشوراء والحزن وترتيبه، فإذا كان يوم العاشر من المحرم اُحتجب الخليفة عن الناس، فإذا علا النهار ركِب قاضي القضاة والشهود وقد غيروا

---

(١) النجوم الزاهرة، الجزء الخامس، ص ١٥٢.

زِيّهم ولبِسوا قماش الحزن، ثم صاروا إلى المشهد الحسينيّ بالقاهرة ـ وكان قبل ذلك يُعمل المأتم بالجامع الأزهر ـ فإذا جلسوا فيه بمن معهم من الأمراء والأعيان، وقرّاء الحضرة والمتصدّرين في الجوامع، جاء الوزير فجلس صَدراً، والقاضي وداعي الدُّعاة من جانبيه، والقرّاء يقرؤون نَوبةً بنوبة، ثم ينشد قوم من الشعراء غير شعراء الخليفة أشعاراً يرثون بها الحسن والحسين وأهل البيت، وتَصيح الناس بالضجيج والبكاء والعَويل ـ فإن كان الوزير رافضياً على مذهب القوم تغالَوْا في ذلك وأمعنوا، وإن كان الوزير سُنِّيّاً أقتصروا ـ ولا يزالون كذلك حتّى تمضي ثلاث ساعات، فيُسْتَدْعَوْن إلى القصر عند الخليفة بنقباء الرسائل؛ فيركب الوزير وهو بمنديل صغير إلى داره، ويدخل قاضي القضاة والداعي ومَن معهما إلى باب الذهب (أحد أبواب القصر)، فيجدون الدهاليز قد فُرِشت مَساطبها بالحصر والبُسط، ويُنصب في الأماكن الخالية الدكك لتُلحقَ بالمساطب وتفرش؛ ويجدون صاحب الباب جالساً هناك، فيجلس القاضي والداعي إلى جانبه والناس على اختلاف طبقاتهم؛ فيقرأ القُرّاء ويُنشد المنشدون أيضاً. ثم يفُرش وسط القاعة بالحصر المقلوبة (ليس على وجوهها، وإنما تخالف مفارشها)؛ ثمّ يُفرش عليها سِمَاطُ الحزن مقدار ألف زبدية من العدس والملوحات والمخلَّلات والأجبان والألبان الساذَجَة والأعسال النَّحْل والفَطِير والخُبز المغيَّر لونُه بالقصد لأجل الحزن. فإذا قرب الظهر، وقف صاحب الباب وصاحب المائدة (يعني الحاجب والمشدّ)، وأُدخِل الناس للأكل من السِّماط، فيدخل القاضي والداعي ويجلس صاحب

الباب ببابه؛ ومن الناس من لا يدخل من شدّة الحزن، فلا يُلزم أحد بالدخول. فإذا فرغ القوم انفصلوا إلى مكانهم ركباناً بذلك [الزيّ] الذي ظهروا فيه من قماش الحزن. وطاف النُّوَاح بالقاهرة في ذلك اليوم، وأغلق البيّاعون حوانيتهم إلى بعد العصر، والنَّوْح قائم بجميع شوارع القاهرة وأزِقّتها. فإذا فات العصر يفتح الناس دكاكينهم ويتصرّفون في بيعهم وشرائهم؛ فكان [ذلك] دأب الخلفاء الفاطميّين من أولهم، المعزّ لدين الله مَعَدّ إلى آخرهم، العاضد عبدالله»[1].

الاحتفال بمقتل الحسين أحد أعياد الدولة الأيوبية:

وتحت عنوان: **يوم عاشوراء:** كتب المقريزي فقال: كانوا يتّخذونه يوم حزن تتعطّل فيه الأسواق، ويعمل فيه السماط العظيم، المسمى سماط الحزن، وكان يصل إلى الناس منه الشيء الكثير. فلما زالت الدولة الفاطمية، اتخذ الملوك من بني أيّوب يوم عاشوراء يوم سرور، يوسّعون فيه على عيالهم واتباعهم، ويتبسّطون في المطاعم، ويصنعون الحلاوات، ويتخذون الثياب الجديدة، ويستعملون الأواني الجديدة، ويدخلون الحمام جرياً على عادة أهل الشام، في الشماتة بمقتل الحسين، ويكتحلون. وهذه السنّة سنّها لهم الحجّاج بن يوسف في أيّام عبد الملك بن مروان، ليرغموا بذلك، أنوف شيعة علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، فيه على الحسين بن علي، لأنّه قُتل فيه. ويقول المقريزي:

---

(١) النجوم الزاهرة، الجزء الخامس، ص ١٥٢.

«وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ عاشوراء يوم سرور وتبّسط. وكلا الفعلين غير جيّد، والصواب ترك هذا وذاك والاقتداء بفعل السلف الصالح فقط.

واستشهد بشعر الحسين الجزار الذي خاطب ناظر الأهراء بليلة عاشوراء، مهدّداً إياه بالاحتفال بعاشوراء على الطريقة الكردية لأنّ صاحب الأهراء من الطالبيين الأشراف واسمه شهاب الدين[1]:

قل لشهاب الدين ذي الفضل الندي والسيّد بن السيّد بن السيّد
أقسم بالفرد العليّ الصمد إن لم يبادر لنجاز موعدي
(ما وعده به).
لاحضرنّ للهناء في غدٍ مُكَحَّل العينين مخضوب اليدِ

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٤٩٠.

الأذان الأصيل: حيّ على خير العمل

بين «حيّ على خير العمل والصلاة خير من النوم».

اتجه الصراع الإسلامي المبكر بين طرفي الإسلام: السنّة والشيعة إلى تشكيل مفاصل مهمّة في جوانب هذا الصراع، ولكل مفصل من هذه المفاصل، آياته القرآنية المؤوّلة والمفسّرة حسب أهواء كلّ طرف، وأحاديثه النبوية المروية عن رواة عدول أو غير عدول، والاختلاف في عدالة الراوي أو تدليسه، يؤدّي إلى الاختلاف في النظرة إلى الحديث المروي واعتماده أو تركه.

وبعد القرآن والسنة، جاءت سنّة وسلوكيات الخلفاء الراشدين في تفسير بعض الحوادث والموقف منها، من هنا، تطوّر الخلاف في الموقف إلى خلق مدارس فكرية إسلامية، تدافع كلّ مدرسة عن وجهة نظرها.

ومن أوجه الاختلاف بين طرفي الإسلام طريقة الأذان.

رأي الشيعة الفاطمية والإمامية والزيدية في الأذان:

ترى فرق الشيعة الثلاث أن جملة «حيّ على خير العمل» كانت على عهد النبي ﷺ، جزءاً لا يتجزّأ من الأذان ومن إقامة الصلاة، ولكن السنّة ادّعوا نسخها بعد ذلك.

وترى فرق الشيعة، أنّها كانت على عهد النبي ﷺ وأبي بكر، وشطراً من عهد عمر، ولكن عمر نهى عنها كما نهى عن متعتي النساء والحج، وأبدل مكانها جملة: «الصلاة خير من النوم».

وقد روى مالك بن أنس في الموطأ: «أنّ المؤذّن جاء إلى عمر بن الخطاب يؤذّنه بصلاة الصبح، فوجده نائماً فقال: «الصلاة خير من النوم»، فأمره عمر أن يجعلها في أذان الصبح.

ونقل أبو حيدر عن الزرقاني عن الدارقطني عن وكيع عن نافع بن عمر عن عمر أنّه قال لمؤذّنه: «إذا بلغت حيّ على الفلاح في الفجر فقل: الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم»[1].

وقد روى محمد بن خالد بن عبدالله الواسطي أنّ النبي ﷺ استشار الناس لما ينبّههم إلى الصلاة، فذكروا البوق فكرهه من أجل اليهود، ثم ذكروا الناقوس فكرهه لأجل النصارى، فأسمعوه نداء أحد الأنصار يدعو الناس للصلاة، يقال له عبدالله بن زيد وكذلك نداء عمر بن الخطاب، فأمر النبي ﷺ بلالاً فأذّن كالأنصاري.

وهذه الرواية عند فرق الشيعة، ضعيفة ولا يؤخذ بها، بل يعتبرون محمد بن خالد الواسطي كذّاباً تخرّج من مدرسة أبي

---

(١) الإمام الصادق، أسد حيدر، ج ١، م.س. ص ٢٧٥.

هريرة الدوسي، بل مدلّساً ووضّاعاً. ولا يصحّ أخذ الأحاديث عنه.

وتروي فرق الشيعة عن الحسين بن عليّ عليه السلام أنّه عندما سمع حديث عبدالله بن زيد الأنصاري وعمر بن الخطاب عن الأذان غضب وقال: الأذان وحي، والوحي ينزل على الرسول، ويزعمون أنّه أخذ الأذان عن عبدالله بن زيد، والأذان وجه دينكم، ولقد سمعت أبي «علي بن أبي طالب» عليه السلام، يقول: «أهبط الله ملكاً عرج برسول الله صلى الله عليه وآله إلى السماء ثم بعث الله ملكاً لم ير في السماء من قبل ذلك الوقت، فأذّن وأقام وذكر كيفية الأذان. ثم قال جبرائيل للنبي صلى الله عليه وآله: «يا محمد هكذا أذّن للصلاة».

وقد أجمعت الإمامية من إثني عشرة وزيدية وإسماعيلية على كون الأذان من الأحكام التي نزل بها الوحي من الله، ولا يجوز إرجاع ذلك إلى رؤيا أتى بها عبدالله بن زيد أو عمر بن الخطاب وجملة «حيّ على خير العمل» جزء من الصلاة أما قول المؤذّن «الصلاة خير من النوم»، إنما هي من اجتهادات الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض).

وقد روى المؤرّخون أنّ ابنه عبدالله بن عمر، كان يؤذّن بحيّ على خير العمل. وقد أذّن بها أهل البيت لثبوتها وعدم وجود الدليل الشرعي على نسخها. وعلى ذلك استمرت فرق الشيعة الإمامية الثلاثة في اتباع أهل البيت ـ عليهم السلام ـ وعدم الرجوع لغيرهم، وكان ذلك شعارهم على مدى تاريخهم الطويل[1].

---

(١) راجع: م.س. ص ٢٧٦.

وفي عصر الدولة البويهية، كانت السلطة الفعلية في الدولة العباسية وخاصة في العاصمة بغداد، في يدهم، وكان الخليفة لا سلطان له على العامة. وقد ذكر لنا ابن الأثير أنّ الشيعة الاثني عشرية يؤذنّون «بحيّ على خير العمل» في أحياء بغداد الشيعية وخاصة حي الكرخ.

ويرى السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي أنّ رواية أخذ النبي الأذان عن رؤية عبدالله بن زيد الأنصاري وعمر بن الخطاب، مرفوضة لثمانية أسباب أوردها كالتالي:

السبب الأول: أنّ النبي ﷺ لم يكن يستشير الناس في الشرائع الإلهية، وإنما كان يتبع فيها الوحي: «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى، علّمه شديد القوى».

السبب الثاني: أنّ الشورى كان النبي يتبعها في أمور الدنيا أما أمور الوحي فلا شورى ولا مشاورة مع الصحابة.

السبب الثالث: أنّ حديث أخذ الأذان عن رؤية عبدالله بن زيد وعمر بن الخطاب، تضمنّت حيرة النبي في تطبيق الوحي، ولا يجوز على النبي وعلى مثله من المتّصلين بالله عزّ وجلّ أن يحتار في هذا الأمر الإلهي، وأن يحتاج إلى مشورة الناس.

السبب الرابع: كلّ روايات الرؤية متعارضة، مما يثبت عدم صحتها.

السبب الخامس: أن شيخيّ الحديث عند السنّة: البخاري ومسلم أهملاها ولم يأتيا على ذكرها. وذلك لعدم ثبوتها وصدقها.

السبب السادس: في رواية رؤية عبدالله بن زيد، تطاول على

طريقة مخاطبة رسول الله، والله عزّ وجلّ حظر على الذين آمنوا أن يتقدّموا بين يدي رسوله وأن يرفعوا أصواتهم فوق صوته.

السبب السابع: أن الأذان والإقامة من معدن الفرائض اليومية نفسها. «فمُنشِئها» إنما هو منشىء الفرائض نفسه.

السبب الثامن: أن سننهم في بدء الأذان والإقامة كلها تناقض المأثور الثابت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام[1].

ولا يجوز أن نترك ما سنّه الله لنا ونبيّه، وحدّد أهل بيته أصوله ومعالمه ونتبع رؤية ادعى عبدالله بن زيد أنّه رآها، وأن عمر بن الخطاب رآها أيضاً. وكأنّ الوحي انتقل من الأنبياء إلى الصحابة.

إضافات الأذان عند المسلمين السنّة:

إنّ أوّل من أذّن بالناس داعياً المسلمين لإقامة الصلاة هو بلال بن رباح، وكان أحد موالي أبي بكر الصديق (رض). وكان أوّل أذان أقامه بلال في المدينة وفي أسفار النبيّ وتنقلاتّه، كما أذّن مع بلال، عمرو بن قيس ابن أمّ كلثوم وكذلك أبو محذورة، كان قد استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله في أن يؤذّن مع بلال فأذن له. وكان يؤذّن بالمسجد الحرام. وقد نقل عن ابن الكلبي، أنّ النبي صلى الله عليه وآله قد علّم أبا محذورة الأذان بالجعرانة، ثم جعله مؤذّناً في المسجد الحرام. وروي أيضاً أنّ عثمان بن عفان (رض) كان يؤذّن أحياناً بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله.

---

(١) العرفان، المجلد ٤١، مقالة بعنوان بدء الأذان والإقامة، بقلم السيد عبد الحسين شرف الدين، سنة ١٩٥٣، ص ٦٢٥.

وقد ذكر أبو داود والدراقطني، أنّ مساجد المدينة كانت تسعة سوى مسجد رسول الله ﷺ. وكلهم كانوا يصلّون بأذان بلال (رض).

ويروي لنا المقريزي أنّ عمرو بن العاص، حين وفد مصر، كلّف الصحابي أبا مسلم بن عامر بن عبد المرادي بالأذان. وأنّ الأذان بقي كما هو حتى مجيء الفاطميين الشيعة، على يد جوهر الصقلي إلى مصر.

وفي دائرة المعارف الإسلامية ـ تحت باب أذان ـ ذكر خبر الناقوس والبوق وإشعال النار، وتشاور النبي مع المسلمين، وهذا ما يرفضه الشيعة، بل يعتبرون الأذان وحياً يوحى.

وجاء في دائرة المعارف «أن الأذان عند أهل السنّة من المسلمين سبع عبارات، السادسة تكرار للأولى:

١ ـ الله أكبر: أربع مرات.

٢ ـ أشهد أن لا إله إلا الله: مرتان.

٣ ـ أشهد أن محمداً رسول الله: مرتان + ثالثة بصوت عال.

٤ ـ حيّ على الصلاة: مرتان.

٥ ـ حي على الفلاح: مرتان.

٦ ـ الله أكبر.

٧ ـ لا إله إلا الله.

وذكر أن العبارة الأولى تردّد أربع مرات: (الله أكبر ـ الله أكبر ـ الله أكبر ـ الله أكبر ـ) ما عدا المذهب المالكي فيردّدها مرّتين.

كما يُردّد أهل السنّة كلّ عبارة من العبارات الأخرى مرّتين، ما عدا العبارة الأخيرة وهي «لا إله إلاّ الله». فنادى بها مرة واحدة فقط.

أما أذان الصبح عند أهل السنّة، فهو نفسه مع إضافة: الصلاة خير من النوم، وتردّد مرتين بعد العبارة الخامسة وقبل العبارة السادسة.

وذكر المقريزي أنّ بلالاً كان يأتي النبي ويقف على بابه ويقول: السلام عليك يا رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة، السلام عليك يا رسول الله ونقل البلاذري أنّ غيره كان يقول: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته حيّ على الصلاة، حي على الفلاح، الصلاة يا رسول الله. فلمّا وُلّي أبو بكر الخلافة، كان سعد القرظي المؤذّن، يقف على بابه ويقول: السلام عليك يا خليفة رسول الله ورحمة الله وبركاته. حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، الصلاة يا خليفة رسول الله، ويبدأ بالإقامة والأذان . فلما استخلف عمر (رض)، كان سعد القرظي يقف على بابه ويقول: السلام عليك يا خليفة (خليفة) رسول الله ورحمة الله. حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، الصلاة يا خليفة خليفة رسول الله. وكان عمر يستثقلها أي: ياخليفة خليفة... فقال للناس: أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فدُعى أمير المؤمنين، فكان سعد يقف على باب عمر بن الخطاب ويقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته وحيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، الصلاة يا أمير المؤمنين. فأمر عمر المؤذّن أن يزيد في الأذان: رحمك الله، وقيل إنّ عثمان هو الذي زادها في الأذان وما زال

المؤذّنون إذا أذّنوا، سلّموا على الخلفاء والولاة ثم يقيمون الصلاة بعد السلام[1].

أذان الأمير منطاش هو أذان مصر والشام:

ويقول المقريزي أن الأذان استمر في مصر: «بحيّ على خير العمل، محمد وعلي خير البشر» حتى زوال الدولة الفاطمية وحلول الدولة الكردية محلّها، فصار يُؤَذَّن من سائر إقليم مصر والشام بأذان أهل مكة وفيه تربيع التكبير (الله أكبر أربع مرات) وترجيع الشهادتين، فاستمرّ الأمر على ذلك، حتى تولّى الأمر بديار مصر الأمير منطاش، فسمع بعض الفقراء الخلاطين المؤذّنين على رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في ليلة جمعه، وقد استحسن ذلك طائفة من أصحابه، فقال لهم: أتحبّون أن يكون هذا السلام في كلّ أذان. قالوا نعم ـ فبات تلك الليلة وأصبح متواجداً (من الوجد والعشق) يزعم أنّه رأى رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في منامه وأنّه أمره أن يذهب إلى المحتسب فيبلغه عنه أنّه يأمر المؤذّنين بالسلام على رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في كلّ أذان ـ فمضى إلى محتسب القاهرة، وكان شيخاً جهولاً، وبلهاناً مهولاً، سيّىء السيرة في الحسبة والقضاء، متهافتاً على الدرهم، ولو قاده إلى البلاء، لا يحتشم من أحد من أخذ البرطيل والرشوة. ولا يراعي في مؤمن ذمّة، قد ضرى على الآثام وتجسّد في أكل الحرام، يرى أن العلم إرخاء العذبة (الشَعْر)، ولبس الجبّة، ويحسب أن رضى الله سبحانه في ضرب العباد بالدّرة (العصا).

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص ٢٧١.

وجاء منطاش وقال للمحتسب وهو يومئذٍ نجم الدين محمد الطنبدي: رسول الله يأمرك أن تتقدّم لسائر المؤذّنين بأن يزيدوا في كلّ أذان قولهم: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، كما يفعل في ليالي الجُمعَ فأعجب الجاهل هذا القول، وجهل أنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ لا يأمر بعد وفاته إلا بما يوافق ما شرّعه الله على لسانه في حياته.

ويقول المقريزي: «وتمّت هذه البدعة واستمرّت إلى يومنا هذا في جميع ديار مصر وبلاد الشام، وصارت العامة وأهل الجهالة، ترى أن ذلك من جملة الأذان الذي لا يحلّ تركه»[1].

إضافات الأذان عند الشيعة:

يختلف أذان الشيعة الإمامية بفرقها الثلاث، عن أذان أهل السنّة في أنّه يزاد عليه عبارة ثامنة وهي «حيّ على خير العمل»، ويلفظها المؤذن الإمامي بعد قوله: «حيّ على الفلاح» وقبل قوله «الله أكبر».

وقد كانت هذه العبارة على الدوام شعار الشيعة، «حتى إذا نودي بها من مآذن مدينة من مدن أهل السنّة، عرف الكلّ أنّ الحكومة أصبحت شيعية» والشيعة يردّدون العبارة الأولى «لا إله إلاّ الله» مرتين في أذانهم[2].

وقد أورد المقريزي خبر إزالة لفظة: «حيّ على خير العمل

---

(١) راجع: الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص ٢٧٢.

(٢) راجع: دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، ط ١، دار المعرفة سنة ١٩٣٣، ص ٥٦١.

ومحمد وعليّ خير البشر» من الأذان أيام الخليفة الفاطمي الحافظ، بتقرير من الوزير الأول ـ أبو علي كتيفات ـ ولكن بعد مقتل كتيفات، أعيد الأذان كما هو.

ويخبرنا أيضاً أن محمد بن علي بن إسماعيل الزيدي، أول من أذّن بمحمد وعلي خير البشر، أيام سيف الدولة بن حمدان في حلب. ولقد استمر الأذان سارياً في مساجد وجوامع حلب حتى أتى نور الدين محمود زنكي فأبطله.

ويروي أبو المحاسن ابن تغري بردي، أنّ الخليفة العباسي القائم بأمر الله أرسل الشريف أبا طالب الحسن بن محمد عمّ الشريف الرضي والمرتضى إلى مكة وكان أميرها أبو هاشم محمد بن الحسن الحسني، وكان يقيم الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وكان ذلك سنة ٤٦٤هـ، وهي السنّة التي بدأ أمر المستنصر يضمحّل وتزداد فيها سيطرة الأتراك على المصريين.

يقول ابن تغري بردي أن أبا طالب طلب من شريف مكة تغيير الأذان وإبطال: حيّ على خير العمل «مناظرة أبو هاشم المذكور مناظرة طويلة» وقال له: هذا أذان جدّك أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب» فقال له أبو طالب: ما صحّ عنه، وإنّما أذّن به عبدالله بن عمر بن الخطاب في بعض أسفاره، وما أنت وابن عمر؟ فأسقطه من الأذان[1].

---

(١) النجوم الزاهرة، الجزء الخامس، ص ٩١.

وهذه الرواية لم ترد إلا عند ابن تغري بردي ومن المعروف عند كافة المسلمين أنّ عبدالله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن أبي بكر هما من مؤسّسي الحزب الإسلامي الشيعي.

من أجل الاشتراك في الحرب، شيعة حلب، يتشرّطون السماح لهم بإعادة الأذان «بحيّ على خير العمل»:

يخبرنا المقدسي أبو شامة أنّه حينما أرجف بموت نور الدين زنكي وكان قد أوصى بحلب إلى أخيه نصرة الدين، وكان نصرة الدين مذ وصل إلى حلب، فأغلق والي القلعة مجد الدين أبوابها في وجهه، وأعلن العصيان، فثارت أحداث حلب في وجهه وزحفوا بالسلاح إلى باب البلد وكسروا أقفاله، وأدخلوا نصرة الدين، فسرّ منهم نصرة الدين، فاقترحوا عليه اقتراحات تجعلهم يقفون إلى جانبه دائماً، منها «إعادة رسمهم في التأذين بحيّ على خير العمل، محمد وعلي خير البشر» فأجابهم إلى ما رغبوا فيه وأحسن القول لهم والوعود.

والمستمع لأذان الشيعة الإمامية في هذه الأيّام يسمع الإضافة التالية: وأشهد أن علياً وليّ الله أو وأشهد أن علياً بالحق وليّ الله. ولم أجد في مدوّناتهم مسوّغاً لهذه الإضافة، ولا أعلم إذا كانت واجبة عندهم في الأذان أم مستحبة.

وكانت وظيفة المؤذّن عند الشيعة الإمامية الإسماعيلية في مصر، وظيفة محترمة، وصاحبها مقرّب من الخليفة والحاشية في القصر، ولكي لا يهان المؤذّن ولا يكون مضطرّاً لمصانعة أهل الحكم

والسلطان ومراكز القوى في الدولة، أقام له الفاطميون أوقافاً تؤمّن له العيش الكريم. فقد أخبرنا المقريزي أن الخليفة الحاكم حبس عدة أسواق وأملاك من سبع ضياع بإطفيح وطوخ على القرّاء والمؤذنين بالجوامع، كما أنّ هذه الأوقاف تؤمّن رواتب المستشفيات وثمن أكفان من يموت ولا يستطيع أهله تكفينه[1].

إجازة الدخول إلى قصر الخلافة بدون واسطة: عليّ وليّ الله:

عندما يحدّثنا المقريزي عن السقيفة التي أنشأها الخلفاء الفاطميون أمام القصر، يقول إنّ الهدف من إنشائها هو «أن يقف المتظلّمون تحتها، وكانت عادة الخليفة أن يجلس هناك كلّ ليلة لمن يأتيه من المتظلّمين، فإذا ظُلم أحدٌ، وقف تحت السقيفة وقال بصوت عال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، عليٌّ وليُّ الله»، فيأمر بإحضاره إليه فيسمع ظلامته ويفوّض أمره إلى الوزير أو القاضي أو الوالي»[2] والمتصفّح للخطط المقريزية أو لاتعاظ الحنفا، يجد العديد من المتظلّمين والظلامات التي حلّت عن طريق إعلان المتظلّم، إيمانه بولاية عليّ أمير المؤمنين عليه السلام. ومنها على سبيل المثال لا الحصر، الحاج المغربي صاحب الوديعة، وقصتّه معروفة مع الخليفة الحاكم»[3].

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١٠٥.

(٢) الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص ٢٧١.

(٣) راجع: ص....

بين زواج المتعة والزنا
في مجال التطبيق العملي عند الفاطميين

لم يخرج الفاطميون الشيعة عن تطبيق أحكام الشرع الإسلامي في مصر كما أخذوه عن القرآن وسنّة جدّهم، الرسول الأكرم ﷺ وعن آبائهم الأئمّة المعصومين، وبالأخصّ ما تركه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. وأحفاده من الإمام الحسن عليه السلام حتى الإمام المهدي عليه السلام.

وكلّ الأحكام التي أخذها الفاطميّون طيلة حكمهم لمصر وللعالم الإسلامي، خلال ثلاثة قرون من الزمن، كانت تستند إلى فقه الأئمّة المعصومين في تفسير القرآن والأحاديث النبوية الشريفة.

زواج المتعة في نظر الشيعة الإمامية بفرقهم الثلاث:

يرى الشيعة الإمامية والفاطميون منهم، أن زواج المتعة ورد في القرآن في قوله تعالى في سورة النساء ﴿**فما استمتعتم به منهنّ فاتوهنّ أجورهنّ فريضة**﴾. ويرون أيضاً أنّه لم تنزل آية غيرها

تنسخها وتمنع العمل بها وهذه الآية صريحة، والنقاش الدائر بين الشيعة والسنّة ليس حولها، فكلهم متفقون على تشريعها في القرآن، ولكن الخلاف حول الأحاديث النبوية الشريفة التي منعت العمل بها. وكلنا يعلّم كبر مساحة هامش الاختلاف في صحة الأحاديث النبوية، وخاصة ما رواه أبو هريرة الدوسي.

وحجّة الإمامية أنّ التحريم لم يأتِ من الله تعالى ولا من رسوله ﷺ وإنّما كان بنهي ومنع من عمر حين قال: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ، وأنا أحرّمهما وأعاقب عليهما: متعة الحاج ومتعة النساء[1].

والشيعة الإمامية لا تأخذ باجتهادات الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وتقف منه موقف المغتصب لحق الخليفة الرابع عليّ بن أبي طالب. ويرون أن الخليفة لا يستطيع نسخ تشريع شرّعه القرآن أو النبي ﷺ.

ما هو زواج المتعة:

يرى السيد عبد الحسين شرف الدين، نقلاً عن أئمة العترة الطاهرة من أهل بيت النبي، أنّ زواج المتعة «إنّما حقيقته أن تزوّجك المرأة الحرة الكاملة المسلمة أو الكتابية نفسها حيث لا يكون هناك مانع في دين الإسلام عن نكاحها، من نسب أو سبب أو رضاع أو إحصان أو عدّة، أو غير ذلك، مثل كونها معقوداً عليها لأحد آبائك،

---

(١) راجع: مسائل فقهية، السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي، ط ١٠ بيروت، مؤسسة الوفاء سنة ١٩٨٣، ص ١٠٩.

وإن كان قد طلّقها أو مات عنها، قبل الدخول بها أو كونها أختاً لزوجتك، أو نحو ذلك[1].

ونكاح المتعة له نفس شروط النكاح الشرعي باستثناء شرطين وهما: الإشهار والإعلان. والمدّة المحدّدة بعقد منقطع متفق عليه.

فالإشهار والإعلان لا يكونان إلا بشرطين، يصبح بعدها نكاح المتعة نكاحاً شرعياً مكتمل الشروط: وهذان الشرطان هما:

١ ـ أن تحمل الزوجة، فيبان حملها ويشتهر أمرها فيشهر زواجها ويصبح الزواج شرعياً عادياً مستمراً لا منقطعاً.

٢ ـ أن يتمّ تمديد عقود الزواج باستمرار حتى يتجاوز السنوات الثلاث، فيصبح حينها زواجاً شرعياً.

وقد أخذت به مصر منذ أوائل القرن العشرين وأطلقت عليه الزواج العرفي. وهو زواج المتعة بعينه.

ونكاح المتعة عند الفاطميين لم يكن محرّماً ولكنه لم يكن محبّباً فقد سؤل المعزّ لدين الله الفاطمي عن نكاح المتعة: هل ترضى لنفسك أن تُنكَحَ ذاتُ مَحْرَمٍ منك نكاح متعة؟ فأجاب الخليفة المعزّ: لا والله. وأجابه: لهذا لا ترضى لغيرك إلاّ ما ترضاه لنفسك.

ورغم أن القاضي النعمان أنكره في كتابه دعائم الإسلام، لكنّه لم يحرّمه[2].

---

(١) راجع: م.س. ص ١٠٣.

(٢) راجع: دعائم الإسلام، الجزء الثاني. م.س. ص ٢٢٩.

والخليفة المعزّ كان ينصح أصحابه باتخاذ زوجة واحدة، رغم أنّ الشرع قد حلّل لهم أربع، فقد قال حين خاطب شيوخ قبائله: فافعلوا يا شيوخ في خلواتكم مثل ما أفعله، ولا تظهروا التكبّر والتجبّر، فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم. وتحنّنوا على من وراءكم ممن لا يصل إليّ، كتحنّني عليكم لِيتّصل في الناس الجميل، ويكثر الخير وينتشر العدل. وأقبلوا بعدها على نسائكم. وألزموا الواحدة التي تكون لكم، ولا تشرهوا إلى التكثّر منهن والرغبة فيهنّ، فيتنغّص عيشكم وتعود المضرّة عليكم، وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوّتكم، وتضعف نحايزكم، فحسب الرجل الواحد منكم، الواحدة، فنحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم»[1].

لم يعرف الفاطميون مجالس اللهو والغناء والشرب والمساخر، كغيرهم من الحكام:

وكنا قد أشرنا إلى إقدام بنت الإخشيد على شراء جارية أم المعزّ لِتَسْتَمْتِعَ بها. ولما علم المعزّ بذلك أحضر شيوخ دولته وقال لهم: «يا إخواني، انهضوا إليهم، فلن يحول بينكم وبينهم شيء، وإذا كان قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشتري لنفسها جارية تتمتّع بها، فقد ضعفت نفوس رجالهم، وذهبت الغيرة منهم، فانهضوا بنا إليهم».

وقد أخبرنا القاضي النعمان بن حيّون المغربي أنّه سمع المعزّ

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الأول، م.س. ص ٣٥٢.

يناجي ربّه ويقول أنّه لو أراد اكتساب رضى الناس ومحبّتهم لكان عنده هذا الأمر من أيسر الأمور، فسأله وكيف يتم ذلك فقال المعزّ أن تخليّ بين الناس وشهواتهم وتبيحها لهم وقال المعزّ: «وأعوذ بالله من شرب الخمور والزّنى واللواط وإظهار الملاهي والمعازف، كما يفعله اليوم ملوك الأرض لأنفسهم، ويبيحونه لمن تغلّبوا عليهم، فما كنا نسمع منهم إلاّ الثناء والشكر، ولكن الله عزّ وجلّ، قلّدنا أمورهم وفرض علينا تقويمهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فنحن نريد نجاتهم من النار، ونحبّ إدخالهم الجنّة»[1].

وهذه كانت سنّة الخلفاء الفاطميين طيلة حكمهم فلم يحدّثنا أي مؤرّخ عن مجالس شربهم أو مجالس الغناء وحلقات الرقصّ المحرّم. ولو كانت هذه المساخر موجودة لكان أعداؤهم سلّطوا عليها الضوّء وكبّروها الف مرّة، فمن استطاع أن يخرجهم عن ملّة الإسلام وهم أصحابه وأهل بيته، ألا يستطيع أن يرمي بهم في حمأة الشهوات والجنس والخمر والرذائل؟؟....

الحاكم بأمر الله يحرق الزانية ويجلد المغرّر به:

وأورد صاحب منتخب الزمان قصة مفادها أن قاضي القضاة الفاطمي مالك بن سعيد الفارقي «مرّ في بعض الأماكن فنادته امرأة من طاقة وأقسمت عليه أن يقف. فوقف لها. فبكت بكاءً شديداً ثم قالت له: إنّ لي أخاً لا أملك غيره وهو في آخر رمق. وأنا أقسم عليك

(١) المجالس والمسايرات. م.س. ص ٩٢.

أن أمرت بحملي إليه لأراه قبل موته. فرقّ لها قلب القاضي وأمر رجلين من أصحابه أن يحملاها إليه. فأغلقت بابها ومضت حتى وقفت على باب فدخلته بعد أن قالت للرجلين: انصرفا.

ويخبرنا ابن الحريري أنّ الدار كانت لرجل يهواها، فلّما رآها سُرّ بذلك. ثم جاء زوجها فوجد بابه مغلقاً فسأل الجيران عن السبب فأخبروه، فبات على سوء حال، وبكّر لدار القاضي واستغاث به. فسأله القاضي. فقال: أنا زوج الامرأة، فقد كذبت، واللّهِ ما لها أخٌ. وهي بنت عميّ، وما أفارق القاضي إلاّ بها. فخاف مالك بن سعيد وعظم ذلك عليه وهو يعرف ردّ الفعل عند الخليفة الحاكم، فقام من ساعته ودخل عليه، وقبّل الأرض بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين، أنا لائذٌ بعفوك مما تمّ عليّ أمس. فقال له الحاكم: ما هو؟ فشرح له الأمر. فأمر الخليفة الحاكم بإحضار الرجل وسأله عن حاله، فأخبره وهو يبكي. فقال الخليفة الحاكم للقاضي: إركب وخذ معك الرجلين اللّذين أنفذتهما مع الامرأة حتى يرشداك الدار التي دخلت إليها الامرأة. وخذ معك أربعاً من شهودك وخدماً من القصر. واهجم بهم على الموضع حتى تشاهدوا الامرأة ومن في الدار عندها. واهجم عليه واقبض على الجميع واحملهم إليّ. فخرج القاضي وفعل ما أمره الخليفة الحاكم، وهجم على الدار، فوجد الامرأة ورجلاً معها نائمين في الدار وهما مخموران. فحملهما إلى الخليفة، وشهد الشهود بما رأوا.

ويخبرنا ابن الحريري أن الخليفة سأل زوجها: أهذه زوجتك! فقال: نعم. وسألها عما كان منهما، أي الرجل والامرأة فقالت الامرأة

أنّ الشيطان وسوس لها وقال الرجل: إنّها هجمت على بيتي وزعمت أنّها خِلوّ من الزوج، وإنّي إن لم أتزوّجها سعت إليك لتقتلني، فاستحللتها بموافقة جرت بيني وبينها (زواج المتعة أو الزواج العرفي).

فامر الحاكم أن تُلَفّ الامرأة في بارية (بساط من قماش) وتُحرق وأن يُحمل الرجل إلى باب الجامع ويضرب ألف سوط، فإن مات فقد مضى لسبيله، وإن لم يمت أطلق فَفُعِل ذلك[1].

ويخبرنا المقريزي أن قاضي القضاة محمد بن النعمان رجم سنة ٣٨٢ هـ على عهد الخليفة العزيز رجلاً زنى.

صلاح الدين الأيوبي يضطر لإقامة بيوت اللقطاء بعد منع وتحريم زواج المتعة أو الزواج العرفي:

طيلة حكم الفاطميين لمصر، وبالرغ من أنّهم لم يكونوا يشجّعون زواج المتعة بل يكرهونه، ويفضّلون عليه الزواج الشرعي المعلن والمشهور المستوفي كامل الشروط، لكنّهم لم يمنعوه ولم يعاقبوا عليه، ووقفوا منه موقف الحكومة المصرية الحالية أي: زواج الإكراه والذي ضرره أقل من ضرّر الزنا.

وعندما وضع صلاح الدين الأيوبي يده على مصر وعلى المجتمع المصري حرّم نكاح المتعة أو الزواج العرفي وعاقب عليه، ففشى الزنا في المجتمع المصري، وكثرت الفاحشة وكثر وجود

---

(١) راجع: منتخب الزمان، أحمد بن علي الحريري، م.س، ص ٢٦٧.

المولودين حديثاً مرميّين في الطرقات. فعندما تحدّث ابن العماد الحنبلي عن مآثر الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين قال أنّه «بنى داراً للنساء والأرامل وداراً للضعفاء وداراً للأيتام ودار للّقطاء».

وقال أنّه رتب جماعة من المرضعات لدار اللّقطاء وأمر أن يحمل إليهن كلّ مولود يلتقط فيرضعنه. وأجرى على دار الملاقيط ما يحتاجونه إليه في كلّ يوم[1].

وقد أفاض ابن العماد في الحديث عن كرم وزهد العزيز عثمان فأطال بينما ذكره ابن الحريري فقال عنه: أنّه عشق زوجة أبيه. وقال أنّها أرسلت له تفاحة من عنبر وفي وسطها رزّ من ذهب، فتحيّر العزيز عثمان من ذلك ولم يستطع تفسير معنى هذه الهدية، فطلب من القاضي الفاضل علي بن عبد الرحيم البيساني وهو آخر قاضي فاطمي فقال له القاضي الفاضل شعراً:

أهدت لك العنبر في جوفه ... رزٌّ من التبر رقيق اللحام

فالرّز في العنبر معناهما ... زُرْ هكذا مستتراً في الظلام

فالعنبر هو الليل والتبر هي نفسها، ووضعها له الذهب في جوف العنبر تعبير عن شدة اشتياقها له وإغلاقها التفاحة بشكل محكم يعني كتمان السر.

سلاطين الأكراد والأتراك يشربون الخمر في رمضان:

---

(١) راجع: شذرات الذهب في أخبار من الذهب، المجلد الخامس، م.س. ص ١٣٩.

يذكر لنا ابن الأثير مقتل السلطان السلجوقي سليمان بن محمد بن ملكشاه، ويعزو ذلك إلى «أنّه كان فيه تهوّر وخرق وبلغ به شرب الخمر حتى أنّه شربها في رمضان نهاراً وكان يجمع حوله المساخر، حتى أنّه أقدم على كشف سوأة أحد الأولياء بسبب انتقاده له، فأين فعل السلطان السلجوقي من أفعال الخلفاء الفاطميين؟.

ويخبرنا ابن أيبك الدواداري أن «صلاح الدين في مبتداه كان قليل المال والرجال، صاحب أكل وشرب وطرب، فلما فتح الله عليه بالملك تاب عن جميع ذلك»[1].

بيوت الدعارة أيام صلاح الدين الأيوبي: باب رزق مربح:

ونقل المقريزي عن لسان القاضي الفاضل وصفاً للوضع الاجتماعي والاقتصادي لمصر أيام السلطان صلاح الدين وخاصة سنة ٥٩٢ للهجرة فقال: وكان قد تتابع أهل مصر والقاهرة في شعبان في إظهار المنكرات وترك الإنكار لها. وقد أباح أهل الأمر والنهي لها، وتفاحش الأمر فيها، إلى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعصره. وأقيمت طاحونة بحارة المحمودية لطحن الحشيش. وحُميت بيوت المزر (نبيذ الشعير) وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة، فمنها ما فرض عليه في اليوم ستة عشر ديناراً، ومنع صنع المزر في البيوت لتوفير شراءه من البيوت المحمية التي تدفع الضريبة يومياً. وحُملت أواني الخمر على رؤوس الأشهاد في الأسواق من غير إنكار».

---

(١) راجع: الدر المطلوب في ملوك بني أيوب، م.س. ص ٣٥.

ويقول المقريزي ختاماً على هذا التحوّل في المجتمع المصري من مجتمع راق مؤمن متديّن إلى مجتمع همه الجنس والخمر والحشيش: «وظهر من عاجل عقوبة الله عزّ وجلُّ وقوف زيادة النيل عن معتادها، وازدياد سعر الغلة في وقت ميسورها»[1].

زيادة أسعار السلع بمقدار ما يُغتصب للدار السلطانية:

ويحدثنا المقريزي أيضاً عن مستجدّات حوادث سنة ٥٩٢ للهجرة عن كثرة ضجيج التجار في مصر والقاهرة وشكواهم ولا من يسمع، فيما يؤخذ منهم إلى دار السلطان، وفيما يصرفه السلطان من متاجرهم إلى عياله، وفيما يقتات به أولاده، وما يغصب من أربابه، فأفضت هذه الأمور إلى غلاء الأسعار، فإنّ المتعيّشين من أصحاب الدكاكين يزيدون في أسعار المأكولات كلها بمقدار ما يؤخذ منهم للدار السلطانية. وأضيف إليه ما يستوفيه السلطان من المكاسب الخبيثة، حين ضمّن بيوت المزر (البيرة) والخمر باثني عشر ألف دينار، وأفسح لهم في إظهار منكره والإعلان به والبيع له في القاعات والساحات والحوانيت مع قرب استهلال رجب. وما تجرّأ أحد من المصريين إنكار هذا الأمر، لا باليد ولا باللسان. وصار هذا السحت مما يستفرد به السلطان لنفقته وطعامه. وحلّ شهر رمضان فغلا سعر العنب لكثرة ما عصر منه وتظاهر به أربابه لتشجيع السلطان على احتكاره وتضمينه. وكثر اجتماع النساء والرجال في شهر رمضان وكثرت

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ١٠٥

المعاصي في هذا الشهر. «نسأل الله أن لا يؤاخذنا بها وأن لا يعاقبنا عليها لجراءة أهلها»[1].

فأين مصر الشيعية الفاطمية من مصر الكردية؟، وأين المؤذنّون والمقرؤون والشعراء واسمطة رجب وشعبان ورمضان، من سحت سلاطين بني أيوب؟ وأين جوهر الصقلي ليقول: من أراد الصدقة فليأت إلى بيت الشريف مسلم؟؟؟.

ترتيب البغاء في مصر أيام الأيوبيين:

يخبرنا المقريزي أنّه بعد زوال الدولة الأيوبية وظهور المماليك أقدم السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٠ هـ على إلغاء كلّ القوانين والمراسيم التي سنّها الأيوبيون لحماية الشرمطة والبغاء في مصر فقال: أمر الملك الظاهر بيبرس بإراقة الخمور وإبطال الفساد ومنع النساء الخواطىء من التعرّض للبغاء في جميع القاهرة ومصر وسائر الأعمال المصرية، فتطهرّت أرض مصر من هذا المنكر ونهبت الخانات المعدّة للبغاء وحبست النساء حتى يتزوّجن وأسقط المال المقرّر على البغايا من الديوان، وعوّضت الحاشية عنه.

الملك الأشرف شعبان يسنّ قانون يشجّع به المصريات على البغاء:

ويخبرنا المقريزي إن ما كان يُسمى بضمان الأغاني، كان بلاءً عظيماً على المصريين، فهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا. ولو كانت أجلّ امرأة في مصر سليلة الحسب والنسب تريد البغاء، تذهب

---

(١) م.س. نفسه ص ١٠٥.

إلى الضامنة وتفحش كما يحلو لها، ولا يقدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة. وكان على النساء إذا تنفسّن أو عرّسن امرأة أو خُضّبت امرأة بحنّاء، أو أراد أحد أن يعمل فرحاً، فلا بد له من دفع مال تقرّره الضامنة، ومن أقام فرحاً أو نفّس امرأته بغير إذن الضامنة حلّ به بلاء لا يوصف[1].

وذكر المقريزي أن مسؤول جباية أموال بيوت الفواحش هو «مهتار الطشتخانة»، وكان يجبي مقرّراً على كلّ جارية وعبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة، فيؤخذ من كلّ ذكر وأنثى مقرّر معيّن»[2].

فأين تنظيم المجتمع المصري حسب المفهوم الإسلامي الشيعي الإمامي من تنظيم هذا المجتمع حسب المفهوم الكردي للإسلام؟ إنّ النتائج العملانية على أرض الواقع تظهر الناتج الحضاري لكل مفهوم.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

خزانة البنود تتحول إلى سوق للدعارة:

عندما يصف لنا المقريزي خزانة البنود أو مخزن الرايات والأعلام أيام الدولة الفاطمية فيقول: إن الذي بناها هو الخليفة الظاهر ابن الحاكم وكان فيها ثلاثة آلاف صانع مبرزين في سائر الصنائع. وكان فيها حجرة خاصة بالمماليك يعلمّونهم فيها أنواع العلوم وطريقة استعمال أنواع آلات الحرب وأصناف حيلها من الرماية

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ١٠٦.

(٢) الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٨٩.

والتطاعن والمسابقة وغير ذلك. وقال المقريزي أنّه أخرج منها أيام الشدة المستنصرية أكثر من ألفي درقة (درع صغير) وأنّ مبلغ ما كان فيها من سائر الآلات والأمتعة والذخائر لا يعرف له قيمة. وكان فيها عشرات الألوف من قرب النفط وعشرات الألوف من زرّاقات النفط، أما الدرق والدروع والسيوف والرماح والأقواس والنشاب، فلا تحصى بوجه ولا سبب، وكذلك السروج واللجم والثياب والبنود والألوية وعشرات الآلاف من السيوف ويقال أنّه أخرج من خزانة واحدة لحاجة الحرب، خمسة عشر ألف سيف مجوهرة. فكيف أصبحت هذه الخزانة أيام الناصر بن قلاوون؟.

أكبر مخزن سلاح عرفه الإسلام، يحوّله الناصر محمد بن قلاوون إلى وكر صليبي للزنا واللواط والخمر وبيع لحم الخنزير:

يقول المقريزي أنّ الناصر محمد بن قلاوون جعل من خزانة البنود منازل للأسرى الفرنج مع عائلاتهم، ثم أبطلها كسجن وتركها لهم للسكن، فلم يزالوا فيها بأهاليهم وأولادهم، فصار لهم فيها أفعال قبيحة وأمور منكرة شنيعة، كالتجاهر ببيع الخمر، والتظاهر بالزنا واللواط، وحماية من يدخل إليها من أرباب الديون وأصحاب الجرائم وغيرهم، فلا يقدر أحد ولو جلّ، على اعتقال من دخل الخزانة واحتمى بهم. والسلطان يغض الطرف لما يرى في ذلك من مراعاة المصلحة والسياسة التي تقتضيها الحال من مهادنة ملوك الفرنجة.

وقد قال المقريزي أنّها أصبحت «أشرّ بقعة من بقاع الأرض، يباع فيها لحم الخنزير على الوضم (دفّ الخشب) كما يباع لحم

الضان، ويعصر فيها من الخمور في كلّ سنة ما لا يستطيع أحد حصره، حتى يقال أنّه كان يعصر فيها في كلّ سنة اثنان وثلاثون ألف جرّة خمر»[1].

تفضيل الأولاد المرد على الفتيات الجميلات:

عندما حدثنا المقريزي عن سماجة لبس المماليك أمام تأنقّ المصريين أيّام الفاطميين، قال: إنّ هذه الجلالة في اللبس والسماجة في المظهر جعلتهم يكرهون نساءهم، ويفضّلون التعاطي مع الذكور بدلاً من الفتيات، فلجأت الفيتات إلى حل هذه المشكلة حيث «قصد نساؤهم التشبه بالذكران في لبسهن ليستملن قلوب رجالهن، فاقتدى بفعلهن في ذلك عامّة نساء البلد ولبسن الطواقي الرجالية وبالغنّ في عملها[2].

وأخبار إفساد المجتمع الإسلامي المصري على يد الأيوبيين والمماليك، تملأ معظم صفحات كتب الذين أرّخوا لهاتين الدولتين، وكلهم من المؤرّخين السنّة. ولو أردت أن أسطّر كتاباً بعنوان الدعارة والجنس في عهد هاتين الدولتين، لكانت عملية جمع مواده سهلة جداً، بينما لم يشر المؤرّخون أنفسهم إلى أيّ حالة انحلال أو تحلل خلقي للشعب المصري تحت ظل الفكر الإسلامي الشيعي الإمامي الأصيل.

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٤٢٥.

(٢) راجع: الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص ١٠٤.

الإستشهاديون أو: الحشّاشون

لم يخلُ التاريخ العربي والإسلامي من رجال ضحّوا بأنفسهم دفاعاً عن الإسلام وعن عقيدتهم الإسلامية، فأمثلة التاريخ كثيرة، بدءاً من وقعة الخندق، وتقديم عليّ بن أبي طالب عليه السلام نفسه وهو غير يافع لم يبلغ الرابعة عشرة من سني عمره، إلى النبي الكريم، عندما طلب من المسلمين أن يتقدّم أحدهم لمبارزة عمرو بن ودّ العامري. وبالرغم من أن الفتى عليّ، لولا إسلامه، وعقيدته الاستشهادية، كان جسوراً شجاعاً وربما متهوّراً، بسبب طلبه الوقوف أمام هذا الشيطان، فقد استشعر النبي صلى الله عليه وآله بضخامة المقابلة وهولها وتخوّف من نتائجها، فرفض تكليف علي عليه السلام وردّد السؤال ثانية على المسلمين، وأصرّ الفتى الهاشمي على النزول إليه، وهو الذي زرع في نفوس المسلمين حب الشهادة والاستشهاد، وهو الذي جعل شعار كلّ مسلم عند الإحساس بالخطر على الإسلام والمسلمين: «ولقد عجلت إليك ربي لترضى» وأتى ولده وسبطه أبو عبدالله الحسين، عليه السلام، فسطّر ملحمة الاستشهاد الأولى في الإسلام، تلك الملحمة التي كانت وما زالت وستبقى، نموذجاً يحتذى

في كلّ عصر ومصر، احتذاه الاستشهاديون الإسماعيليون في حروبهم ضد الأكراد الطارئين، وضد الفرنج الغزاة، وعمل به استشهاديو المقاومة الإسلامية في ثغر عاملة في الشمال الفلسطيني، ويعمل به استشهاديو فلسطين وأبطالهم.

وسنتحدث عن استشهاديي الشيعة الفاطمية الإسماعيلية وعن الأسباب التي دفعت مؤرّخي الغرب الأوروبي والأميركي بنعتهم بالحشّاشين.

أما مؤرّخو الإسلام الأكراد والمماليك والأتراك، فقد أطلقوا عليهم عدة أسماء منها: الفداوية ـ النزارية ـ الباطنية ـ الإسماعيلية الملاحدة، الحشيشية أو: الحشاشون. فلماذا أطلقت هذه الأسماء عليهم، ولم يطلق الاسم الصحيح: الاستشهاديون؟.

للجواب على هذا السؤال، نبدأ بالبحث عن الاسم الأول: الحشّاشون؟.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

حشيشة الفقراء بنظر المقريزي:

يحدثنا المقريزي عن أول من اكتشف سر نبتة حشيشة الكيف فيقول: أنّ الشيخ جعفر بن محمد الشيرازي الحيدري أخذها عن شيخه حيدر التستري المتوفي سنة ٦٥٨ هجرية.

ويحكى لنا الصدفة التي صادفت الشيخ حيدر التستري في اكتشافها فيقول: «إنّه طلع ذات يوم من صومعته، وقد اشتدّ الحرّ وقت القائلة منفرداً بنفسه في الصحراء، ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وسرور بخلاف ما كان عليه، فلما رآه مريدوه على هذه الحالة من المؤانسة، سألوه عن سبب ذلك، فقال الشيخ حيدر: «بينما أنا في

خلوتي، إذ خطر ببالي الخروج إلى الصحراء، منفرداً، فخرجت، فوجدت كلّ شيء من النبات ساكناً لا يتحرّك، لعدم الريح وشدّة القيظ، ومررت بنبات له ورق، فرأيته في تلك الحال يميس بلطف ويتحرّك من غير عنف، كالثمل النشوان، فجعلت أقطف منه أوراقاً وآكلها، فحدث عندي من الارتياح ما شاهدتموه، وقوموا بنا حتى أوقفكم عليه لتعرفوا شكله، قال، فخرجنا إلى الصحراء، فأوقفنا على النبات، فلما رأيناه، قلنا: هذا نبات يعرف بالقنّب، فأمرنا أن نأخذ من أوراقه ونأكلها، ففعلنا، ثم عدنا إلى الزاوية، فوجدنا في قلوبنا من السرور والفرح ما عجزنا عن كتمانه»[1].

ويؤكّد المقريزي أنّها لم تشتهر بين العامة إلا في عهد المستنصر بالله العباسي سنة ٦٢٨ هـ وقد اشتهرت باسمه وكان يدعوها الشعراء ـ مدامة حيدر، وقد مدحها ووصفها محمد بن علي بن الأعمى الدمشقي:

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر ... معنبرة خضراء مثل الزبرجد
هي البكر لم تنكح بماء سحابة ... ولا عصرت يوماً برجل ولا يد
ولا نصّ في تحريمها عند مالك ... ولا حدَّ عند الشافعيّ وأحمد
ولا أثبت النعمان تنجيس عينها ... فخذها بحدِّ المشرفيِّ المهنَّدِ

وقال المقريزي إنّ الشيخ حيدر نصح مريديه بشربها لأنّها «تجفّف المنيّ وتبطله، وتقطع شهوة الجماع، كي لا تميل نفوسهم إلى الزنا». وعن أثر شربها على الأخلاق والسلوك قال المقريزي:

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الثاني، م.س. ص ١٢٦.

«وبسببها غلبت السفالة على الأخلاق، وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس، وجهروا بالسوء من القول وتفاخروا بالمصايب، وانحطّوا عن كلّ شرف وفضيلة، وتحلّوا بكلّ ذميمة ورذيلة، فلولا شكلهم، لم نقضِ لهم بالانتماء إلى الإنسانية، ولولا الحس لما حكمنا عليهم بالحيوانية. وقد بدأت بسببها تمتسخ الأخلاق والشمائل، عافانا الله تبارك وتعالى من بلائها»(١).

فالمقريزي إذاً، يؤكّد أن اكتشاف هذه النبتة كان في أوائل القرن السابع الهجري، وجاء مدح الشعراء ووصفهم لها، يدعم تأكيد المقريزي، وكلهم من شعراء هذا القرن، ولو كانت هذه النبتة قد عرفت أيّام الحسن الصباح، لكان أشار إليها المؤرّخون المعاصرون لها، ولكان تغزل بها الشعراء من باب المزاح والتنكيت.

وقد أشار المقريزي إلى أثرها في نفوس شاربيها، من حيث تحوّلهم من حالة الإنسان إلى حيوانات، ولا يعقل، أن يقدم الحيوان، الذي لا يهمّه إلا ملذّاته وأكله وشربه على التضحية بنفسه، ليس اتجاه داعي الدعاة ولا الإمام المعصوم ولا حتى النبي أو الذات الإلهية نفسها، فالحشّاش يصبح خالٍ من الإنسانية ومن كلّ صفاتها، وخاصة صفة الاستشهاد في سبيل الله وفي سبيل الإمام الذي يمثل الذات الإلهية على الأرض.

فمن هنا أشكل على المؤرّخين الأوروبيين والأكراد في تفسير حالة الاستشهاد الحسيني هذه، فوصفوا هؤلاء الاستشهاديين بالحشّاشين.

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الثاني، م.س. ص ٢٠٩.

الباطنيـة:

يرى الإمام الغزالي أنّهم لقّبو بها لدعواهم أنّ لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجري في الظاهر مجرى اللبّ من القشر. وهي عند الاغبياء صور واضحة جلية، أما عند العقلاء والأذكياء فلها رموز وإشارات إلى حقائق محدّدة ومعيّنة.

وكان الغزالي أول من أطلق عليهم هذا اللقب، وكان يعتبر ابن سينا والفارابي وابن الرواندي وابن الفارض وابن عربي من الباطنية.

الفداويـة:

من البديهي أنّ هذا الاسم مستخرج من العمل نفسه، أي من يفتدى إمامه بقتل نفسه يسمّى فدائياً.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الإسماعيليـة:

سميّوا الإسماعيلية نسبة إلى الفرقة الإسماعيلية الفاطمية الشيعية أو نسبة إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام.

النزاريـة:

نسبة إلى الإمام نزار ابن الإمام المستنصر وهو الإمام المنصوص عليه من والده المستنصر، حسب النص الشرعي الإسلامي الشيعي، أي من الوالد إلى الولد الأكبر، ولكن الأفضل ابن بدر الجمالي، حاول قتل نزار بن المستنصر عندما قرّر مخالفة النصّ الشرعي بتكليف أصغر الأولاد بالإمامة، وهو المستعلي، فالمستعلي

كان له من العمر تسعة عشر سنة، ونزار كان له من العمر عند وفاة والده خمسون سنة، وبعد فرار نزار بن المستنصر، انقسمت الطائفة الشيعية الإسماعيلية إلى طائفتين: نزارية تحارب المستعلية بفدائيّها واستشهاديّها، ومستعلية تحارب النزارية بجنودها وعساكرها وأموالها وسلطنتها.

ولما هرب الإمام نزار من مصر، إلى الإسكندرية، استطاع الوصول متخفياً إلى إيران، إلى قلعة آلموت مقر أحد دعاة الدولة الفاطمية وهو الحسن بن الصباح الحميري.

وكان هذا الداعي قد زار القاهرة والتقى الخليفة المستنصر، فسأله: من الإمام بعدك فقال له: ولدي نزار، هكذا ذكرت كتب التاريخ فالنص عن إمامة نزار عند الحسن بن الصباح واضح لا لبس فيه، سمعه من صاحب الأمر وجاهياً، وليس نقلاً.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الملاحدة:

بعد وفاة الحسن بن الصباح، وأولاده، تسلّم قيادة الطائفة الإسماعيلية النزارية أئمة، ودعاة، تعمّقوا كثيراً في دراسة الباطن والظاهر، وأوّلوا الآيات تأويلات فلسفية شطّت وشطحت كثيراً عن الفكر الإسلامي، فعطّلوا أركان الإسلام وجنحوا إلى الغلوّ فوصل بعض منهم إلى الإلحاد فسميّوا ملاحدة جمع «ملحدون».

وهؤلاء الملاحدة، لا علاقة لهم بالدولة الفاطمية وبالفكر الشيعي الفاطمي الإسماعيلي، وإن كانوا فاطميين إسماعيليين، فمثلهم مثل جعفر الكذاب. فكلّ من جنح عن الإسلام وترك أركانه وغلا في الأئمّة، أصبح ملحداً وخرج عن الإسلام الأصيل.

وعند حديثنا عن الحسن بن الصباح، سوف نستعرض إحدى رسائله لنرى إن كان مسلماً شيعياً فاطمياً أم ملحداً.

الحسن بن الصبّاح الحميري:

هو الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن الصباح الحميري، ولد سنة ٤٤٥ هجرية، كان أبوه عالماً من أقطاب الدعاة الإسماعيلية، علماً أن بعض المؤرّخين قال إنه كان على مذهب الشيعة الإمامية، وهذا القول إن صحّ أو لم يصحّ، فهو دليل على عدم قدرة تفريق المؤرّخين بين الإمامية الاثني عشرية وبين الإسماعيلية الفاطمية، فالتفريق لا يظهر إلا في اسم الإمام وليس في الفرائض والنصوص والعقائد.

كما ذكر المؤرّخون أنّه تلقى الدراسة في طفولته على نفس مقعد الشاعر الملحد عمر الخيّام والوزير الخطير نظام الملك. وقد أكثر المؤرّخون من وصف صداقة هؤلاء الثلاثة وعداوتهم: شيعي إسماعيلي، وسنّي محافظ وملحد.

«ويحدّثنا المؤرّخ الفارسي علاء الدين الجويني في كتابه (جهان كشاي)، أنّه نقل عن سيرة الحسن بن الصباح التي كتبها عن نفسه، أنّه قال عن نشأته الأولى وعن اعتناقه المذهب الإسماعيلي «منذ طفولتي بل منذ السابعة من عمري، كان جلّ اهتمامي تلقي العلوم والمعارف والتزوّد بكلّ ما أستطيعه منها في سبيل توسيع مداركي، وكنت كآبائي قد نشأت على المذهب الاثني عشري في التشيع، ولم أكن أرى في غيره طريقاً للخلاص من آفات العالم، ولكن حدث أن

تعرّفت في شبابي إلى أحد دعاة الإسماعيلية الفاطميين، فكنت أجادله جدالاً عنيفاً، وأخذ كلّ واحد منا يشيد بما هو عليه من عقائد مذهبية وآراء دينية، إلا أنّ حججه الدامغة تركت عندي أثراً قوياً جداً، ثم افترقت عن الداعي قبل أن أعتنق مذهبه، وبعد قليل أصابني مرض الزمني الفراش فخشيت أن تختطفني يد المنون قبل أن أتطهّر باعتناقي المذهب الإسماعيلي، إذ اعتزمت على اعتناقه بتأثير مناقشاتي مع الداعي، ولما عوفيت، وتعرّفت إلى أبي نجم السراج، رغبت إليه في أن يزيدني حديثاً عن مذهبه، وأخذت أفكرّ تفكيراً عميقاً في تعاليم هذا المذهب، ثم قدر لي أن أتعرّف بالداعي مؤمن، وكان موفداً إلى مدينة الرّي من قبل عبد الملك بن عطاش داعي الدعاة في العراقين (أي في العراق العجمي والعراق العربي)، فتوسلت إليه أن يقبل مني البيعة للخليفة الفاطمي بمصر، وأن يأخذ عليّ العهود والمواثيق، فتردد الداعي ثم أجابني إلى طلبي، وبذلك دخلت الدعوة الإسماعيلية وصرت واحداً من أتباع الإمام الفاطمي بمصر، ولما وفد عبد الملك بن عطاش داعي الدعاة إلى الريّ، مثلت بين يديه، ولما وقف على آرائي واختبر استعدادي، عهد إليّ ببث الدعوة، وبذلك أصبحت داعياً إسماعيلياً، ثم وجّهني بقوله: «عليك بالوفود على القاهرة لتنعم بخدمة مولانا الإمام المستنصر». ولما غادر عبد الملك بن عطاش الرّي في طريقه إلى أصفهان، كنت أنا أيضاً في طريقي إلى القاهرة»[1].

---

(١) الثائر الحميري، م.س. ص ٤١.

وقد عمل الحسن بن الصبّاح من خلال مقرّ قيادته في قلعة آلموت على بث الدعاة ونشر الدعوة الإسلامية في إيران وبلاد ما وراء النهر، (جمهوريات الاتحاد السوفياتي الإسلامية)، فركّز الدعوة الإسلامية الإسماعيلية بإمامة الإمام نزار بن المستنصر ورفع مستواها العلمي، وأصبح المرجع الأعلى لكل شؤون الدعوة العملانية والعقيدية والفكرية والعسكرية.

والداعي عند الإمام في العقيدة الشيعية الإسماعيلية، هو مندوب عن الإمام في المنطقة التي يتولّى مسؤوليتها. ونظام الإمامة عند الشيعة بكلّ فرقهم، نظام له نفس الشروط. فالإمام يجب أن يكون من نسل عليّ وفاطمة عليهما السلام، وهو معصوم عن الخطأ والزلل، طاعته واجبة، ومعرفته مكمّلة للدين، ومن لا يعرف إمام زمانه، يكون إسلامه ناقصاً. وهو يملك النفوس والرؤوس والنصوص، وكلّ شيء، فمن كلّفه الإمام بالاستشهاد عليه أن يستشهد. وله الحق بتطليق المرأة من زوجها دون الرجوع إليها، وتزوجيها بمن يراه مناسباً دون سؤالها. إذاً فالداعي عندما يكلّف أحد المسلمين بعملية اغتيال فيها صالح الإسلام والمسلمين تمشيّاً على خط الحسين عليه السلام على المُكَلّغف أن ينفّذ، ونحن إذا استرجعنا كلّ العمليات الاستشهادية التي نفذها الفدائيون الإسماعيليون، كانت كلها إما ضد الأكراد الأيوبيين، أو متسلّطي الدولة العباسية، أو قيادات الفرنجة الصليبيين، فلم يذكر التاريخ لنا عملية استشهادية واحدة بقصد السرقة والنهب، أو التعدّي على أموال الناس، فكل العمليات كانت تحمل هدفاً سياسياً عقائدياً دينياً.

وهذا النظام «الذي أوجده الحسن بن الصباح لأول مرة في التاريخ، كان مصدراً لكثير من الرعب والهلع، يهزّ الملوك عن عروشهم، ويطوّح بالأمراء والوزراء عن كراسيهم. وقال المؤرّخون الأكراد أنّ أصحاب الحسن بن الصباح، قاموا بأعمال فوضوية اهتزّ لها العالم الإسلامي ما يقرب من قرنين من الزمان، نشروا خلالها الرعب والفزع في النفوس، وقالوا إنّ ابن الصباح قد ابتكر طريقة لسلب إرادة أتباعه، ووضعهم تحت تصرّفه، فإذا أمرهم بشيء فعلوه، ولو كان فيه هلاكهم، وقد كانوا يرتكبون الجرائم في الشرق والغرب بنفوس مطمئنّة، وثغور باسمة، ولم يلاحظ على أحدهم أن تقاعس في اغتيال من كلّف بسفك دمه، أو أبطأ في إزهاق روحه بيده»[1].

رأي الحافظ ابن كثير بالعمليات الاستشهادية وبالحسن بن الصباح:

وعندما يتحدّث الحافظ ابن كثير عن العمليات الاستشهادية وعن الحسن بن الصباح يراها كما يصوّرها الصليبيّون والمؤرّخون الغربيون حيث يقول[2]:

«فيها عظم الخطب بأصبهان ونواحيها بالباطنية، فقتل السلطان منهم خلقاً كثيراً، وأبيحت ديارهم وأموالهم للعامة، ونودي فيهم: إنّ كلّ من قدرتم عليه منهم فاقتلوه وخذوا ماله، وكانوا قد استحوذوا

---

(١) الثائر الحميري، الحسن بن الصبّاح، مصطفى غالب، ط ٢، بيروت، دار الأندلس، سنة ١٩٧٩، ص ٦٦٤.

(٢) البداية والنهاية، المجلد ١٢، م.س. ص ١٥٩.

على قلاع كثيرة، وأول قلعة ملكوها في سنة ثلاث وثمانين (وأربعمائة)، وكان الذي ملكها الحسن بن صباح، أحد دعاتهم، وكان قد دخل مصر وتعلّم من الزنادقة الذين بها، ثم صار إلى تلك النواحي ببلاد أصبهان، وكان لا يدعو إليه من الناس إلا غبياً جاهلاً، لا يعرف يمينه من شماله، ثم يطعمه العسل بالجوز والشونيز، حتى يحرق مزاجه ويفسد دماغه، ثم يذكر له أشياء من أخبار أهل البيت، ويكذب له من أقاويل الرافضة الضلّال، أنّهم ظُلموا ومُنعوا حقّهم الذي أوجبه الله لهم ورسوله، ثم يقول له فإذا كانت الخوارج تقاتل بني أمية لعلي، فأنت أحقّ أن تقاتل في نصرة إمامك علي بن أبي طالب، ولا يزال يسقيه العسل وأمثاله ويرقيه حتى يستجيب له ويصير أطوع له من أمه وأبيه، ويظهر له أشياء من المخرقة والنيرنجيات والحيل التي لا تروج إلا على الجهّال، حتى التفّ عليه بشر كثير، وجمّ غفير، وقد بعث إليه السلطان ملكشاه يتهدّده وينهاه عن ذلك، وبعث إليه بفتاوى العلماء، فلما قرأ الكتاب بحضرة الرسول قال لمن حوله من الشباب: إني أريد أن أرسل منكم رسولاً إلى مولاه، فاشرأبت وجوه الحاضرين، ثم قال لشاب منهم: أقتل نفسك، فأخرج سكيناً فضرب بها غلصمته فسقط ميتاً، وقال لآخر منهم: ألق نفسك من هذا الموضع، فرمى نفسه من رأس القلعة إلى أسفل خندقها فتقطّع. ثم قال لرسول السلطان هذا الجواب. فمنها امتنع السلطان من مراسلته. هكذا ذكره ابن الجوزي، وسيأتي ما جرى للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس وما جرى له مع سنان صاحب الإيوان مثل هذا إن شاء الله تعالى».

تفسير المؤرّخين الغربيين لكلمة الحشّاشين:

نقل الدكتور مصطفى غالب في كتابه الثائر الحميري الحسن بن الصباح «عدة تفاسير لعدة مستشرقين لكلمة: حشاشون» نقتصر بذكر بعضها:

- قال المستشرق إيڤانوف Cosanewoe أنّها مأخوذة من الكلمة الإنكليزية seax أي سكين.

- وزعم المستشرق جبلان Gébelin أنّها مأخوذة من الاسم شاهنشاه بمعنى ملك الملوك.

- وزعم آخر أنّها مشتقة من كلمة «الحسنيين» أي اتباع الحسن بن الصبّاح.

وذكر غيره أنّها مأخوذة من جمع كلمة عَسّ أي عسّاسين أي حراس الليل.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وقال المستشرق سلفستر دي ساسي أن الصليبيين هم أوّل من أطلقوا هذا اللقب على جماعة الحسن بن الصباح. «وقيل إنّ هؤلاء الفدائيين كانوا يدرّبون منذ نعومة أظفارهم في منازل رؤساء الدعوة، وتحت إشرافهم ويلقّنونهم أنّ سلامتهم متوقّفة دائماً على فداء أنفسهم، وأنّ أقلّ مخالفة تبدر منهم، تكون سبباً في وقوعهم تحت العقوبة والمسؤولية إلى الأبد، وأنّ الذي يقدّم الطاعة جزاؤه الجنّة»[1].

---

(١) راجع: المصدر السابق نفسه، صفحة ٦٨.

وقد استعمل الدعاة النزاريون، شيفرة سرية، حيث يبثّون بالرسالة التي يبعثونها للفدائي بأحرف الشيفرة السرية متناثرة بين كلمات وسطور الرسالة، وما عليه إلا أن يجمعها ويرتّبها حسب ورودها في الرسالة، فتكتمل عناصر المهمة التي يكلّف بها. وتأتيه الرسالة عن طريق الحمام الزاجل.

وصف جنة الحسن بن الصباح:

وأكثر ما يثير السخرية وصف الرحالة البرتغالي ماركو بولو للجنّة أو الجنينة التي شاهدها ووصفها حيث قال: «كان شيخهم يسمّى علاء الدين، وقد أمر بإقامة سور على أخدود بين جبلين، ثم غرسه بالأشجار، وحوّله إلى حديقة غنّاء، هي أجمل ما رأته الأعين ووقعت عليه الأبصار، وهي مليئة بمختلف الفواكه وأطيب الثمار، وأقام فيها القصور والجواسق (القصور) ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت، وقد طلاها بالذهب، ونقشها بأجمل النقوش وجعل بها قنوات تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء، ووضع فيها جملة من أجمل النساء وأرقّ الفتيات، وجعلهن يعزفن على مختلف الآلات، ويغنّين بأعذب الأصوات، ويرقصن أروع الرقصات. وقد شاء شيخ الجبل بذلك أن يجعل الناس يعتقدون أنّ حديقته هذه ما هي إلاّ الجنّة بعينها، فأنشأها على النمط الذي صوّره لهم الدين الإسلامي، وجعلها روضة غنّاء، تجوس خلالها أنهار تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء، وملأها بالجميلات الفاتنات من النساء اللاتي لا همّ لهنّ إلاّ الترفيه عمن بها من نزلاء. ولم يكن يسمح لأحد من الناس أن يدخل

هذه الحديقة إلا من شاء أن يجعلهم من مشّائيه، وكان يحتفظ بقصره بعدد من الغلمان تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين ممن يلمس فيهم حبّ الجندية والقتال. وكان دأبه أن يقصّ عليهم أقاصيص عن الجنّة التي كان يقصّها محمد على أتباعه فيصدّقونه فيما يقول، كما صدّق العرب نبيّهم، ثم يأذن لهم بعد ذلك بدخول الحديقة أربعة أربعة... ولكنه يسقيهم قبل ذلك مزيجاً من شراب خاص ينامون على أثره، فإذا انطبقت جفونهم وغلبهم الكرى، أمر أتباعه أن يحملوهم ويضعوهم في داخل الحديقة، فإذا أفاقوا، وجدوا أنفسهم داخل هذه الروضة الغنّاء. ومتى أفاقوا من غفوتهم ووجدوا أنفسهم في هذا المكان الرائع، ظنّوا أنّهم في جنة الخلد، ثُم تقبل النساء والفتيات بعد ذلك على هؤلاء الفتيان، فيلاعبنهم ويشبعن رغباتهم، ويظفر الرجال منهنّ بما يرغبون، فلا يشاؤون بعد ذلك أن يتركوا هذا المكان المشحون بالفتن واللّذائذ»[1].

والمتعمّق في وصف ماركو بولو لجنّة الحسن بن الصباح يسأل: إذا كان الحسن بن الصباح يملك هذه الحديقة فعلاً، فلا يكون مضطراً لأنّ يقصّ على فدائييه قصص الجنّة الموعودة، فهي موجودة حسب زعم ماركو بولو.

إن الحديقة «الجنّة» عليها حرّاس والحرّاس بالطبع لن يكونوا حشاشين، فمن المؤكد أن يفشي أحدهم سرّ الحسن بن الصباح ودجله وكذبه على مريديه إذا كان فعلاً دجّالاً.

---

(١) الثائر الحميري، م.س. ص ٦٦.

إنّ العدد الوافر والجم من الاستشهاديين الإسماعيليين الذين انتشروا في كافة أصقاع العالم الإسلامي، ليس من المعقول أن يكونوا كلهم قد خدعوا وأدخلوا إلى الحديقة ثم وزّعهم الحسن بن الصباح على العالم الإسلامي. فبالتأكيد أنّ هؤلاء الاستشهاديين هم من أتباع الحسن بن الصباح والإمام نزار، ولكنهم تخرّجوا من تحت دعاة مناطقهم وبلادهم، بتوجيه من الداعي الحسن بن الصباح، مما يدفعنا إلى الاستنتاج، أنّه لو كان هناك حديقة، لما استطاع الحسن بن الصباح جمع هذا العدد الكبير من الاستشهاديين، ولانحصرت القضية على الأربعة أربعة أو ستة ستة أو عشرة عشرة من الأولاد الذين إذا دخلوا الجنّة المزعومة رفضوا الخروج منها.

وعندما تناول المستشرق الروسي إيڤانوف وصف ماركو بولو لجنّة الحسن بن الصباح، دفعه فضوله لزيارة قلعة آلموت أو بقاياها، ومشاهدة بقايا هذه الجنّة المزعومة، فذهب إلى مكان هذه الجنّة «وتساءل عن هذه الجنّة المزعومة التي أتى على ذكرها أغلب المؤرّخين والكتاب، من عرب وفرس بقوله: إن جنّة وارفة الظلال في أرض يجتاحها الشتاء بجليده وزمهريره سبعة أشهر في العام، لا يمكن معها معيشة حيّ غير الإنسان، وقد كان أهل هذه المنطقة يبعدون الحيوانات الأليفة إلى القرى المجاورة طوال فصل الشتاء الشديد البرودة»[1].

كما يتساءل القارىء، أنّ القاصد يستطيع أن يصنع ساقية

---

(١) م.س. نفسه. ص ٧٢.

صغيرة داخل القصر أو القلعة أو الحديقة من خمر أو ماء، ولكن كيف تسيل هذه الساقية بشكل دائم وأين تصب ومن أين تأتي؟ فلا مجال لجعلها تسير بشكل دائم إلا بتلقيها في بئر وضخّها بواسطة ناعورة يجرها ثور ويعيد صبها من جديد في الساقية. أما ساقية اللبن والعسل، فكيف استطاع عقل ماركو بولو، ومن بعده مؤرّخو الدولتين الأيوبيّة والمملوكية أن يستوعب ويقتنع بوجود ساقية لبن وساقية عسل.

الحسن بن الصباح المفترى عليه بين الإسلام والإلحاد:

لما كان الحسن بن الصباح يسيطر على قلعة آلموت ويدير الدعوة الشيعية الفاطمية منها، ويرسل الدعاة والاستشهاديين إلى كلّ أطراف العالم الإسلامي، وخاصة بعد وفاة الخليفة المستنصر وهرب الإمام نزار إليه، كان السلطان السلجوقي السنّي المذهب يحكم ما تبقّى من العالم الإسلامي عن طريق الخلفاء العبّاسيين. وكان مدبّر ملك السلطان ملك شاه، صديق طفولة الحسن بن الصباح وعدّو الرئاسة والزعامة، الوزير نظام الملك. وقد أخذ نظام الملك يحرّض السلطان ملك شاه على الحسن بن الصباح، لذا حاول استمالته بالحسنى، فأرسل له رسولاً خاصاً يدعوه لتسليم القلعة والمثول أمامه سلماً وإلا سيحتلّها حرباً.

ومما جاء في رسالة السلطان ملك شاه:

يقول الدكتور مصطفى غالب في كتابه «الثائر الحميري»:

وهذه الوثيقة القيمة وجدناها ضمن مخطوط إسماعيلي فارسي

اسمه (مجالس المؤمنين) للقاضي نور الله شوشتري، من علماء الإمامية في القرن العاشر من الهجرة النبوية[1].

رسالة جلال الدين ملكشاه السلجوقي إلى الحسن بن الصباح في أوائل سنة ٤٨٣ هجرية:

أنت يا حسن الصباح قد أظهرت ديناً جديداً، تخدع به الناس، وتغريهم على الخروج على والي الزمان، وجمعت نفراً من جُهّال الجبال تكلّمهم على مقتضى طبعهم، فيذهبون ويغتالون الأبرياء، وتطعن في الخلفاء العباسيين الذين هم خلفاء الإسلام، وقوام الملك والملّة، وبهم يوثق نظام الدين والدولة، فهلا خرجت عن هذه الضلالة وتركت هذه الغواية، وانضويت تحت راية الإسلام؟ إنّ جيوشي متوقفة على مجيئك، أو مجيء جوابك، وعليك أن ترحم نفسك ونفوس أتباعك، ولا تلق نفسك ونفوسهم إلى التهلكة، ولا يغرّنك منعة قلاعك، وعليك أن تعلم أنّه لو كانت قلعتك (آلموت) برجاً من بروج السماء لهدمنا أركانها بعون الله سبحانه وتعالى.

جواب الحسن بن الصباح:

عندما وصل الصدر الكبير ضياء الدين خاقان إلى زاويتنا، وبَلّغَ مقالة السلطان إليّ، وضعتها على الرأس والعين، ورفعت رأسي زهواً من الفخر والشرف، لقد فسح لي المجال لإظهار اعتقادي، وإني لأرجو من السلطان أن يصغي إلى كلامي، ولا يشاور في أمري

---

(١) الثائر الحميري، م.س. ص ١٢١.

الذين يعلم أنّهم من أعدائي، سيما نظام الملك، وعليه أن يتحقّق ما أنا عليه من الصدق الذي ليس عليه مزيد، وإن رجعت أنا عن ذلك كنت كمن رجع عن الإسلام وعصى الله ورسوله، وإن خشيت من شيء فهو خشيتي من أن يكون السلطان قد سمع كلام الأعداء، وكيف لي بمقاومة خصم عنيد يستطيع أن يضع الحق مكان الباطل والباطل مكان الحق، ولا بد لي الآن من وصف حالي:

كان أبي رجلاً مسلماً على مذهب الشيعة الإثني عشرية، ولما بلغت أربع سنين أرسلني إلى المدرسة لتحصيل العلوم والمعارف، وحين مضى أربع عشرة سنة من عمري حذقت في علمي القرآن والحديث، ثم لاح لي مرض الدين، فوجدت في كتب الشافعي روايات عديدة في فضائل آل النبي صلوات الله عليه وعليهم، فوجهت خاطري نحوهم وعنيت في طلب إمام الوقت حتى جَرَّ في تكاليف حكام الزمن إلى أمور الدنيا التي يعظمونها الناس، ومن أجل هذا نسيت وجدي الأول وشوقي الأمثل، وجعلت جُلَّ همي في أمر الدنيا وخدمة الناس، وألقيت وراء ظهري أمر الخالق، ولما كانت هذه الحالة لا ترضي الله سلط عليّ الأعداء، فأخرجوني مضطراً من ذلك الأمر، فكنت أفرّ من مدينة إلى مدينة ومن مهمه إلى مهمه، حتى تعبت كثيراً كما لا يخفى على السلطان ونظام الملك، ولما نجّاني الله تعالى من هذه الورطة سالماً وعلمت أن التوجّه إلى الخلق والتنكبّ عن الحقّ لا يثمر غير هذا، قمت في أمر الدين وطلب الآخرة، وسافرت من الريّ إلى بغداد حيث أقمت مدة فيها درست خلالها أحوالها وتفحّصت عن حال الخلفاء وأئمّة الإسلام، فوجدت الخلفاء العباسيين عارين من كلّ

مروءة وخالين من مرتبة الفتوّة، وعلمت أنّ الإسلام والدين لو كانا مبنيّين على إمامتهم وخلافتهم، إذن الزندقة والكفر أولى، ثم ذهبت من بغداد إلى مصر، وفيها خليفة الحقّ الإمام المستنصر، فدرست حاله وقابلت بين خلافته وخلافة العباسيين، وإمامته وإمامتهم، فوجدته أحقّ بالخلافة منهم، فأقررت به، وبرئت بكلّ الوجوه منهم، ومن خلافتهم، ولما علم الخَلفاء العباسيون بما أنا عليه، أرسلوا نفراً ليأخذوني في الطريق ثم نجّاني الله منهم، ووصلت سالماً إلى مصر، ثم أرسلوا مقدار حمل ثلاثة بغال ذهباً إلى أمير الجيوش بمصر، ووعدوه بأموال كثيرة أخرى إذا تمكّن من الحسن أو من رأسه؛ ولما كانت عناية خليفة الحقّ، والإمام المستقر المستنصر بالله شاملة بي، نجوت من هذه المكيدة أيضاً، ولما ألّب العباسيون أمير الجيوش عليَّ رشحوني للذهاب إلى الروم ودعوة كفار الإفرنج، وبلغ هذا الخبر إلى سمع الإمام فجعلني في كنفه، ووكّل إليَّ أمر دعوة الناس إلى الصراط المستقيم، وإعلامهم بإمامة خلفاء مصر وحقيقتهم، فما هو رأي السلطان بالآية: ﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ وهل يحمل علي سماع كلامي، وقام على دفع شرّهم عن المسلمين، كما قام السلطان محمود غازي سبكتكين على دفع شرهم وأذاهم.

وأما ما قلتم من أنّني أظهرت ديناً جديداً، فنعوذ بالله من أن أظهر ديناً جديداً، أنا أدين بدين أصحاب رسول الله، ذلك هو الدين القويم إلى يوم القيامة، ديني دين الإسلام والمسلمين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأن أولاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أحق بخلافة أبيهم من أولاد العباس.

إنّك بعد أن أرسلت جيوشك من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن محاذاة قطب الشمال إلى الهند سلمت لك كلّ هذه الممالك، فهل يجوز بعدها أن تخرج من يد أبنائك لغيرهم؟.

إذا كنت تقبل بهذا فخلافتهم أيضاً جائزة! على أن أبناء العباس عاثوا في الأرض فساداً، ولئن كان بعض الناس يعتقدون بهم ويعتمدون عليهم، لجهلهم بفسادهم، فكيف يعتمد عليهم من يعلم بفسادهم؟

وإنّني لا أدري كيف يجيب السلطان الله يوم القيامة؟ وكيف تكون نجاته من النار إذا لم يدفع شرّهم وينجّي المسلمين منهم.

الحسن بن الصباح يعترف بخلافة الخلفاء الراشدين:

ويتابع الحسن بن الصباح فيقول: إنني لا أنكر الخلفاء الأربعة، ومحبّتهم في قلبي، وإنني لم أظهر ديناً، ولا ابتدعت مذهباً، مذهبي مذهب الصحابة في زمن الرسول صلى الله عليه وآله، وهذا صراطي المستقيم إلى يوم القيامة.

وأما ما قلتم من أنني أطعن في بني العباس، فأقول كيف لا يطعن ولا يشنع بقوم كانت بدايتهم ونهايتهم على التزوير، والتلبيس، والفسق، والفجور والفساد، وها أنا أشير إلى نبذة من أحوالهم وأفعالهم لتكون لي على السلطان حجة.

أولاً: أبو مسلم الذي جدّ واجتهد واختار الشعب حتى قصر أيدي ظالمي بني مروان من إراقة دماء المسلمين، وأخذ أموالهم، وأزال الظلم، وزيّن الدنيا بالعدل. غدروا به وأراقوا دمه ثم قتلوا آلافاً من أولاد الرسول في أطراف العالم حتى انزوى جمع غفير منهم في

زوايا الخفاء، وخلعوا شعار السيادة لينجوا بأنفسهم من جور الظالمين، وما زال أولئك الخلفاء يشتغلون بشرب الخمر، وارتكاب الزنا. وقد بلغ الفساد في زمانهم لدرجة أنّ هارون الذي كان أعلمهم وأفضلهم كان يحضر إحدى شقيقاته في مجلس شرابه ومدامه.

ومن الأعمال التي لا يقرّها وجدان ولا ضمير، أنّه أمر بجلد أبي حنيفة الكوفي مائة سوط، مع أنّه كان ركناً من أركان الإسلام، وأيضاً صلب منصور الحلاج الذي كان قدوة الأنام، هؤلاء هم خلفاء العباسيين الذين تسمّيهم أركان الإسلام وقوام الملك والملّة، وتقول إنّ بهم يوثق نظام الدين والدولة! فإن طعنت بهم أنا أو غيري بعد هذا، فهل أكون على حقّ أم على باطل؟.

وأما ما قلتم من أنّني أخدع الجهّال وأدفعهم لضرب الناس، وقتلهم، فأقول إنّ انحراف موظفي السلطان ووكلاء نظام الملك وأرباب المعاملات في حدود خراسان عن جادة الصواب وتجاوزهم على عورات الناس، وحرمة العباد، وقتلهم النساء أمام أزواجهن وارتكاب الفحشاء معهن، فضلاً عن عدم الاهتمام بالمعاملات الديوانية، وكلما استغاث الناس بأركان الدولة لا يلتفت أحد إليهم، بل ينزل البلاء والجور على المستغيث.

وليس للمظلومين في هذا الزمان ملجأ يفزعون إليه، فإن قام أحد للاضطرار، وأثار النار على العار، وهانت عليه المنية تخلصاً من الذلّ والدنية، ودفع واحداً أو اثنين من هؤلاء الظلمة، فما ظلم! وأن قتلهم لمعذور، ما للحسن الصباح وهذه الأمور، وهل يحتاج إلى أن يخدع الناس بعد هذا؟ وأي أمر يقع في الدنيا بلا تقدير سماوي؟.

وأما ما هدّدتم بحشد جيشكم لتدمير مقرّي! فمعاذ الله أن أفعل شيئاً يكون فيه خلافاً لرأي السلطان، لقد اخترت زاويتي وجعلتها مأوى لي، لأنّ أعدائي يحتالون في طلبي ويسعون لسفك دمي، فإذا فرغ السلطان من أمر الأعداء أنا أقبل إليه، وأتشرف بحضرته، وانخرط في سلك سائر عباده، وحينئذٍ أشير إليه ما استطعت لإصلاح أمر دنياه وتدارك أمر آخرته، ولئن صدر عني عمل بخلاف هذا، أو خالفت أمر السلطان، فأنا جدير بالسب واللعن من القريب والبعيد، وبأن يقال فيّ: إنّه خالف القول المأثور ﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ وأن تقول في حقي ما شئت إذاً أنا أغمضت عيني عن خصمي نظام الملك الذي ظلمني ويظلمني. وأما قولكم لو أنّ مستقري برجاً من بروج السماء لهدمته، فأقول إنّ لمقيمي هذا المستقر ثقة بقول وليّ الدهر من أنّ هذه القلعة ستبقى ثابتة في أيدينا مدة طويلة حتى يحل قضاء الله بها، وأنني أعمل بالفرائض والسنن، وأرجو من الله ورسوله أن يهدي السلطان وأركان دولته إلى الصراط المستقيم ويرزقهم دين الحق ليزهق فساد العباسيين، وفسقهم من بين الخلق، ولو أن السلطان يبغي سعادة الدين والدنيا لعمل كما عمل سلطان الإسلام محمود غازي رحمه الله، حيث جاء بسيد علاء الملك خداوند زاده من ترمذ وجعله خليفة للناس، وبذلك تخلص من شرهم؛ فعلى السلطان واجب دفع شرهم وإنقاذ عباد الله تبارك وتعالى منهم. وسيأتي زمان يظهر فيه سلطان عادل يخلّص المسلمين من الظلم والضيم والسلام على من اتبع الهدى.

خادم أعتاب آل محمد وعلي، الحسن بن الصباح:

وإذا تمعّنا جيداً في النص، نجد أن الحسن بن الصبّاح لم يخرج عن أدبيات الإسلام الشيعي الجعفري فهو يتعوّذ بالله أن يكون قد «أظهر ديناً جديداً، وأنّه يدين بدين أصحاب رسول الله، «ذلك هو الدين القويم إلى يوم القيامة، ديني، دين الإسلام والمسلمين أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله وأن أولاد الرسول، صلّى الله عليه وآله وسلّم أحقّ بخلافة أبيهم من أولاد العبّاس».

فإذا كان الحسن بن الصباح يقول هذا معتقدي، ولم يقم أي مؤرّخ معاصر له أمثال الشهرستاني، بتكفيره وإخراجه من الملّة الإسلامية، فالشهرستاني ولد سنة ٤٧٩هـ وتوفي سنة ٥١٤ هـ، أي ولد قبل وفاة الحسن بن الصباح بتسع وثلاثين سنة، وعندما تحدّث عنه قال: «ثم أن أصحاب الدعوة الجديدة، تنكبّوا هذه الطريقة، حين أظهر الحسن بن محمد بن الصبّاح دعوته، وقصر على الالتزامات كلمته. واستظهر بالرجال، وتحصّن بالقلاع.

وكان بدء صعوده إلى قلعة آلموت من شهر شعبان سنة ٤٨٣هـ وذلك بعد أن هاجر إلى بلاد إمامه (المستنصر)، وتلّقى منه كيفية الدعوى لأبناء زمانه. فعاد ودعا الناس أول دعوة إلى تعيين إمام صادق قائم في كلّ زمان، وتمييز الفرقة الناجية عن سائر الفرق بهذه النكتة وهي: أنّ لهم إماماً وليس لغيرهم إمام»[1].

---

(١) الملل والنحل، الشهرستاني، الجزء الأول، م.س. ص ١٩٥.

وفنّد الشهرستاني فتاوى الحسن بن الصباح ورأي أئمتّه في أربعة أمور:

١ ـ طريقة معرفة الله.

٢ ـ ضرورة الاحتياج إلى معلّم صادق.

٣ ـ ضرورة معرفة المعلم الصادق الذي يدلنا على الطريق.

٤ ـ تقسيم الناس إلى فرقتين، فرقة قالت بضرورة أخذ العلم عن معلّم صادق أي الإمام، وفرقة قالت بأخذه عن أيّ كان، والفرقة الأولى هي الناجية، حسب رأي الحسن بن الصباح. وقال الشهرستاني عن الحسن بن الصباح أنّه منع العوام عن الخوض في العلوم الإلهية وأنّه يقول «أنّ إلهنا إله محمّد»، والرسول هو الهادي إليه.

وبالعودة إلى كلّ المداخلات الفلسفية التي ذكرها الشهرستاني في ردّه على الفتاوى الأربعة لم يذكر لنا، لا إلحاد الحسن بن الصباح ولا فسقه ولا جنّته المزعومة ولا استعماله الحشيشة، فكل هذه التلفيقات هي من صنع مؤرّخي الإسلام الكردي المملوكي التركي.

أما أبو يعلى المعروف بابن القلانسي، فهو حين يتحدّث عن مقتل الوزير نظام الملك، يشير إلى أن قاتله رجل ديلمي من الباطنية، ولا يشير إلى الحسن بن الصباح، فيتبرّع محقّق الكتاب ويشير في هامش الصفحة أنّه قتل بتخطيط من حسن الصباح، ولو كان الحسن بن الصباح، حينها، على شاكلة الصورة المرعبة التي أوصلها

لنا عنه، مؤرّخو الغرب ومؤرّخو دول الأكراد والأتراك لكان أشار إليه أبو يعلى، وهو من معاصريه، ففي سنة مقتل الوزير نظام الملك، كان للقلانسي ست عشرة سنة من العمر، وحين وفاة الحسن بن الصباح سنة ٥١٨هـ، كان له من العمر ٣٤ سنة. فقارن وتبصّر.

أما صاحب تاريخ مختصر الدول وهو المعروف بابن العبري، لم يذكر الحسن بن الصبّاح بأي كلمة، واكتفى أنّه ذكر كيف أقدم واحد من الاستشهادين بقتل طغتكين والي دمشق بسبب مهادنته الصليبيين، وذكرّ أن الاستشهادي كان «يدعو له ويتصدّق منه أمام باب الجامع، فوثب عليه وضربه بسكّين فجرحه أربع جراحات، فمات من يومه، وقتل الباطني وأخذ رأسه، فأحرق»[1].

أما ابن الأثير، فعند ذكره لم يتعدّ قوله من أنّه رئيس الطائفة الإسماعيلية في آلموت، وأنّه«قصد الخليفة المستنصر بزي تاجر واجتمع به وخاطبه في إقامة الدعوة له ببلاد العجم، فعاد ودعا الناس إليه سرّاً ثم أظهرها، وملك القلاع والحصون. وقال للمستنصر من إمامي بعدك، فقال إبني نزار وهو أكبر أولاده، والإسماعيلية إلى اليوم (٦٢٩هـ) يقولون بإمامة نزار»[2].

ولم يذكر لنا ابن الأثير أيّ شيء عن الحشيشة ولا عن الاغتيالات السياسيّة ولا عن الفداوية أو الملاحدة أو الباطنية أو النزارية خلال الحقبة الممتدة ما بين سنة ٤٥٠هـ حتى سنة ٤٩٢

---

(١) تاريخ مختصر الدول، ابن العبري. م.س. ص ٣٤٦.

(٢) الكامل في التاريخ، الثاني، م.س. ص ١٧٢.

هجرية حيث يشير إليهم تحت عنوان: ذكر قتل الباطنية ويشير في هذا العنوان «أنّهم قتلوا نظام الملك وهي أول فتكة مشهورة كانت لهم». ويشير إلى قلاعهم وخاصة قلعة آلموت وإلى زعيمهم الحسن بن الصباح فيقول: «وكان الحسن بن الصباح رجلاً شهماً كافياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم وغير ذلك» ثم يذكر دخوله على المستنصر وخلافه مع نظام الملك وأسباب هذا الخلاف.

أما إذا أتينا إلى كتب مؤرّخي الدولتين الكردية والملوكية، فنجد أن كلّ مؤرّخ ألصق به من التهم، وكال له أضعاف ما كاله اللاحق للسابق. وعندما دعى ابن خلدون لحرق كتب الباطنية، ذكر أسماء كتب لم أسمع بها من قبل، ولا أعرف أسماء مؤلّفيها ككتاب الفصوص، وكتاب الفتوحات، وكتاب خلع النعلين.

وهذا الحسن بن الصباح المعاصر للغزالي. وقد ردّ الغزالي على فرق الباطنية وفنّد أقوالهم، لم يذكر الحشيشة والحشاشين، ولم يخل الحقد حتى من نفوس بعض الكتّاب المعاصرين. فهذا أحمد عرفات القاضي يعدّد الفرق الخارجة عن ملة الإسلام فيسمّى: الإسماعيلية والقرامطة وإخوان الصفا والحشاشين والصليحيين والفاطميين والدروز والنصيرية والبابية والبهائية والقاديانية والبهرة، ويركز على أخذهم جميعهم عن عبدالله بن سبأ ويهاجم ابن خلدون وطه حسين لإنكارهم وجود عبدالله بن سبأ، ويقول لطه حسين مالك وللتاريخ؟، اشتغل في الأدب، ويصل به الحقد حتى يتهم كلّ ما هو شيعي فيخرج عن موضوع الكتاب وهو بعنوان: الفكر السياسي عند الباطنية وموقف الغزالي منه، ويقول إنّهم يدّعون أنّهم هم أهل السنّة والجماعة وأن أهل

السنّة خارجون عن الإسلام، والدليل على ذلك «موقف كلّ من فيلسوف الشيعة الشهير، نصير الدين الطوسي الذي كان ينظم الشعر في التزلّف للخليفة العبّاسي، والوزير الشيعي ابن العلقمي، فقد ذهبا إلى إغراء المغول بسفك دم الخليفة العبّاسي ورعاياه، وجاء في طليعة موكب السفّاح هولاكو الذي كان خائفاً من قتل الخليفة العبّاسي خوفاً من لعنة السماء، ولكن الطوسي وابن العلقمي شجّعاه على ذلك حتى قتلوا ثمانمائة ألف مسلم في بغداد سنة ٦٥٥هـ»[١].

ولن نرّد على القاضي، لأنّ الرّد يحتاج إلى كتاب بكامله، بل نكتفي بالقول أنّ ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي استعمرا هولاكو وأولاده فكرياً، وأدخلوهم في الدين الإسلامي وحلّوا المشكلة عن طريق الغزو الفكري والديني. وكما دافع عنه طه حسين، كذلك كان للأديب عباس محمود العقاد رأيٌ، حيث قال يصف الاستشهاديين وأهلهم وشيخهم الحسن بن الصباح الحميري[٢]:

«وأنّ أحدهم كان يقيم بين جند الأمير المقصود بالنقمة، ويتكلم لغتهم حتى لا يميّزوه منهم، وأنّه يفعل فعلته ويتعمّد أن يفعلها جهرة ولا يجتهد في الهرب من مكانها، وأنّ أمهات هؤلاء الفدائيين كنّ يزغردن إذا سمعن خبر الفداء، ويبكين إذا عاد الأبناء إليهن ولم يفلحوا في اغتيال أولئك الأعداء..

---

(١) الفكر السياسي عند الباطنية، وموقف الإمام الغزالي منه، أحمد عرفات القاضي، ط ١، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، سنة ١٩٩٣، صفحة ٦٧.

(٢) فاطمة الزهراء والفاطميّون، عباس محمود العقاد ط ٢، بيروت، دار الكتاب اللبناني، سنة ١٩٦٧، ص ١٦٤.

وظلّ الحديث بهذا وأشباهه يتعاقب ويتناثر بين الالسن، ويروى عن الحسن كما يروى عن خلفائه إلى عهد الرحالة البرتغالي «ماركو بولو» الذي ساح في المشرق في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد، ولا يزال هذا التفسير الخرافي مقبولاً في القرن العشرين بين الأكثرين من المؤرّخين والقراء..

ونحن نستبعد جداً، أن يكون للجنة المزعومة، أصل في قلعة حسن بن الصباح، فإن التكذيب أرجح من التصديق في كلّ خيط من الخيوط التي نسجت منها القصة ذلك النسيج الواهي المريب.

إنّ الحسن بن الصباح كان معروفاً بالصرامة والشدة على نفسه وعلى أتباعه، وكان يتنسّك ويتقشّف رياضة أو رياء أمام أتباعه وتلاميذه، ولم يكن من اليسير في تلك القلاع المنفردة أن يخفي أمر القيان ومجالس الراقصات والغناء زمناً طويلاً دون أن يطلع عليه المقربون إن لم يطلع عليه جيرة القلعة أجمعين. وليس من المعروف عن مدخنّي الحشيش أن يحفظوا وعيهم ويفقدوه في وقت واحد، وأن يلتبس عليهم كلّهم أمر العيان والسمع هذا الالتباس. وليس من المعروف عن الحشيش أنّه يهيىء صاحبه لمواقف الإقدام على المخاطر والإصرار عليها شهوراً أو سنوات.

ومن المحقّق أنّ شيخ الجبل، لم يطلع أحداً على سره، وأنّ أحداً من المؤرّخين لم يشهد تلك الجنة بنفسه ولم يسمع روايتها من شاهد بعينه، فهل من العسير أن يُتتبع مصدر هذا الخيال من روايات الزمن الذي نشأت فيه وسرت منه إلى ما بعده من أزمنة القرون الوسطى؟.

* * *

إن روايات هذا الخيال قد نشأت بين الصليبيين ولم تنشأ بين المشارقة، وقد كان الصليبيون في حاجة إلى تأويل شجاعة المسلمين، وهم في عرفهم قوم هالكون لا يؤمنون بالدين الصحيح.

واستغراب الشجاعة من الفدائيين هو الذي أحوجهم إلى سبب كذلك السبب أو أغرب من ذلك السبب، وقد كان ماركو بولو في روايته يقول إنّ الفدائيين صدقّوا شيخ الجبل كما كان المجاهدون من العرب يصدقون النبي عليه السلام، وكأنّه يقول إنّهم لهذا يقبلون الموت وهم قوم هالكون، فهم في شجاعتهم مخدوعون.

إنّ القوم قد عجبوا كيف يطيع الفدائيون شيخهم هذه الطاعة؟ وكيف يقدمون بأمره على الموت المحتوم؟ فلم يتخيّلوا لذلك سبباً غير الجنّة الموعودة، وعرفوا الحشيش فالتمسوا فيه سرّ الجنة التي ترى في هذه الدنيا رأي العيان. أما جنة «آلموت» المزعومة فهي من مخترعات الغرب، لا نعلم أنّها وردت في كلام مؤرّخ إسلامي قديم ولا أنّ أحداً من مؤرّخي الغرب أسندها إلى مصدر من المصادر الإسلامية.. ولو كان لها مصدر من المشرق الإسلامي لكانت كتب الشرق أولى بابتداعها من كتب الأوروبيين..

وأول دلائل البطلان في هذه الخرافة أنّ وجه الغرابة الذي دعاهم إلى اختراعها غير غريب، فإن النخوة الدينية كانت أقرب شيء إلى أتباع الأئمّة في ذلك الزمن.

ذلك هو شأن العظماء يقعون دائماً بين مطرقة الحاقدين وسندان المتعصبين، فلا يجدون سوى الأدباء والشعراء أصحاب الحسّ المرهف لإنصافهم».

بين الحسن بن الصباح الحميري وزعماء الاستشهاديين من شيعة عاملة:

لما كانت الدعوة الإسلامية الأصيلة في القرن الخامس الهجري تحاط من جميع الجهات بالأعداء، من مغتصبين عبّاسيين ومتسلّقين سلاجقة وغزاة أتراك وأكراد وفرنجة ويهود كان على قائد مقاومتها وممولّها بالاستشهاديين أن يرسل استشهادييه في جميع الاتجاهات لحماية الإسلام الشيعي الأصيل، وهكذا كان الحسن بن الصباح. لذلك قال عنّه المؤرّخون أنّه دوّخ العالم الإسلامي وزرع الرعب والهلع والخوف في صفوف ونفوس ملوكه وأمرائه.

أما الظرف الذي أجبر الشيعة فيه العمل من جديد بنظام الشهادة، فهو يختلف تمام الاختلاف عن الظروف التي مرت بها الأمة الإسلامية زمان الداعي الحسن بن الصباح. فالأمة الإسلامية اليوم، مضطّرة بكلّ طوائفها ومذاهبها. شيعة وسنّة وإسماعيلية ودروز وملاحدة وباطنية ونصيرية وعلوية حتى مع جميع الطوائف المسيحية المشرقية، أن تكون يداً واحدة في مقابل الحرب الأميركية الإسرائيلية التي تشنّ عليها في فلسطين والشيشان والجزائر السودان والبلقان، والصومال والعراق، حرباً فكرية، سياسية، اجتماعية، عسكرية، تطال العادات والتقاليد والمظهر والمعتقد.

من هنا وجد قادة الاستشهاديين المعاصرين أرضاً خصبة أوسع وأكبر وأخصب من أرض الحسن بن الصباح، فالتف حوّلهم العالم الإسلامي بأكمله ومسيحيّو العالم العربي من محيطهم إلى خليجهم في قيادة عملية الدفاع عن حقوق الإسلام والمسلمين وحقوق

المعاهدين في ديار الإسلام، التي أوصلتهم لدحر المحتلين الإسرائيليين عن أرض جبل عامل.

وسنرصد بعض حالات الاستشهاد الحسيني المعاصرة التي أدّت إلى اندحار العدو الإسرائيلي عن ثغر عاملة، وبعض حالات الاستشهاد الحسيني التي بدأ الاستشهاديّون المسلمون في ثغر فلسطين ينفذّونها ضدّ هذا العدو الغاشم.

جاء في رسالة الاستشهادي رضوان العنقوني[1]: «ولئن قتلتم في سبيل الله، أو متّم، لمغفرة من الله ورحمة خيرٌ مما «يجمعون». إخوتي في الإسلام. سلام الله عليكم.

أوصيكم بتقوى الله، فإنها مفتاح النجاة، والالتفاف حول راية قائدنا الإمام الخميني، والصبر على ما أصابكم في سبيل الله، والحفاظ على الإسلام، دين الحق، الذي روت جذوره دماء الشهداء، الذين، أرجو من الله أن أكون منهم.

أبي العزيز: أرجو منك أن تسامحني على ما صدر منّي.

أميّ الحنونة: أرجو منك المعذرة والمسامحة، والدعاء لي، والصبر. وأن تتأسّي بأهل البيت عليهم السلام. ولا تحزني على الفراق يا أميّ، فأنا كرهت هذه الدنيا المليئة بالذنوب.

أخواتي: أوصيكم بالتمسّك بالحجاب وقراءة سيرة أهل البيت»[2].

وقد فجّر رضوان العنقوني نفسه أثناء مرور رتل من الآليات

---

(١) جريدة السفير، العدد رقم ٩١٥٥، إصدار يوم الخميس ٢٠٠٢/٣/٢١ ص١٦.

(٢) جريدة العهد، لبنان، العدد رقم ٢٩٩، تاريخ ١٩٩٠/٣/١٦، ص (هـ).

الإسرائيلية في قرية ميدون العاملية، بتاريخ ٢٢/حزيران سنة ١٩٨٩. واستشهد بعد أن قتل أكثر من عشرين جندياً إسرائيلياً.

ومن وصية الاستشهادي علي جرادي:

«زوجتي الحبيبة: إن ابنتنا آية هي أمانة في عنقك، فعلّميها تعاليم القرآن وعشق أهل البيت وإحياء أمرهم، والسير في خطّهم، لتكون في هذه الدنيا من الصالحات المؤمنات المجاهدات، وتكون لنا في الآخرة حسنة عظيمة عند خالقها تعالى الذي أسأله أن يرزقني الشهادة. وأخبريها أن والدها ذهب حيث الحسين، عليه السلام، لأنّ الموت أولى من الحياة الذليلة تحت حكم المنافقين عملاء إسرائيل وأذناب أمريكا»[1].

ومن وصية الشهيد محمد اليوسف:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلا».

زوجتي الحبيبة: «أطلب منك أن تسامحيني وأن تحفظي الخطّ الذي استشهدت من أجله، وذكّريهم بقول أبي عبدالله الحسين عليه السلام:

إن كان دين محمد لم يستقِمْ إلاّ بقتلي فيا سيوف خذيني

أطلب منك أن تسامحيني، وأن تبقى على التزامك التام. وأسأل الله أن يجمعنا في الآخرة»[2].

---

(١) جريدة العهد، لبنان، العدد رقم ٢٩٩، تاريخ ١٦/٣/١٩٩٠، ص (هـ).

(٢) جريدة العهد، لبنان، العدد رقم ٣٠٠، تاريخ ٢٣/٣/١٩٩٠، ص (هـ).

ومن وصية الاستشهادي صلاح محمد علي غندور، مُفجِّراً مكتب مخابرات العدو في مركز الـ ١٧، بيادر صفّ الهوا ـ بنت جبيل «أنا صلاح محمد غندور المعروف «بملاك». أسأل الله تعالى أن يوّفقني إلى لقاء سيد الشهداء أبي عبدالله الحسين عليه السلام، هذا الإمام العظيم الذي علّم الجميع كيف ينتقمون من ظالميهم. إنّني إن شاء الله، بعد هذه الكلمات سوف ألقى الله معتزّاً مفتخراً منتقماً لديني ولجميع الشهداء المظلومين والمستضعفين من أبناء جبل عامل، وأبناء الانتفاضة في فلسطين المغتصبة، وسوف أنتقم لجميع المعذّبين في الشريط المحتلّ المعذّب».

إنّني، إن شاء الله، مجاهد، من مجاهدي المقاومة الإسلامية، تلك المقاومة العظيمة التي لم ترهبها طائرات العدو، ولا دبّاباته وكلّ أسلحته التي يمتلكونها، ولا كلّ الدعم الذي يتلقّنوه من دول الكفر جميعاً. سوف يكون لقائي لهم، درساً كربلائياً ويكون فخراً للمسلمين وناراً ووبالاً على هذا العدو المتغطرس الذي كسرت هيبته على أيدي إخواني المجاهدين من قبلي.

إخواني المجاهدين: إن الله لا شكّ منجزٌ وعده وناصر عبده وإنّه لا شكّ مُعِزٌّ للمؤمنين ومُذِلٌّ للكافرين. يا أبناء عليّ والحسين عليهما السلام، يا أبناء الإمام الخميني العظيم، يا أبناء القائد الخامنئي، إنّ جهادكم، إن شاء الله، هوا الجهاد المُمَهِّد لدولة صاحب العصر والزمان (عج)، فلنستمر حتى تحقيق الهدف المنشود في تحقيق الرضى الإلهي الكامل، حتى نصل إلى الوعد الإلهي.

إنّا لِلّه وإنّا إليه راجعون.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

وقد وصف شاعر المقاومة الإسلامية هاني الحركة هؤلاء الاستشهاديين ووصف قضية استشهادهم بقوله[2]:

لا تحزني يا أمّه وتصبّري ... وتذكري الماضي بأرض طفوف
هذا أبو الفضل الذي في كربلا ... وأخو الحسين مضى بغير كفوف
هذا الحسين إمامنا وولّينا ... نزف الدما بالطفّ أيَّ نزيف
من نحن من؟ ماذا نكون أمامه ... إنّا فداء حذائه المخصوف
ولقد مضى في خط خير أئمّة ... ضد الخنا والكفر والتحريف

وكيف استطاع قادة المقاومة الإسلامية، إقناع هؤلاء الشباب ببيع أنفسهم في الدنيا وزهدهم بجنة الأرض واستبدالها بجنة الآخرة الموعودة؟.

هذا السؤال الذي لم يستطع مؤرّخو الغرب وفلاسفتهم الإجابة عليه أمام العمليات الاستشهادية نفسها التي قام بها الاستشهاديون الإسماعيليون الشيعة أيام داعي الدعاة الحسن بن الصباح الحميري، وفسرّوا استشهادهم أقبح تفسير وقرأوه أحقر قراءة، مشى على ممشاهم المؤرّخون الأكراد الحاقدون، وجميع المؤرّخين الحاقدين على الإسلام الأصيل في كلّ عصر ومصر.

يبدأ رجل الدين في كلّ قرية وحيّ يراقب الشباب الغضّ الطريّ،

---

(١) جريدة العهد، لبنان، العدد رقم ٣٠٤، تاريخ ٤/٥/١٩٩٠، ص (د).

(٢) جريدة العهد، لبنان، العدد ٥٨٠، تاريخ ٢٨/٤/١٩٩٥، ص ٦.

ويراقب مستويات الإيمان الإسلامي في نفوسهم، فمن كان لديه الأرض الخصبة لتقبّل المزيد من الفكر الإسلامي والعقيدة الإسلامية والالتزام بمبادئه، يزداد الشيخ أو المسؤول في المقاومة أو الحزب اهتماماً بهذا الشاب، ويبدأ بتزويده بالشحنات الإيمانية والإسلامية شيئاً فشيئاً، مقرناً كلّ عقيدة أو فكرة إسلامية بقول للإمام الحسين عليه السلام أو بسلوكية أو تصرّف تام له.

من هنا يبدأ الشاب بحركة التحام نفسي وروحي بينه وبين الإمام الحسين، حتى يصل الوقت إلى حدوث حالة من التجسّد أو ما يطلق عليه علماء الغرب incarnation، وفي هذه الحالة يبدأ يشعر كأنّه صورة طبق الأصل، عن الإمام الحسين، وعليه أن يفعل ما فعله دفاعاً عن الإسلام المقهور على الحدود الفلسطينية، أي عليه الاستشهاد، وعندما تريد الدول الغاصبة تخويف الناس، تهدّدهم بالسجن أو القتل. ولكنّ الغرب الأميركي والأوروبي ورأس حربته المسمومة إسرائيل، وقف عاجزاً أمام هؤلاء الفدائيين، راكعاً ذليلاً أمامهم، يرسل الوفود تلي الوفود، للمصالحة والمهادنة. ولكن إن شاء الله لن تكون هدنة أو صلح إلا بخروجهم وعودتهم إلى البلاد التي أتوا منها.

وبعد انسحاب هؤلاء القتلة من ثغر عاملة، انتقلت شرارة الاستشهاد الحسيني إلى ثغر فلسطين، وبدأ القادة المسلمون يعبئوّن الشباب المسلم في فلسطين بالفكر الإسلامي الاستشهادي الأصيل، فلم يكن الحسين عليه السلام، هو الاستشهادي الوحيد في تاريخ الإسلام الأول، فالاستشهاد هو واجب إسلامي على كلّ المسلمين بكلّ فرقهم ومذاهبهم.

الإستشهاد الحسيني ينتقل إلى أرض فلسطين بتحريض من السيد حسن نصرالله:

وبعد اندحار العدو الصهيوني عن أرض جبل عامل، بدأ تلفزيون المنار التابع لحزب الله، يوجّه رسائل إمام الإستشهاديين السيد حسن نصر الله العاملي، يحضّ أبناء فلسطين على أن يحذو حذو أبناء جبل عامل في اعتماد العمليات الإستشهادية سبيلاً وحيداً لتحرير القدس، وكامل التراب الفلسطيني، وبعد أقل من ستة أشهر أي في أوائل سنة ٢٠٠٢، بدأ الشباب الفلسطيني المنتفض، المقاوم تنفيذ العمليات الإستشهادية الحسينية في كافة أنحاء فلسطين، من شمالها في الجليل الأعلى، وفي وسطها، القدس، وفي جنوبها، على الحدود المصرية، وجعل من أرض فلسطين مقبرة لليهود.

وهذه أمثلة على بعض العمليات الإستشهادية:

كتبت جريدة السفير: قتل سبعة أسرائيليين من بينهم أربعة جنود وأصيب نحو ثلاثين بجروح. جروح بعضهم خطرة، عندما قام استشهادي من حركة الجهاد الإسلامي بتفجير نفسه داخل حافلة في بلدة أم الفحم، في عملية هي الأكبر، منذ بدء المبعوث الأميركي أنطوني زيني مهمته في المنطقة منذ أسبوع.

ونقلت السفير عن أهل الشهيد واسمه رأفت سليم تحسين أبو دّياك، أنهم رفضوا تقبّل التعازي بوفاته، «وأعلنت والدته عن فتح بيتها لتقبّل التهاني بالشهيد». ومنعت الوالدة واسمها ناديا عبد الروؤف، بناتها والجيران الذين تدافعوا للتضامن معها من البكاء

والعويل. وقالت: إن ولدها رأفت شهيد يحظى بمكانة عالية عند الله، والشهيد يُستقبل بالزغاريد وليس بالدموع[1]

أما الشهيد الفلسطيني محمد فرحات، فقد كانت أمّه هي التي حدَّدت الهدف، وكانت تعطيه التعليمات عبر الهاتف الخليوي، وكتبت جريدة العهد تصف استشهاده فقالت: «ودّع محمد والدته التي علمت أنّ ابنها في طريقه للشهادة، فقبّلته وأوصته بذكر الله، وان ينتصر على الأعداء قبل أن ترتفع روحه الطاهرة إلى بارئها، فقد كانت تعلم أنّ من يدخل المستوطنات لا يعود منها إلا شهيداً، وبرغم ذلك، لم تذرف عليه الدموع، وقالت لنا: لو كنت أعرف كيف أزغرد فرحاً بخبر استشهاد ابني لفعلت. ونقلت عن لسانه: إنّه كان يرى الجنّة أمام عينيه، كان فرحاً لأنّه حدّد موعد استشهاده. ونقلت الجريدة عن لسانها، أنّه هاتفها قبل التنفيذ، «فأوصته مرة أخيرة بألاّ يتردّد». وقد أبرزت الصحافة اللبنانية والعاملية صوراً لها ولولدها الإستشهادي البطل، محمد فرحات[2].

الشعب الفلسطيني أول شعب مسلم يصدّر الفتيات الإستشهاديّات:

لم يعرف التاريخ العربي والإسلامي فتيات استشهاديات قدّمن أنفسهن دفاعاً عن العقيدة والأرض والوطن، كفتيات فلسطين. فقد أقدمت الدكتورة وفاء إدريس، البالغة من العمر أربعة وعشرين عاماً على تفجير نفسها في أحد أحياء القدس المحتلة، مُنزلة الخسائر

---

(١) جريدة العهد، لبنان، العدد ٣٠٤، تاريخ ١٩٩٠/٥/٤، ص (ب).

(٢) راجع: جريدة الإنتقاد،العهد، تاريخ ٢٠٠٢/٣/١٥، ص١٠.

الفادحة في صفوف المستوطنين اليهود مسبّبة الخوف والرعب في نفوس هؤلاء الأقوام الذين تجمّعوا من كافة أنحاء العالم في هذه البقعة المقدّسة، وقد أدّت هذه العملية والعديد من العمليات المشابهة إلى توقيف الهجرة إلى فلسطين، وخلق هجرة معاكسة تعيدهم من حيث أتوا. وآخر أخبار العائدين هرباً من جو الإنتفاضة، بلغ حتى الشهر الثالث من سنة ٢٠٠٢، مليون يهودي[١].

ترى هل يستطيع الغرب الأميركي والأوروبي بعد مئات السنين تشويه حركة الاستشهاديين المعاصرة، وهل سيخترع جنّة أو جنينة فيها أنّهار من اللبن والعسل والماء والخمر، يلصقها بالسيّد حسن نصر الله، وهل يرسل ماركو بولو جديد ليصف هذه الجنّة؟.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) راجع: جريدة الإنتقاد، العهد اللبنانية، عدد الجمعة في ٢٠٠٢/٢/١، ص١٢.

قبور أهل البيت في مصر

كانت مصر ولا تزال مركزاً مهماً من مراكز الإشعاع الروحي الذي تصنعه العلاقة الإيمانية والروحية بين جماهير المسلمين وعترة النبي أهل بيته، عليه وعليهم صلوات الله أجمعين.

ولكثرة ما أصاب أحفاد النبي ﷺ من قتل وظلم وقهر وتشريد، بسبب مواقفهم الصلبة تجاه طغاة بني أمية، وعتاة بني العباس انتشرت قبورهم وبضعة من أجسادهم في مشارق الأرض ومغاربها. وكان لمصر نصيب من هذه القبور والأجساد، وأصبحت وما زالت مزار المؤمنين ومؤئل المظلومين وقبلة المكلومين والتوّابين. فلمن هذه القبور وكيف وصلت إلى مصر وأين أصبحت الآن؟.

المشهد الحسيني في القاهرة:

أخبرنا المقريزي نقلاً عن ابن مُيَسَّر أنّه في شعبان سنة ٤٩١ للهجرة خرج الأفضل بن بدر الجمالي بعساكر جمّة إلى القدس وكانت تحت حكم سكمان وإيلغازي الأرتقيين، فدخلها وملكها بعد أن خلع عليهما وأكرمهما ثم دخل عسقلان «وكان بها مكان دارس فيه رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما» فأخرجه ورشّه بالعطر

وحمله في سفط (فضّة) إلى أجلّ دار بها. ثم عمد إلى تعمير المشهد في القاهرة، بانتظار تكامله لكي ينقل الرأس إليه، كما عمّر المشهد في عسقلان. وعندما تكامل بناؤه في عسقلان، «حمل الأفضل الرأس الشريف على صدره وسعى به ماشياً إلى أن حطّه في مقرّه».

رأس الحسين ينزف دماً بعد خمسمائة سنة:

وكان حمل الرأس من عسقلان إلى القاهرة، ووصوله إليها يوم الأحد ثامن جمادي الآخرة، سنة ٥٩٨ هـ. وكان الذي وصل به من عسقلان الأمير تميم سيف المملكة والي عسقلان وبإشراف القاضي المؤتمن بن مسكين ونزل الرأس أولاً في القصر مساء يوم الثلاثاء العاشر من الشهر نفسه.

وقال المقريزي: ويذكر أن هذا الرأس الشريف لما أخرج من مشهد عسقلان، وجد دمه لم يجف، وله ريح كريح المسك»، فقدم به الأستاذ مكنون في عشاري (سفينة) من عشاريات الخدمة، وأنزل به إلى البستان الكافوري، ثم حمل في السرداب إلى قصر الزمرّد ثم دفن عند باب قبّة الديلم. بباب دهليز الخدمة (مكانه اليوم)، فكان كلّ من يدخل الخدمة (باب موظفّي القصر) يقبّل الأرض أمام القبر.

ويقول المقريزي أن المصريين كانوا ينحرون في يوم عاشوراء عند القبر الإبل والبقر والغنم ويكثرون النوح والبكاء ويسبّون من قتل الحسين. ولم يزالوا على ذلك حتى زالت دولتهم[١].

---

(١) راجع: الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٢٢٧.

أما ابن عبد الظاهر، فقال إن الذي حاول نقل رأس الحسين من مشهد عسقلان إلى القاهرة، هو الملك الصالح طلائع بن رُزّيك «خوفاً عليه من الفرنج». وبنى جامع الحسين خارج باب زويلة ليدفنه فيه ويفوز بهذا الفخار، فغلبه أهل القصر على ذلك، وقالوا: لا يكون ذلك إلا عندنا فعمدوا إلى هذا المكان (المشهد الحسيني) وبنوه له، ونقلوا الرخام إليه، وذلك في خلافة الفائز وعلى يد طلائع بن رُزّيك سنة ٥٤٩هـ.

العقارب لا تلدغ حامل رأس الحسين:

ويروى المقريزي أنّه حين قضى صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية، جاء أحد المخبرين وأخبره أن المؤتمن بن مسكين يعرف مكان كنوز الخلفاء في القصر، فاعتقله صلاح الدين وعذّبه حتى يقرّ، فلم يعترف فوضعه في السجن وشد على رأسه قرمزية مليئة بالخنافس والعقارب «وقال إن هذه أشد العقوبات لأنّ الإنسان لا يطيق الصبر عليها ساعة إلا تنقب دماغه وتثقبه فتقتله» وجعلها على رأسه مراراً، وابن مسكين لا يصرخ ولا يتأوّه، فيفتح صلاح الدين القرمزية، فيجد العقارب والخنافس ميتة، فاحتار من أمره وسأله عن السبب فأجيب بأن ابن المؤتمن عندما نقل رأس الحسين من عسقلان إلى القاهرة، وجد الخنافس تحيط برأسه دون أن تمسّه فحملها مع الرأس دون أن يمسُّها، فتعجّب صلاح الدين من أمره وقال له: «وأي سرّ أعظم من هذا، وراجع في شأنه وعفا عنه»[1].

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٤٢٧.

وقد ذكر المقريزي خبر بناء مشهد عسقلان بشرح أوسع في سياق إيراده حوادث سنة ٤٩١ هـ.

كما يقال إنّه حين وصول الرأس إلى القصر قال القاضي ابن الزبير:

مالنا نطلب ما يفنى ولا ... نطلب الأمن الذي يبقى لنا

لهف قلبي على رؤوس نُقلت ... هل لسواها هنا بعد هنا

قبور الخلفاء الفاطميين في مصر:

كنا قد أشرنا إلى أن الخليفة المعزّ، عندما ترك المهدية ودخل القاهرة حمل معه تربة آبائه من الخلفاء الفاطميين المهدي والقائم والمنصور إسماعيل، وقلنا كيف حولها جهاركس الخليلي إلى الخان المعروف باسمه خان الخليلي بعد أن ألقى بعظامهم الشريفة إلى المزابل، وكيف لم يمهله الله عزّ وجلّ وقتله بفعلته.

وكان لها مراسيم وعوايد منها دخول الخليفة إليها كلّ يوم جمعة وفي عيدي الفطر والأضحى لقراءة الفاتحة أمام أضرحة أجداده. وكان يقبر بها كلّ الخلفاء والأمراء الأشراف. وكان لها أيضاً ميزانية سنوية تخصص للإشراف عليها وخدمتها.

هل عرفت سكينة بنت الحسين مصر؟

يقول المقريزي أن أوّل من تزوج سكينة بنت الحسين عليه السلام، ابن عمها عبدالله بن الحسن بن علي عليه السلام ثم خلفه عليها العثماني، ثم مصعب بن الزبير ثم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم.

وكان الأصبغ بن عبد العزيز والياً على مصر من قبل عمه عبد الملك بن مروان. ويقول المقريزي إنّه عندما قرّر عبد العزيز الانتقال بسكينة إلى مصر، كاتبته تقول إنّ أرض مصر وضمة، فبنى لها مدينة تسمى مدينة (الأصبغ) وطلب منها الانتقال إلى مصر، ولما بلغ عمّه عبد الملك خبر زواجه منها، كتب إليه يهدّده ويقول له: اختر مصر أو سكينة. فأقدم الأصبغ على طلاقها ولم يدخل بها ومتّعها بعشرين ألف دينار.

أما المقريزي فيعتبر أن هذا الخبر من الأوهام ولا مكان لصدقه لأنّ الأصبغ بن عبد العزيز لم يطلّقها ومات قبل أن يدخل عليها[1].

مشهد الإمام زين العابدين عليه السلام (مشهد رأس زيد بن علي):

يقول المقريزي: إن هذا المشهد كان فيما بين الجامع الطولوني ومصر القديمة (الفسطاط)، وتسمّيه العامة مشهد زين العابدين خطأ، وإنّما هو مشهد رأس زيد بن علي (زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام).

ونقل المقريزي عن القضاعي أنّه لما قتل هشام بن عبد الملك زيداً بن علي عليه السلام، فصل رأسه عن جسده، وأرسل برأسه إلى مصر ليشهّر به على منبر مسجد محرس الخصيّ، فسرقه أهل مصر عن المنبر ودفنوه في هذا الموضع، وأنّ الذي أتى بالرأس من قبل هشام بن عبد الملك أبو الحكم بن أبي الأبيض القيسي سنة ١٢٢هـ.

---

(١) راجع: الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص ١٣١.

العنكبوت تنسج على عورة الإمام زيد فتسترها:

ونقلاً عن الشريف بن أسعد الجوّاني، قال إنّه لما صلب هشام زيداً، كشف عورته، فنسج العنكبوت عليها فسترها. ثم بعد ذلك أحرق وذرّى رماد الجسد في الريح ولم يبق منه إلا رأسه التي بمصر وهو مشهد صحيح، لأنّه طيف بالرأس بمصر، ثم نُصِّب على المنبر بالجامع سنة ١٢٢هـ، فسرقت ودفنت في هذا الموضع. وقد درس المسجد واندثر، وعندما علم الأفضل بن بدر الجمالي حكاية رأس زيد، أمر بكشف مكان مسجد محرس الخصيّ المندثر، وكان وسط الأكوام، ولم يبق من معالمه إلا المحراب، فوجد هذا العضو الشريف (الرأس). ونقلاً عن ابن منجب الصيرفي أنّه كان من جملة من حضر الكشف على الرأس، قال: لما خرج هذا العضو رأيته وهو هامة وافرة. وفي الجهة أثر في سعة الدرهم (مكان السهم الذي قتل به) مُضمّخ وعُطِّر وحُمل إلى دار الأفضل، حتى عُمِّر هذا المشهد وأعيد إلى المشهد الحالي يوم الأحد تاسع عشر ربيع الأول من سنة ٥٢٥ هـ[1].

ويقول المقريزي: إنّ هذا المشهد ما زال يتبرّك به الناس حتى اليوم، ويقصدونه أيضاً في عاشوراء بعد زيارة مشهد الإمام الحسين، وتسميه العامة مشهد الإمام زين العابدين وهذا وهم، وإما زين العابدين فأبوه. وليس له قبر بمصر بل قبره في البقيع. ولما قُتل الإمام زيد، سوّدت الشيعة أي لبست السواد. وكان أول من سوّد

---

(١) راجع: الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص ٤٣٦.

منهم الفضل بن عبد الرحمن بن العباس. وقد رثاه بقصيدة طويلة.

ويقال إنّ مسجد تبر القريب من المطرية، بُني على مشهد رأس إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي عليه السلام.

مشهد الست نفيسة:

يعتبر مقام السيدة نفيسة من أعظم مقامات أهل البيت في مصر، يقصدها المصريون للتبرّك بها من كلّ أنحاء القطر المصري. فمن هي السيدة نفيسة؟.

يقول الشريف النسّابة محمد بن أسعد الجواني في كتابه «الروضة الأنيسة بفضل مشهد السيدة نفيسة»: هي نفيسة ابنة الحسن ابن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام. أمّها أم ولد وإخوتها القاسم ومحمد وعلي وإبراهيم وزيد وعبيد الله ويحيى وإسماعيل وإسحاق وأم كلثوم. وأمّهم أم سلمة، زينب ابنة الحسن بن الحسن بن علي عليهم السلام.

زواج السيدة نفيسة:

تزوجت السيدة نفيسة بإسحاق بن جعفر الصادق عليه السلام وكان يقال له إسحاق المؤتمن، وكان من أهل الصلاح والخير والفضل والدين. رُوي عنه الحديث، وكان ابن كاسب يقول إذا حدّث عنه يقول: حدّثني الثقة الرضي إسحاق بن جعفر. ومن عقبه بنو زهرة الحلبيّون. وأولدت نفيسه من إسحاق ولديها: القاسم وأم كلثوم. وكلاهما لم يعقبا. أما والد السيدة نفيسة وهو الحسن بن زيد، فهو

الذي كان والي المدينة النبوية من قبل أبي جعفر المنصور وكان فاضلاً أديباً عالماً، توفي أبوه (زيد بن الحسن بن علي) وترك عليه ديناً أربعة آلاف دينار، فحلف ولده الحسن بن زيد أنّه لن يظلّ رأسه سقف إلا سقف جدّه رسول الله ﷺ حتى يقضى دين أبيه» فوفّاه وقفاه.

أخلاق السيدة نفيسة:

وكانت السيدة نفيسة من الصلاح والزهد على الحدّ الذي لا مزيد عليه، فيقال إنّها حجّت ثلاثين حجّة. وكانت كثيرة البكاء قيام الليل وصيام النهار، فقيل لها ألا ترفقين بنفسك؟، فقالت كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبة لا يقطعها إلا الفائزون. وكانت تحفظ القرآن وتفسيره. وكانت لا تأكل إلا في كلّ ثلاث ليال أكلة واحدة، ولا تأكل من غير زوجها شيئاً وكان قد زارها الإمام الشافعي، وكلّمها من وراء الحجاب وطلب منها أن تدعو له، وماتت بعد موته بأربع سنين في شهر رمضان سنة ٢٠٨هـ. ودفنت بمنزلها وهو الموضع الذي فيه قبرها الآن ويعرف بدرب السباع. وأراد إسحاق بن الإمام الصادق، زوجها أن يحملها ليدفنها في المدينة فسأله المصريون أن يتركها ويدفنها عندهم لأجل البركة فأجابهم وتركها في مصر.

ويخبرنا جمال الدين الشيال، أنّ السيدة نفيسة تركت المدينة ورحلت مع زوجها إلى مصر، بعد أن قبض أبو جعفر المنصور على والدها الحسن بن زيد وسجنه في سجن المدينة.

ويقول أيضاً إنها صلّت على الإمام الشافعي عند وفاته.

أما ابن خِلِّكان فيقول إنّها دخلت مصر مع والدها الحسن بن زيد بعد خروجه من سجن المنصور، وإنّ قبره في مصر غير مشهور ويقول إنّ للمصريين فيها اعتقاداً عظيماً، وأنّ قبرها معروف بإجابة الدعاء عنده وهو مجرّب[1].

الحافظ الذهبي يقول: لا يعتقد بالسيدة نفيسة إلا الجهّال:

ونقل ابن العماد الحنبلي خبر وفاة السيدة نفيسة وقال عنها كلّ ما قاله غيره من المؤرّخين إلا أنّه نقل عن الحافظ الذهبي قوله: «لم يبلغنا شيء من مناقبها، وللجهّال فيها اعتقاد ولا يجوز. وقد بلغ بهم الاعتقاد بهم إلى الشرك بالله، فإنّهم يسجدون للقبر ويطلبون منه المغفرة»[2].

دفن شجرة الدر بجانب مشهد السيدة نفيسة:

لقد احتج الحافظ الذهبي على كرامات السيدة نفيسة ووجد أن لا يعتقد بزهدها وتقاها وصلاحها إلا الجهّال ولربما تلبية لرؤية ورغبة بإرضائه، دُفنت شجرة الدر بتربة السيدة نفيسة. وشجرة الدرّ هي زوجة آخر سلطان أيوبي وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب، كانت قد تزوّجت أحد قواد جيشه عزّ الدين أيبك وجعلته سلطاناً على مصر، ثم قتلته بعد أن تزوّج عليها ابنة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فقامت ضرائر المعزّ أيبك بقتلها داخل بيتها ضرباً

---

(١) راجع: وفيات الأعيان، ابن خلّكان الجزء الخامس، ص ٤٢٤.

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، الجزء الثاني، م.س. ص ٢١.

بالقباقيب، فكانت آخر سلطانة أيوبية وأول سلطانة مملوكية. وأين وجه الشبه بين السيدة نفيسة التي كانت تقضي يومها ليلاً نهاراً صلاة وقراءة القرآن، وبين من قتلها ضرائرها بالقباقيب حتى تدفنا في تربة واحدة[1]!.

الخليفة العباسي المعتضد بالله يعيش على فُطَر مشهد السيدة نفيسة وبيع الشمع للزوار:

نحن نعلم أنّه بعد أن قضى هولاكو على الخلافة العباسية في بغداد، أقدم المماليك على استيراد بعض أبناء العباسيين وتنصيبهم خلفاء في مصر، ولكن لا يملكون من الخلافة إلا الاسم وتوقيع تعيين السلاطين.

وأجمل ما في أخبار هؤلاء الخلفاء خبر الخليفة المعتضد بالله أبو بكر. يخبرنا المقريزي أنّه لما مات السلطان محمد بن قلاوون وأقيم بعده ابنه المنصور، أقام أبا بكر بن أبي الربيع العباسي خليفة وسمّاه المعتضد بالله، ولكنه لم يصرف له الرواتب ولا الجرايات، فاضطر الخليفة العباسي المعتضد بالله أن يعيش داخل مشهد السيدة نفيسة «ليستعين بما يرد إلى ضريحها من نذور العامة على قيام أوده»، لأنّ راتب الخلفاء كان يعتمد على الضرائب التي يقدمها الصاغة، وحسبه أن يقوم بما لا بدّ له منه في قوته، وقد حسنت حال الخليفة المعتضد بهذه النذور التي سمح له السلطان بأخذها، إضافة لما كان يربحه من بيع الشمع المحمول إلى المشهد النفيسي ونحوه.

---

(١) راجع: منتخب الزمان، م.س. ص ٣٤٦.

وقد استمرت هذه المؤسسة المملوكية الهزيلة، مؤسسة الخلافة العباسية من سنة ٦٥٦هـ حتى سنة ٩٠٦هـ[١].

ويقال إن الذي بنى قبر الست نفيسة وحسنّ مشهده هو الخليفة المستنصر سنة ٤٨٢هـ.

وقد وجد على اللوح الرخام الذي على باب ضريحها النقش التالي: بسم الله الرحمن الرحيم، نصر من الله وفتح قريب، لعبد الله ووليه معدّ أبي تميم المستنصر بالله، أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المكرّمين، أمر بعمارة هذا الباب، السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته وأعلى كلمته وشد عضده بولده الأجلّ الأفضل سيف الإمام، جلال الإسلام، شرف الأنام، ناصر الدين، خليل أمير المؤمنين زاد الله في علائه، وأمتع أمير المؤمنين بطول بقائه في شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٢هـ. أما القبة التي على الضريح فجدّدها الخليفة الحافظ لدين الله في سنة ٥٣٢هـ. وأمر بعمل الرخام الذي في المحراب.

ميزانية مشاهد أهل البيت:

يخبرنا ابن المأمون أنّ الخلفاء الفاطميين كانوا يعيّنون خدماً ومتولّين ومشرفين وسدنة «للمشاهد الشريفة التي بين الجبلِ

---

(١) راجع: الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص ٢٤٣.

والقرافة التي فيها أعضاء آل رسول الله صلى الله عليه وسلم» وكانوا في كلّ عيد أو احتفال أو مناسبة، يرسلون لهؤلاء الخدم وللفقراء المجاورين لهذه المشاهد: «سكر ولوز وعسل وسيرج لكل مشهد، وما يتولّى تفرقته سناء الملك بن مُيَسر أربعمائة رطل حلاوة وألف رطل خبز»[1].

فإذا كان مخصّص هذه المشاهد برسم الفقراء والمجاورين طناً واحداً من الحلاوة وطنّين ونصف من الخبز، عدا الجوز واللوز والسكر والعسل في كلّ عيد وفي كلّ مناسبة، وأعيادهم ومناسباتهم بلغت أكثر من مائتي يوم في السنّة، فتصوّر الميزانية السنوية التي كانت تصرف على هذه المشاهد.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) راجع: أخبار مصر، ابن المأمون، م.س، ص ٦٢.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب الثالث

المؤسسات القانونية والعسكرية والدبلوماسية في الدولة الفاطمية

- القضاء.
- دائرة الشرطة وصلاحيات قائد الشرطة.
- دائرة الحسبة وصلاحيات المحتسب.
- دائر السجون.
- ديوان المظالم.
- نقابة الأشراف الطالبيّين وصلاحيات النقيب.
- بيت الدعوة وصلاحيات داعي الدعاة.
- ألوية الجيوش الفاطمية.
- جهاز المخابرات وأهميّته في حفظ الخلافة والإمامة.
- مديرية العلاقات الخارجية في قصر الخلافة.
- موقف الدولة من البيزنطيين والصليبيين.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

القضاء والمؤسسات القانونية
في ظل الدولة الفاطمية

لم تكن مؤسسات الدولة الفاطمية مؤسسات أوليغارشية، بل كانت مؤسسات تحدّدها انظمة وقوانين مستمّدة من أحكام القرآن والسنة النبوية، وأحكام الأئمّة من أهل البيت، تحت إشراف إمام العصر المعصوم، أو خليفة العصر، فيعود إليه المتخاصمون حين يغلق عليهم حكم أو قضية. وكانت مؤسسة القضاء هي المؤسسة التي تشرف على تطبيق قوانين الشرع الإسلامي الشيعي الإمامي في كلّ دوائر ودواوين الدولة، وفي المجتمع الإسلامي المصري وخارج مصر.

وزير العدل أو قاضي القضاة في الدولة الفاطمية:

كان قاضي القضاة في الدولة الفاطمية بمثابة وزير العدل في زمننا، وكان من شروط تعيينه: العلم والأدب وفهم القرآن والسنة والأمانة، وكان مركزه في القاهرة، ومنها يوزّع المهام ويعيّن قضاة

الأطراف والنواحي في كافة أنحاء الخلافة الإسلامية الفاطمية وكان قضاة الأطراف مستقلّين في أحكامهم عن قاضي القضاة، ولا يستطيع قاضي القضاة ردّ أي حكم من أحكامهم. وكان تعيينهم وعزلهم يتم باقتراح منه وبموافقة الخليفة.

قال المقريزي: إن رتبته من أجلّ الرتب، ويكون في بعض الأوقات داعياً فيقال له حينئذٍ قاضي القضاة وداعي الدعاة. وله من الموّظفين والحجّاب خمسة، عدا الشهود المعدّلين. ولا يتقدّم عليه أحد في مجلس الحكم لأي سبب كان. وله نوّاب يساعدونه في دراسة القضايا ومناقشة الأحكام قبل عرضها عليه لإعطاء الحكم. وكان من مسؤولياته ضبط ما يضرب من الدنانير في دار الضرب، (المصرف المركزي). فكان يحضر بنفسه ويراقب عملية الضرب ويختم على الصناديق المضروبة، ولا تفتح إلا بوجوده[1]. وكان القاضي لا يصرف إلا بجنحة. والخليفة هو الوحيد المخوّل بصرفه عن القضاء.

وفي مداخلة للوزير الجرجرائي مع الخليفة المستنصر يقنعه فيها بتعيين أبي محمد علي اليازوري قاضياً للقضاة، نعرف أهمية القضاء والقاضي في الدولة الفاطمية، فقد جاء في هذه المداخلة بقوله للخليفة: أنت يا أمير المؤمنين لسان الشرع، ومقيم مناره، ومنفّذ أحكامه. وقاضي القضاة إنّما ينطق بلسانك، وينفّذ الأحكام عنك، فإذا اشتُهر في الأقطار ما يتمّ على الناس في أحكامهم، كان سوء السمعة في ذلك على الدولة، وإثارة التشنيع القبيح عليها، وفي

(١) راجع: الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٤٠٣.

خصومنا من هو من المشرق والمغرب والروم، وفي استفاضة ذلك غضاضة على الدولة، ونحن إنما نتباهى على الممالك والدول بإقامة سنن الشريعة، وإظهار العدل الذي عفت آثاره في غيره من الدول[1].

شروط تعيين القاضي:

كان هناك شروط لتعيين القاضيو وقد حصرها المؤرّخون في ثمانية شروط هي:

١ ـ أن يكون رجلاً، عملاً بقوله تعالى: **﴿الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض﴾**.

٢ ـ أن يكون بالغاً سن الرشد.

٣ ـ أن يكون عاقلاً.

٤ ـ أن يكون حرّاً غير عبد، لأنّ العبد الرقيق لا تقبل شهادته، لذلك لا يقبل حكمه.

٥ ـ أن يكون مسلماً، لقوله عزّ وجلّ: **﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾**، فلا يجوز أن يقلّد غير المسلم القضاء على المسلمين، بل يجوز تقليده القضاء على أهل دينه.

٦ ـ العدالة: معناها أن يكون المطلوب تعيينه قاضياً، صادق اللهجة، ظاهر الأمانة، عفيفاً عن المحرّمات، بعيداً عن المآثم، بعيداً عن الربى، مأموناً في حالتي الرضا والغضب، مستعملاً لمروءة مثله في دينه ودنياه، فإذا تكاملت هذه الأوصاف فيه، اعتبر عادلاً.

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٢٠٥.

٧ ـ سلامة السمع والبصر. ليصحّ بها إثبات الحقوق وإظهار الحقّ من الباطل. أما العاهات الجسدية كالعرج والعور والصمّ والجدع والقطع، فلا يعوّل عليها لأنّها لا تعيق القاضي عن إصدار حكمه العادل.

٨ ـ علمه بأحكام الشريعة الإسلامية، من فروع وأصول وكتاب الله، عز وجلّ، ناسخاً ومنسوخاً ومحكماً ومتشابهاً، مع علمه الكامل بالسنّة النبوية الشريفة[١].

لم يكن القضاء في الدولة الفاطمية وراثة، بل كان القاضي يُعيّن حسب علمه وكفاءته، فقد روى أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري، أن أبا الطاهر الذهلي، والي كافور الأخشيدي، أبقاه الخليفة المعزّ في القضاء، حين دخوله مصر، وذكر الكندي أنّه أصيب برطوبة «عطّلت شِقّه» فعجز عن الحركة إلا محمولاً، فركب المعزّ يوماً في مستهل صفر سنة ٣٦١، لزيارته، فتلقّاه أبو الطاهر وهو محمول عند باب الصناعة (مرفأ المقس)، فسأل الخليفة، إن يأذن له باستخلاف ولده أبي العلاء بن الطاهر نيابة عنه، بسبب ما به من الضعف، فقال الخليفة المعزّ: ما بقي إلا أن يقدّدوه، ثم صرفه عن القضاء في اليوم الثالث وقلدها لعليّ بن النعمان. ويقصّد الخليفة المعزّ بجعل أبي الطاهر لحماً قديداً للمحافظة عليه، فلا مجال لحفظ اللحم إلا بجعله قديداً. وهذا القول هو من باب السخرية والهزء من أبي الطاهر الذهلي[٢].

---

(١) راجع: نهاية الأرب للنويري، ج ٦، ص ٢٤٩.

(٢) راجع: الولاة وكتاب القضاة، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي، ط ١، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، سنة ١٩٠٨، ص ٥٨٧.

رواتب القضاة:

كان راتب قاضي القضاة في الدولة الفاطمية مناسباً لوضعه الاجتماعي في سلم الحياة اليومية المصرية، فقد ذكر المقريزي أن راتبه كان لا يقل عن مائة دينار في الشهر، علماً أن الحد الأدنى للأجور كان حينها ثلاثة دنانير. وإذا تقلّد منصب داعي الدعاة إضافة إلى منصب القضاء ضوعف راتبه، وأصبح مائتي دينار في الشهر، إضافة إلى مخصّصات ديوانه ومكتبه، مما يأتيه في الأعياد والمناسبات من كسوة الشتاء والصيف وكسوة العيدين، وما يأتيه من دار الفطرة ومطابخ القصر، ومما يخلع عليه في المناسبات من ركوبات وخيل وسلاح. وقد أشار ابن المأمون أكثر من مرة إلى ميزة الاحترام الكبيرة التي يتميّز بها القاضي والداعي في الدولة الفاطمية.

أهمية هيئة المحلّفين في إصدار الأحكام:

لم يكن القاضي يصدر الأحكام وحده، بعد استماع الشهود ومراجعة حججهم وبراهينهم، بل كان لكل قاض، لجنة محلّفين، يطلقون عليها اسم الشهود المعدّلين أو العدلين أو الشهود العدول.

كانت شهادة الشاهد العدل، والتي ما زال اسمها متداولاً بين ظهرانينا في جبل عامل، تعدّ من أهم الأسس التي يرجع إليها القاضي في أحكامه، ويظن الناس أن شهادة الشاهد العدل، هي شهادة مشاهد عيان، ولكنها هي بالأحرى رأي إنسان عادل محلّف صدر بعد دراسة القضية وسماع الشهود ورؤية حججهم.

وكان الشاهد العدل يُعيّن بقرار من الخليفة وهي وظيفة دينية،

كان الشاهد يرفع اقتراحاته ورأيه للقاضي، وكان لكل قاضي ما لا يقل عن عشرين شاهداً عدلاً يساعدونه في إصدار الأحكام، وقد بلغوا أيام القاضي ابن ميسر، والخليفة الآمر مائة وعشرين شاهداً عدلاً. وكانوا قبل تسلّمه القضاء ثلاثين شاهداً.

وقد أعلمنا المقدسي أبو شامة أن الشهود المعدّلين، كانوا يعيّنون من قبل الخليفة، ولكن بتزكية من أهل البلد الذين ينتمون إليها، حيث يقول، إنّ الخليفة الحافظ أصدر أمراً للقاضي علي البيساني، والد القاضي الفاضل «أن لا يسمع قول شاهد، ولا من تقدّم لخطابة ولا لصلاة بالناس، ولا لتلاوة قرآن بموضع شريف، إلاّ من زكّاه أعيان شهود الثغر المحروس (عسقلان)[1].

صورة عن بعض الأحكام:

يجد المطلّع على التاريخ الفاطمي المصري، أنّ القضاء إبّان حكم الفاطميين، كان يتّسم بالاستقلالية التامة عن ضغوطات أصحاب السلطان، وأنّ الأحكام الصادرة عن القضاة كانت مبرمة لا يردّها أي سلطان أو سلطة. وكان المتظلّم الذي لا يؤمن بعدالة القاضي يلجأ إلى سقيفة الإمام علي ـ عليه السلام ـ وكان من شروط دخول هذه السقيفة أن يعترف المتظلّم بولاية علي من خلال قوله أمام بابها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي وليّ الله، فتفتح له أبواب القصر وتسمع قصته ويحكم بها فوراً بعد الإطلاع على جوانبها.

---

(١) راجع: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، الجزء الأول، ص ١٢٩.

أما أحكام القضاة، فلم يرو لنا المؤرّخون أي رفض أو اعتراض لأي حكم. ومن هذه الأحكام مثلاً، أن يصدر أمراً بالنفي عن الخليفة نفسه، فقد أصدر الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٥١٦ هـ، حكماً بنفي بني عبد القوى من المغرب العربي بأكمله «فنفوا إلى الأندلس بأهاليهم». ولم يذكر المقريزي سبب هذا الحكم ولكن يبدو أنّه كان لبني عبد القوى اتصالات بحكّام الأندلس المعادين للدولة الفاطمية.

وعندما تسلّم ابن مُيَسَّرّ القضاء، كان يصدر الأحكام ويتابع تنفيذها بنفسه، وكان يقترح بنفسه أسماء الشهود المعدّلين للحضرة المطهرّة فيوافق عليهم الخليفة، وكان يداهم السجون فجأة ويستوضح أحوال المعتقلين، ويسأل الخليفة الآمر بأطلاق سراح بعضهم. «وكان فيهم عدّة قد يئسوا من الفرج» واستأذن الخليفة وأفرج عنهم، ومنع مصادرة محلات التجّار لأي سبب وعند إقدام أي تاجر على احتكار سلعة، يجب مراجعته بالأمر قبل مصادرته[1].

وهناك بعض الأمور الخطيرة التي تهدّد أمن الدولة والمجتمع لا تعرض على القاضي، بل يحكم بها الخليفة بنفسه مباشرة.

فمثلاً عندما اعتقل، علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة بسبب تواطئه مع المأمون البطائحي، حكم عليه الآمر «بأن يحمل على جمل وعلى رأسه طرطور، وخلفه قرد يصفعه ويصبّ على رأسه اللبن».

ولما استفحل أمر الراهب ابن أبي نجاح في مصادرة أموال التجار والأعيان، وصل خبره إلى الآمر، أنّه يقتني في ديوانه مصحفاً

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ١٢٢.

وتوراة. كان يحلّف صاحبي الديوان عليهما كلّ حسب دينه، فاستدعاه الخليفة وحقّق معه بنفسه وأقام عليه الشهود، وحكم عليه «بالموت ضرباً بالنعال». وبعد أن علم مدى أذية هذا الراهب للناس من مسلمين ومسيحيين، شعر بفداحة الذنب الذي اقترفه بحق رعيته، فصام ثلاثة أشهر تكفيراً عن ذنبه.

طريقة إصدار الأحكام:

يخبرنا أبو علي منصور العزيزي، راوي سيرة الأستاذ جؤذر عن الطريقة التي يتبعها الخلفاء الفاطميون وقضاتهم في إصدار الأحكام، فيروي لنا قضية حكم فيها الخليفة المعزّ لدين الله، مفادها أنّه جرى بين رجال من قبيلة كتامة مشاجرات وشرور وخصومات، بسبب اقتسام بعض السواقي التي أقطعهم إياها الخليفة المعزّ، وترافعوا في الشكوى إلى الخليفة، فلما وقف على القضية، أمر أحد الثقاة من الخدم الصقالبة أن يذهب ويتأكّد من صحة ادعاء مقدّم الشكوى، والعودة إليه بتقرير ميداني وافٍ يؤكد صحة ادعاء المتظلّم أو كذبه، فخرج الصقلبي وراقب وضع السواقي على الأرض، وعلم من المستفيد منها ومن المتضرّر، وعاد «إلى الباب الطاهر»، ورفع تقريره للإمام، فاستدعى الخليفة المتخاصمين، وحكم بينهم، بعد أن تأكّد من الواقعة ميدانياً، «فانصرفوا من بين يديه أجمل انصراف وهم شاكرون حامدون»[1].

---

(١) سيرة الأستاذ جؤذر، م.س. ص ٣٧.

وقد كان القاضي النعمان أهم قضاة الخليفة المُعزّ، بل أهم قضاة الدولة الفاطمية، باعتباره كان داعياً للدعاة وتولى إلى جانب الدعوة القضاء في دولة الخليفة المعزّ، وله كتاب دعائم الإسلام، وهو الكتاب الذي ارتكز إليه الفاطميون في بث فكرهم وعقيدتهم الإسلامية الشيعية.

أما ولده الخليفة العزيز فكان أهمّ قضاته: أبو الحسن علي بن النعمان، وأبو عبدالله محمد بن النعمان. ومن طرق إصدار الأحكام، أنّ إحدى النساء، تقدّمت إليه طالبة حقّها من زوّجها الذي أهملها، فطالبه بدفع مالها فرفض فحبسه، ثم نظر محمد بن النعمان إليها فوجدها جميلة جداً، والسرور باد على وجهها لحبس زوجها، فخاف من أن تخلو بنفسها وتستغلّ غياب زوجها، فأمر بحبسها معه، وداخل السجن تعاتبا وتلاطفا، فاصطلحا، فأمر القاضي ابن النعمان بإطلاق سراحهما.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وكان محمد بن النعمان، قد عقد نكاح بنتاً يتيمة غنية على ابن الدقاق، بشهادة إحدى القابلات بأنّها بالغة، فوصل الخبر إلى الخليفة العزيز، بأن البنت اليتيمة لم تبلغ الحلم، وأن زواجها باطل. فاستدعى الخليفة العزيز القاضي محمد بن النعمان والزوج ابن الدقاق والشهود والقابلة، فتبيّن له أن البنت لم تبلغ، بعد عرضها على قابلات القصر، فحكم الخليفة العزيز بفسخ العقد وبردّ كلّ أموالها إليها ثم ابتاع لها منه ربعاً يؤجّره لكي لا ينقص المال. والربع هو بناية مؤلّفة من عدة بيوت وشقق للإيجار.

ومن الأحكام التي أصدرها القاضي محمد بن النعمان أيضاً

أن رجلاً من عقب عقيل بن أبي طالب أنكر ابنة له، واتهّم زوجته بالزنا، فطالبه القاضي ابن النعمان بإثبات الواقعة فلم يستطع الطالبي، فتلّطف به وأكثر، فلم يقتنع الطالبي، فرفع أمره إلى الخليفة العزيز، فأمره العزيز بإجراء الملاعنة بينهما، فاجتمع الشهود (لجنة المحلّفين) ووعظهما محمد بن النعمان وطالبهما بالرجوع عن الملاعنة فأبى الطالبي، فأجرى اللعان، ثم فرّق بينهما.

الدولة الفاطمية هي الدولة الوحيدة التي تسري فيها الأحكام حسب المذاهب الإسلامية الخمسة:

لم يعرف الشرق العربي والإسلامي، طيلة القرون الإسلامية الثلاث عشر، أي منذ الهجرة النبوية وحتى نهاية الخلافة الإسلامية التركية دولة أو مجتمعاً، سمح لكل المذاهب الإسلامية بإصدار الأحكام، كلّ مذهب حسب تفسيره للأمور، إلا في عهد الدولة الفاطمية، الذي استمر حوالي ثلاثة قرون.

يقول المقريزي: وفي سنة ٥٢٥ هـ، رتب أبو علي بن الأفضل في الحكم أربعة قضاة، فصار كلّ قاضٍ يحكم بمذهبه ويورث بمذهبه، فكان قاضي الشافعية سلطان بن إبراهيم بن رشا، وقاضي المالكية، أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللبني المغربي، وقاضي الشيعة الإسماعيلية، أبو الفضائل هبة الله الأنصاري المعروف بابن الأزرق، وقاضي الشيعة الإمامية القاضي المفضّل أبو القاسم بن محمد بن أبي كامل. وأنّهى المقريزي قوله: «ولم يسمع بمثله هنا في الملّة

الإسلامية قبل ذلك»[1] ونحن نؤكّد أنّه لم يسمع بمثله أيضاً بعد ذلك، وأما عدم وجود قاضٍ حنفي وقاضٍ حنبلي فذلك بسبب عدم وجود اتباع لهذين المذهبين في الدولة الفاطمية.

صلاح الدين الأيوبي يعزل القضاة الشيعة:

وفي حديثه عن أخبار سنة ٥٦٧ هـ، يقول المقريزي: إنّ صلاح الدين الأيوبي عزل قضاة الشيعة من مصر، وولى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الهدباني الشافعي، وجعل إليه الحكم في جميع بلاد مصر. وعزل كلّ القضاة الشيعة، واستناب عنهم قضاة شوافع. «ومن حينئذٍ اشتهر مذهب الشافعي ومذهب مالك بديار مصر، وتظاهر الناس بهما، واختفى مذهب الشيعة من الإمامية والإسماعيلية، وبطل من حينها مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره من الجوامع»[2].

قاضي القضاة برأي المقريزي:

يقول المقريرزي: إنّ قاضي القضاة كان ينظر بالأحكام الشرعية. والقاضي أجلّ أرباب العمائم رتبة، وتارة يكون داعي الدعاة، وتارة تفرد الدعوة عنه ويبقى له القضاء. وله خمسة من الحجّاب، اثنان منهما بين يديه، واثنان على باب ديوانه، وواحد يدخل المتخاصمين إليه. وله أربعة من المساعدين القضائيين. ودواته بين يديه، تحمل

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، م.س. ص ١٤٢.

(٢) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، م.س. ص ٣٢٠.

إليه من خزائن قصر الخلافة ولها مخصّصات، وله أيضاً بغلة شهباء تخرج يومياً لخدمته مع سائقها من قصر الخليفة. ويسير بدون طبل أو بوق، فإذا أضيفت إليه الدعوة، فيسير حينئذٍ بطبل وبوق. ومن وظائفه تعديل الشهود وتذكيتهم ورفع أسمائهم إلى الخليفة لكي تصدر المراسيم بقبول عدالتهم في المرافعات.

وقد جرت العادة أنّ الشاهد العادل الذي يصبح عضواً في لجنة المحلّفين، لا يصبح عضواً فيها، إلا بعد أخذ توقيع عشرين وجيهاً من وجهاء بلده، وقبول اقتراحهم من قبل قاضي القضاة، وإصدار مرسوم تعيينه من قصر الخلافة.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

دائرة الحسبة في الدولة الفاطمية
من مديرية الشرطة حتى دائرة حماية المستهلك

كانت وظيفة الحسبة في بدايات الدولة الإسلامية، وظيفة دينية اجتماعية، يهدف المحتسب من خلالها الإشراف على أرباب المعايش والحرف، ليطمئن على سلامة قيامهم بوظائفهم دون غشّ أو مخادعة بهدف الربح السريع، وكان يمنع الحمّالين من ظلم الحيوانات ويحثّهم على الرفق بها. وكان يراقب الطرقات وسير الأحمال فيها، والطروش، فيمنع أي مخالفة منها. وكان له صلاحيات مراقبة المدارس، فيمنع المدرّسين من ضرب الصبيان. ويداهم المتاجر والدكاكين، فيضبط أعيرتها ومكاييلها وموازينها. وإذا وصل إلى سمعه بوجود مخنّثين أو خارجين عن الآداب العامة، أو مخمورين أو أمكنة لبيع الخمور، فكان يداهمها ويتخذ الإجراءات اللازمة بحقّ مرتكبيها. وكان له معاونون مدنيّون وعسكريون، أي موظفون مفروزون من دار القضاء، وموظفون مفروزون من قائد الشرطة.

وقال ابن الطوير القيسراني أنّ من تسند إليه الحسبة، لا يكون

إلا من وجوه المسلمين وأعيان المعدّلين لأنّها خدمة دينية، وباسطاعته استخدام نوابٍ عنه «بالقاهرة ومصر وجميع أعمال الدولة» مثلهم مثل ولاة الأقاليم ودعاتهم وقضاتهم. وكان ديوانه في جامعي القاهرة ومصر. وكان نوابه يطوفون على أرباب الحرف والمعايش وغيرها، فيأمرون بمراقبة قدور بائعي الهريسة وختمها، والتأكّد من سلامة اللحوم التي يطبخونها بالتحقيق مع الجزّارين، كما كانوا يتتّبعون الطرقات ويمنعون المضايقات منها. ويداهمون المراكب في النيل، فإذا كانت إحدى المراكب تحمل أكثر من قدرتها أو أكثر من المسموح لها بحمله، كانوا يصادرونها ويوقفونها عن الإبحار. ويراقبون حمولات البهائم وحمولات العربات المجرورة. ويمنعون السقّائين من كشف روايا الماء، ويجبرونهم على لبس سراويل معينة زرقاء اللون ضابطة لعوراتهم، كما كانوا ينذرون معلّمي المكاتب (المدارس)، بأن لا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً، ولا على مقتل. وكانوا يحذّرون معلمي العوم والسباحة من التغرير بأولاد الناس، ويراقبون من يكون منهم سيّىء المعاملة، فينهونه بالردع والأدب، كلّ ذلك إلى ضبط المكاييل والموازين، ومراقبة الصيارفة، وكان لهم أساليبهم وطرقهم لكشف النقود المزيّفة من النقود السليمة[1].

أما النويري فيقول: إنّ الحسبة هي الأمر بالمعروف إذا أكثر تركه، والنهي عن المنكر، إذا كثر فعله. ومن شروط المحتسب أن

---

(١) راجع: نزهة المقلتين. م.س. ص ١١٦.

يكون حرّاً عَدْلاً، ذا رأي وصرامة وخشونة في الدين، عالم بالمنكرات الظاهرة، غير منشغل عن حقوق الناس بأمر آخر، مجيب لمن استنجد به، لا يتجاوز الحدود ولا يسمح بتجاوزها[1].

وكانت المظالم ترفع للخليفة مباشرة، وتسمى في أيامنا: القضايا المستعجلة، وبقية القضايا ترفع إلى قاضي القضاة، أو من ينوب عنه من القضاة، بينما قضايا الحسبة، يدقّق ويحقّق فيها المحتسب ميدانياً، ولا تحتاج إلى محاكمة ومرافعات. لذا كانت الحسبة مرتبة قضائية ثالثة تلي ديوان المظالم وقاضي القضاة.

من وظائف المحتسب: ضبط الأوزان والمكاييل:

كانت الأوزان والمكاييل المتداولة أيام الدولة الفاطمية، هي نفسها المتداولة في كافة الأقطاع الإسلامية. وقد عرف منها الرطل والصاع والإردبّ والويبة والحملة والتليّس. وأحجام هذه الأوزان والمكاييل وأوزانها تختلف من عصر إلى عصر، ومن دولة إلى دولة. فالحملة مثلاً تليّسان والتليّس ١٥٠ رطلاً. والإردبّ ٢٤ صاعاً والصاع ست ويبات، والرطل ١٢ أوقية، والحملة ٣٠٠ رطل والرطل ٢٥٠٠ غرام.

ولن ندخل في متاهات الأرقام والأحكام، لأنّ معرفتها لا تساعدنا في إلقاء المزيد من الضوء على حضارة هؤلاء الناس.

وبالعودة إلى الكتب التي أرّخت للدولة الفاطمية، نجد أنّ وظيفة الحسبة والمحتسب، كانت من أهمّ الوظائف، وهي تلي داعي الدعاة

---

(١) راجع: نهاية الأرب، الجزء السادس، ص ٢٩١.

وقاضي القضاة بالأهمية عند الخلفاء، ولكنّها لكثرة صلاحيات صاحبها، كانت بالنسبة للرعية والعامة أهمّ من كلّ الوظائف.

وقد جرت العادة أن يعمّم المحتسب بلسان الخليفة الإنذارات بضبط الأوزان والمكاييل. وكانت البيانات تقرأ على منابر الجوامع كالبيان الذي قرأ في شهر محرّم لسنة ٣٩٥ هـ «بإصلاح المكاييل والموازين والنهي عن البخس فيها».

دار العيار: مؤسسة حكومية:

يقول المقريزي: إنّه كان للعيارات والموازين في الدولة الفاطمية دار يقال لها «دار العيار» تعيّر فيها الموازين كلّها، وجميع الصنج (كفّة الميزان). وكان ينفق على موظفي هذه الدار من موازنة الوزارة، في كلّ ما تحتاج إليه من رواتب موظفين ومشرفين وصنّاع ومواد أولية، لصنع الأوزان والمكاييل من «نحاس وحديد وخشب وزجاج وغير ذلك من الآلات».

وكان المحتسب أو نائبه يحضر يومياً إلى هذه الدار ويراقب فيها كلّ العيارات والموازين المعدّة للبيع بكلفتها ـ فيتم تعييرها وتجربتها أمامه وبحضوره، فيوافق على الصحيح منها بعد ختمه بختم معيّن، ويأمر بإعادة المغشوش منها والناقص. وكانت كلّ العيارات والأوزان والموازين والمكاييل محتكراً بيعها في هذه الدار. ومنها تصدّر لكل أنحاء الخلافة الفاطمية، خوفاً من الغشّ والتبخيس بالأوزان والتطفيف بالمكاييل. وكان المحتسب يجبر تجّار كلّ منطقة أو سوق إلى جلب ميزانه ومكاييله وعياراته أسبوعياً إلى مكتب نائب

المحتسب في السوق الذي يتبع له لمراقبتها أسبوعياً، عدا المداهمات التي كان يشنّها نواب المحتسب للدكاكين، على حين غفلة.

ويقول المقريزي: إن عقوبة صاحب الميزان أو الكيل الناقص، في الدار، تختلف عن عقوبة المداهم في متجره، فكانوا يعاقبونه بمصادرة ميزانه وعياراته الناقصة أو مكاييله وإجباره بشراء موازين وعيارات شرعية، مختومة بختم الدار والمحتسب. «ثم صار المحتسب يلزم من يظهر في ميزانه أو صنجه خلل بإصلاح ما فيها من فساد فقط، والقيام بأجرته فقط. وما زالت هذه الدار باقية طيلة وجود الدولة الفاطمية»[1].

وكانت عقوبة البخس في الموازين أو التطفيف في الكيل، تتراوح من خليفة إلى آخر، فعلى عهد الخليفة العزيز بالله مثلاً، وفي سنة ٣٨٤ هـ، «كثر بخس الباعة في البيع من المكاييل والموازين، فكتّب سجلّ في الأسواق بالنهي عن ذلك، وخوّفوا بأنّ من وجدت عنده صنجة أو كيل أو ميزان بعد ثلاثة أيام، وفيها عيب، حلّت به العقوبة، كائناً من كان، ساكن في عقار الدواوين الخاصة والأملاك، أو في رباع أحد من أرباب الدولة، أو ظهر عليه بأنّه بخس الناس أو غشّ»[2].

وقد روى لنا المقريزي: إنّ بائع خبز أقدم على المضاربة على نقيب بائعي الخبز بتحسين الرغيف وزيادة الوزن، فأقبل العريف (النقيب) على ضربه ومنعه، فاشتكاه إلى المحتسب، فما كان من المحتسب إلا أن

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء ١، ص ٤٦٥.

(٢) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٢٨٠.

صادر كلّ غلّة النقيب وأعطاها للبائع الفقير ومنع العريف من التعرّض له. فأصبح هذا البائع مشهوراً وأقبلت الناس على دكّانه.

أخبار بعض المحتسبين:

يرى قارىء تاريخ الدولة الفاطمية وأكثرها دُوِّن سنة بسنة، وشهراً بشهر، أنّه لا يخلو شهر أو سنة من أخبار الحسبة والمحتسب، بسبب تداخلها في حياة المصريين اليومية، ومن أخبار المحتسب في هذه الدولة:

الحاكم بأمر الله يقتل المحتسب:

أخبرنا المقريزي أن الحاكم بأمر الله الفاطمي، أنذر المحتسب ابن أبي نجدة من كثرة شكاوى الناس من ظلمه وتعدّيه، فلم يرعو، فقطع يديه، واستمر في غيّه فعاد وقطع لسانه. وقد كان ابن أبي نجدة بقّالاً فترقّى وتولى أمر الحسبة، ولكن قطع يديه ولسانه لم يردعاه عن ظلم الناس، فاعتقله الحاكم وشهّر به على جمل، وطيف به في شوارع القاهرة، ثم ضرب عنقه.

وكذلك فعل الحاكم بخادمه غين، فقد كان أول أمره محتسباً، قبل ترقّيه في الخدمة. قتله سنة ٤٠٢ هـ.

المحتسب يسبّب أزمة اقتصادية:

يخبرنا المسبّحي أن الخليفة الظاهر استدعى المحتسب دواس بن يعقوب سنة ٤١٥ هـ، إلى القصر المعمور بوجود الجرجرائي الوزير

الأول، فصاح الوزير بوجهه ووبّخه وهدّده وقال له: «قد قتلت المسلمين جوعاً، وأثرت البلاد والعباد على مولانا (الظاهر) ـ عليه السلام ـ وخطّك حاضر يشهد لك وعليك بضمانك عمارة البلاد بالأخباز والقمح. فما جوابك؟ فأجاب المحتسب، أنا أنزل وأتلافى هذا كلّه، وأبذل الجهد فيه. فنزل وأطلق القمح من المخازن للطحّانين وسعّره عليهم التليّس بدينارين ونصف (٣٧٥ كيلو). وأمرهم أن يبيعوا الدقيق الحملة بأربعة دنانير (٧٥٠ كلغ)، ورطلان ونصف من الخبز بنصف درهم، فسكن الناس لذلك[١].

الحسبة وظيفة خطيرة تنتهي بصاحبها إما إلى السجن أو إلى المشنقة:

كانت وظيفة المحتسب تتراوح صلاحياتها بين صلاحيات القاضي وصلاحيات قائد الشرطة، لذلك كان كثيراً ما يتولى قائد الشرطة وظيفة الحسبة في الدولة الفاطمية.

يخبرنا المقريزي أنّ الخليفة الحاكم بأمر الله أصدر مرسوماً سنة ٣٩٨ هـ، قضى بتعيين غالب بن مالك قائداً لشرطتي مصر والقاهرة، وهي التي يطلقون عليها شرطة مصر العليا (القاهرة) وشرطة مصر السفلى (مصر القديمة أو الفسطاط)، وذلك إلى جانب توليّه الحسبة. «وقرىء سجّله بالجامع العتيق وجامع أحمد بن طولون»[٢].

ولما ولّى الخليفة الآمر سنة ٥١٦ هـ، ذخيرة الملك جعفر بن

---

(١) أخبار مصر، المسبّحي، م.س. ص ١٩٥.

(٢) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٧٣.

علوان ولاية القاهرة والحسبة، «جرى من عسفه وظلمه ما هو مشهور». وقد حاول ذخيرة الملك تغطية ظلمه وتعدّياته على حقوق الناس ببناء جامع في باب الحديد، لكنّ الناس رفضت الدخول إليه والصلاة فيه، لأنّه بُني من أموال حرام. وقد أطلقوا على الجامع اسم «جامع لا بالله» لأنّه كان حين يستحلفهم يجيبون: «لا بالله».

ولم ينج المحتسب جعفر بن علوان من سلاطة لسان المصريين، فقد علّق أحد الشعراء على باب الجامع هذين البيتين:

بنى مسجداً لله من غير حلِّهِ وكان بحمد الله غير موفّق
كمُطْعِمَةِ الأيتام من كدِّ فرجها لكِ الويلُ لا تزني ولا تتصدّقي

ولم ينجُ شمس الخلافة جعفر من حكم الله أيضاً، فبعد أن عزل، تملّكته الأمراض والأوجاع ومات، فلم يجد من يشيّعه أو يصلّي عليه[1].

أبو سعيد العميدي يرفض تولّي الحسبة:

يخبرنا المسبّحي أنّ الخليفة الظاهر عرض وظيفة المحتسب على أبي سعيد العميدي، محمد بن أحمد فرفضها لسببين، السبب الأول أنّه كان يتولى وظيفة رئيس ديوان في قصر الحضرة إذ قال: «كنت بالأمس جليس أمير المؤمنين وصاحب خريطته (أمين صندوقه)، أصير اليوم محتسباً؛ لم أكن أفعل» والسبب الثاني، صعوبة هذه الوظيفة ونهاية كلّ محتسب، فلما رفضها تولاّها دوّاس بن يعقوب الكتامي، وقد أشرنا إلى نهايته مقتولاً[2].

---

(١) أخبار مصر، ابن المأمون. ص ٤٧.

(٢) أخبار مصر في سنتين.

معاونو المحتسب: نقيب الصنعة والمعاون والمجرّص:

كان المحتسب يستعين بمعاونين مدنيين وعسكريين لتنفيذ مهماته الواسعة. «وكان المعاونون يختارهم بنفسه ويقومون منه مقام رجال الشرطة لمراقبة تنفيذ أوامره»(١).

وكان المعاونون موظفين حكوميين لهم راتب أو جارٍ كأي موّظف في الدولة.

وكان المحتسب لا يتعامل مع أي تاجر أو صنايعي مباشرة بل عبر نقيب كلّ حرفة أو صنعة. وكانوا يطلقون على النقيب لقب عريف.

ومن الموظفين التابعين للمحتسب «المجرّص». والمجرّص وظيفته أن يشهّر بالمطفّف في الكيل أو الباخس في السلعة والوزن.

وأظن أنّ الفعل جرّص مستعمل في اللغة بالسين وليس بالصاد، ومأخوذ من الجَرَس وجرّص: تعني إعلان معايب البائع وذكر غشّه وتطفيفه أمام الملأ. وكان المصريّون يطلقون لقب المجرّص على الموظف المكلّف من قبل المحتسب بالتشهير بالتاجر الغشّاش.

والجميل في الخبر أنّ الذي شُهّر به «وجُرِّص» كانت وظيفته مجرّصاً يجرّص التجّار الغشّاشين قبل إيداعهم بسجن «بنان».

يقول المسبحّي عنه: «وفي يوم السبت الثالث من شهر رمضان لسنة ٤١٥ هـ، ضُرب إنسان بالسياط وحُمل على جمل وطُوّف به في البلد وفي يده جرسين «يُجَرِّص» نفسه بهما ويصيح بملء صوته: هذا جزاء من يسرق في اليوم مرّتين». ويخبرنا المسبحّي أنّ

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، م.س. ص ٢٢٥.

المحتسب اضطر لتكليف المجرّص بتجريص نفسه، لأنّه لم يكن هناك مجرّص في البلد غيره[1].

بعض القرارات الصادرة عن المحتسب بحقّ المطفّفين والغشّاشين:

كانت وظيفة المحتسب تتدخّل في كلّ أمور المجتمع. ولكن أهمّ شرط من شروط تدخّله، هو ضبط المخالف بالجرم المشهود، لأنّ قراراته وعقوباته ميدانية وجاهية لا تحتاج إلى محاكم وقضاة ولجنة عدول محلّفين، فقد أخبرنا المسبحّي أنّ محتسب القاهرة وجد «نصرانيين مع مسلمتين، فضربهم جميعهم بعد أن شهرّ بهم في شوارع القاهرة مطوّفين على حمير عرج[2].

ويخبرنا المسبحّي أيضاً أنّه وفي نفس الشهر (رجب سنة ٤١٥ هـ)، تبع رجلٌ صيرفياً يحمل كيس أمواله معه، فضربه بسكين كبير وحاول سلب الكيس، ولكن الصيرفي وقع على الكيس وأخذ يصيح والرجل يحاول دفعه عن الكيس ليأخذه، فلم يتمكن، وتكاثر عليه الناس، فحاول الهرب «فلحقه العامة وقبضوا عليه». ونجا الصيرفي من محاولة السلب أما الرجل، فأمر المحتسب وقائد الشرطة بضرب رقبته، «فضربت عنقه على باب البرادع» وأوصل الصيرفي بمواكبة وحراسة إلى بيته بعد تضميد جراحه. «وسلّموه أمواله بموجب محضر وبحضور أهله وأولاده». ثم أخذت جثّة الجاني وصلبت على جذع نخلة في باب دينار ليكون عبرة لكل سارق وقاطع طريق.

---

(١) راجع: أخبار مصر في سنتين، المسبحي، ص ١٨١.

(٢) راجع: أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، ص ١٦٦.

ويخبرنا المسبحّي أيضاً أنّ المحتسب اعتقل في شهر شوال لسنة ٤١٥ هـ، رجلاً مخنّثاً بعد أن داهم بيته ووجد أنّه قوّاد يسهل الدعارة لخمس نساء، فحمل هو والنساء على حمير وطُوّف بهم في شوارع القاهرة، ثم أودعوا السجن.

وفي شهر ذي القعدة، «ضرب المحتسب جماعة من الخبّازين ضرباً موجعاً وصادر موازينهم، بعد أن وجد أن العيارات فيها بخس ونقص وصنجهم (كفّات الميزان). في كلّ صنجة درهم زيادة في الوزن. رغم أن الدرهم وزنه لا يزيد عن ٣,١٢٥ غراماً ورغم أنّ البيع كان بالرطل أي «٢٥٠٠ غرام»، أو ثمانون درهماً، وهذا ما يدلّ على شدّة تمسّكهم بإعطاء الناس حقوقهم، وعدم بخسهم في الوزن أو الكيل، حتى ولو كان درهماً واحداً.

وفي نفس الشهر ألقى المحتسب القبض على أحد اللصوص الذين يسرقون أكفان الموتى «فحمل إلى الشرطة السفلى (مصر القديمة) وقطعت يمينه بعد أن طُوّف به على جمل». وأودع السجن فتوفي فحمل إلى القرافة التي كان يسرق أكفان موتاها. «وكُفّن ودفن فيها»[1].

الخليفة الحاكم يطلب من المحتسب وقائد الشرطة سجن محمد بن جيش بن الصمصامة في مكتب قائد الشرطة لا في السجن:

كان جيش بن الصمصامة والياً على الشام من قبل الحاكم بأمر الله. ولما توفّي أوصى بكلّ أمواله ومتروكاته إلى الخليفة الحاكم،

---

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، ص ١٩١.

فحصر الخليفة الحاكم تركته فوجدها تبلغ أربعمائة ألف دينار ذهباً، فأرسل وراء ولدي جيش وأعاد تركة والدهما لهما وقال لهما: خذاها مباركة عليكما ولم يطمع بقرش منها.

ولما توفي الحاكم وجاء ولده الظاهر، قام بواجب الاحترام لأبناء جيش، ولكن ولده محمد اختلّ عقله، وجاء محمد يحاول مقابلة الخليفة الظاهر، ولما وقف أمامه، شتمه بأقبح الشتائم «وقذف أعظم قذف». فحاول الخليفة تهدئته، فزاد من شتائمه، فأتى المحتسب وقائد الشرطة واعتقلاه، وأخذاه إلى سجن الشرطة السفلى، فطلب منهما الخليفة الظاهر بإيداعه مكتب قائد الشرطة وإكرامه لا وضعه «في السجن» حفظاً لخدمة أبيه للدولة الفاطمية. فأودع مكتب القائد فترة ثم أعيد إلى بيته.

ويخبرنا المسبحّي أيضاً أنّه لما هدّد الخليفة الظاهر المحتسب دواس بن يعقوب بسبب تزايد أسعار القمح والخبز. نزل إلى مصر والقاهرة وأجرى جردة على كلّ مخازن القمح فوجدها مائة وخمسين مخزناً، فختمها بالشمع الأحمر وقال: «إن امتدت يد إنسان إلى بيع شيء منها، قطعت».

ثم أمر كما أشرنا ببيع القمح والخبز تحت إشراف معاونيه وبوجودهم في كلّ مخزن وفرن. وكان يقفل المخزن أو الفرن بأيدي معاونيه لا بأيدي أصحابه.

حادث سير يؤدي إلى مقتل امرأة:

يخبرنا المسبحّي أن المحتسب قبض على سقّاء يقود جملاً يحمل

روايا الماء صدم امرأة بسوق الحمام «فسقطت ميّتة لوقتها» فاعتقل وأودع السجن بانتظار دفع دية المرأة المقتولة.

ممنوع مرور الشاحنات:

ومن وظائف المحتسب وقائد الشرطة تنظيم السير في الشوارع والأزقّة وعلى الجسور، وكانت الشرطة تضع جنزيراً أمام الشوارع المؤدية إلى قصور الخلفاء والأمراء.

وإذا وضعت السلسلة آخر «بين القصرين»، ينقطع المارة من ذلك المكان. وكذلك لا يسمح بالمرور بشارع «بين القصرين» حمل تبن ولا حمل حطب، ولا أحد يستطيع أن يسوق فرساً، فإن ساق أحد، أنكر عليه ومنع وأخرق به» (شتم)[1].

حمير وبغال وخيول: برسم الركوب بالأجرة: «تاكسي»:

كنا قد أشرنا سابقاً إلى هذا الموضوع، ويعود أمر تنظيمه وترتيبه لقائد الشرطة، وقمع المخالفين للمحتسب. فقد تكلم عنها ناصر خسرو وقال إنها تزين وتُسرّج وتؤجّر للناس. وقال إنّ لها مواقف مخصَّصة في رأس كلّ شارع. ويزيد عددها في القاهرة ومصر على خمسين ألف بهيمة.

نقل جثة قتيل إلى المشرحة:

كما يخبرنا المسبحّي أن معاوني المحتسب وجدوا إنساناً

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص ٢٨.

مطروحاً ميّتاً في الصحراء، فأمر المحتسب بنقل الجثة إلى مكتب الشرطة السفلى (الفسطاط أو مصر القديمة)، فكشف عليها الطبيب لمعرفة أسباب الوفاة فوجد فيها ضربات سكين. وجاء أهله وتعرفّوا على الجثة وقالوا إنّه سلب، وكان معه دنانير ودراهم لفّها في منديل على وسطه[1].

عقوبة مزوّر التواقيع القتل:

ويخبرنا أسامة بن منقذ الشيزري أنّه لما زار مصر ونزل بضيافة الخليفة الظافر، قال إنّه بينما هو جالس في صحن داره دخل عليه شاب سلّم وجلس، وكان هذا الشاب حلو الحديث حسن المحاضرة. وبينما هما بالحديث والتعارف، دخل عليه إنسان وطلب منه الخروج من بيت أسامة بن منقذ، مما أثار فضول ابن منقذ، فأرسل خادمه وراءهما ليستقصي الأمر. ويخبرنا ابن منقذ أنّه استدعي إلى دار الملك العادل طلائع بن رزيك الوزير الأول حينها. فضربت عنقه. وعاد الغلام وأخبر ابن منقذ أن الملك العادل قتله وسأل عن ذنبه فقيل له: «كان يزوّر التواقيع»[2].

هذه نتفة من نتف أخبار الحسبة والمحتسب في الدولة الفاطمية. ويجاريها في هذا المجال مؤسّسة معاصرة نطلق عليها دائرة حماية المستهلك. فما هو مجال ديوان الحسبة من دائرة حماية المستهلك المعاصرة؟.

---

(١) م.س. ص ٢٣٣.

(٢) كتاب الاعتبار، م.س. ص ١٧.

دائرة حماية المستهلك:

لم يكن هناك في الدولة الفاطمية مؤسّسة بهذا الاسم، ولكنها كانت حماية المستهلك من جشع التجار ومن الغشّ والاحتكار، من وظيفة دائرة الحسبة ومن اختصاص المحتسب، فكان المحتسب هو نفسه، رئيس دائرة حماية المستهلك. وسوف نستعرض بضع الأحداث والخبريات المأخوذة من صميم مجتمع مصر الفاطمية، لإلقاء الضوء على هذه الوظيفة.

يخبرنا المقريزي أنّ جوهراً، كان أول قرار اقتصادي في مصر أصدره، يتضمّن عدم السماح لأي مصري يريد ترخيصاً لفتح متجر أو دكان، إلا وعليه أن يشارك مغربياً فيه.

ولما حاول التجار المصريون أن يشغبوا على جوهر برفع سعر القمح والطحين والخبز سنة ٣٥٩ هـ «جمع قمّاحي مصر في موضع واحد، ولم يدع كفّ قمح يجمع إلا بحضوره، ثم ضرب أحد عشر رجلاً من الطحّانين وطيف بهم في شوارع مصر».

ثم قام المحتسب من قبل جوهر وهو سليمان بن عزّة المغربي فجمع سماسرة الغلال في شارع واحد، وسدّ الطرق عليهم من كلّ الجهات ما عدا جهة واحدة وضعها تحت حراسة الشرطة. «فكان البيع كلّه هناك، ولا يخرج أو يدخل قدح واحد غلّة إلا بمعرفته» وبالسعر المحدّد من قبله.

وكنا قد أشرنا إلى قضية مقتل أحد التجار أيام الخليفة العزيز وطريقة تحويل المعاملة من قصر الخلافة، إلى الوزير الأول إلى المحتسب، إلى قائد الشرطة، وتوقيع كلّ مسؤول عليها. والتي انتهت بإلقاء القبض على المجرمين.

إتلاف الممنوعات على حساب الدولة:

كان الخلفاء الفاطميّون إذا أرادوا مصادرة شيء ممنوع وإتلافه، يتلفونه على حساب الدولة، وليس على حساب الشخص صاحب السلعة المصادرة. فعلى سبيل المثال، أقدم الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٢ هـ، على مصادرة الزبيب وآلات الشطرنج. «فجُمع وأُحرق، وتوالى إحراق الزبيب عدة أيام بحضور لجنة الشهود العدول، وتولّى مؤونة الإنفاق على نقل الزبيب وإحراقه، متولّي ديوان النفقات، فأُحرق منه ألفان وثمانمائة وأربعون حملاً، بلغت مؤنة الإنفاق عليها خمسة آلاف دينار في مدة خمسة عشر يوماً»(١).

ولما وجد الخليفة الحاكم أنّ المصريين يصنعون الخمرة من العسل، منع الإتجار به لأكثر من ثلاثة أرطال فما دون. وكذلك العنب.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وعندما شعر الخليفة الحاكم أنّ الموظفين يأخذون البراطيل من أصحاب المعاملات، وأنّ هذه البراطيل سوف تزاد على السلع وينعكس أثرها السيىء على لقمة عيش الفقير، أصدر قراراً بمعاقبة كلّ موظّف مرتش أو يقبل البرطيل من أصحاب المعاملات.

كما أنّه رأى أنّ ذبح البقر العمّال المخصّص للفلاحة، يؤدي إلى ارتفاع أجرة كلفة الفلاحة، فأصدر قراراً بمنع ذبح هذا النوع المدّرب

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٩٠.

على الفلاحة وطلب من المحتسب وقائد الشرطة متابعة تنفيذ هذا الأمر ومعاقبة التجار والجزّارين الذين يقدمون على بيعه وذبحه. وقد كان سعر البقرة الواحدة المعدّة للفلاحة مئة دينار ذهباً أي ما يعادل ٣٣ مرّة الحد الأدنى للأجور ما يعني ٣٣ × ٢٠٠ دولار = ٦٦٠٠ دولار أميركي.

والقمح في جبل عامل سعره دائماً ضعف سعر الشعير، وكذلك كان الأمر في مصر الفاطمية، حيث يخبرنا المقريزي في حوادث سنة ٤١٥ هـ أيام الخليفة الظاهر، أن السعر تحرّك فبيع تليّس القمح بدينارين وتليّس الشعير بدينار واحد والتليس يساوي ١٥٠ رطلاً قمحاً أو ٧٥٠ كلغ أو خمسين مداً.

وكان بعض أصحاب الأفران والخبّازين يعمدون إلى غشّ الطحين والعجين، بإضافة مسحوق نبات الطفل، إليه، ومسحوق هذا النبات لا يميّز عن الطحين إلا بواسطة خبّاز خبير، فكان المحتسب يلجأ إلى الخبازين الخبراء بخلطة العجين ويقيم الحد على الطحّان الغشّاش ويأمر بضربهم ضرباً مبرحاً وتطويفهم على جمل في شوارع القاهرة ومصر، وهذا ما فعله دواس بن يعقوب المحتسب سنة ٤١٥ هـ، مع بعضهم.

دائرة منع الغشّ:

لم تكن دائرة منع الغشّ دائرة مستقلة في الدولة الفاطمية، بل كانت من وظائف المحتسب وقائد الشرطة. المحتسب يثبت الغشّ على التاجر، وقائد الشرطة ينفذ قرارات المحتسب، وكذلك كان على المحتسب أن

يعتقل التاجر الغشّاش متلبّساً، لذلك لم تكن هذه الأمور بحاجة لأنّ ترفع إلى المحاكم ودواوين القضاء، بل كانت تثبّت ميدانياً.

كنا قد أشرنا إلى مشاهدات ناصر خسرو، وكيف أقدم المحتسب وقائد الشرطة على معاقبة التاجر الغشّاش بالتشهير بالتطويف على جمل والسجن.

الاقتصاد الموّجه يؤدي إلى اختفاء السلعة:

ويخبرنا المقريزي أيضاً عن المحتسب دواس بن يعقوب أنّه أقدم على تسعير الخبز والدقيق على أنواعه: بأسعار بأقلّ من السعر الذي كان يبيعه به التجار، فاختفى الخبز والدقيق من السوق «وغلقت الطواحين والحوانيت جميعها وأصبح البلد على حال صعبة من تعذّر الأخباز وعدم الدقيق». وهذا الخبر ليس جديداً على السوق الحرّ. فالاقتصاد الموجّه والمحكوم من قبل الدولة، هذه حاله من أيام المحتسب دواس بن يعقوب حتى آخر أيّام غوربتشوف في الاتحاد السوفياتي.

ويخبرنا المقريزي عن الحل: يقول المقريزي ثم عاد دواس بن يعقوب وأذاع في الأسواق: «تباع الأخباز بغير تسعير، فظهرت الأخباز في الأسواق»[1].

وكان يعمد المحتسب في كلّ مرة إلى ضرب الطحّانين والفرّانين وتسعير الخبز، لمضايقتهم وردعهم عن الغشّ والجشع والاحتكار،

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١٥١.

فيختفي الخبز والطحين من السوق، ثم يعود ويسمح لهم «بالبيع بغير تسعير» فتكثر الأخباز فيه[1].

تدخّل الدولة وإغراق الأسواق بالقمح كتدخّل البنك المركزي في دعم عملة ما:

جرت العادة عندنا في لبنان، أنّه إذا اشتد الطلب على الدولار الأميركي وكثر، يؤدّي إلى ارتفاع سعره، مما يؤدّي إلى اختفائه وانعكاس ارتفاع سعره على النقد الوطني، أي الليرة اللبنانية سلباً، فيقوم البنك المركزي بإغراق السوق بالدولار، حتى لا يرتفع سعره ويؤدي إلى إيذاء النقد الوطني.

ونفس الأمر كان يقدم عليه الخلفاء الفاطميون فالقمح كان يومها خبز الإنسان المصري وقوت رعاياهم في أقطار العالم الإسلامي التابع لزعامة القاهرة.

يخبرنا المقريزي أنّ القمح سنة ٤٤٦ هـ، أيام الخليفة المستنصر بالله قد شحّ من الأسواق. وكان التليّس (٧٥٠ كلغ) القمح يباع بثلاثة دنانير، فارتفع سعره إلى ثمانية دنانير، فما كان من الخليفة المستنصر ووزيره علي، أبو محمد اليازوري إلا أن أقدما على فتح أهراءات القمح السلطانية «وقرّر ثمن كلّ تليّس ثلاثة دنانير بعد أن كان ثمانية دنانير، وأخذ يُسلّم إلى الخبازين ما يبتاعونه لإغراق الأسواق بالقمح، وكان مقدار ما تحتاج إليه مصر والقاهرة

(١) م.س. نفسه، ص ١٦٦.

ألف تليّس في كلّ يوم، لمصر سبعمائة وللقاهرة ثلاثمائة، فاستمر اليازوري على هذا التدبير مدّة عشرين شهراً، حتى أغرقت الغلّة الأسواق، فتوسّع الناس بها وزال عنهم الغلاء»[1].

وكان الخلفاء الفاطميون من أغنى أغنياء الأرض والعالم قاطبة، لذلك كانوا لا يقبلون رشوة. وإن قبلوا هدية، يقبلونها تعبيراً عن احترام صاحبها لهم، على أن يردّوا الهدية بهدية تتجاوزها أضعافاً مضاعفة. وكانت بساتينهم ومزارعهم ومصانعهم الخاصة بهم، تؤمّن لهم كلّ احتياجاتهم، وإذا اضطروا لشراء شيء فلا يسمحون للموظف المكلّف بالشراء باستغلال سلطتهم لبخس التاجر السعر. وكانوا لا يقبلون شراء شيء إلا بسعر السوق.

وكنا قد أشرنا إلى تكليف الخليفة المعزّ لدين الله صاحب بيت المال محمد بن الحسين بن مهذّب بشراء ما تحتاجه القصور: «بسعر الناس، ولا تعرّف الرسول لئلا تقع محاباة ولا مسامحة»[2].

تلك هي مصر أيام الفاطميين، وذلكم هم «الخلفاء الفاطميون وتلك هي حضارة القمح والرغيف، حضارة همّها الأول قوت الناس وخبزهم وأمنهم وأمانهم قبل كلّ شيء.

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٢٢٦.

(٢) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ١٣٦.

دائرة السجون في مصر الفاطمية

يعتبر مؤرّخو الحضارات الإنسانية أنّ ظهور السجن كمؤسّسة في المجتمعات، هو من مؤشّرات ظهور الدولة كمؤسّسة. وقد عرف العرب في الجاهلية السجن، حيث كان لدى ملوكهم من مناذرة وغساسنة وتبابعة، سجون يسجنون فيها الخارجين عن حكمهم وأعدائهم والمجرمين بجرائم عادية.

أما القبائل العربية، فلم يكن لديها سجوناً خاصة بها، لأنّ السجن هو مكان ثابت وهم متنقلون متحرّكون، لذلك كان السجين عندهم يودع في خيمة مكبلاً مصفّداً أو يربط إلى جذع نخلة بانتظار البتّ بأمره من قبل زعيم القبيلة.

وبعد الإسلام تطورت السجون وأخذت مفهومها المعاصر. بينما استمرّ تنفيذ الأحكام رهناً بمزاجية الحكّام وليس بمقتضى أحكام القضاة. حتى لكان المخطىء أو المجرم يُلقى في السجن فيُنسى من قِبل الحكّام، وخاصة السجناء السياسيون.

أنواع السجون في مصر الفاطمية:

كانت السجون في مصر الفاطمية منتشرة في جميع أماكن جلوس ولاة هذه الدولة، من أقاصي صور حتى أقاصي المهدية والقيروان، ومن أقاصي اليمن حتى أقاصي خراسان.

وكانت هذه السجون نوعين: سجون للمجرمين السفلة وسجون للسياسيين، وقد استطعنا تمييز هذه السجون من الإشارات التي أوردها المؤرّخون عن كلّ سجن وسجين.

حبس المعونة حبس المجرمين والسفلة:

يخبرنا المقريزي عندمايتحدّث عن حبس المعونة، أنّ هذا الحبس هو سجن «أرباب الجرائم» طوال أيام الدولة الفاطمية، وكذلك استمرّ سجناً للمجرمين أيام الأيوبيين أيضاً، مما يعني أنّ الأمراء والأعيان والشعراء وكبار الموظفين، لهم سجن خاص بهم.

وقد وصف المقريزي هذا السجن، في أيام المماليك فقال: «إنّه كان شنيع المنظر لا يزال من يجتاز عليه يجد منه رائحة منكرة، ولما كان قلاوون يمرّ أمامه، كان يشم هذه الرائحة الرديئة ويسمع منه صراخ المسجونين وشكواهم من الجوع والعري والقمل»[1]. فهدمه قلاوون وجعله سوقاً لبيع العنبر.

وكان أول سجن في الإسلام هي الدار التي اشتراها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب من صفوان بن أميّة، وقيل إنّ أول من وضع الحرس على أبواب السجون هو معاوية بن أبي سفيان.

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص ١٠٢.

ويخبرنا المقريزي عن أسماء وأماكن السجون في مصر الفاطمية فيقول: «وقد كان في مصر والقاهرة عدّة سجون وهي حبس المعونة وحبس الصيارفة بمصر. وخزانة البنود وحبس المعونة أيضاً في القاهرة، وحبس الديلم، وحبس الرحبة.

أما حبس المعونة، فهي السجن العائدة مسؤوليته لدائرة الشرطة في مصر أو القاهرة. لأنّه كان مختصاً بالمجرمين العاديين وكان له فرعان: فرع في مصر وفرع في القاهرة.

وعن فرع حبس المعونة في القاهرة يقول المقريزي: إنّ هذا الحبس كان مخصّصاً لأرباب الجرائم من السرّاق وقطّاع الطرق ونحوهم في الدولة الفاطمية، ويقول عنها أيضاً أنّها كانت من أشنع السجون وأقبحها منظراً، يحبس فيها من وجب عليه القتل أو قطع اليد من السرّاقين وقطّاع الطرق، أو من يريد السلطان إهلاكه من أصحاب الجرائم العظيمة[1].

وأما حبس المعونة فقد أخذ اسمه من أسباب بنائه، فقد بناها المسلمون أيام ولاية قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري بمعونة المسلمين لينزل بها ولاتها، أي كانت مقر ولاية وحكم قبل أن تصبح سجناً، ثم جعلت مقرّاً لشرطة مصر والفسطاط، وحوّلها الخليفة الفاطمي العزيز بالله سجناً وعرفت باسم حبس المعونة.

---

(١) راجع: الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص ١٨٨.

حبس الصيّار: حبس الولاة:

أما حبس الصيّار، كان هذا الحبس معدّاً لسجن الولاة المعتدين على أموال الدولة. وقد سميّ حبس الصيار نسبة إلى دكان مشهور في الزقاق الموجود فيه هذا الحبس كان يبيع فيه الصير المالح (السمك).

سجن خزانة البنود:

وخزانة البنود هي مخزن الأعلام والرايات وجميع أنواع السلاح ما عدا السروج، لأنّ للسروج مخزنها، أما القسيّ والسهام والدروع والدرق والسيوف والرماح، فقد كانت كلها تصنّع وتخزن في خزانة البنود.

وإلى جانب خزن السلاح ورؤوس كبار الدولة المقتولين بأمر من الخليفة، كان في خزانة البنود مخزن كبير مُعَدّ لسجن الأمراء والأعيان وكبار موظفي الدولة والشعراء والمعارضين السياسيين. أما كبار الموظفين المرتشين والخونة، كانوا لا يودعون في هذا السجن بل كانت تنفّذ فيهم أحكام الإعدام فور اعتقالهم.

قال عنها المقريزي: إنّها كانت أول عهد الدولة الفاطمية مصنعاً للسلاح داخل قصور الخلافة، وقد استمرّت معملاً ومخزناً للسلاح حتى سنة ٤٦١ هـ، فاحترقت، وبعد احتراقها حوّلها الخليفة المستنصر إلى سجن للأمراء والأعيان، ثم حولها الناصر بن قلاوون قصر ضيافة لاستضافة أمراء الفرنجة.

سجن خزانة البنود يتحول إلى سوق للعواهر واللواطيين أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون:

بعد أن كانت خزانة البنود أكبر معمل للسلاح وللصنايعيين أيام الخليفة الحاكم، حيث كنا قد أشرنا أنّه كان يعمل بها من أرباب الصنائع والفنون أكثر من ثلاثة آلاف صنايعي، وبعد أن تحوّلت أيام الخليفة الظاهر إلى معملٍ ومخزنٍ لجميع أنواع الأسلحة والرايات والبنود، وتحوّلت أيام المستنصر إلى سجن للأمراء والمعارضين السياسيين، يصفها لنا المقريزي أيام المماليك فيقول: «إنّ خزانة البنود جعلت منازل للأسرى من الفرنج المأسورين من البلاد الشامية، فأنزل فيها الملك الناصر محمد بن قلاوون الأسارى، وأبطل السجن، فلم يزالوا فيها بأهاليهم وأولادهم، فصار لهم فيها أفعال قبيحة وأمور منكرة شنيعة، من التجاهر ببيع الخمر والتظاهر بالزنا واللواط، وحماية من يدخل إليها من أرباب الديون وأصحاب الجرائم وغيرهم، فلا يقدر أحدٌ ولو جلّ على ملاحقته وملاحقة من احتمى بهم، لأنّ السلطان كان يغضّ النظر عنهم، لما يرى في ذلك من مراعاة المصلحة السياسية التي تقتضيها حال الهدنة مع ملوك الفرنج»[1].

وخزانة البنود كما قلنا كانت سجناً للأمراء والمعارضين السياسيين، فعندما اعتقل أبناء الجراح من أمراء الشام الطائيين، سجنا فيها، ثم أطلق سراحهما بعد عودتهما إلى كنف الدولة. وكذلك

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٤٢٥.

منير الخادم فهو عندما تصدى لجيوش الخليفة العزيز، وانكسر اعتقل وأرسل إلى سجن خزانة البنود، ثم عفا العزيز عنه وأطلق سراحه منها.

طريقة معاملة الخونة والمارقين قبل إيداعهم سجن المعونة:

كان الخلفاء الفاطميّون يوظّفون مدّرباً للقرود براتب شهري وله مقرٌّ لتدريب القرود، وكانت وظيفة هذا المدرّب أن يدرّب القرد على صفع المطوّف به على رقبته وصبّ اللبن على رأسه، مع موظف آخر يطلقون عليه اسم «مجرّس» يجرّسه، أي يدقّ الجرس أمامه مشهّراً بالخيانة التي أقدم عليها.

فعلى سبيل المثال، كان المجرّس الذي جرّس منير الخادم يقول صارخاً: «هذا منير لعنه الله، أصبحت دياره خالية، وكلابه عاوية، ونساؤه صائحة، طاعنته الرماة، ونازلته الحُماة هذا جزاء من نافق على الله عزّ وجلّ، وعلى مولانا العزيز بالله»[1].

وكان الخليفة الحاكم قد طوّف والي صور «العلاّقة» بنفس الطريقة، ولكنه لم يسجنه أو يعفُ عنه، لخيانته وتعاونه مع أعداء الأمة العربية التاريخيين، الروم اليونانيين.

سجون نظارات الشرطة وسجون الأمراء:

إلى جانب سجون الدولة، كان هناك سجون أو نظارات في مراكز

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٢٧٠.

الشرطة في كلّ مدينة كبرة من مدن مصر والدولة الفاطمية، بالإضافة إلى سجون كبار القواد داخل قصورهم وبيوتهم، فقد علمنا من النتف المتناثرة في الخطط المقريزية، واتعاظ الحنفا، أنّ ابن جيش بن الصمصامة عندها فقد عقله وجنّ وشتم الخليفة، اعتقل وسجن في مكتب قائد شرطة القاهرة. واحتراماً لما لأبيه من خدمات على الدولة اعتقل في مكتب قائد الشرطة وليس في النظارة.

وكذلك علمنا أن القاضي الفاضل كان معتقلاً في بيت ملهم شقيق الوزير ضرغام. وعادة إيجاد سجون في بيوت القواد وزعماء القبائل، ما زالت مستمرة حتى اليوم في اليمن.

سجون الأطراف:

كان الفاطميون يعتمدون سجناً في كلّ مدينة كبيرة وفي كلّ ولاية، حتى كان البعض ينفي إلى بعض هذه المدن. إما داخل السجن وإما خارجه. وعندما اعتقل الوزير البابلي الوزير السابق أبا محمد اليازوري، لم يكتف بسجنه بل نفاه إلى سجن تنيّس، وأظنّ أن كلمة تنّيس هي تحريف لكلمة تبنين، فتنّيس المصرية كانت من المنتزهات أما تبنين، فقد كانت قلعة فاطمية حصينة، ولا يُعقل أن يُنفي اليازوري إلى منتزه من أجمل منتزهات مصر الفاطمية.

وكانت السجون معرّضة للاختراق وخاصة سجون الأطراف، فقد استطاع ناصر بن سنان بن عليان الفرار من سجن صور، وتجميع أبناء عشيرته من الكلبيين وتهديد دمشق ومحاصرتها.

تقارير شهرية عن أوضاع كلّ سجين:

كان الوزراء الفاطميون والخلفاء أشد الناس تعصّباً على الفرنجة الصليبيين، فبعد وقوع عسقلان في يد الفرنجة، أقدم الوزير الأفضل بن بدر الجمالي على اعتقال واليها الأمير عضب الدولة بنا بن أبي منصور ورميه في السجن مدة طويلة، لم يخرج منه إلا بعد مقتل الأفضل، وقضى فيه ثلاثة عشر سنة، وقد أمر بإخراجه الوزير الجديد المأمون بن البطائحي.

ومن المعتقلين المفرج عنهم مع والي عسقلان أبو المصطفى جوهر، بعد أن قضى في السجن خمسة عشر سنة.

وكان الأفضل كما أسلفنا متحكمّاً بكلّ مقاليد الأمور والسلطة، فكان لا يطلق أسيراً فرنجياً، فمن استطاع تسخيره في الأعمال والصناعات يسخّر، ومن لا نفع له به يقتله، وقد أسر شاور لديهم مدة ثمانية سنين وحاول أهله إفتداءه بمال فرفض الفرنجة، ولم يقبلوا إلا أسرى مقابل أسرى، وبعد موت الأفضل، أطلق الفرنجة شاوراً بعد أن بادلوه بأسرى.

وبعد مقتل الأفضل وابنه كتيفات، استطاع الخليفة الآمر استرجاع مقدرات الحكم والسلطة من أيدي الوزراء، فكتب لجميع الولايات، خلا قوص وصور وعسقلان، بمطالعة كلّ والٍ منهم في مستهلّ كلّ شهر، بمن حواه السجن والموجب لاعتقال كلّ سجين، وطلب منهم أن يرفع كلّ واحد منهم تقريراً يبيّن فيه الأسباب الحقيقية الموجبة للاعتقال تحت طائلة مسؤولية التقارير الكاذبة. وسبب ذلك أنّه «رُفع للوزير المأمون أنّ بعض الولاة يعتقل من لا

يجب اعتقاله لطلب الرشوة، فتطول مدّته»[1].

رضوان بن ولخشي يحفر نفقاً تحت السجن ويهرب:

عندما أقدم الخليفة الحافظ لدين الله على عزل رضوان بن ولخشي من الوزارة، واستبداله بنجم الدين ابن مصال، أقدم على سجن رضوان في خزانة البنود في القصر. «فلما طال اعتقال رضوان، أخذ ينقب ويحفر بحيث لا يدري به أحد، إلى أن انتهى النقب والحفر من المكان الذي هو فيه إلى فندق أبي الهيجاء المقابل للسجن، وخرج النفق تحت سور القصر، وكان طول ما نقبه خمسة وثلاثون ذراعاً (٢٣,٥٠م). وخرج منه وهرب إلى الجيزة، والتفّ عليه جماعة من لواته والأجناد، وسعى إليه الطمّاعون من كلّ صوب وبدأ يهدد الحافظ»[2].

آلات التعذيب:

لم يشر المقريزي إلى استعمال الخلفاء الفاطميين لآلات التعذيب، باستثناء الخليفة الظافر، فقد أخبرنا أنّه في نفس اليوم الذي بويع فيه بالخلافة، كان أول عمل أقدم عليه، هو استدعاء «صاحب العذاب وآلات العقوبة» لتعذيب ابني الأنصاري: أبو عبدالله وشقيقه». «ضرب الأكبر بحضور الخليفة بالسياط إلى أن قارب الهلاك، وثُنّي بأخيه كذلك، ثم أُخرجا وقُطِعت أيديهما وسُلّت ألسنتهما من أقفيتهما وصلبا على باب زويلة»، بسبب إقدامهما على سرقة الدولة.

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ١٠١.

(٢) م.س. ص ١٨٣.

وكذلك أقدم علي بن السلار في عهد الظافر على قتل متولّي ديوان النظر محمد بن معصوم التنيسي، حيث «أشار لبعض خدمه فأحضر مسماراً حديداً عظيم الخلقة وقال له: والله هذا أعددته لك منذ ذلك الوقت، وأمر به فجرّ من رجله وضرب بالمسمار في أذنه حتى نفذ من الأخرى».

أما خزانة الرؤوس فقد كانت معدّة لرؤوس الخونة وكبار المعارضين السياسيين وكبار الموظفّين المرتشين وكان مكانها بيت المال، ولربما كانت مهيّأة لإعادة رأس كلّ مقتول لأهله وأولاده إذا عادوا إلى طاعة الدولة.

قراقوش والمماليك يستعملون المساجين لأعمال السخرة:

عندما أراد الأمير بكتمر الساقي، وهو أحد الأمراء المماليك بناء قصره المعروف بقصر بكتمر، كان يسخّر فيه «المحابيس المقيّدين»، فاستمرّ العمل فيه نحو اثني عشر شهراً، بينما أقدم سلفه بهاء الدين قراقوش الطواشي على تسخير خمسين ألف أسير في بناء قلعة الجبل، التي جعلها صلاح الدين الأيوبي قصراً لحكمه.

السجن الرهيب: سجن الأجنّة الطالبية في بطون أمهّاتهم مائة عام وعامين:

عندما نفّذ صلاح الدين الأيوبيّ انقلابه الأخير على الدولة الفاطمية، أقدم على سجن أمراء ونساء العائلة الفاطمية في سجنين منفصلين، سجن للنساء وسجن للرجال والذكور والصبيان والأطفال.

فبلغوا ثمانية آلاف ذكر وعشرة آلاف أنثى ومن أبناء الخلافة مائة وثلاثون ذكراً. ومن الأطفال خمسة وسبعون طفلاً.

وكان بين النساء من كانت منهن تحمل الأجنّة في بطونهنّ، فولّدن داخل السجن، فعاش هؤلاء المولودون الجدد في السجن الرهيب، سجن صلاح الدين الأيوبي، ونموا ونشأوا وترعرعوا وكبروا وبلغوا سن الشباب والرجولة والشيخوخة والكهولة في هذا السجن، وكان موت آخر واحد منهم سنة ٦٧١ هـ، فمن سنة ٥٦٩ هـ حتى سنة ٦٧١، هناك مائة وعامان.

فكيف وصف لنا المقريزي الحبس والمحبوسين من هؤلاء والأمراء؟

يقول المقريزي:

لما مات العاضد لدين الله في يوم عاشوراء من سنة تسع وستين وخمسمائة، احتاط الطواشي قراقوش على العاضد وأولاده، فكانت عدّتهم مائة وثلاثون، ومن الأطفال خمسة وسبعون، وجعلهم في مكان أفرد لهم خارج القصر. ثم جمع عمومته وعشيرته في إيوان القصر واحترز عليهم. وفرّق بين الرجال والنساء لئلاّ يتناسلوا، وليكون ذلك أسرع لانقراضهم»[1].

ويخبرنا المقريزي، أنّ السلطان صلاح الدين، استمرّ يبيع في موجودات قصر العاضد مدة عشر سنين. وحاول أن يقدّر ما أخرج من هذا القصر طيلة السنوات العشر فقال: «إنّ ما أخرج من القصر

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٤٩٦.

ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح، ما لا يفي به ملك الأكاسرة ولا تتصوّره الخواطر الحاضرة، ولا يشتمل على مثله في الممالك العامرة، ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق في الآخرة».

ونقل المقريزي عن خط المهذّب عليّ بن الخيمي عن أسامة بن منقذ «أنّ القصر أغلق على ثمانية عشر ألف نسمة، من شريف وشريفة، وثمانية آلاف عبد وخادم وأمة ومولّدة وتربية».

ونقل عن ابن عبد الظاهر قوله: لما أخذ صلاح الدين القصر، قبض على الأمير داوود بن العاضد، وكان ولي العهد، وينعت بالحامد لله، وأُعتقل معه جميع أخوته الأمير أبو الأمانة جبريل، وأبو الفتوح وابنه أبو القاسم، وسليمان بن داوود، وعبد الظاهر حيدرة بن العاضد، وعبد الوهاب بن إبراهيم بن العاضد، وإسماعيل بن العاضد وجعفر بن أبي الظاهر بن جبريل وعبد الظاهر بن أبي الفتوح بن جبريل بن الحافظ، وجماعة من بني أعمامهم، فلم يزالوا في الاعتقال بدار الأفضل من حارة برجوان، إلى أن انتقل الملك الكامل محمد بن العادل بن أبي بكر بن أيوب من دار الوزارة بالقاهرة، إلى قلعة الجبل. فنقل معه أولاد العاضد وأخوته وأولاد عمه، واعتقلهم في القلعة، واستمرّوا بها حتى انقرضت الدولة الأيوبية وملك الأتراك، إلى أن تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، سنة ٦٦٠ هـ وهم معتقلون»[1].

(١) م.س. نفسه، ص ٤٩٧.

وكانت لهم بعض الأوقاف، فانتزعها منهم الظاهر بيبرس بأخذ توقيع من بقي منهم على قيد الحياة وامتلكها لنفسه رغم أنّها من الأوقاف الإسلامية، بحجة أخذ هذه التواقيع.

ويخبرنا المقريزي عن أحد أقارب الخليفة المستنصر حينما أصابه مرض وأثخن فيه سنة ٥٨٣ هـ، «ففُكّ حديده ونُقل إلى القصر الغربي واستمرّ مريضاً ولم يتعاف، وطُلب ففقد. واسمه موسى بن عبد الرحمن بن أبي محمد بن أبي اليسر بن محسن بن المستنصر. وكان طفلاً وقت وقوع الكائنة بأهله وأودع سجن القصر الغربي إلى أن كبر وشبّ». وقال المقريزي: إنّه كان عدد ما بقي على قيد الحياة سنة ٥٨٣هـ من المعتقلين في سجن القصر الغربي من ذرّية العاضد: مائتان واثنان وخمسون شخصاً، وثمانية وتسعون من الذكور، ومائة وأربع وخمسون من الإناث.

ووصفهم المقريزي في اتعاظ الحنفا فقال: «وقبض السلطان صلاح الدين على داوود بن العاضد، وعلى بقية أولاده وأقاربه في سادس شعبان سنة ٥٦٩هـ، وفرّق بين الرجال والنساء حتى لا يحصل نسلٌ منهم وأعطى القصر الكبير لأمرائه فسكنوا فيه، وصار كلّ من استحسن من الغزّ (الأكراد) داراً أخرج صاحبها منها وسكنها.

ونقلوا إلى قلعة الجبل سنة ٦٠٨ هـ، فمات منهم حتى سنة ٦٢٣ هـ، ثلاثة وعشرون نفراً. وتولّى وضع القيود في أرجل من بقي منهم على قيد الحياة الأمير فخر الدين الطبنا، أبو شعرة بن الدويك، والي القاهرة.

ونقلاً عن ابن الخيمي، أنّه عندما اعتقل بقلعة الجبل سنة ٦٢٣ هـ وجد من الأشراف العبيدين أربعين شريفاً مكبّلين بالأصفاد. وذكر أسماءهم.

وينهي المقريزي كتابه بقوله: «ولم يزالوا معتقلين بقلعة الجبل، إلى أن حوّلوا منها سنة ٦٧١ هـ»[1].

وهذا الحقد المجبول في نفوس هؤلاء الأكراد وادعيائهم المماليك، الذي لم تعرف الإنسانية مثيلاً له، لأنّ في قتل الإنسان راحة له، أما تركه مكبّلاً بالأصفاد من ساعة يخلق حتى يبلغ المئة سنة من عمره، دون احترام لأصله النبوي، أو احترام جدّه أو احترام إنسانيته، أو حتى كبر سنّه وشيخوخته، فلم يعرف هذا الحقد إلا عند هؤلاء الأكراد وادعيائهم المماليك. وعند منظرّيهم وفقائهم أمثال أحمد ابن تيمية وتلاميذه.

وسيستمرُّ هذا المشهد ماثلاً في صفوف المسلمين، وسيبقى الظلم التاريخي واقعاً على كلّ من اعترف بولاية عليّ وأفضليّته وتقدّمه على غيره من صحابة النبي.

إذا لم يجتمع فقهاء المسلمين من كل المذاهب ويعاد النظر بفتاوى أحمد ابن تيمية بحقّ المذاهب الإسلامية الأخرى المخالفة له.

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٣٤٨.

أهمية نقابة الأشراف الطالبيين
في الحياة السياسية الفاطمية

عرف التاريخ الإسلامي، العديد من المؤسسات الاجتماعية والقانونية والعسكرية، كالحسبة ونقابة الطالبيين الأشراف والقضاء. ومنها ما استمرّ بقوة موجوداً في حياتنا اليومية كالقضاء المتمثّل بوزارة العدل، ومنها ما تطوّر ونتج عنه عدّة مؤسسات، كالحسبة التي توزّعت مهامها في أيامنا هذه، بين مديرية الشرطة ومديرية الاستقصاء، ومديرية مكافحة الغشّ، ومؤسسات المجلس البلدي في كلّ قرية ومدينة. أما نقابة الطالبيين، فقد أُلغي دورها في الحياة اليومية بإلغاء الخلافة الإسلامية، على يد الغازي مصطفى كمال (أتاتورك)، رغم اضطلاع هذه المؤسّسة بأخطر وأشهر المهمّات في عالم الإسلام. وهو دور التقريب بين وجهات نظر الحكّام المسلمين فلم يعطها أي من الباحثين الأهمية الكبيرة المتوازية مع قيمتها الاجتماعية والسياسية والدينية.

خلفاء بني العباس يقيمون نقابة للطالبيين:

في أواخر عهد الدولة الأموية، كثرت الحركات المعادية للدولة

الأموية، وكلّها كان يرفع شعار: «للرضا من آل البيت» وكان من المعروف أن آل البيت أو أهل بيت النبي، هم أصحاب الكساء أي علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وكلّ من خرج من صلبهم، أما آل عقيل بن أبي طالب وآل جعفر بن أبي طالب وآل العباس بن عبد المطلب، فلم يكونوا يحسبون على أنّهم من أهل بيت النبي، طوال الحكم الأموي، بل كانوا من أبناء عمومة النبي، لذلك لم يطاردهم الأمويون ولم يحاولوا استئصال شأفتهم، والكتاب الذي سطّره أبو الفرج الأصبهاني: مقاتل الطالبيين، خير دليل على ذلك، فهو إن ذكر فقد ذكر عدداً من الشهداء الطالبيين المنتسبين إلى جعفر بن أبي طالب لا يتجاوز العشرة وبقية المقاتل التي ذكرها، كلّها تنتسب للحسن بن علي وللحسين بن علي عليهما السلام.

ولما نشبت الثورة العلوية على الأمويين أيام جعفر بن محمد آخر خلفاء بني أميّة، رفع الثوار كلّهم الشعار المذكور، للرضا من آل البيت، ولكن أي آل بيت؟ وكانت النتيجة أن دخل أبناء العباس بن عبد المطلب على خط آل البيت، وأزاحوا آل علي بن أبي طالب عليهما السلام، واختطفوا الخلافة من أيدي الثوار العلويين، بعد قتل أبي مسلم الخراساني، وتشتيت أبناء علي بن أبي طالب عليهما السلام في مشارق الأرض ومغاربها. ولكثرة الثورات العلوية في أنحاء الخلافة العباسية، قام العباسيون بابتداع مؤسّسة أطلقوا عليها اسم «نقابة الطالبيين». هدفها حفظ أنساب آل علي بن أبي طالب، ومراعاة شؤونهم وصرف مستحقّاتهم من الفيء والخمس من بيت مال المسلمين. وجعلوا مركز ومكان نقيب النقباء الأشراف في بغداد. وجعلوا للنقابة فروعًا في كلّ المدن الكبيرة والبلاد والأمصار التابعة لهم.

كما أقاموا بموازاتها نقابة العباسيين وجعلوا لها من المخصّصات والفروع ما لنقابة الطالبيين.

وكان الهدف من إنشاء هاتين النقابتين وضع الطامعين بالخلافة تحت أعين الخليفة مباشرة، من طالبيين وعبّاسيين، وإغراقهم بنعيم الأموال والمخصّصات والرواتب لإغراقهم في ملذّات الدنيا، تمهيداً لنزع القداسة التي يراها العامة فيهم. وقد أكثرت كتب التاريخ الإسلامي من الإشارة إلى نقباء الطالبيين الأشراف، وقلّلت من الإشارة إلى نقابة العباسيين، ربما لوجود العباسيين على رأس الخلافة.

نقابة الطالبيين في بلاد الخلافة العباسية:

قلنا إنّ العباسيين هم أول من وضعوا أسس النقابة وعملها ووظائفها. وقد كان من وظائفها وهي «وظيفة شريفة، ومرتبة نفيسة، موضوعها التحدّث عن ولد علي بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه من فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وهم المراد بالأشراف، في الفحص عن أنسابهم والتحدّث في أقاربهم، والأخذ على يد المعتدي منهم»[1].

ويتبيّن لنا من هذا النص، أن المنتسب لنقابة الطالبيين له حصانة، كالمنتسب لنقابة المحامين في أيامنا، فلا يستطيع قائد الشرطة القبض عليه، إلا بموافقة نقابته.

وكانوا يطلقون على نقيب النقباء زمام الأشراف أو إمام

---

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، هامش. م.س. ص ٢٦.

الأشراف، وهو الذي يقوم بالإشراف على أعمال أقارب الخليفة أيضاً وكلمته نافذة عليهم، وكان من يتولاها جليل القدر، وله النظر في أمورهم ومنع من أن يدخل فيهم من الأدعياء الضعيفي النسب، وكان النقيب يعود مرضى الطالبيين، ويمشي في جنائزهم ويسعى في حوائجهم، ويأخذ على يد المعتدي منهم.

ومما أورده المؤرّخون من أخبار نقابة الطالبيين في الدولة العباسية:

في سنة ٣٥٩ هـ، ذكر أبو المحاسن أنّ الذي ترأّس حملة الحج العباسية، النقيب أبو أحمد الموسوي «والد الرضي والمرتضى، وهم محط رحال الشيعة في زمانهم، والثلاثة رافضة».

وفي سنة ٣٦٠ هـ، كذلك ترأّس بعثة الحج العباسية، النقيب أبو أحمد الموسوي.

ويخبرنا ابن الأثير ذهاب النقيب أبي أحمد الموسوي بسفارة بين الخليفة المقتدر وأبي تغلب بن حمدان.

وبعد موت الشريف «أبو أحمد الموسوي» تقلّد ولده الشريف الرضي نقابة الطالبيين بالعراق، ولُقّب بالرضي ذي الحسبين، ولُقّب أخوه المرتضى ذا المجدين. وقد قلّدهما هذا الأمر السلطان البويهي جلال الدولة.

ويخبرنا ابن الأثير أيضاً أنّه: في حوادث سنة ٤٠٣ هـ، أعيد تقليد الشريف الرضي نقابة العلويين ببغداد «وخلع عليه سواد، وهو أول طالبي يخلع عليه السواد».

ويخبرنا ابن الأثير عن حوادث سنة ٤١٥ هـ، أنّ العباسيين والطالبيين اختلفوا في بغداد وقتل من العباسيين ستة أنفار، واستنجد كلّ منهم بنقيبه ونقابته، «فتقدّم الخليفة القادر بالله بالإصلاح بينهم» وكانت النتيجة إزاحة المعتدي عن نقابة الكوفة.

كما أنّه يذكر أن عضد الدولة كان قد عزل والدهم عن النقابة بتهمة إفشاء أسرار الدولة. والذي اتهمه بإفشاء الأسرار، هو ابن كثير، ولا نعلم من أين استقى ابن كثير معلوماته، رغم البعد الزمني بين الحادثة وبين إعادة تأريخها.

كما أنّ ابن الأثير يذكر لنا إقدام عضد الدولة على سجن النقيب أبي أحمد الموسوي، مما يدلّ على أهمية هذا الموقع وصلته بالحكّام.

سعة ثراء النقيب الطالبي أيام العباسيين:

عندما ذكر ابن الأثير حوادث سنة ٣٩٠ هـ، أخبرنا عن نقيب الطالبيين، «أبو الحسن محمد بن عمر العلوي»، فقال: ولد سنة ٣١٥هـ وسكن بغداد، وكانت له أحوال كثيرة وضياع ودخل عظيم، وحشمة وافرة وهمّة عالية. وكان مقدّماً على الطالبيين في وقته. سجنه عضد الدولة البويهي واستحوذ على معظم أمواله وقيل إنّه أخذ منه مليون دينار ذهباً ثم أطلقه واستنابه على نقابة طالبيي بغداد. ويقال إنّ غلاّت بساتينه وضياعه كانت تدرّ عليه في كلّ سنة مليوني دينار ذهباً.

ثم اعتقله ولده بهاء الدولة وأخذ منه أيضاً مليون دينار ذهباً.

وروى ابن الأثير عن الشريف المرتضى أنّه كان يملك أربعين قرية. وكانت زكاة أمواله عشرة آلاف دينار.

الشريف الرضي موظف في النقابة:

عندما ذكر ابن الأثير حوادث سنة ٢٩٦ هـ، وهي السنّة التي ابتدأ فيها أمور ظهور الدولة الفاطمية على يد عبيد الله المهدي، يذكر لنا محقق الكتاب في الهامش أخبار ارتقاء هذه الدولة الشيعية الفتية، وامتداد سلطتها حتى ضايقت بغداد والخليفة العباسي، مما دفع به إلى جمع علماء بغداد وعلماء النسب والإيعاز إليهم بإقامة محضر طعن بنسب الخلفاء الفاطميين وتوقيعه من قبلهم وتعميمه على كلّ أطراف الخلافة العباسيّة. وكان من موقّعي هذا المحضر نقيب الأشراف الطالبيين في الدولة العباسية أبو أحمد الموسوي والد الشريفين الرضي والمرتضى، وقد وصف لنا ابن الأثير محضر الطعن وأسماء الموقّعين وأشرنا إليه سابقاً، ولكن الشريف الرضى، بدل أن يوّقع على هذا المحضر، نظم قصيدته المشهورة التي عرّض فيها بالخليفة العباسي واعترف بالخليفة الفاطميّ، فجاء وقعها كالصاعقة على رأس الخليفة العباسي القادر بالله ومما جاء فيها:

ما مقامي على الهوان وعندي ... مقولٌ صارمٌ وأنفٌ حميُّ

ألبس الذلّ في بلاد الأعادي ... وبمصر الخليفة العلوي

من أبوه أبي ومولاه مولا ... ي إذا ضامني البعيد القصيُّ

لفّ عرقي بعرقه سيّدا الناس ... جميعاً محمّد وعليُّ

فقلب الطاولة على المجتمعين، وجعل من محضرهم حبراً على ورق لا قيمة له، فنسبُ الشريف الرضي علمٌ في رأسه نار. واعترافه بأنّ الخليفة العلوي هو وإياه عرق واحد، «عرق سيدا الناس جميعاً محمّد وعليّ» أوقع القادر بالله في حالة ارتباك. ويقول ابن الأثير: إنّ القادر بالله لما بلغته هذه الأبيات أرسل وراء نقيب النقباء الشريف

أبي أحمد الموسوي والد الشريف الرضى وقال له: قد عرفت منزلتك منا، وما لا نزال عليه من الاعتداد بك بصدق الموالاة منك، وما تقدّم لك في الدولة من مواقف محمودة، ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه، ويكون ولدك ضدّه. وقد بلغنا أنّه قال شعراً كذا وكذا، فيا ليت شعري على أيّ مقام ذل أقام؟ وهو ناظر في النقابة والحج وهما من أشرف الأعمال. ولو كان بمصر لكان كبعض الرعايا.

والعتاب طويل، كنا قد أشرنا إليه في محضر الطعن بالنسب ولكن يجدر الإشارة إلى أنّ الشريف الرضى رفض الاعتذار فطرده والده من بيته. كما يجدر الوقوف عند عدة أمور منها: إنّه كان هناك وظيفة ناظر في النقابة العباسية، وكانت النقابة ترأس بعثة الحج الرسمية، وكان هناك وظيفة ناظر لبعثة الحج.

والأمر الثاني، قول القادر بالله أنّه لو كان الشريف الرضي في مصر لكان كبعض الرعايا العاديين، وهذا غير صحيح، فقد كان الأشراف الطالبيين في المرتبة الثانية في المجتمع المصري، فالأمراء أهل القصر، كانوا في الصف الأول من المجتمع يليهم الأشراف الطالبيون، ثم الزيديون والعباسيّون. ثم الوزراء والأجناد وكبار الموظفين.

وبعد موت النقيب أبي أحمد الموسوي تولى النقابة بعده ولده الشريف الرضى، وقد وليها لإسكاته على طلب حقّه بالخلافة ولكنه لم يسكت فقد كان يعتبرها مرحلة مؤقتة لامتلاك شرق العلى وغربه فهو يقول[1]:

---

(١) ديوان الشريف الرضي، الجزء الأول، ط ١، بيروت، دار بيروت سنة ١٩٩٦، ص ٣٥٨.

قل للعدى موتوا بغيظكم فإن الغيظ مُردي
ودعوا عُلَيَّ أحرزتها يا وادعين بطول جُهْدِ
كم بين أيديكم وبين النجم من قرب وبُعْدِ
وَليَ النقابة خالُ أميّ قَبْلُ ثم أبي وجدّيَ
وُلّيتِها فضلاً فهل مَجْدٌ يُعَدَّدُ مثل مجدي
وأظنّ نفسي سوف تحملني على الأمر الأشدّ
حتى أُرى متمَلكاً شرق العُلى والغربَ وحدي

ولم يكن هناك تناقض في صلاحيات النقابتين الطالبية والعباسية، فحين توفي نقيب العباسيين أبو الحسن محمد بن علي الزينبي، رثاه الشريف المرتضى بقصيدة جاء فيها[1]:

مصاب هوى بالشمّ من آل هاشم وضعضع ركناً من لؤيّ بن غالب
نسيبي بالود الصحيح وفضلةٌ على ودّنا ما بيننا من مَناسب
فلما تُوُفّي الزينبيُّ محمدٌ وسارت بما لاقاه أيدي الركائب
نفضت من الخلاّن كفّي بعده ولوّيت عن دار الأخوّة جانبي

وقد ذكر العلامة محمد رضا الشبيبي بحثاً طويلاً عن آل الزينبي وترأسهم مركز نقابة العباسيين في مقدمة هذا الديوان[2].

ويخبرنا ابن الأثير أنّه عندما قرر الخليفة القائم بالله العباسي تكليف محمود بن صالح بن مرداس بولاية حلب، أرسل له مرسوم التكليف وخلع الولاية مع نقيب النقباء العباسين طرّاد بن محمد

---

(١) ديوان الشريف المرتضي، الجزء الأول، ط ٢، بيروت، دار الهدى، سنة ١٩٨٧، ص ٢٢٨.

(٢) راجع: م.س. ص ١٧٠.

الزينبي[1]، فمدحه ابن حيّوس ووصف الخلع الآتية من الخليفة القائم فقال:

وأتاك من إكرامه وحفاته ما جاوز الإكرام والتبجيلا
وملابس لبست بك الفخر الذي لا تستطيع له العدى تبديلا

ويخبرنا ابن الأثير أنّه لما توفي القائم بأمر الله، اجتمع أعيان بغداد لمبايعة ولده المقتدي بأمر الله، ومنهم نقيب النقباء طراد الزينبي وهو نقيب العباسيين والنقيب الطاهر، المعمر بن محمد وهو نقيب الطالبيين وغيرهم من الوزراء والقواد والأعيان.

وقيل كان أول من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الهاشمي. وهذا ما يدلّ على أهمية نقابة الطالبيين في الحياة السياسية الإسلامية،

ولم تطل حياة المقتدى بالله، بل توفي بعد تسع سنين، وخلفه ولده المستظهر بالله وتمّت البيعة على يد النقيبين العباسي والطالبي[2].

وكانت الوصية بولاية العهد لا تتم إلا بحضور النقيبين وقاضي القضاة، فعندما مرض الخليفة العباسي القائم، استدعى النقيبين وقاضي القضاة «وأشهدهم على نفسه أنّه جعل ابن ابنه عبدالله بن محمد وليّ عهده»[3].

وعندما كتب الشريف الرضى قصيدته بمدح الحاكم بأمر الله

---

(١) ديوان ابن حيّوس، الجزء الثاني، ط ١، بيروت، دار صادر، سنة ١٩٨٤. ص ٤٢٠.
(٢) الكامل في التاريخ، الجزء الثاني، م.س. ص ٨١٧.
(٣) راجع: مختصر الدول. م.س. ص ٣٢٤.

الفاطمي، ورفض إنكارها، أقدم الخليفة العباسي على عزل والده وعزل نائبيه عن النقابة، وهما ولداه الرضى والمرتضى. والجديد في الأمر أنّه عين مكانه نقيباً، الشريف أبي الحسن محمد بن أبي تمام الزينبي العباسّي، مما يعني أنّه لا فرق بين نقابة الطالبيين ونقابة العباسيّين عند الخلفاء العباسيين. فأصبح الشريف العباسي أبو الحسن الزينبي نقيباً على النقابتين: العباسية والطالبية.

ألقاب الخلفاء وألقاب النقباء:

جرت العادة أن يطلق على كلّ خليفة لقب يدلّ على تديّنه وورعه، وكذلك، جرت العادة أن يطلق على نقيب الأشراف، طالبيين كانوا أم عباسيين، فعندما كلّف الخليفة العباسي القادر بالله، الشريف أبا أحمد الحسين بن موسى، (والد الشريفين الرضى والمرتضى) قضاء القضاة و الحج والمظالم ونقابة الطالبيين، لقّبه بهاء الدولة، والطاهر الأوحد ذا المناقب[1].

وكان لكل بلد كبيرة أو قضاء أو ولاية كبيرة، نقيباً يتبع لنقيب النقباء في بغداد، كنقيب الكوفة محمد بن محمد بن عمر العلوي (سنة ٤٠٣هـ).

ومن نقباء الطالبيين من قبل الدولة العباسية في مصر عُرف أحمد بن طباطبا العلوي الطالبي، ولي نقابة الأشراف في مصر وتوفي سنة ٣٤٥هـ.

ومن الذين تولّوا نقابة العباسين، أحمد بن يوسف من نسل

---

(١) راجع: النجوم الزاهرة، الجزء الرابع. م.س. ص ٢١١.

المأمون وهارون الرشيد والمعروف بابن الزوّال، قلده الخليفة المستضيء بالله النقابة وعزله عنها الخليفة الناصر[1].

الشريف أحمد جلال الدين الصيداوي العاملي، آخر نقيب للأشراف:

في شهر شباط سنة ١٩٤٨ م، صدرت مجلة العرفان العاملية وفيها صورة الشريف العلوي الطالبي نقيب أشراف صيدا، الشيخ أحمد جلال الدين، بالعمامة السوداء، وقد نعته المجلة في هذا الشهر، وكان آخر نقيب للأشراف الطالبيين في العالم، حيث أنّ نقابة الطالبيين، أبطل العمل بها بانتهاء الدولة العثمانية، آخر دولة للخلافة الإسلامية. وعن نسبه، كتبت المجلة: أما نسبه: فهو الشيخ أحمد بن السيد علي ابن السيد حسين، إلى أن يتصل نسبه بالسيد جلال الدين البخاري، أوّل من استوطن صيدا من هذه العائلة الشريفة، إلى أن يتّصل بالإمام جعفر الصادق عليه السلام، إلى أن يتّصل بالإمام الحسين بن علي شهيد كربلاء عليه السلام[2].

وقد ذكر ابن الأثير مجيئهم من الكوفة وكانوا يتوّلون النقابة فيها خلفاً بعد سلف[3].

نقابة للمتعمّمين:

عندما تحدّثنا عن نقيب العباسين ونقيب الطالبيين الأشراف، علمنا أن هناك نقابتين للأشراف الطالبيين والعباسيين، وسوف نتحدث عن نقابة الأشراف الزيدين، في الدولة الفاطمية، ولكن ابن

---

(١) راجع: الوافي بالوفيات، الجزء الثاني، ص ٢٨٤.

(٢) العرفان، المجلد ٣٤، صيدا، سنة ١٩٤٨، ص ٦٣٠.

(٣) راجع: الكامل في التاريخ، الجزء السابع، ص ٣١٦.

أيبك الصفدي، عندما يحدّثنا عن أحمد بن شهاب، يخبرنا بأنّه نقيب المتعمّمين بدمشق، مما يعني أنّ من كان يلبس عمامة لتدلّ على وظيفة العلم أو المشيخة أو القضاء. فلربما كان لهم نقابة تحفظ وظيفتهم وأنسابهم، وتدلّ عليهم. ولم يسمع قبل ابن شهاب هذا بنقيب للمتعمّمين أو نقابة لهم[1].

وضع الأشراف الطالبيين في الدولة الفاطمية:

عندما أتى الفاطميون إلى مصر وأسّسوا القاهرة كعاصمة لهم، كانت نقابة الأشراف الطالبيين موجودة في مصر، فابن أيبك الصفدي يحدثنا عن الشريف محمد ابن أسعد الجواني، نقيب الطالبيين في مصر أيام كافور الأخشيدي، وقد توفي سنة ٣٤٥هـ أي قبل مجيء جوهر الصقلي بثلاث عشرة سنة.

وعندما وصل جوهر إلى مصر، ودخوله إليها تقدّم إليه أعيان مصر ووجهاؤها بدعوته إلى بيوتهم، فرفض دعوة الجميع باستثناء دعوة الشريف مسلم. وعندما قرّر توزيع الصدقات، أعلن في مصر والفسطاط: من يريد الصدقة فليأت إلى دار الشريف مسلم.

وعندما دخل الخليفة المعزّ لدين الله، القاهرة، جاءته الألطاف والهدايا من أعيان مصر أيضاً فقبلها شاكراً ولم يقبل أن يتناول الطعام إلا في دار الشريف مسلم، تأكيداً على أهمية صلة النسب الفاطمي وتكريماً له.

---

(١) راجع: الوافي بالوفيات، الجزء الثاني، ص ٣٠٤.

ويخبرنا المقريزي أنّه في أول لقاء بين الخليفة المعزّ لدين الله وبين أعيان مصر، سأل الخليفة المعزّ الشريف أبا جعفر مسلم عن الأشراف الطالبيين، فتقدم إليه منهم: أبو حسن محمد بن أحمد الأدرع الطالبي وأبو إسماعيل الرسّي الطالبي وعيسى أخو مسلم وعبدالله بن يحيى الطالبي. فدعاهم على الركوب إلى جانبه وقدّم إلى الشريف مسلم ناقة عليها قبّة محلاّة بالذهب.

وعندما جلس المعزّ لأول مرة في قصره بالقاهرة وسمح للناس بالدخول عليه، أمر بأن يكون أول الداخلين، الأشراف الطالبيين.

وكان عندما يدخل المعزّ للصلاة، يقف أبو جعفر مسلم الطالبي عن يمينه ومحمد بن أحمد الأدرع الحسيني الطالبي عن يساره.

ودخل الناس ذات يوم إلى قصر المعزّ، يتزاحمون فقال إنسان لبعض الأشراف؛ إجلس يا شريف، فصرخ به أحد حرس الخليفة المعزّ: أفي الدنيا شريف غير مولانا المُعِزّ، لو ادّعى هذا غيره لقتلناه. فوصل الخبر للخليفة المعزّ، فجمع كلّ الأشراف الطالبيين والزيديّن الموجودين في القاهرة ومصر وقال لهم:

«يا معشر الأهل وبني العم من ولد فاطمة: أنتم الأهل، وأنتم العدّة، وما نرضى بما بلغنا من القول. وقد أخطأ من تكلّم بما قيل لنا. لكم بحمد الله الشرف العالي، والرحم القريبة، ولئن عاود أحدٌ لمثلما بلغنا، لننكلن به نِكالاً مشهوراً»[1].

---

(١) اتعاظ الحنفاء، الجزء الأول، ص ١٤٧.

نقابة الأشراف الطالبيين في الدولة الفاطمية:

كان لهذه المؤسّسة من الاحترام والتقدير فيّ الدولة الفاطمية ما جعلها من المؤسسات المؤثّرة في المجتمع الإسلامي المصري. فقد كان نقيب الطالبيين مشاركاً في كلّ الاحتفالات الرسمية، وأيام الأعياد وليالي رجب وشعبان ورمضان. وقد بلغت أعيادهم ما يقارب التسعة أشهر (٢٧٠ يوماً). وقد وصفها المقريزي وابن المأمون والمسبّحي وابن تغري بردي. وذكر القلقشندي أكثر سجّلاتها ومراسيمها في كتابه صبح الأعشى. ومن هذه السجلات، نقله عن المعزّ الشهابي، جاء فيه:

«الحمد لله مشرّف الأنساب، وموفي الأحساب حقوق ملاحظتهم بغير حساب وجاعل أيامنا الشريفة تحمد الاكتساب.

نحمده بمحامد حسنة، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمّداً عبده ورسوله ونبيّه الذي أنزل عليه الكتاب، وشرّف به الذراري من شجرته المباركة، الأعقاب، صلى الله عليه وعلى آله، صلاة لا تتوارى شمسها بحجاب.

ولما كانت العترة الطاهرة النبوية ورّاث الوحي الذين آل إليهم ميزاته، وأهل البيت الذين حصل لهم من السؤدد آياته. وقد سأل الله لهم القربى، وخصّهم بمزايا حقيق بمثل متصرّفهم وأنّها لهم تُجبى.

وكان لا بدّ لهم من رئيس ينضد سلكهم وينظمه، ويعظّم فخرهم ويفخّمه، ويحفظ أنسابهم، ويصقل بمكارمه أحسابهم. وينمّي بتدبيره رَيْعَهم، ويحفظهم في ودائع النسل، ويحرس نظامهم، ويوالي إكرامهم ويأخذهم بمكارم الأخلاق، ويمدّهم بأنواع الإرفاد والإرفاق، ويتولّى ردع جانيهم إذا لم يسمع».

وبعد مداخلة طويلة، يُنهي المرسوم بتحديد اسم النقيب بقوله: واقتضي حُسنُ الرأي المنيف أن رسم بالأمر الشريف، أن تُفوَّض إليه نقابة الأشراف الطالبيين على عادة من تقدّمه من السادة النقباء.

فليجمع لهم من الخير ما يبهج الزهراء البتول فعله، ويفعل مع أهله وقرابته منهم ما هو أهله، وليحفظ مواليدهم، ويحرز أسانيدهم، ويضبط أوقافهم، ويعتمد إنصافهم، ويثمر متحصّلاتهم ويكثر بالتدبير غلاّتهم، ويأخذ نفسه بمساواتهم، في جميع حالاتهم[1].

وعندما كان البعض يحاول ادعاء النسب الطالبي، كان عليه أخذ توقيع نقيب الطالبيين وشهادته بصحة نسبه، وفي حال عدم قدرة المدّعي على إثبات نسبه يحال للمحاكمة والسجن، فقد أخبرنا المسبّحي أنّه في آخر شهر ربيع الثاني من سنة ٤١٤ هـ، على عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله «ضرب رجل ادعى الشرف، وطيف به وحمل على جمل في شوارع القاهرة ومصر».

كما أننا نعلم من خلال حديث المسبّحي عن الأشراف الطالبيين في مكة، أنّ كلّ الأشراف الطالبيين في كافة بلاد الخلافة الإسلامية الفاطمية، كان لهم رسوم ومخصّصات ورواتب، لم تنقطع طوال مدّة الخلافة الفاطمية.

ويقول الباحث محمد حلمي أحمد، أنّ نقابة الطالبيين هي هيئة رسمية أنشأها الفاطميّون للنظر في شؤون العلويين، وكان يتولّى رئاستها واحد من كبار شيوخهم وأجلّهم قدراً، يسهر على صحة

---

(١) راجع: صبح الأعشى، الجزء ١، ص ١٦٢.

أنسابهم ويثبتّها ويرعى مصالحهم، ويعود مرضاهم ويمشي في جنائزهم، ويقول حلمي أحمد، أنّها عرفت فيما بعد بنقابة الأشراف.

أهمية مركز نقابة الطالبيين برأي المقريزي:

وصف لنا المقريزي نقيب الأشراف، فأبرز ما كان لهذا المركز من أهمية واحترام في الدولة الفاطمية، حتى وكأنّه كان يعتبر المركز الثالث بعد مركز الإمامة أو الخلافة ومركز داعي الدعاة فقال المقريزي:

وكان لنقيب الأشراف إثنا عشر نقيباً ويخلع عليه (يهدى في كلّ مناسبة هدايا جليلة)، ويسير بالطبل والبوق والبنود مثل الأمراء، وله ديوان ومشرف وعامل ونائبه وراتبه في الشهر عشرون ديناراً، وللمشرف على ديوانه عشرة دنانير، ولنائبه في النقابة ثمانية دنانير، وللعامل خمسة دنانير[1].

وكان مكتب النقابة الرئيسي في القصر الغربي، وكان الخليفة المستنصر قد تكلّف على ترميمه مليوني دينار ذهباً، وأعدّه ليجعله مقرّاً لنقيب العباسيين. الخليفة العباسي المعزّول، من قبل البساسيري، القائم بأمر الله، ولكنه لم يتم الأمر لأسباب سوف نشرحها لاحقاً.

نقابة الأشراف الزيديّين:

من خلال قراءتنا لكل كتب التاريخ الإسلامي التي أرّخت للعباسيين، ومن بعدهم للأكراد وللمماليك وللأتراك العثمانيين، لم

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٣٤٢.

نجد نصاً يشير إلى أنّه كان هناك نقابة للأشراف الطالبيين من نسل زيد بن علي عليه السلام.

ولكن يجد المطّلع على الكتب التي أرخت للدولة الفاطميّة كالمقريزي في خططه وفي اتعاظ الحنفا، ترداد مصطلح النقيب الزيدي والأشراف الزيديين. مما يدلّ أنّ الفاطميين سمحوا بوجود نقابة للأشراف الطالبيين بشكل عام، ونقابة للأشراف الطالبيين من نسل زيد بن علي. أما نقابة العباسيين فلم يسمحوا بوجودها رغم اعترافهم بشرف النسب العبّاسي، حيث كانوا يطلقون على بعض الرعايا من نسل العباس بن عبد المطلب: الشريف العبّاسي لكنّ دون إشراكه في الحكم أو في الفيء أو في مخصّصات بيت مال المسلمين والفطرة والخمس.

وتجدر الإشارة إلى أنّه، رغم عدم اعتراف الفاطميين بالعباسيين وأنّهم لم يسمحوا لهم في ظل خلافتهم بإقامة نقابة لهم، غير أن الخليفة المستنصر بالله، بعد إزالة الدعوة العباسية من بغداد على يد ابن البساسيري، قرّر ترميم القصر الغربي وجعله مقراً لنقابة العباسيين، وتكليف الخليفة العباسي المعزّول القائم بأمر الله بأمر هذه النقابة. ولكن لم يتمّ له هذا الأمر بسبب عودة الخطبة والقائم بأمر الله إلى بغداد.

ويقول المقريزي: إنّ المستنصر أمر أن يحمل إلى القائم بأمر الله العباسي مبلغ عشرة آلاف دينار وأن يُسيّر إليه على حال جميلة، وقرّر على أنّه إذا وصل إلى القاهرة، تلقّاه أحسن لقاء وبالغ في إكرامه. ويقال إنّه بنى القصر الغربي لينزله فيه، ويحمل إليه من الرواتب السنية ما ينسيه ما كان فيه، وأن يقرّر له في كلّ يوم مائة

دينار ذهباً، وأنّه سوف يجعله بين يديه في كلّ أوقات ركوبه، وبعد أن ترتاح نفسه، يعقد له عقد ألوية ولاية العراق، وكتب عهداً له بذلك وأرسله إليه، فمنعه حادث القدر من ذلك بسبب مقتل البساسيري وعودة القائم بأمر الله إلى بغداد.

ومن أخبار النقيب الزيدي، أنّ الحاكم بأمر الله في سنة ٤٠١ للهجرة خلع على أبي القاسم عليّ بن أحمد الزيدي «وقُرىء له سجلّ بنقابة الطالبيين».

وفي سنة ٤٠٤ هـ، بلغ الخليفة الحاكم أنّ أبا القاسم علي بن أحمد الزيدي النقيب، عليه عشرون ألف دينار، فوقّع له بها مما عليه من الخراج، وبعث له بثلاثة آلاف دينار أخرى.

ترى هل النقيب الزيدي هو نقيب الزيديّين والطالبيّين الأشراف، أم نقيب الزيّدين؟ فالنصّ غير واضح!.

رأي ابن الطوير في نقابة الأشراف الطالبيّين:

يقول ابن الطوير عن هذه المؤسّسة:

أما نقيب الطالبيين الأشراف، فيُعَيّن من هذه الطائفة ويكون أجلّهم سمعة، وللنقيب في الخلع (التعيين) الطبل والبوق والبنود مثل الأمراء.

ولهذه النقابة ميزة، ولصاحبها النظر في أمور هذه الطائفة ومنع من يدخل فيهم من الأدعياء. وهم منّزلون (مسجّلون) عنده في جريدة (ملف). ويوجد نظيرها في ديوان الرواتب، فمن مات أسقطه، ومن وُلد أثبته بعد علم صحة الولادة وقرائن النسب والأحوال. وإذا ارتاب بأحد أخذه بإثبات ذلك بمن يوثق به من جيرانه، ثم يدرج

اسمه في الجريدة المقدّم ذكرها. ولهم أوقاف: رباعٍ (جمع ربع وهو الحوش المؤلف من عدة بيوت للسكن) معدّ للأجرة وغيرها.

وللنقيب ناتب عنه ملازم الديوان، يحصّل ما يستخرج من حال الأوقاف والرباع في صندوق تحت يد المشرف. وكان لا يكلف بهذا الديوان إلاّ الشيوخ العدول، ولا يُقطع أمر ولا تُؤجّر إجارة، ولا تعمر عمارة، إلا بموافقة هؤلاء الشيوخ.

ومن مهمّات النقيب تثقيف من سفّه نفسه وردعه عن أذيّة الناس باللوم والهيبة والأدب الخفيف إذا احتاج.

وعلى النقيب أيضاً أن يعود مرضاهم ويسعى في حاجاتهم ويشيّع جنائزهم كواحد منهم. وله مزية النقابة، وله عشرون ديناراً، وللمشرف على الديوان عشرة دنانير ولنائب النقيب ثمانية دنانير وللعامل خمسة دنانير، مشاهرة[1].

النقابة بعد الفاطميين تتحوّل إلى أداة لقمع الأشراف الطالبيين:

بعد ابتعاد الفاطميين عن مسرح السياسة الإسلامية وحلول الأكراد الأيوبيين مكانهم ثم المماليك، لم يلغوا منصب نقابة الأشراف، ولكنّهم غيروا وظيفتها وحوّلوها إلى أداة لقمعهم وللتجسّس على المتنفّذ منهم.

ففي أحد سجلّات أو مراسيم التكليف الصادرة عن أحد سلاطين المماليك لأحد الطالبيين، بتسلّم منصب النقيب، نجد فيه الوظيفة الجديدة والمهام الجديدة التي على النقيب أن ينفّذها.

---

(١) نزهة المقلتين، ابن الطوير، ص ١١٣.

وهذه صورة عن مرسوم التكليف بالنقابة:

وأرفق بهم (بالأشراف) فهم أولاد أمك وأبيك حيدرة والبتول.

١ ـ وكُفّ يد من علمت أنّه قد استطال بشرفه فمدَّ إلى العناد يداً.

٢ ـ واعلم أنّ الشريف والمشروف سواء في الإسلام إلا من اعتدى.

٣ ـ وأزل البدع التي ينسب إليها أهل الغلوِّ في ولائهم والغلو فيما يوحبب الطعن على آبائهم: لأنّه يُعلم أن السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ كانوا منزّهين عما يدّعيه خلف السوء من افتراق ذات بينهم، ويتعرّض منهم أقوامٌ إلى ما يجرّهم إلى مصارع حتفهم. فللشيعة عثرات لا تقال، من أقوال ثقال.

٤ ـ فسدّ هذا الباب سَدَّ لبيب، واعمل في حسم موادّهم عمل أريب، وقم في نهيهم والسيف في يدك قيام خطيب.

٥ ـ وخوّفهم (للشيعة) من قوارعك مواقع كلّ سهم مصيب.

٦ ـ فما دُعي «بحي على خير العمل» إلى خير من الكتاب والسنّة والإجماع.

٧ ـ ومن اعتزى إلى اعتزال (المعتزلة)، أو مال إلى الزيدية في زيادة مقال، أو ادّعى في الأئمّة الماضين ما لم يدّعوه، أو اقتفى في طرق الإمامية بعض ما ابتدعوه، أو كَذَب في قول علي صادقهم، أو روي عن يوم السقيفة والجمل غير ما ورد، أخباراً، أو تمثّل بقول من يقول إنّ عبد شمس قد أوقدت لبني هاشم ناراً، أو تمسّك بعقائد الباطن بظاهر، أو قال إنّ الذات القائمة بالمعنى تختلف عن المظاهر، أو تعلّق بأئمة الستر رجاء (أئمة الفاطميين)، أو انتظر مقيماً برضوى

عنده عسل وماء (محمد ابن الحنفية)، أو ربط على السرداب فرسه لحين يقول الخيل يَقْدُمُها اللواء (المهدي المنتظر)، أو تلفّت بوجهه يظنّ علياً ـ كرّم الله وجهه ـ في الغمام، أو تفلّت من عقال العقل في اشتراط العصمة في الإمام!.

٨ ـ فعرّفهم أجمعين أن هذا من فساد أذهانهم وسوء عقائد أديانهم.

٩ ـ ونكّل بمن علمت أنّه قد مالاً على الحق أو مال إلى فريق الباطل فَرَقاً. وطوى صدره على الغِلّ حنَقاً. واردعهم إن تعرّضوا في القدح إلى نضال نصال، وأمنعهم، فإنّ فرقهم كلها وإن كثرت، خابطةٌ في ظلام ضلال[١].

تلك هي الأمور الواجب متابعتها والاهتمام بها وتنفيذها لمن أراد أن يكون نقيباً للطالبيين في الدولتين الكردية والمملوكية.

صورة عن مرسوم تعيين الخليفة الظاهر لمحمّد بن علي الحسني الرسّي نقيباً[٢]:

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

صورة عن مرسوم تعيين الشريف محمد بن علي بن إبراهيم الرسّي نقيباً للأشراف الطالبيين:

«من عبدالله ووليّه الإمام عليّ أبي الحسن الظاهر لإعزاز دين الله أمير المؤمنين ابن الإمام الحاكم أمير المؤمنين إلى نقيب نقباء الطالبيين محمد بن علي الحسني الرسي، سلّمه الله:

---

(١) راجع: صبح الأعشى، الجزء ١١، ص ١٦٤.

(٢) الرسّي، تورد أحياناً بالنون: النرسيّ والصحيح حسب ما تتداوله العامة في مصر: المرسي، وان اللفظتين فيهما تصحيف.

بسم الله الرحمٰن الرحيم/ أمّا بعد: فالحمد لله شافع إحسانه بالمزيد، ومتابع إنعامه على الشاكر المستزيد، ومجير المعتصم بحبله من كَيْد الكائد، ومعيذ المستعيذين من شرّ الحاسد، الذي لا واضعَ لمن رفع، ولا ضارَّ لمن نفع، ولا تفاوت فيما خلق وصنع. لا إله إلاّ هو ربّ العرش العظيم، يحمده أمير المؤمنين على ما أسبغه عليه من جلائل نِعَمه، وأراه لديه من جسائم قِسمه، ويسأله أن يصلّي على جدّه محمد الذي ختم به عدة الأنبياء، وأيَّده بجنودٍ من الأرض والسماء، وأمدّه بالبرهان المشتمل على النور والضياء، وعضّده بأبينا أمير المؤمنين عليٍّ، خير الأوصياء، وأوضح بهديه الهُدَى والرشد، ونهج بمنهاجه الطريق الجَدَد، وأمره بالتعوُّذ من شر الحاسد إذا حسد. صلّى الله عليه وعلى عترته المنتجبين، وسلالته المنتخبين آباء أمير المؤمنين، ما نطق ناطقٌ وذرّ شارقٌ. وإنّ النعم إذا حدثت حدث لأربابها منافسون، وسعى عليهم بغيا وظلماً سعاة مناصبون، فلا يزالون يرِدُون مواردَ البغي والعدوان، ويتآزرون في قول الزور/ والبُهْتَان، ويحملهم التقصير والغيُّ، وسفه العقول والعيّ، على قدح في المتميّزين بخصائصها من أولياء الدولة، وخدمها بأشانيع لا يضرّهم الله بها، وأباطيل تعود بالمضرّة على ناصبها ومربِّيها، إقداماً بجهلهم على كذب الإرجاف، وجَرْيٌ على غلوائهم في ذميم الاقتراف، وحسداً لذوي التقدّم والاختصاص، وكيداً يظنّ مُعمله أنّه يفضي بمن شرَّفته الحضرة بملابس نعمها إلى السلب والانتقاص، فلا نقع الله غلّة الحاسد، ولا سدّد عزيمة مكر الكائد، ولا أمتع جماعة أهل الحسد والمكر بنيل محبوبهم، وجعل جمرات التأسّف بجميل رأي أمير

المؤمنين في صنائعه متضرِّمةً على قلوبهم. ولو عقل هؤلاء الجهّال لانتهوا عما يقولون، لأنَّهم يُرجفون فيكذبون، ويحكون فلا يصدقون، ويتقرّبون بالمين والمحال فيبعدون ويسترذلون، ويسلكون مسالك المكر والخداع، ﴿وَمَا يخْدَعُونَ إلاَّ أَنفُسَهُمْ ومَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

وأنَّه انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين، ما أوقعه الخرّاصون من الإرجاف بصرفك عن نقابة/الطالبيين، وقبض يدك بعد البسط والتمكين، وتعلُّقهم في مواصلة التشنيع عليك بكذب الأقاويل، وشبه الأباطيل، تخلُّقا بدنيء الأخلاق، واستمرّاراً على قول الزور والاختلاق، وما عراك لأجل ذلك من ضعف المنَّةِ بعد قوَّتها، وكلال العزيمة بعد مضائها وبسطتها، ولا بدع فقد يرجف الأشرار بالأخيار، ويولع ذوو النقص بذوي الفضل والأقدار. وما السبب الداعي إلى تغيير أمرك وإزالة نظرك؟، وأخبارك طيبة العَرف، وآثارك جميلة الوصف، ومراميك في الخدمة صائبة المقاصد، ومساعيك في السياسة زاكية المصادر والموارد. وأنت من أهل بيتٍ أكسبتهم الطاعة مزية الفخر والنفاسة، وحكمت لهم الدولة بالإقرار على ما إليهم من النقابة والرياسة، وقد رأى أمير المؤمنين ـ وبالله توفيقه ـ تجديد إحسانه إليك، وتوكيد إنعامه عليك، وتكذيب المرجفين بسلبك ما في يديك، بما أمر به من كتب هذا السجلّ لك، وقراءته على رؤوس الأشهاد والملأ من الخاص والعام، بإحماد خدمتك، وإظهار مكرمتك، واستداد طريقتك، وإيقاع الدلالة على لطيف منزلتك، وتوخِّي

---

(١) سورة البقرة، آية: ٩.

بسط يدك، وإمضاء جدّك، وتمكينك من التصرّف في مصالح ما نيط بك، لتنحسم عنك مادة إرجاف المرجفين، وأباطيل المبطلين وتخرّص المتخرّصين، فاعلم ذلك، واجر على رسمك فيما هو مردود إليك من نقابة الطالبيين. شملهم الله بالحضرة وسائر أعمال الدولة شرقاً وغرباً وبرّاً وبحراً، مشتدّ الأزر، منشرح الصدر، عزيز الأمر، ساكناً إلى حسن نظر أمير المؤمنين الذي أوجب إطالة ساعدك، وإرغام حسودك، عاملاً بحكم وصاياه وأمثلته، التي اشتمل عليها سجلّ تقليدك، والله يحسن معونتك على القيام بفروض طاعته، ويمدّك بتوفيقه وتسديده بمنّه وقدرته، والسلام عليك ورحمة الله.

وكتب في جمادى الأُولى سنة أربع عشرة وأربع مائة»[1].

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، م.س. ص ٢٦ ـ ٢٨.

بيت الدعوة وأهمية داعي الدعاة
في هيكلية الدولة الفاطمية

عندما حاول الفاطميون الشيعة نشر الإسلام الشيعي الإمامي في الأصقاع الإسلامية، اعتمدوا على تنظيم حزبي ذي هيكلية متكاملة، من أصغر خلية في المجتمع، وهي خلية الأنصار أو المناصرين، إلى رأس الهرم، وهو الإمام في دور الستر والنشاط السرِّي، خوفاً من العباسيين وولاتهم، والإمام الخليفة في دور الظهور أو النشاط العلني. ولما كان الخليفة وحده لا يستطيع البتّ بكلّ صغيرة وكبيرة في أمور الفقه الإسلامي الشيعي الإمامي، أ وكلّ أمر إدارة الحزب الفاطمي، أو التنظيم الذي يقوم ببثّ الفكر الإسلامي الشيعي الإمامي إلى أمين عام الحزب أو الدعوة. وهو داعي الدعاة.

وكان داعي الدعاة هو أخطر مركز بعد الإمامة أو الخلافة، فكان باستطاعته أن يكون الوزير الأول أو قاضي القضاة أو أي مركز كبير من مراكز الدولة الفاطمية، بينما لا يستطيع الوزير الأول أو قاضي القضاة أو حتى قائد الجيش أو المحتسب أن يكون داعياً للدعاة. لأنّ أي واحد من هؤلاء القادة يستطيع أن يصل إلى مركزه بعلمه وذكائه

ومبادراته القيّمة التي تدل على ذكائه.. بينما داعي الدعاة يجب أن يكون حزبياً قديماً تدرّج في الهيكلية الحزبية وفي قيادات الدعوة الفاطمية من مناصر إلى مكاسر إلى مأذون، إلى نقيب، إلى الحجة إلى الداعي ومن ثمّ إلى داعي الدعاة.

وقد تمّ خرق هذه القاعدة مرّة واحدة فقط في تاريخ الدولة الفاطمية على يد بدر الجمالي، وهو أرمني تشيّع على يد جمال الملك بن عمّار، ولكن تشيّعه كان على مذهب الإمامية الإثني عشرية وليس على مذهب الإمامية الإسماعيلية. أي أنّه كان يخطب في الجوامع للمهدي المنتظر (عج)، من أهل البيت، وليس للمستنصر، وقد طبع السكّة على وجهين، وجه للقائم من آل محمد، والوجه الآخر للمستنصر.

وقد ذكر الباحث أيمن فؤاد السيد عن عدم ارتياح الدعاة الإسماعيليين لسيطرة هذا الأرمني على مقاليد الدعوة الإسلامية الإسماعيلية، وخاصة المؤيّد في الدين هبة الله الشيرازي، وداعية اليمن، الملكة الحرّة ـ أروى بنت أحمد الصليحي[1].

ومن أهمّ الدعاة الذين تركوا لهم أثراً مكتوباً نعرف: القاضي النعمان، أيام المعزّ والعزيز، وهبة الله الشيرازي المؤيّد في الدين، أيام المستنصر، والحسن بن الصباح الحميري، وكان داعياً وليس داعياً للدعاة، وحرّة اليمن.

ولما كانت الدولة الفاطمية قد قامت على أساس تداخلت فيه

---

(١) الدولة الفاطمية في مصر، أيمن فؤاد السيد، م.س. ص ٢١٩.

السياسة مع الدين، إلى حد جعل كلّ تنظيم سياسي فيها انعكاساً لروح العقيدة الفاطمية فيها، حتى أصبحت أصدق مثال للدولة الدينية العقائدية (الثيوقراطية) في الإسلام فإنّ الدعوة كانت عماد هذه الدولة، وأهمّ ما يميّزها عن الأنظمة الإسلامية الأخرى، فلم يستطع الفاطميّون أن ينفصلوا عن الدعوة، كما انفصل العباسيّون (للرضا من آل محمد)، شعار بني العباس، الذي اختفى من حياتهم اليومية والسياسية بعد وصولهم إلى سدّة الحكم[1].

المؤيّد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الدعاة:

ولد هذا الرجل سنة ٣٩٠ هـ، وتوفي سنة ٤٧٠ هـ، قضى شبابه وصباه في شيراز، وتتلمذ على يد والده أبي عمران موسى بن داوود وكانت رتبة والده في الدعوة الإمامية الإسماعيلية «حجّة». واستمرّ في هذه الرتبة أيام الحاكم وولده الظاهر.

وأخبرنا الشيرازي في مذكرّاته أنّه أقنع الملك البويهي أبي كاليجار بالدخول بالدعوة الإمامية الإسماعيلية. وكذلك نفهم من هذه المذكرات، قيادته عملية اختراق العباسيين والسيطرة على بغداد عن طريق البساسيري، وكثرة نصحه بتزويد البساسيري بجميع وسائل الصمود والتصدّي للعباسيين، ولكن لا حياة لمن تنادي، فعاد العباسيّون واسترجعوا بغداد، ولو أعطى الفاطميّون أذناً صاغية لهبة الله الشيرازي، لما سقطت بغداد، ولكان وجه التاريخ قد تغيّر.

---

(١) راجع: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، ابن الطوير، م.س. ص ٧٦.

وكان الشيرازي يحاضر في جامعة الأزهر وقد جمعت محاضراته تحت عنوان المجالس المؤيدية وهي «في تسع مائة مجلس من مجالس الحكمة التي كان يلقيها في دار العلم»[1].

أما مواضيع هذه المحاضرات فكانت تعالج المفاهيم التالية، من وجهة نظر إسلامية إمامية إسماعيلية:

- مفهوم التوحيد.
- مفهوم الإبداع.
- مفهوم الوجود والموجودات.
- ترتيب العوالم السفلية والعلوية.
- مفهوم الناطق والنطقاء.
- مفهوم الوحي.
- مفهوم المعاد.
- مفهوم البعث.
- مفهوم القيامة.
- مفهوم الجنة والنار.
- مفهوم إثبات الوصية.
- ماهية الإمامة.
- مفهوم الأدوار والأكوار.
- مفهوم المثل والممثول.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

---

(١) المجالس المؤيدية، المؤيّد في الدين هبة الله الشيرازي، المائة الأولى، ط ١، بيروت، دار الأندلس، سنة ١٩٧٢، المقدمة، ص ل.

ـ مفهوم القوة والفعل.

ـ كيفية أخذ العهد والميثاق على المنتسبين الجدد للدعوة.

وقد عانى الشيرازي الكثير من مضايقات الوزراء ومحاولات إبعاده عن الإمام المستنصر، وقد هاجم بدر الجمالي واليازوري في مذكراتّه. نظم شعراً جميلاً يشكو همّه ويصف حالته وحالة الدعوة أيام الخليفة المستنصر، سنعود لذكرها حين الحديث عن الأدب والشعر في مصر الفاطمية ولما «مات المؤيّد في الدين، دُفن بدار العلم في القاهرة المعزّية، وصلّى عليه الخليفة المستنصر بالله ودفنه بيده»[1].

داعية دعاة اليمن أروى بنت أحمد الصليحي أو حُرّة اليمن (٤٤٠ هـ ـ ٥٣٤هـ) نموذج المرأة الإسلامية المثالية:

كان أهل اليمن والخليفة المستنصر بالله الفاطمي، يخاطبها باسم الملكة الحرّة أو حرّة اليمن.

كانت على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة إلى جانب ما تمتّعت به من جمال الخلقة، فكانت بيضاء اللون، مشرّبة بحمرة، مديدة القامة، معتدلة البدن، كاملة المحاسن، قارئة، كاتبة، تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ وأيّام العرب المشهورة. وكان البعض يطلق عليها بلقيس اليمن. وكانت متبحّرة في علمي الباطن والظاهر أو علمي التأويل والتنزيل. وكانت تلقي المحاضرات وتجيب على أسئلة

---

(١) راجع: مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية، المؤيّد في الدين هبة الله الشيرازي، ط ١، بيروت، مؤسسة عز الدين، سنة ١٩٨٣، ص ١٨.

الدعاة التابعين لها من وراء الستار. وكانوا يأخذون منها الرسائل ويرجعون إليها في كلّ صغيرة وكبيرة.

وقال عنها أحد الباحثين المعاصرين: «كانت امرأة فاضلة ذات نسك وورع وفضل وكمال عقل وعباده وعلم، تفوق الرجال، فضلاً عن ربات الحجال. وقد استحقّت التقديم والتفضيل على الفضلاء من الرجال»(١).

ومن خلال المراسلات التي تمّت بين الخليفة المستنصر وولده المستعلي، وبين دعاة اليمن أو داعي الدعاة وداعية الدعاة، نفهم العديد من شؤون هذه الدعوة وطريقة تداخل الأمور الدينية بالعسكرية بالعائلية بالسياسية.

مرسوم تعيين زوج الحرّة علي بن محمد الصليحي داعياً للدعاة وملكاً على اليمن:

«بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين: من عبد الله ووليّه مَعَدّ أبي تميم، الإمام المستنصر بالله، أمير المؤمنين، إلى الأمير... عليّ بن محمد الصليحيّ، نصره الله وأظفره». وبعد مداخلة قرآنية شيعية إمامية، كتب المستنصر: «هذا ولما عرف أمير المؤمنين أنّك نجيب ابن نجيب، وفرع من شجر سُقي من ماء تهذيب، رأى وبالله توفيقه، أن يمدّ إليك بالاصطناع يداً هي الباسطة ليد أبيك، ويُطمح نحوك بجميل الإزدراع عيناً يقرُّ الله بها عنه فيك. وأن يجعلك

---

(١) أروى بنت اليمن، عارف تامر، ط ١، القاهرة، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٠، ص ١١٨.

خليفة لدينه ودنياه، وخلفاً صالحاً في يومي مماته ومحياه. فعليك بتقوى الله سبحانه وطاعته في سرّ أمرك وجهره»[1]..

ولما وصل إلى مسامع الخليفة المستنصر زواج داعي الدعاة علي بن محمّد الصليحي، من ابنة عمّه، أروى بنت أحمد الصليحي، حرّة اليمن، سُرّ كثيراً لعلمه بنقاها وبعد نظرها، فأرسل كتاباً للداعي على الصليحي، يهنئه بزواجه منها ويشيد بها وقد جاء في هذا الكتاب: «وما خفي على أمير المؤمنين حال عقيلتك، الحرّة التقيّة، كافلة المؤمنين، الساعية في مصالح الدين، واهتمامها بالصالحات وجبرها للكسير، ومعونة الفقير، والتحنّن على الكبير من المؤمنين والصغير. وستلقى شجر آمالها بالجزاء عن حسن أعمالها مثمراً، يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً»[2].

موت زوج الحرة داعي دعاة اليمن ونعيه من قبل الخليفة المستنصر وتعيين ولده الطفل داعياً مكانه برعاية والدته الحرّة:

«من عبد الله ووليه... الإمام المستنصر بالله، إلى الملك الأجلّ أبي الحسن أحمد بن علي بن محمد الصليحي. أدام الله تأييده وتمكينه، وأظفره وأحسن عونه:

لقد نال أمير المؤمنين من فقده رزيّة رزت القلوب، وخطبٌ أوفى على فادحات الخطوب، ولولا أنّ أمير المؤمنين عين العالم أن المصلحة في قضائه، والتسليم لأمره في كونه ومضائه، لأظهر من

---

(١) السجلات المستنصرية، تحقيق عبد المنعم ماجد، ط ١، القاهرة، سنة ١٩٥٤، ص ٣٣.

(٢) م.س. نفسه. ص ٣٦.

الكآبة عليه ما إن أخفاه، أظهره البُرحاء والأسى، وإن ستره أبداه الوجد المتضرّم في الحشا. وإن طواه عن العيون، نطقت به دموعه المسفوحة الغزيرة، وأمير المؤمنين يعزّيك عن هلكه، ويدعو لك بالبقاء بعده...»

الإمام المستنصر يعين الطفل داعياً متمثّلاً بأبيه الظاهر وجده زين العابدين (ع):

ويتابع المستنصر في رسالة التعزية مخاطباً الطفل أحمد بن علي الصليحي:

«وقد رأى أن يصطنعك ويلحقك برتبته، وينصّبك منصبه ويرقي بك درجته، ويجعل ابتداء أمرك كآخر أمره، فخرج أمره أن يقلّدك النظر فيما كان أبوك تقلّده من الدعوة الهادية، والأحكام باليمن وسائر الأعمال المضافة إليه برّاً وبحراً وسهلاً ووعراً ونازحاً ودانياً وقريباً ونائياً. والتكليف مقرون بهذه المكاتبة».

وجاء في الرسالة (السجل) أيضاً:

«وكانت الحرّة، السيدة السديدة، المخلصة، المكينة ذخيرة الدين، عمدة المؤمنين، كهف المستجيبين، وليّة أمير المؤمنين، والدتك أدام الله عزّها وصونها ورعايتها وتمكينها، وحضّها على الخدمة والجري على كريم العادة في حياطة الجملة»[1].

وفي السجلات مراسلات ذات نكهة مميّزة تعطينا صورة كاملة

---

(١) راجع: السجلات المستنصرية، م.س. ص ٦٢.

عن طريقة تكليف الدعاة وبثّ الدعوة والدعاة في الأمصار، فأمّ المستعلي، على سبيل المثال تراسل الملكة الحرّة وتخبرها بأحقيّة المستعلي بالإمامة والخلافة على أخيه نزار، علماً أنّ نزاراً هو الخليفة والإمام، حسب قوانين انتقال الإمامة عند الشيعة الإمامية، فهو الولد الأكبر للمستنصر، والمستعلي تمّ نقل الإمامة والخلافة إليه بقوة سلطات الأمر الواقع، وليس بوصية الإمام المستنصر.

الداعي الفاطمي سبأ بن أحمد يخطب الحرة لنفسه ورفضها إيّاه:

عندما مات داعي الدعاة، علي بن محمد الصليحي، عن زوجته أروى بنت أحمد الصليحي، حرّة اليمن، تقدّم لخطبتها، ابن عمّها الداعي سبأ بن أحمد بن المظفّر بن علي الصليحي، وقد كان «جواداً كريماً، شاعراً أديباً فاضلاً، عالماً بالمذهب، خبيراً بأقوال الحكماء».

وكتب الفقيه عُمارة في تاريخه أنّه «لما مات المكرّم بن علي عن الحرّة الملكة السيدة بنت أحمد، خطبها الداعي سبأ بن أحمد لنفسه، فكرهت ذلك وأبت. فجمع العساكر وسار لحربها، فجمعت هي أيضاً جنوداً أعظم من جنوده، والتقى العسكران، ونشبت الحرب بينهما أيّاماً، فقال له أخوها لأمّها، سليمان بن عامر الزواحي: والله لن تجيبك إلى ما تريد، إلا بأمر الإمام المستنصر بالله، أمير المؤمنين، فترك سبأ بن أحمد قتالها. ورجع إلى أشيح، مركز حكمه ودعوته[1].

---

(١) تاريخ اليمن، عمارة اليمني، ط ١، القاهرة، مصر، دار الثناء للطباعة، سنة ١٩٥٧، ص ٦٧.

الإمام المستنصر يستعمل صلاحيات الإمام المعصوم، ويعقد للداعي سبأ على الحرّة دون سؤالها:

بعدما رجع الداعي اليمني سبأ بن أحمد بن المظفر من حربه ضد ابنة عمه حرّة اليمن، ليعمل بنصيحة أخيها سليمان بن عامر الزواحي، وكانت أخبار الحرب بين الدعاة في اليمن قد وصلت إلى قصور الحضّرة المطهّرة في القاهرة على جناح الحمام الزاجل، وقد أقلقت هذه الأخبار الإمام المستنصر، وخاف على تراجع الدعوة الإسلامية الإمامية الهادية في جزيرة اليمن. وما أن بدأ يعدّ العدّة لوضع حدٍّ لحرب الأهل، حتى وصل إلى القاهرة رسولان من قبل الداعي اليمني سبأ بن أحمد بن المظفّر هما: القاضي حسين بن إسماعيل الأصفهاني ـ أبو عبدالله ـ وأبو عبدالله الطيّب. يطلبها منه، فكان قرار الخليفة المستنصر تزويجه إياها، منعاً لتقاتل أبناء الصفّ الواحد، ومحافظة على سير الدعوة في اليمن وما وراء البحار (الهند). فأرسل إليها «كتاباً من ثلاثة سطور»[1] يعلمها فيه بزواجها من الداعي سبأ بن أحمد، وسيّر إليها أستاذاً يعرف بحامل الدواة وينعت بيمين الدولة.

وصل يمين الدولة إلى اليمن ودخل على مجلس حكم الحرّة الملكة، السيدة أروى بنت أحمد، وهي بدار العزّ. تكلم الأستاذ يمين الدولة وهوواقف بين وزرائها وكتّابها. وأهل دولتها قيامٌ لقيامه. فقال: أمير المؤمنين يريد السلام على الحرّة الملكة، السيّدة الرضية

---

(١) تاريخ اليمن، عمارة اليمني، م.س. ص ٦٧.

الزكية، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، ذخيرة الدين. عصمة المسترشدين، كهف المستجيبين وليّة أمير المؤمنين وكافلة أوليائه الميامين ويقول لها:

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم. ومن يعصى الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً﴾[1].

وقد زوّجك مولانا أمير المؤمنين، من الداعي الأوحد المظفّر، عمدة الخلافة، أمير الأمراء، أبي حِمْيَر سبأ بن أحمد بن المظفّر بن علي الصليحي، على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار عيناً، وخمسون ألف دينار أصنافاً، من تحف ولطائف وطيب وكساوى». فأجابت الحرّة: أماكتاب مولانا فاقول فيه: **﴿إني أُلقي إليَّ كتاب كريم إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم﴾**[2].

وتوجّهت إلى رسول خاطبها سبأ إلى الخليفة وقالت له: وأما أنت يا ابن الأصبهاني، فوالله ما جئت إلى مولانا من سبأ بنبأ يقين، ولقد حرّفت القول عن موضعه. «فصبر جميل وبالله المستعان».

وجاءها زوجها سبأ بن أحمد الداعي ودخل إليها في أمم عظيمة، واستمرّت الضيافات الواسعة شهراً تخرج إلى مخيّمه. وأنفق على عساكره من ماله أكثر ما قدّمه إليها من المهر.

ويقول عمارة اليمني، أنّه تفاجأ بعلو همتها وشرف أفعالها، وأنّ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٢) سورة النمل، الآية: ٣٠.

أحداً من الناس لا يعدل بها، حتى هو نفسه، فاحتقر نفسه على إجبارها بالزواج منه وأحسّ بخطأه، خاصة عندما كانت الزعماء والوجهاء والقواد والأعيان ودعاة البلاد تدخّل قصرها وتقول مولاتنا وتخرج وتقول مولاتنا. وهي بزواجه منها عن طريق الإمام المستنصر، جعله لا يستطيع التراجع بهذه السهولة، فأرسل إليها سرّاً، يسألها أن تأذن له بالدخول إليها، إلى قصرها، ليوهم الناس أنّه دخل بها، ففعلت ذلك ـ احتراماً لقرار الإمام المعصوم. و«زعم قوم أنّه بنى بها ليلة واحدة، وزعم قوم آخرون أنّها أرسلت له جاريتها فبنى بها. ومنهم من قال إنّ الداعي سبأ رفض الجارية وقال لها وهو ابن عمها أصلاً: إعلمي مولاتنا أنّها نطفة شريفة لا توضع إلا في مستحّقها. وترك القصر، ولم يجتمعا بعدها».

وقد بقيت الحرة على اسم الداعي سبأ، لكي لا يطمع بها كلّ يوم طامع.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تكليف الملكة الحرّة بإدارة شؤون الدعوة الإسلامية الإمامية في اليمن وصفات الداعي المطلق:

أرسل الخليفة المستنصر هذا السجل سنة ٤٧٢ هجرية يكلّف حرّة اليمن بإدارة شؤون الدعوة الهادية. ومما جاء فيه:

معلوم لك أيتها الحرّة، المخلصة.. ولية أمير المؤمنين إخراجنا إياك من زمرة ربات الحجال، إلى سياسة الدولة وتقديم الرجال، لمّا لمع لنا نور إيمانها، ونيّتها وإيقانها وأنّها بالزهد معروفة، وبالتقي موصوفة، فاستحقّت ماخوّلناها وقامت بشكر ما أنلناها، ورعت أحوال المؤمنين

رعاية وفت على رعاية الدعاة، وسلكت في تربيتهم مسلكاً قارب مسلك الهداة، وكان المقدّم لديها من تحلّى بحلية الدين وجانب أمور الضالّين، وطهّر من الدرن أردانه وأبعد من الخنا جوارحه، ومن الدنس لسانه، فإذا اطلعت على من كانت هذه صفته ورأت من كانت هذه حليته، قدّمته إليها، وتعاهدته ببرّها. ومن كان عن هذه الحالة بائناً، ولشرائط الإيمان خائناً، لم يكن له عندها مجال[1].

وكانت اليمن أهمّ محطّة أو بلد، بالنسبة للقاهرة، فكان الخلفاء الفاطميون ينحرون مئات النوق في كلّ عيد، وجرت العادة، أنّ أول ناقة ينحرها الخليفة بيده، تقدّد وتملّح وترسل إلى داعي الدعاة في اليمن لكي يوزعّها على أهل الدولة للتبرّك.

وفي السجل رقم ٤١، يكلف المستنصر الملكة الحرّة بإدارة شؤون الدعوة في الهند بسبب وفاة الداعي الفاطمي هناك[2].

وعندما تحدث ابن الأثير عن حرق الشيعة وقتلهم في كلّ بلدان المغرب، أشار إلى إحراق بيت الدعوة في القيراون، مما يدلّ على وجود مقرّ أو مكتب للدعوة الإسماعيلية في كلّ أنحاء الخلافة الإسلامية الفاطمية.

وتخبرنا كتب التاريخ، أن الداعي سبأ بن أحمد، استمرّ على احترامه وتعاونه مع زوجته الملكة الحرة، «وقدم المساعدات في كلّ ما يعود على الدولة بالخير، حتى وافته المنيّة سنة ٤٩١هـ».

---

(١) السجلات المستنصرية. م.س. ص ٧٦.

(٢) راجع: السجلات المستنصرية. ص ١٤٢.

وقد استمرّت الملكة الحرة بإدارة شؤون الدعوة والملك في اليمن متفرّدة حتى سنة ٥١٤ هـ، وكان أصبح لها من العمر أربع وسبعون عاماً، فأرسلت إلى الخليفة الآمر تطلب تزويدها بأحد المستشارين يساعدها على إدارة شؤون الدعوة والملك، فأرسل لها الوزير الأول الأفضل بن بدر الجمالي، الأستاذ، الأمير الموفّق بن نجيب الدولة، علي بن إبراهيم مع عشرين قائداً عسكرياً.

وقد استمرّت أروى بنت أحمد الصليحي داعية الدعاة وملكة اليمن، أو حرة اليمن، في قيادة الدعوة والملك حتى وفاتها سنة ٥٣٤ هـ بعد أن بلغت من العمر أربعاً وتسعين عاماً، معزّزة مكرّمة من قبل كلّ الخلفاء الفاطميين الذين عاصرتهم.

وصف المقريزي لداعي الدعاة:

كتب المقريزي يصف داعي الدعاة فقال:

وكان في الدولة داعي الدعاة، ورتبته تلي قاضي القضاة ويتزيّا بزيّه، ولا بدّ أن يكون عالماً بمذاهب أهل البيت، عليهم السلام، وله أخذ العهد على من ينتقل إلى مذهبه. وبين يديه اثنا عشر نقيباً. وله نوّاب في سائر البلاد، ويحضر إليه فقهاء الشيعة بدار العلم (الجامعة)، ويتفقون على دفتر يقال له مجلس الحكمة، يقرأ في كلّ يوم إثنين وخميس، بعد أن تحضر مبيّضته إلى داعي الدعاة، ويتصفّحه ويدخل به إلى الخليفة فيتلوه عليه إن أمكن. ويأخذ خطّه (توقيعه بالموافقة) عليه في ظاهره. ثم يخرج، فيجلس على كرسي الدعوة بالإيوان من القصر، «فيقرؤه» على الرجال، ثم يخرج ويقرأه

على النساء، وله أخذ النجوى (الاشتراكات والتبرعات الحزبية) من المؤمنين ومبلغها ثلاثة دراهم وثلث، فيحملها إلى الخليفة[1].

وقد أخبرنا المقريزي في الخطط وفي اتعاظ الحنفا، أنّ المحاضرات التي كان يلقيها داعي الدعاة في دار العلم بالقاهرة، كانت تغصّ بالحاضرين والمؤمنين، حتى أنّ إحدى المحاضرات أيام الخليفة الحاكم، وقع فيها إثنا عشر قتيلاً، قتلوا وهم يتزاحمون ويتدافعون لحضورها.

والمجالس المؤيديّة والبالغة تسعمائة مجلس إضافة إلى المجالس المستنصرية، هي عبارة عن محاضرات ألقاها داعي الدعاة، المؤيّد في الدين هبة الله الشيرازي في دار العلم يفكّ فيها ما استغلق من الحكمة التأويلية. وقد أخبرنا المقريزي أنّ صلاح الدين الأيوبي ألغى كلّ مجالس الدعوة بإزاحة الدعاة والقضاة الشيعة من الجوامع.

ولو لم يقم الأيوبيّون ومن بعدهم المماليك، بإتلاف كلّ ما يمت للفاطميين بصلة، لكانت مجالس الحكمة التي أقاموها، وكلها كانت مكتوبة، ملأت المكتبات.

ويبدو أنّ تعلّق الرئيس جمال عبد الناصر بالدفاع عن اليمن، هو امتداد للعلاقة التاريخية بين قاهرة المعزّ، وصنعاء اليمن.

وصف ابن الطوير لداعي الدعاة:

رغم أنّ المصادر التي تدلّنا على صفات داعي الدعاة في مصر

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٣٣٧.

الفاطمية قليلة، لكننا نعرف أنّ الداعي هو أحد دعائم هذه العقيدة وأن مرتبته تلي مرتبة الإمام.

ويشير الباحث أيمن فؤاد السيد أنّ مرتبة داعي الدعاة كانت أعلى مرتبة حتى أعلى من رتبة قاضي القضاة في دور الستر، أي عندما يكون هناك ظروف تمنع ظهور الإمام أو الخليفة، «وبظهور الإمام لم تعد الحاجة ماسة إلى وجود داع للدعاة»[1].

وعن داعي الدعاة يقول ابن الطوير:

أما داعي الدعاة فإنّه يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزيّا بزيّه باللباس وغيره، ومن صفاته أنّه يكون عالماً بجميع مذاهب أهل البيت، يقرأ عليه ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم. وبين يديه من نقباء المؤمنين إثنا عشر نقيباً، وله نوّاب كنوّاب الحكم في سائر البلاد، وله مكان يقال له دار العلم. وكان الفقهاء منهم يتّفقون على دفتر يقال له «مجلس الحكمة» يُقرأ في كلّ يوم إثنين وخميس، ويحضر «المجلس» مُبَيَّضاً إلى داعي الدعاة فينفذه إليهم بعد أن يدخل به على الخليفة ليتلوه عليه وأخذ موافقته قبل تلاوته في دار العلم. ويجلس الداعي في القصر لتلاوته على المؤمنين في مكانين: للرجال على كرسي الدعوة بالإيوان الكبير، وللنساء بمجلس الداعي. وكان من أعظم المباني وأوسعها. فإذا فرغ من تلاوته على المؤمنين والمؤمنات، حضروا إليه لتقبيل يديه، فيمسح على رؤوسهم بمكان العلامة ـ يعني مكان توقيع الخليفة على المحاضرة[2]

---

(١) أيمن فؤاد السيد. ص ٧٨.

(٢) نزهة المقلتين، م.س. ص ١١١.

رأي برنارد لويس بنظام حزب الدعوة الإسماعيلية قال برنارد لويس:

«كانت الحركة الإسماعيلية من حيث الشكل جميعة سرية لها نظامها الخاص، وأسّسها وشعائرها. ولها درجات من الوظائف والمعرفة، وكانت أسرارها تحفظ جيداً، فلا يعرف منها سوى شظايا متناثرة مضطربة، وقد كان مناظروهم التقليديون يصوّرون الإسماعيلية كعصابة من العدميين المضلّلين الذين يخدعون الأغرار عبر مراحل متعاقبة من الحطّ بعقلياتهم. وفي آخر تلك المراحل يكشفون لهم عن كفرهم الكامل المريع. أما الكتّاب الإسماعيليون فقد كانوا ينظرون إلى فرقتهم باعتبارها حفيظة على أسرار مقدسة، وشعائر تقدمية لا يمكن للمؤمن بالعقيدة أن يطّلع عليها إلا بعد برنامج طويل من الإعداد والإرشاد. وكان التعبير الشائع الذي يطلق على تنظيم الفرقة هو «دعوة»، والقائمون بها هم «الدعاة» الذين يماثلون القسس المعيّنين. وفي المراحل الإسماعيلية المتأخرة، انقسموا إلى مراتب عليا ودنيا مختلفة من المبشّرين والمعلمين والمجازين، ويأتي تحتهم المستجيبون وهم الطبقة الدنيا من أعضاء الفرقة، وفوقهم يوجد الحجّة (بالفارسية خوجا)، وهو الداعية الأكبر. وكانت كلمة «الجزيرة» تستخدم لتدلّ على الإختصاص الاقليمي أو العرقي الذي يرأسه الداعي. وكان الإسماعيليون ـ كغيرهم من الفرق والطوائف الإسلامية ـ يسمّون زعماءهم الدينيين بالشيوخ (بالفارسية بير). وكان الإسم الشائع لعضو الفرقة «الرفيق»[1].

---

(١) الحشاشون، فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، برنارد لويس، تعريب محمد العزب موسى، ط١، بيروت، دار المشرق العربي، سنة ١٩٨٠، ص٩٥ـ ٩٦.

ألوية الجيوش الفاطمية

لم تكن النظم واللوائح التي تنظّم العلاقة بين ألوية الجيوش الفاطمية، وبين رأس الدولة، وهو الخليفة، بعيدة عن النظم في الدول المجاورة كالعباسيين في بغداد والأمويين في الأندلس. وكانت العلاقة السائدة بين العساكر والخليفة، علاقة عشائرية وارتزاق، أكثر منها علاقة موظف برئيسه أو جندي بقائده.

ولكنّها كانت تختلف عن ألوية الجيش العباسي والأندلسي بالتزام أكثرها بالخطاب الديني الإسلامي الشيعي الإمامي، تجاه رأس الدولة، أي أنّها كانت تدين بالولاء للخليفة، كونه الإمام المعصوم، وخليفة الرسول، وابن الأئمّة الطاهرين المعصومين، قبل أن تدين بالولاء للراتب والمخصّصات، وخاصة الألوية المغربية والسودانية من الكتاميين والزويليّين والصنهاجيّين والسودان.

فقد كانت هذه الألوية بغالبيتها شيعية إمامية إسماعيلية، وقد شكلّت خلال ثلاثة قرون من الزمن، صمّام الأمان للدولة وللخلافة. ولما وقع الانشقاق في الإمامة، انعكس على الخلافة، وبدأت هذه الألوية والجيوش تتناحر وتتآمر وتغتال بعضها البعض، فقصمت ظهر الخلافة والدولة وانقصم ظهرها.

أما الإمامة فأصبحت ثلاثة إمامات، إمامة المستعلي وهي التي استمرّت بالخلافة حتى العاضد، وإمامة نزار وهي التي حملها الحسن بن الصباح الحميري وما زالت مستمرة حتى اليوم في صلب نزار وإمامهم الحالي هو كريم خان، وهو الإمام الثالث والخمسون، وإمامة القاسم أبو الطيب وهي إمامة دعاة اليمن ولا نعلم ما حلّ بها ومتى انتهت!.

طريقة تشكيل ألوية الجيش الفاطمي:

لم تكن القرارات الصادرة عن قصر الخلافة أو الوزارة هي التي تشكّل اللواء في الجيش الفاطمي، بل كانت الظروف والصدف والانتماءات القبلية، أو الانتماء لزعيم أو قائد بارز، باستثناء لواء البحرية، فلواء البحرية أنشأ بقرار من الخليفة المعزّ لدين الله، يوم مجيئه إلى مصر، فما هو هذا اللواء؟

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

لواء البحرية:

كان لواء البحرية ينمو بتحويل من أراد من الجنود، العمل في البحرية، إذ كان يضم الجنود من كلّ الألوية، لذلك لم يشر أيّ مؤرّخ إلى تمرّد هذا اللواء ولا مرّة في تاريخ الدولة الفاطمية، وذلك بسبب ضعف الانتماء القبلي أو الفردي في صفوف أفراده.

شرطة خفر السواحل: جزء من الأسطول البحري:

كان أمن الناس جزءاً أساسياً من مهمات الدولة الفاطمية برّاً وبحراً. وكانت مصر في عهد الخلفاء الفاطميين تنعم بالأمن والأمان

والرفاهية والرخاء بنسبة عالية لم تشهدها لا قبل الفاطميين ولا بعدهم.

لذلك كان الخلفاء الفاطميون يهتمّون بحماية سفنهم التجارية إن كانت خاصة بالخلفاء، أم كانت تعود للتجار المصريين. وقد أنشأوا شرطة لخفر وحماية سواحل مصر، إن من جهة البحر الأبيض المتوسط، أم من جهة البحر الأحمر. وقد أخبرنا المقريزي والقلقشندي أنّ الفاطميين أقاموا بمدينة عيذاب على البحر الأحمر، وهو ميناء تجاري مهمّ، يربط مصر بالجزيرة العربية وإيلات في فلسطين والمحيط الهندي، أسطولاً مؤلّفاً من خمس سفن عسكرية، «يتلقّى المراكب القادمة بالبضائع والمسافرين في عيذاب، خوفاً عليها من قوم كانوا بجزائر البحر يعترضون المراكب، فيحميهم الأسطول. وكانت عدّة هذه المراكب خمس مراكب. وكانت تصل المراكب من عيذاب إلى قوص بالبضائع، ومنها إلى الفسطاط في بحر النيل. وكان والي قوص هو المسؤول عن هذا الأسطول، ويحمل إليه من خزائن السلاح ما يكفيه»[1].

سفن الأسطول تستعمل لنقل الدواب والأعلاف من مصر إلى مناطق الجهاد ضد الروم والفرنجة:

كان الفاطميون متقدّمين في كلّ المجالات، التي تؤدي إلى تنفيذ أي أمر، بأسرع وقت وأسهل طريق ولما كانوا أئمة خلفاء، مسؤولين عن

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٢٤٥.

الخلق أمام الخالق، لذلك لم تكن أخلاقهم وأصولهم الشريفة تسمح لهم بمصادرة الدواب والطروش والأعلاف من الناس لصالح جيوشهم في حملاتهم العسكرية. لذلك كانوا يسعون في كلّ حملة عسكرية إلى شحن مراكب النقل الخاصة بالأسطول بالخيول والدواب والعلوفات والأزواد، لأقرب منطقة بحرية أو نهرية من مناطق القتال، تستطيع فيها هذه السفن أن تكون مخزناً تابعاً للحملة العسكرية، فترسو فيه[1].

الأسطول الأول والأسطول الثاني:

كما يطلق اليوم على الجيوش النظامية في مصر وغير مصر: الجيش الأول والجيش الثاني والجيش الثالث، كذلك كان الفاطميون يطلقون على أساطيلهم البحرية: الأسطول الأول والأسطول الثاني، وخاصة كانت قد بلغت سفن هذه الأساطيل في عهد الخليفة العزيز «١٢٠٠ سفينة» (ألف ومائتان). وإذا كانت كلّ سفينة تسع أكثر من ستمائة مقاتل، مما يعني أن الأساطيل البحرية الفاطمية تستطيع أن تحشد جيشاً مؤلفاً من ٦٠٠×١٢٠٠= ٧٢٠٠٠٠ مقاتلاً = /سبعمائة وعشرون ألف/.

صور وعسقلان تطلبان النجدة:

يقول ابن المأمون أنّ رسل طغتكين صاحب دمشق وآق سنقر صاحب حلب، وصلت تطلب النجدات من الخليفة الآمر لأحكام الله في شهر محرّم لسنة ٥١٧هـ، وبالرغم من أنّ الإثنين يتبعان الخليفة

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٣١٧.

العباسي بالولاء والخطبة، فلم يتخلّف أو يتوان عن تلبيتهم بالنجدة. وشرح لنا ابن المأمون ما قام به الخليفة الآمر من تعبئة للأساطيل البحرية المصرية فقال: و«تواترت الأخبار بقلّة الفرنج بالأعمال الفلسطينية والثغور الساحلية، وأنّ الفرقة قد أمكنت منهم وأنّ الله قد أذن بهلاكهم، وأنّهم ينتظرون إنعام الدولة العلوية وعوايد أفضالها ويستنصرون بها وبقوّتها. ويحثّون الخليفة على نصرة الإسلام وقطع دابر الكفر، ويطلبون تجهيز العساكر المنصورة والأساطيل المظفرّة، والمساعدة بالتوجه نحوهم، لئلا يتواصل مدد الفرنج وتعود القوّة إلى شوكتهم. فقوي العزم (لدى الخليفة الآمر) على النفقة بالعساكر، فارسها وراجلها، وتقدّم إلى الأزمّة (قيادات العسكر) بإحضار الرجال الأقوياء. وابتدىء بالنفقة في الفرسان بين يدي الخليفة في قاعة الذهب وأُحضر الوّزان وصناديق المال، وأفرغت أكياس الدنانير على البساط، وأحضر مقدم الأساطيل الثانية، لأنّ الأساطيل الأولى، كانت قد توجهت للغزو والجهاد، فخلع عليه وأمر بتجهيز أربعين شينياً (سفينة كبيرة) ويكمل إعدادها ونفقاتها وعُدَدِها، والتوجه بها بصحبة العساكر. وأرسل معه عشرين من الأمراء للتوجه صحبته. فكملت النفقة في الفارس والراجل وفي الأمراء السائرين وجُهّز للسير معهم الأطباء والمؤذّنين والقرّاء، وندب معهم من الحجاب عدّة، حُدّدت خدمة كلّ منهم، فمنهم من يتولى خزانة الخيم، حيث سير معه من حاصل خزائن الخيم برسم العسكر، ومنهم من يتولى خزائن السلاح. وهدّد مقدّمو الحراس والخفر بأن من يتأخر عن العرض بعسقلان وصور وقبض النفقة،

فلا واجب له ولا إقطاع، وكتبت الكتب إلى ولاة الإسكندرية ودمياط وعسقلان، بإطلاق وابتياع ما يُستدعى برسم الأسمطة (الطعام) على ثغر عسقلان للعساكر والعربان، من الأصناف والغلال. وأعيد الرسل لإخبار قيام الحملة. وجُهّز القواد بالمال والخلع المذهّبة والسيوف والمناطق الذهب، والخيل بالمراكب وغير ذلك»[1].

الأساطيل البحرية تنفذ مناورات بحضور الخليفة:

يخبرنا المقريزي عند الحديث عن المناظر، وهي الأماكن التي كان يعدها الخلفاء الفاطميون للنظر والتفرّج منها على الاستعراضات والاحتفالات، أنّ منظرة المقس، كانت معدّة للتفرّج على المناورات التي يجريها الأسطول، وعلى تجهيز هذه الأساطيل حين تخرج للغزو، يقول المقريزي: «فإذا جلس الخليفة بالمنظرة، جاءت القوّاد بالمراكب من مصر إلى هناك للحركات في البحر بين يديه، وهي مرتبة بأسلحتها ولبوسها، وفيها المنجنيقات تلعب، فتنحدر وتقلع بالمجاذيف، كما يفعل في لقاء العدو بالبحر المالح»[2].

وقد أكدّ المقريزي اهتمام الخلفاء الفاطميين بصناعة الأساطيل «فقد كان من أهمّ أمورهم الإشتغال بالأساطيل والأجناد، ومواصلة إنشاء المراكب بمصر والإسكندرية ودمياط، وإرسال الشواني الحربية والشلنديات والمسطّحات إلى بلاد الساحل حين كانت بأيديهم مثل صور وعكا وعسقلان».

---

(١) أخبار مصر، ابن المأمون، م.س. ص ٦١.

(٢) الإسلام في حضارته ونظمه، أنور الرفاعي، ط٢، بيروت، سنة ١٩٨٦، ص٢١١.

وقد كتب الباحث أنور الرفاعي عن أنواع السفن الحربية التي كانت معروفة أيام الفاطميين فقال[1]:

السفن الحربية وأشهر أنواعها:

«إنّ المراكب التي استعملها العرب في حروبهم كثيرة تتفاوت حجماً وشكلاً وقوة، منها ما هو من أصل عربي ومنها ما هو أعجمي.

١ ـ السفينة: وهو اسم عام للمراكب وردت في الشعر الجاهلي والقرآن قال تعالى: **﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾**.

٢ ـ الشونة: جمعها شواني (وذكر باسم شيني وشينية) وهي أكبر أنواع السفن وأكثرها استعمالاً. تقام فيها الأبراج والقلاع للدفاع والهجوم. وكانت أهمّ القطع في الأسطول العربي، متوسط حمولتها (١٥٠) رجلاً وتجذف بأكثر من مائة مجذاف. وصفها ابن حمديس في قصيدة خاطب بها أحد أمراء بني زيرى بالمغرب الأدنى فقال:

أنشأت طائرة ... وبنيت على ماء مدنا
ببروج قتال تحسبها ... في شُمّ شواهقها قننا
ترمي ببروج إن ظهرت ... لعدوٍ محرقةً بطنا
وبنفطٍ أبيضَ تحسبه ... ماءً، وبه تذكي السكنا

٣ ـ البارجة: سفينة حربية كبيرة هندية الأصل.

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٤٨٠.

٤ ـ القرقور: جمعها قراقير وهي من السفن العظيمة التي تحمل الزاد والكراع للأسطول.

٥ ـ المسطّح: جمعها مسطحات وهي من سفن الأسطول العربي الكبيرة الحجم، وتحمل الأسلحة للأسطول، وسميت بالأندلس باسم الحمالة.

٧ ـ الطراد: أو الطريدة (جمعها طرائد) سفينة صغيرة سريعة السير والجري تستعمل لحمل الفرسان والخيول وتتسع لأربعين فارساً. وكانت تفتح عادة من الخلف حتى يسهل على الخيل الصعود إليها والنزول منها.

٨ ـ الحرّاقة: (جمعها حراريق) فيها منجنيقات تلقى منها النيران على العدو. وكان للخليفة الأمين خمس حرّاقات في نهر دجلة على صورة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس. وعرفت أيضاً في الأندلس وعند الأغالبة والفاطميين. وصفها الشاعر الأندلسي أبو عبدالله بن الحداد بقوله:

ذات هدب من المجاذيف هدب باكٍ لدمعه إسعاد
حمم فوقها من البيض نار كل من أرسلت عليه رماد

٩ ـ العشاري: جمعها عشاريات (أعجمية) أكثر ما كانت تعرف هذه المراكب في النيل وسُمّيت في العصر المملوكي الحرّاقات وسُمّيَ بعضها باسم اللطاف، وبعضها باسم السماويات، لأنّها مكشوفة للسماء. وأطلق عليها أسماء ألوانها فعرفت بالذهبي والفضي والأحمر والأصفر واللازوردي وأكثرها كان خصوصياً... يمكّن الأغنياء والحكّام للنزهة في النيل.

١٠ ـ السميريات: جمع سميرية من سفن البحر والنهر وهي معدّة لحمل آلات الحرب والسلاح والمقاتلة والرماة والملاّحين. فيها أربعون مجذافاً كما يذكر الطبري.

١١ ـ الغراب: جمعها أغربة مقدّمتها على شكل رأس الغراب.

١٢ ـ الحربية: (جمعها حرابي وحربيات): نوع من الشواني، لكنها أصغر حجماً، وتمتاز بسرعتها وخفّة حركتها. واستخدمت في الأندلس والمغرب ومصر الفاطمية، وصفها ابن حمديس بقوله:

يخوضون بحراً كلّ حين إليهم ببحر يكون الموج فيه فوارساً
وحربية ترمي بمحرق نفطها فيغشو سعوط الموت فيها المعاطسا
رأوا حربية ترمي بنفط لإخماد النفوس له استعار
كأنّ المهل في الأنبوب منه إلى شيّ الوجوه له ابتدار
كأنّ منافس البركان فيها لأهوال الجحيم بها اعتبار
نحاس ينبري منه شواظ لأرواح العلوج به بوار

١٣ ـ البطسة: (جمعها بطس): مراكب كبيرة الحجم مكونة من عدّة طوابق، ومزودة بعدد كبير من القلوع، يصل أحياناً إلى أربعين قلوعاً تستخدم لنقل الميرة والأسلحة والمقاتلة. وقد تصل سعتها إلى ٧٠٠ راكب عدا الحمولة.

١٤ ـ الغيطاني: مركب عرف في مصر الفاطمية، لحمل الركاب والبضائع ومثله العجزي.

١٥ ـ الجلبة (جمعها جلاب وجلبات): وقد سبق أن ذكرنا أنها من سفن البحر الأحمر، ويذكر ابن جبير أنّه لم يكن يستعمل فيها مسمار البتة، إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار (قشر جوز

النارجيل) مسقي بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن سمك القرش وهو أحسنها.

لواء الأتراك والديلم:

في القراءات المتكرّرة لأخبار المجتمع المصري أيام الدولة الفاطمية نجد الملاحظات والإشارات الكثيرة إلى لواء الأتراك والديلم وتأثيره في مجريات السياسة الفاطمية. وكان أول من اصطنع الأتراك والديلم وأقام منهم لواءً عسكرياً فاعلاً في الدولة الفاطمية، هو الخليفة العزيز بالله نزار ابن المعزّ. «وقدّمهم وجعلهم خاصتّه، فتنافسوا وصار بينهم وبين كتّامة تحاسد»، ولما مات العزيز ضعفت شوكتهم بسبب تولية الخليفة الحاكم، الوزارة لابن عمار الكتامي، فعاد لواء كتامة للسيطرة على مقدّرات البلد. ولما مات الحاكم وتولى بعده ولده الظاهر، «مال إلى الأتراك، فانحط جانب كتامة، وما زال ينقص قدرهم ويتلاشى أمرهم حتى ملك المستنصر بعد أبيه الظاهر، فاستكثرت أمه من العبيد حتى يقال إنّهم بلغوا نحواً من خمسين ألف أسود، واستكثر هو من الأتراك»[1].

وكانت المصادمات تقع بين الألوية تبعاً لخلافات قادتهم، فعندما اختلف ابن عمار وبرجوان سنة ٣٨٧هـ اشتبك لواء كتامة المناصر لابن عمار الكتامي، مع لواء الأتراك المناصر لبرجوان التركي، وانتهت المعركة بهرب ابن عمار وانهزام الكتاميين.

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص ١٢.

أما القلقشندي فقد ذكر كيفية تأسيس وإقامة هذا اللواء من ضمن حديثه عن طريقة تركيب الألوية جمعاء في الجيش الفاطمي فقال: كانوا عدّة كثيرة، تنسب كلّ طائفة منهم إلى من بقي من بقايا خليفة من الخلفاء الماضين منهم، كالحافظية والآمرية، من بقايا الحافظ والآمر، أو إلى من بقي من بقايا وزير من الوزراء الماضين كالجُيُوشية والأفضلية من بقايا أمير الجيوش بدر الجمالي وولده الأفضل، أو إلى من هي منتسبة إليه في الوقت الحاضر من القبائل والأجناس كالأتراك والأكراد والغز والديلم والمصامدة، أو من مصطنعة الروم والفرنج والصقالبة، أو من السودان من عبيد الشراء، أو العتقاء وغيرهم من الطوائف. ولكلّ طائفة منهم قوّاد ومقدّمون يحكمون عليهم[1].

ويذكر ابن تغري بردي أنّ هذا اللواء كان يضمّ الأتراك المصطنعين والديلم والأكراد والغز وكان المشتركون في لواء البحرية منهم لا يقلّ عن الثلاثين ألف جندي.

أما ناصر خسرو فقال إنّه يطلق عليهم لقب «لواء المشارقة» نسبة إلى الشرق الآتين منه وهم «ترك وعجم» ويقول إنّ سبب هذه التسمية كون أصلهم غير عربي، ولو أنّ أكثرهم ولد في مصر، ويقول إنّ هذا اللواء يبلغ عشرة آلاف مقاتل وأنّ أكثرهم ضخم الجثّة.

ولما قامت الفتنة سنة ٤٢٠ هـ، على عهد الخليفة الظاهر، بين

---

(١) راجع: صبح الأعشى، الجزء الثالث، ص ٥٥٢.

لواء الأتراك، والألوية المغربية، انتصر الأتراك على المغاربة فما كان من العساكر المغربية إلا أن حرّكوا النعرات القومية والدينية في صفوف الشعب المصري، فقام المصريون وانتصروا للمغاربة وهزموا العساكر التركية وأخرجوهم من مصر، فلم يقبل الخليفة الظاهر وأصلح الأمر بين الطرفين.

واستمرّ الخليفة الظاهر في تجنيد الأتراك والديلم والأكراد والغزّ في صفوف الجيوش الفاطمية، حتى أصبحوا قوة يُحْسَبُ لها ألف حساب.

ويخبرنا المقريزي أنّ سبب المجاعة والشدّة التي ضربت مصر، كان سببها الخلاف بين لواء الأتراك والديلم، ولواء عبيد الشراء. وقد انتهت بخراب البلاد، وسيطرة الأتراك على مقاليد الحكم لأكثر من عشر سنوات، نهبوا فيها البلاد والعباد.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

لواء الجُيُوشية والأفضلية:

ينسب هذا اللواء إلى مؤسّسه وقائده الوزير الأرمني الأصل، بدر الجمالي، شاهنشاه، والأفضلية لولده الأفضل بن بدر الجمالي.

لواء الريحانية:

وينسب هذا اللواء إلى الحاجب عماد الدولة ريحان. وكان هذا اللواء مرتبطاً مباشرة بقصر الخلافة، ولما وقعت البغضة بين الخليفة الحافظ لدين الله، عبد المجيد وبين ولده حسن، حرّض حسن لواء الجيوشية لضرب لواء الريحانية، «فوقعت الحرب بين الطائفتين،

وصاحت الجيوشية يا حسن يا منصور، يا للحسنية، والتقى الفريقان، فقتل منهما ما يزيد على خمسة آلاف نفس، وكانت هذه الوقعة أول مصائب الدولة الفاطمية، من فقد رجالها ونقص عساكرها، فلم يبق من الطائفة الريحانية إلا من نجا بنفسه من ناحية المقس، وألقى بنفسه في بحر النيل»[1].

صبيان الزرد:

والحديث عن الخلاف بين الجيوشية والريحانية، يجرّنا للحديث عن صبيان الزرد، فالمقريزي يقول إنّ أول من اصطنع هذا اللواء هو الأمير حسن ابن الخليفة الحافظ، وسبب اصطناعه، هو الاستقواء على والده وعلى الطائفة الريحانية، فبعد هزيمة الريحانية، «استظهر الأمير حسن وانضم إليه أوباش الناس ودعّارهم، ففرّق فيهم الزرد وسمّاهم «صبيان الزرد»، وجعلهم خاصته، فاحتفوا به، وصاروا لا يفارقونه، فإن ركب أحاطوا به، وإن نزل لازموا داره، فقامت قيامة الناس منهم ومن تعدّياتهم، واتفقت كلّ فرق الجيش عليهم وهزمتهم.

صبيان الركاب أو حرس القصر:

ويقال لهم أيضاً الركابية، وهم الفرقة التي تواكب الخليفة في ذهابه وإيابه، وكانت عدتهم تزيد عن الألفي رجل، ولهم اثنا عشر مقدّماً، ونقباء موكّلون بمعرفتهم. وهم أشبه بلواء الحرس في القصر الجمهوري في هذه الأيام.

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص ١٨.

وأورد ابن المأمون تسمية لهم قال فيها إنّهم: «الحُجرَية، الصبيان المنشدون»، مما يعني أنّهم كانوا خلال مواكبة الخليفة يطلقون بعض الأناشيد الدينية، لأنّ الخليفة إمام معصوم ولا يجوز أن تخرج هذه الأناشيد عن نطاق التوجّه الديني والصوفي.

وكان يطلق عليهم إضافة للقب صبيان الركاب والركابية، الركابدارية، وقيل إنّهم هم الذين كانوا يحملون الغاشية وهي عبارة عن عربة مليئة بالسروج المذهبة، يحملونها بين يدي الخليفة في ذهابه وإيابه.

أما المقريزي فيؤكّد أنّهم ينيفون على الألفي رجل، وأنّ لهم اثني عشر مقدّماً، ومقدّم المقدّمين منهم، هو صاحب ركاب الخليفة الأيمن، وراتب كلّ مقدّم منهم في الشهر خمسون ديناراً، وهم مؤلّفون «من أربع جوق»، ولمسؤول الجوقة عشرون ديناراً في الشهر، ومن يليه له خمسة عشر ثم عشرة ثم خمسة دنانير، ويندبون إلى أعمال خارجة عن نطاق المواكبة، يكلّفهم بها الخليفة.

لواء الحجرية أو الحرس الخاص خرّيجو المدرسة الحربية:

لواء الحجرية هو لواء مخصص لدخول أبناء الأمراء إليه. فعلى سبيل المثال يخبرنا ابن الطوير عن الوزير الأول، العادل ابن السَّلاَر انّه أحد الحُجَرية، وكان والده رجلاً كردياً زِرْزارِياً، قدم على الدولة المصرية، فأكرم وسُمّي ضيف الدولة وأخذ ابنه (العادل) وجُعل مع «صبيان الحُجَر»، وهم جماعة يكونون في حُجرات أفردت لهم، يُعلَّمون فيها جميع أنواع الفنون العسكرية والحرف والعلوم التي

تحتاج إليها الدولة من الشجاعة والفروسية، فإذا كبر الصبي وترعرع سُلِّم إليه سلاح كامل يكون معه، يجرّده بدون أي عائق، وهم على نمط داوية (فرسان) الفرنج، فإذا ظهر نبوغ الواحد منهم، صُيّر أميراً وأُقطع مكاناً.

وحدّد لنا المقريزي الحجرات التي يعلّم فيها أولاد الأمراء العلوم العسكرية والفنون أو المدرسة الحربية، أنّه «كان بجوار دار الوزارة، يعرف بالحُجَر، جمع حجرة يجمع فيها الغلمان المختصّون بالخلفاء».

ونقل المقريزي عن ابن أبي طي أنّ الخليفة المُعزّ لدين الله كان أول من فتح هذه المدرسة أو هذه الحجرات، «ومن كان ذا شهامة منهم وحَسُنَ خلقه أرسل للخدمة في الركاب» (في المواكبة).

ويقول المقريزي في معرض حديثه عن الخلاف بين الخليفة الحافظ وبين العادل بن السّلار، أنّ الخليفة الحافظ حرّض غلمانه من الحجرية وصبيان الخاص على اغتيال ابن السلار، فما كان من ابن السلار إلا أن أحاط بهم وقتل منهم ثلاثمائة، وفرّ منهم من استطاع الفرار. ويعلّق المقريزي على هذا الحادث معرّفاً عنهم «وأصل هذه الطائفة التي كانت تعرف بصبيان الخاص، أنّه إذا مات أحد من الأمراء والأجناد ورجال الدولة، وله ولد. فإنّه يحمل إلى حضرة الخليفة، ويودع في أماكن مخصوصة، (الحجر أو المدرسة الحربية)، ويؤخذ في تعليمه أنواع الفروسية والرمي وغيره. ويقال لهم الحجرية أو صبيان الخاص».

وأطلق عليهم بعض المؤرّخين كالقلقشندي، لقب صبيان الخاص أو الخاصكية، ويقول إنّهم كان باستطاعة واحدهم الدخول على

الخليفة في خلوته، ويركبون لركوبه ليلاً نهاراً، ولا يتخلّفون عنه إن قرب أو بعد، مما يعني أنّهم من الحرس الخاص جداً، ومن الموثوق بهم والمميّزين.

ويقول القلقشندي أيضاً أنّهم جماعة من الشباب يناهزون الخمسة آلاف نفر، مقيمون في حجر منفردة، لكل حجرة منها اسم خاص. وكانت هذه الحجر أشبه بالثكنات العسكرية أيضاً لأنّه يشير إلى أنّه «متى طُلِبَ لِمُهِمٍّ، لا يوجد عائقٌ».

وأخبرنا ابن المأمون أنّ أحد صبيان الحجرية واسمه ابن زحل كان يجلس دائماً على سماط الخليفة في كلّ مناسبة وبجواره، كي يتفرّج عليه الخليفة عندما يأكل. ويشرح لنا المقريزي الأسباب فيقول، إنّه كان يجلس على أسمطة الأعياد في كلّ سنة رجلان، من الجنود يقال لأحدهما ابن فائز والآخر الديلمي/ وقد ذكر اسمه ابن المأمون أنّه «ابن زحل»، ويقول المقريزي إنّ كلّ واحد منهما يأكل أمام الخليفة خروفاً مشوياً وعشر دجاجات محشوة، وجام حلوى يزن عشرة أرطال (٢٥ كلغ). ويقول إنّ ابن زحل، أسر في عسقلان على يد الفرنجة، فقال لآسره، وهو يذبح عجلاً كبيراً، إذا أكلت هذا العجل فما أنت فاعل بي، فقال له الفرنجي، أطلق سراحك. فأكل ابن زحل العجل، ووفى الفرنجي بوعده وأطلق سراحه[1].

ويقول المقريزي إنّ الخليفة كان يقرّر لهما رواتب وكسوات ورسوم وأطعمة وحلويات وأشربة تكفيهما وتكفي أولادهما.

---

(١) أخبار مصر، ابن المأمون، ص ٩٦.

لواء السودان أو عبيد الشراء

يشرح لنا المقريزي كيفية إنشاء وتشكيل هذا اللواء فيخبرنا أنّ أم الخليفة المستنصر «السيدة رصد»، كانت جارية حبشية سوداء، قدم بها أبو سعيد التستري، فاشتراها الخليفة الظاهر واستولدها المستنصر، فلما انتهت الخلافة إلى ولدها المستنصر، تدخّلت في كلّ شؤون الحكم، ويقال إنّ ولدها المستنصر كان ألعوبة بيدها، وقويت شوكتها، وتحكمّت بالدولة وشؤونها، وأول عمل قامت به، أنّها كلّفت معلّمها أبا سعيد التستري بالوزارة، وأقالت الوزير الفلاحي، فما كان من الفلاحي إلا أن حرّض الجنود الأتراك على قتل أبي سعيد التستري، فقتلوه، فحنقت أم المستنصر من قتل التستري وبدأت تخطّط لقتل الفلاحي.

فأخذت تشتري العبيد السود وجعلت منهم طائفة ولواءً عسكرياً يتبع لها بالموالاة، ويأخذ أوامره منها، «واستكثرت منهم وخصّتهم بالنظر، وبسطت لهم الأرزاق، ووسّعت عليهم، حتى أمطرتهم بالنعم، وسار العبد بمصر يحكم حكم الولاة، وشرعت تغض من الأتراك وتظهر كراهيتهم وتنتقص منهم ومن حقوقهم[1].

ويقول المقريزي عنهم في مكان آخر: أنّه صار للسودان بديار مصر شوكة وقوة، فتبعهم صلاح الدين ببلاد الصعيد حتى أفناهم عن أخرهم، بعد أن كان لهم بديار مصر في كلّ قرية ومحلّة وضيعة مكان مفرد، لا يدخله وال ولا غيره احتراماً لهم. وقد كانوا يزيدون على خمسين ألفاً، إذا ثاروا على وزير قتلوه.

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٢٦٦.

وكان لواء عبيد الشراء أو لواء السودان أكبر ألوية الجيوش الفاطمية وأقواها. وكان مخصّصاً لحماية النظام أو الخلافة إذا صحّ التعبير، ولكن الحروب التي خاضها بين المستنصر والعادل بن السلار، وشاور وضرغام، انهكت قواه وهدّت حيله، وجعلته هو ونظام الخلافة والإمامة لقمة سائغة في أفواه الأكراد والغزّ. وقد وصف المقريزي نهايته حيث أشار إلى أنّ الأكراد والغز الآتين من بر الشام حاصروهم في باب زويلة، وكلما تحصّنوا بموقع ألقى عليهم الغز قوارير النفط وأحرقوهم بالنار، وقاتلوهم، وأخرجوهم من القاهرة إلى الصعيد «ومال الأكراد والغزّ على أموالهم وديارهم واستباحوا جميع ما فيها، وهجم عليهم صلاح الدين فأبادهم حصداً بالسيف، ولم ينج منهم إلا الشريد، وخرّب ديارهم فمضى العبيد وذهبت آثارهم من مصر»[1].

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

لواء كتامة:

كانت قبيلة كتامة المغربية من أهمّ القبائل وأقواها وكانت من أوائل الداخلين في الدعوة الإسلامية الشيعية الإمامية في المغرب، لذلك كان جنودها وعساكرها من المقدّمين على كلّ العساكر والألوية. ولما كان لهم شرف السبق في الدخول في الدعوة، كان لهم شرف القيادة والأفضلية في كلّ شيء. يخبرنا الأستاذ جؤذر، أحد مستشاري الخليفة المعزّ، أنّه وقع خلاف فيما بين وجوه القبيلة، فاستدعاهم الخليفة المعزّ وأصلح بينهم وخاطبهم قائلاً: يا أهل

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٣١٣.

دعوتنا، يا أنصار دولتنا، يا كتامة: احمدوا الله واشكروه على ما خصّكم به من نعمته وجسيم منّته، وفضّلكم به على كافة الخلق من غرب وشرق. اللّهم إنّي أصبحت راضياً عن كتامة لاعتصامهم بحبلك وصبرهم على البأساء والضراء في جنبك، اعترافاً بفضلنا، وتوسّلاً إليك بطاعتنا. اللّهم فارض عنهم، وضاعف حسناتهم، وامح سيّئاتهم، واحشرهم في زمرة نبيك، ووليّك الذي والوه (المعزّ). وابق نعمتك عندهم وأتممها عليهم، إنّك سميع مجيب»[1].

ويؤكّد ناصر خسرو على انتمائهم المغربي فيقول إنّهم فرقة من القيروان، أنشأها الخليفة المعزّ لدين الله وقال «إنّ عددهم عشرون ألف فارس».

ويخبرنا المسبّحي أنّ الخليفة الظاهر عانى كثيراً من حربه مع حسان بن الجراح وأخوته، وأنّه بات مهموماً مشغول البال من هذه الحرب، سنة ٤١٥هـ، فلما جلس في قصره ودخل الناس للسلام عليه «افتتح الكتاميّون الكلام وقالوا له: يا مولانا ـ صلوات الله عليك ـ بلغنا شغل قلبك بأمره هذا ابن جراح، ومن هذا الكلب حتى يشغل قلب مولانا به؟. وما مقداره، والله يا مولانا إنّ لك من العبيد، ما لو أطلق مولانا سبيلهم عليه لقلعوه شعرة شعرة، من عبيدك الكتاميين وعبيدك القيصرية، والعبيد الباطلية، والأتراك وسائر العرائف والقبائل»[2].

---

(١) سيرة الأستاذ جؤذر، م.س. ص ٥٩.

(٢) راجع: أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، ص ١٧٢.

وهذا الكلام عن ألوية الجيوش المصرية وقوتها، صحيح، ولكن في أوج عز الدولة وصولتها، وقد كانت الدولة الفاطمية قد بلغت ما بلغته حتى بداية عهد الظاهر، والخليفة المستنصر، ومن منتصف عهد الخليفة المستنصر، بدأ العدّ العكسي.

لواء المصامدة:

وينسب هذا اللواء إلى المصامدة وهم من قبيلة مصمودة التونسية. وقد أشار أحمد بن علي المقريزي إليهم فقال إنّهم أحد طوائف عسكر الخلفاء الفاطميين، وكان أول مقدّم عليهم، عبدالله المصمودي، قدّمه الوزير المأمون البطائحي عليهم أيام الخليفة الآمر لأحكام الله سنة ٥١٥هـ. أما ناصر خسرو فيقول إنّهم من السود أيضاً وأنّ عددهم عشرون ألف رجل.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

لواء القيصرية:

تشير المعلومات التي تحدّثت عن طريقة إنشاء هذا اللواء إلى أنّ التي أنشأته هي السيدة العزيزية ست الملك أخت الحاكم بأمر الله وابنة العزيز.

وفي خبر يشير إليه المسبحّي نفهم أنّ لواء القيصرية هو ما نطلق عليه اليوم ـ «فرقة التدخّل السريع أو المكافحة»، لأنّ شغباً حدث في القرافة ـ يوم الثلاثاء سلخ رجب من سنة ٤١٥هـ، «فأنفذت مائة فارس من القيصرية للمقام في القرافة لحفظ الناس ومنع التعديات» وكانت تحصل المصادمات بينهم وبين الأتراك وغيرهم من الألوية.

لواء الوزيرية:

كان لتأليف الألوية والجيوش في الدولة الفاطمية عدّة مؤثّرات، غير المؤثّرات، القبلية والعرقية. ومن هذه المؤثّرات وزراء الدولة الفاطمية أنفسهم، فكما بدر الجمالي أنشأ لواء الجيوشية وولده الأفضل لواء الأفضلية، كذلك أنشأ يعقوب بن كِلّس لواء «الوزيرية».

وابن كلّس هو أوّل من كونّ فرقة جديدة من فرق الجيش تنسب إلى الوزراء. وقد أطلق المؤرّخون على هذه الفرقة اسم «الوزيرية».

وكانت نواة هذا اللواء الغلمان الذين أهداهم الخليفة العزيز للوزير ابن كلّس، ويقال إنّه كان قد اعتقله ثم أطلق سراحه وأهداه خمسمائة غلام من الناشئة، وألف غلام من المغاربة. ونقل عن المقريزي أنّ الخليفة العزيز أقرّ بوجود هذا اللواء، وصرف له الرواتب والمخصّصات وقال: «هؤلاء صنائعي». وكانت عدّة هذه الفرقة في بدايتها أربعة آلاف جندي عرفوا بالطائفة الوزيرية. مما يدلّ على أنّها كانت من حرس الوزير الخاص، ثم انضموا بعد وفاته إلى الجيش، وصاروا فرقة أو لواء منه. وقد ظلّت هذه الفرقة في الدولة الفاطمية حتى نهايتها، وكانت لهم حارة تعرف باسمهم[1] كما أفاد صاحب النجوم الزاهرة.

لواء الباطليّة:

ينسب هذا اللواء إلى إحدى الطوائف التي تسكن إحدى حارات

---

(١) راجع: الوزارة والوزراء في العهد الفاطمي، ط ١، القاهرة، دار المعارف، سنة ١٩٧٠، ص ١٧٢.

القاهرة، ويقال إنّ الخليفة المعزّ لدين الله قسّم العطاءات في الناس، ولم ينل بعضهم حقّه من العطاء، فجاؤوا إلى الخليفة المعزّ وطالبوا بسهمهم من العطاء، فقال لهم: فرغ المال، فقالوا: رحنا نحن بالباطل، فسمّوا الباطلية وعرفت الحارة بهم.

أما ابن دقماق فذكر أنّهم جماعة من الباطنية، أي الذين يؤمنون بتأويل الآيات ظاهراً وباطناً، وما زالت هذه الحارة موجودة إلى اليوم في القاهرة، وهي إلى الجنوب الشرقي من الجامع الأزهر في الدرب الأحمر.

أما المقريزي فيقول إنّ هذه الحارة عرفت بهم منذ سنة ٣٦٣هـ،

أما الرحالة الفارسي ناصر خسرو فذكرها باللفظ الإيراني (بالتاء): «الباتليين» وقال إنّهم من المغرب، جاؤوا مع جوهر والخليفة المعزّ وقال إنّ عددهم خمسة عشر ألف مقاتل ومما يؤكّد صحة كلام ناصر خسرو بأنّهم مغاربة، إشارة المقريزي إلى وقوفهم إلى جانب برجوان والكتاميين في حربهم ضد ابن عمار والأتراك.

لواء الأرمن رماة السهام:

كان الأرمن يشكّلون طائفة كبيرة من طوائف المجتمع المصري أيام الدولة الفاطمية، وكان عددهم لا يقلّ عن سبعين ألف جندي من أمهر رماة القوس والنشاب. وكانوا قد أتوا إلى مصر على يد الوزير الأرمني بدر الجمالي. وقد ذكر المقريزي أنّ بدر الجمالي عندما استدعاه الخليفة المستنصر لإعادة الأمور إلى نصابها في عاصمة

الخلافة، عاد بمئة سفينة وكلّ سفينة تحمل سبعمائة جندي وكلهم من الأرمن. (١٠٠ × ٧٠٠ = ٧٠٠٠٠ ألف جندي).

وقد عرفت مصر سبعة وزراء أرمن أيام الدولة الفاطمية، وهم بدر الجمالي، وولده الأفضل، وولده أبو علي كتيفات وبهرام الأرمني ويانس. والملك الصالح طلائع بن رُزّيك وولده رُزّيك.

وكانت الحارة التي يسكنونها تسمى دار الأرمن أو حارة الأرمن. ولما نشب القتال بين صلاح الدين الأيوبي وبين ألوية عبيد الشراء السودان، انتصر الأرمن لعبيد الشراء وكانوا كلهم «رماة ولهم جارٍ». وكانوا قد أنكوا الغزّ والأكراد بشدة رميهم وردّوهم عن العبيد، فأحرق صلاح الدين حارتهم وبيوتهم بالقار والنفط وألحقهم بالعبيد.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

لواء البرقيين:

جاءت عناصر هذا اللواء من برقة بطرابلس الغرب، وقدموا مع الخليفة المعزّ لدين الله، واقطعوا إحدى حارات القاهرة، فسميت حارة البرقية، القريبة اليوم من سكّة كفر الطمّاعين.

عدة فرق بعدّة أسماء:

ولن نكتفي بذكر هذه الألوية التي كثرت الإشارة إليها في الكتب التي أرّخت للدولة الفاطمية، فبالإضافة إليها، وردت أسماء فرق عسكرية كثيرة، ولكنّها أتت بإشارات يتيمة جعلتنا عاجزين عن تسليط الضوء عليها وأهم هذه الفرق:

ـ اللواتيون نسبة لقبيلة لواتة المغربية.

ـ الزويليون نسبة لقبيلة زويلة المغربية،

ـ الحمدانيّون.

ـ البكجوريّون.

ـ الضاحكية.

ـ الرهجية.

ـ المركزية.

ـ المقطعّة.

ـ لواء الشرطة.

ـ المأمونية، نسبة للمأمون البطائحي.

ولا يخفى علينا أنّ القبائل نفسها كانت أشبه بألوية عسكرية تتحرّك بإمرة الوزير أو الخليفة، فقد كنا قد أشرنا إلى إقدام الوزير أبي محمد اليازوري بتوجيه قبائل زغبة وهلال لحرب زيري بن مناد الصنهاجي.

وذكر ناصر خسرو فرقة «البدو»، وقال عنهم إنّهم من أهل الحجاز، ويقال لهم الرماة وعددهم خمسون ألف فارس.

وأشار أيضاً إلى فرقة «الأستاذين»، وقال إنّهم كلهم خدم بيض وسود. وعددهم ثلاثون الف فارس وكذلك تحدّث عن فرقة «السرائيّين» وقال إنّهم من المشاة وعددهم عشرة آلاف فارس.

ورأيي أن السرائيّين هم «عبيد الشراء» وتمّ تصحيف في الكلمة فحذفت نقط الشين فقرأت سراء بدل شراء، لأنّه تحدّث عن فرقة

الزنوج وقال إنّهم يبلغون ثلاثين ألف فارس، والزنوج هم نفسهم عبيد الشراء.

والجيوش الفاطمية، إذا كان هذا حالها وهذه ألويتها، وعددها وعديدها، في مصر، فكيف كان عددها وعديدها قبل دخول مصر؟ يقول المقريزي واصفاً دخول العساكر الفاطمية بقيادة جوهر الصقلي إلى مصر: «فلما زالت الشمس، أقبلت العساكر، فعبرت الجسر، ودخلت أفواجاً أفواجاً، ومعهم صناديق المال على البغال، وأقبل جوهر، في فرسانه ورجّالته، وقاد العسكر إلى المناخ (الساحة) الذي رسم له المعزّ موضع القاهرة، واختطّ موضع القصر. واستمرّ عسكره سبعة أيام يدخل، من يوم الثلاثاء إلى آخر يوم الاثنين»[1].

فعظمة هذا العسكر وكثرة عديده، تجعله يستمر سبعة أيام متواصلة لدخول مصر. ولا نستطيع أن نتّهم الرحالة الفارسي ناصر خسرو بالمبالغة.

الحجز الاحتياطي:

كان الخلفاء الفاطميون يزيدون من أعطيات ورواتب المهمّات الطارئة والمفاجئة، فراتب الجندي معروف عندهم أنّه خمسة دنانير في الشهر، بينما نعلم أنّ الخليفة الحاكم صرف لكل جندي متوجه لحرب أبي ركوة أربعة وعشرين ديناراً. ثم أكملها لهم حتى أصبحت خمسين ديناراً.

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ١١١.

كما كان من يُحْجَزُ ليلاً لحراسة القصر، كان ينال من العلاوات أكثر من غيره من الجنود العاديين، فقد كانوا يصرفون لهم رسماً للمبيت ليلاً يتضمّن ثمن الوقود، «وما يطلق كلّ يوم عيناً وورقاً وأطعمة للبيّاتين بالنوبة، برسم الحراسة بالنهار والسهر في طول الليل، لصبيان الخاص والركابية والرهجية والسودان والحجّاب، ولكل طائفة بنقيبها».

وكان ديوان الرواتب الذي يهتم برواتب الجيش، يطلق عليه أحياناً ديوان الجيش، أو ديوان الرواتب والجيش، لأنّ موظفي الدولة لا يشكلون شيئاً، نسبياً أمام الموظفين من الجنود والعساكر، لذلك كانوا يطلقون على هذا الديوان المصطلحين معاً.

مديرية الإدارة في الجيش وما يتبعها من مخازن أسلحة:

كان في ديوان الجيش أو ديوان الرواتب موظف يطلقون عليه اسم «مستوفي». وكانت صلاحيات هذا المستوفي أشبه بصلاحيات مدير الإدارة في الجيش»، وكان من وظائفه، توزيع الخيول والأفراس الجيدة على العساكر، ولكنه لم يكن يملك حقّ طرد أحد من الجنود «إلا بمرسوم». وكان هذا المستوفي يرتبط بالجنود عبر نقبائهم، حيث كانوا يرفعون إليه «متجدّدات الجنود، من حياة وموت ومرض وصحة». وكان في نفس الوقت مسؤولاً عن «أسماء كلّ مرتزق ومن له جار (راتب)» ويباشر من استجدّ أو مات فيوجب استحقاقاته حسب الأنظمة المعمول فيها.

وكان موظّفو الإصطبلات يتبعون في رواتبهم وأوامرهم إلى

المستوفي، لأنّ إصطبلات الدولة كانت تضم ١٠٪ من خيولها ودوابها لمصلحة قصور الخلافة والأمراء، و٩٠٪ منها لمصلحة الجيوش والعساكر.

ويقول المقريزي إنّ الخيول التي خرجت من الإصطبلات مع الخليفة العزيز بلغت خمسة عشر ألف فرس، والجمال بلغت ثلاثين ألف جمل «سوى ما هو مع وجوه الدولة».

وكانت الخزائن التي تخزن أسلحة الجيش تعود إلى هذا المستوفي أيضاً ومنها خزانة السلاح وخزائن السروج وخزانة البنود (الأعلام والبيارق). وخزائن الخيم.

وكانت خزانة السلاح تضم السيوف والدروع والخود (قبعة حديدية)، وصناديق النصول (النصل: رأس الرمح يركب فيه تركيباً باليد)، وجعاب السهام وصناديق القسي (الأقواس)، ورزم الرماح المعمولة من خشب الزان، والزرديات، «مئات الألوف، وكان كلّ صنف منها مفرداً، عشرات الألوف»[١].

أما خزانة الخيم التابعة للجيش، فكانت تضم من الخيم والشوادر ما لا يعد ولا يحصى كثرة وقيمة وتفنناً ونقشاً. وكنا قد أشرنا إلى خيمتي القاتول والمدورّة، وعظمة صنع كلّ واحدة منها، مما يجعلنا نستنتج الدقّة وحسن الصنعة التي وصل إليها المصريون أيام الدولة الفاطمية في هذا المجال.

وكانت خزانة الأدم (الجلود) من الخزائن التابعة للمستوفي أيضاً،

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٤١٧.

وكان من مهامها تأمين الأحذية والجلود المطلوبة لاستعمالات الجيش.

أما خزانة البنود، فكانت تصنع الأعلام والرايات والبنود المطلوبة للجيش ولفرق الحراسة.

ولكنها كانت في نفس الوقت مشغلاً كبيراً لتعلم الصنائع، ومدرسة حربية تعلم صبيان الخاص وأبناء الأمراء والقواد، «أنواع العلوم وأنواع آلات الحرب وصنوف حيلها، من الرماية والمطاعنة والمسابقة» وكانت إلى جانب ذلك تستعمل مخزناً لقرب النفط. فقد كانت تحتوي على «عشرات ألوف القرب، وعشرات ألوف الزرّاقات». ويبدو أن الزرّاقة أصغر من القربة. وكانت تستعمل هذه القرب والزراقات في الحروب، حيث يقوم الجندي على ربط رأس سهمه بخرقة مبللة بالنفط ويطلقه على الأبراج الخشبية والدبابات المهاجمة فيحرقها.

أما خزائن السروج فكانت تحتوي الواحدة على ما يقلّ عن خمسة آلاف سرج، منها ما هو مذهب محلّى بالجواهر مختص بقصر الخلافة، ومنها ما هو معدّ لاستعمالات الجيش، وكانت تضم إلى جانب السروج، اللجم والمهاميز والأطواق، التي تطوّق بها أعناق الخيل.

كما لا يخفى علينا عن توصّل الخليفة الآمر بأحكام الله لتصينع «سروج مجوّفة القرابيص، مبّطنة بصفائح من قصدير يخزن فيها الماء، ولها فم فيه صفّارة، فإذا دعت الحاجة إلى الماء، شرب منه الفارس. وكان كلّ سرج منها يسع سبعة أرطال ماء».

وكذلك كانت تضم هذه الخزانة من المخالي عشرات الآلاف، وكانت المخلاة التي تصنع لدواب قصر الخلافة، تطرّز بالديباج وخيوط الذهب.

وكان الفاطميون يشترون الأسلحة من التجار والصناع المصريين بالسعر المعلن إذا احتاجوا، كما كانوا يشترون حاجاتهم من طعام وشراب وفواكه أيضاً بالسعر المعلن، تحت طائلة العقوبة، إذا أخذ أي جندي أي سلعة غصباً[1].

وكانوا يرسلون صحبة كلّ حملة عسكرية المؤذّنين وقرّاء القرآن والأطباء.

ولم يكن الجيش يخلو من مديرية مخابرات، فقد كانت عيون الجيش الفاطمي وبصّاصوه يرفعون التقارير إلى الوزير الأول والخليفة، وقد وصلت التقارير التي ترفع للخليفة المستنصر يومياً إلى ثماني مائة تقرير. كما أن مخابرات الوزير اليازوري كانت ترفع له التقارير يومياً عن أوضاع زيري بن مناد الصنهاجي.

أهمية الاستعراضات العسكرية في الدولة الفاطمية:

كانت الاستعراضات العسكرية وعرض الجيوش في الدولة الفاطمية، من أهمّ أساليب إظهار العزّ والمنعة والأبهة للدولة الفاطمية، ويخبرنا المقريزي أنّ عدد الألوية والقطع التي استعرضها الخليفة العزيز سنة ٣٨٤هـ بلغت «مائة عسكر» أي مئة فرقة أو لواء مختلفة المهمّات والتسميات.

وقد وصف ابن الطوير القيسراني ما يعرضه الخلفاء في هذه المواكب، فذكر أنّهم كانوا يخرجون فيها من آلات الموكب من جميع

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٩٨.

الأسلحة وغيرها، فيخرج من خزائن الأسلحة الصمصامات المصقولة، والسيوف المحدّبة والدبابيس الملبّسة واللتوت وأعمدة الحديد الطويلة، وتسلّم هذه الأسلحة لصبيان الركاب «يتسلّمها نقباؤهم في ضمانهم، وعليهم إعادتها إلى الخزائن» بعد انتهاء العرض.

ويخرجون لطائفة العبيد الأقوياء من السودان، «لكلّ واحد حربتان بأسنة مصقولة» ودرق بكوابح، لكل جندي درقة واحدة.

ويُخرَج من خزانة التجمل القُضب الفضة (السيوف) برسم تشريف الوزير والأمراء وقيادات العساكر والطوائف. والرماح الملبّسة بأنابيب الفضة.

ومن العَمَّاريات (الهوادج) من الديباج الأحمر برسم الأمراء والقواد.

ويخرج للوزير لواءان على رمحين طويلين وكافة الألوية والبنود التي تدلّ على كلّ قطعة وسلاح.

ويخرج لقوم يقال لهم السبربرية سلاح كلّ قطعة منه طولها سبعة أذرع، يلعب بها أمام الموكب «ويفتلها فتلاً متدارك الدوران».

ويخرج للمتطوّعة وهم بدون جار (راتب) لكل رجل منهم درقة واسعة وسيف، يسيرون رجّاله في الموكب فإذا تكامل هذا كلّه وتكاملت عدته، تُخرج النقّارات (الطبول) محمّلة على عشرين بغلاً، على كلّ بغل ثلاث نقّارات، «ولها حسٌّ مستحسن».

ثم يجلس الخليفة في شباك المنظرة المعدّة للتفرّج على

الاستعراضات العسكرية، ويستفتحون الاستعراض «بقراءة آيات لائقة بذلك المكان مقدار نصف ساعة»، ثم يشرع الخليفة بعرض هذه الفرق العسكرية ودوابها وخيولها. «دابة دابة وهي تقاد كالعرائس» إلى أن يكتمل العرض، فيختمون اليوم بقراءة القرآن كما بدأوه[1].

وفي الخطط المقريزية، العديد من النصوص التي تصف هذه الاستعراضات بدقّة متناهية.

ولا يسعنا إلا أن نشير أنّ الشعب المصري كان الجيش الأقوى والاحتياطي الأخير للخلفاء الفاطميين. فقد كان المصريون يقفون متفرّجين أمام صراع الأجنحة والألوية ومراكز القوى فيما بينهم، ولكن متى امتدت يد الأذى من أي طرف، تجاه الخليفة وقصر الخلافة، كان الشعب المصري يهبّ بكلّ فئاته ليحمي الخليفة الإمام المعصوم، سليل العترة النبوية الطاهرة.

وأما السؤال، إذا كان الشعب كلُّه مع الخليفة، فكيف استطاع صلاح الدين الأيوبي القضاء عليه، فنجيب مجدداً، عندما وصل صلاح الدين إلى مصر، أصبح الشعب المصري أربع فرق متناحرة، المستعلية والنزارية والطيبية وبقية أفراد الشعب، وكلّ فئة تحارب الأخرى، فأنّهكت بعضها البعض ومهدّت الطريق للغزو الكردي المدمّر.

---

(١) راجع: نزهة المقلتين، ص ١٥٤.

جهاز المخابرات في الدولة الفاطمية

أهمية جهاز الاستخبارات في استتباب الأمن وشنّ الحروب:

كان الحكّام المستبدّون والضعفاء الذين يخافون من شعوبهم، يبثّون أعوانهم بين الناس لجلب التقارير والسعايات التي تتحدّث عن المؤامرات والدسائس المهددّة لهذا الملك، بينما الفاطميّون لم يستعملوا هذا الأسلوب، فحزبهم المنظّم أفضل تنظيم، والمنتشر في كلّ أصقاع البلاد الإسلامية، الداخلة تحت سلطتهم والخارجة عن سلطتهم، كانت قيادات هذا الحزب، أو قل، دعاتهم المنتشرون في كلّ البلاد، حيث الدعوة سرّية أو علنية، كان من أهمّ واجباتهم إرسال التقارير عن حالة الدعوة، وحالة أعداء الدعوة، أي العباسيين والسلاجقة وولاتهم في المشرق، والأمويين في الأندلس.

أما التجسّس على الناس والأعيان وأحوالهم، فلم تكن تهمهم، باستثناء حالة واحدة، تمّت أيام الخليفة المستنصر، فقد كان الخليفة صغيراً، وكانت أمه رصد هي التي تحكم، والنساء يحبّون الوشايات والقيل والقال، فكثرت التقارير والسعايات وكثر العزل والتعيين. فكان فيها خراب مصر.

وكان الحاكم بأمر الله أول من استعمل النساء في رفع التقارير والمعلومات، ومن أقواله إنّ السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة. وروى عنه ابن الحريري إنّ إحدى النساء غشّت القاضي وذهبت إلى خليلها فحكم عليها الحاكم بالحرق بعد إقامة حدّ الزنى عليها. وكانت سبباً في منعه النساء من الخروج وإكثار المخبرات منهن.

استعمال النساء في العمل المخابراتي:

ولم يكن الخلفاء والوزراء يملكون جهازاً للمخابرات فقط، بل كانت نساء القصور يحاولن مد شبكة استخبارية تجمع لهن المعلومات التي تهمّهن وتهمّ قصر الخلافة، فالسيدة العزيزية بنت العزيز وشقيقة الحاكم، أقامت شبكة جمع معلومات مهمة أيام حكم والدها وأخيها الحاكم، ومن بعد قتلها الحاكم، أيام ولده الظاهر. وعلى سبيل المثال يخبرنا المسبّحي عن وفاة «تقرّب» وهي رئيسة جهاز الاستخبارات العائد للسيدة العزيزية فيقول: وفي يوم الأحد الواقع لعشر بقين من ذي الحجة سنة ٤١٥هـ، توفّيت «تقرّب» جارية السيدة العزيزية، وكانت كثيرة التعصب للسيدة الشريفة، وقد جعلتها لها «صاحبة خبر»، فكانت تقرّب ترفع إليها الأخبار وتدفع الرقاع (التقارير)، وكانت جميلة المظهر، لطيفة المعشر وكانت لها حال حسنة ونعمة ضخمة. وعندما توفيت وجد لها من المال ما لا يعد ولا يحصى، أوصت به إلى جارية سيدتها المليحة المعروفة باسم: «مُدَلَّل»، فحمل مالها إلى القصر، إلى مقصورة الجارية «مدَلَّل»[1].

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٢٣٥.

ومن الذين استعملوا النساء في جهاز المخابرات إضافة إلى الخليفة الحاكم، الوزير المأمون البطائحي، فقد كان يخاف من الإسماعيلية النزارية، لأنّهم هدّدوه بالاغتيال وهدّدوا الخليفة الآمر أيضاً، فجيّش جيشاً من النساء، وشكّل منّهن جهازاً مخابراتياً، وكنّ «من أهل الخبرة والمعرفة للدخول إلى جميع المساكن، والاطلاع على أحوال ساكينها، ومطالعته بجميع ما يشاهدنه فيها، فكانت أحوال كافة الناس على اختلاف طبقاتهم، وتباين أجناسهم من ساكني مصر والقاهرة تعرض عليه، ولا يكاد يخفى عنه منها شيءٌ البتّة»[1].

وكان الويزر الأفضل بن بدر الجمالي يعتمد على والدته في التجسّس له، ومعرفة أحوال البلد، لأنّه كان أرمنياً يدّعي التشيع الإمامي الجعفري، ويحجر على الخليفة، أي أنّه كان مكروهاً من العامة فكان يرسل والدته وهي متستّرة، لتختلط بالعوام والتجار وتعرف رأيهم فيه.

إدارة الأذن لكلّ ما يأتي من الأجهزة يؤدّي إلى تدمير الدولة:

عندما يحدثنا المقريزي عن بدء المجاعة التي حلّت بمصر واستمرّت سبع سنوات، انتهت بخراب مصر وهجرة أهلها عنها، يرجع السبب إلى إدارة الخليفة أذنه للسعاة والمخبرين فيقول: وكان السبب في سرعة العزل وكثرة التعيين، أنّه لما قتل اليازوري كثر السعاة للوزارة، فما أن يُكَلَّف وزير ويصبح نصب الأعين حتى يكثر

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ١٠٨.

الطعن عليه حتى يعزل، فلا تطول مدّته ولا يتّسع له الوقت ليتصرّف، فيأتي بعده من يحصل له مثل ما حصل له وكلّ ذلك بسبب مخالطة الناس للخليفة المستنصر، ودخولهم إليه بالرقاع والتقارير الكثيرة، وكان لا يرفض تقريراً ولا ينكر على أحد ما يكتبه، فأكثر الناس من مخالطته «وجعلوه سوقاً لهم». فتقدّم كلّ سفساف وأصبح الأوغاد من أصحاب الحظوة، وكثروا، حتى أصبحت تقاريرهم أوجع من رقاع الصدور، وتفنّنوا في كتابة التقارير حتى وصل الأمر أن يصل للخليفة المستنصر يومياً إلى ديوانه في القصر ثماني مئة رقعة (تقرير). «فتشابهت عليه الأمور». وبدأت أحوال الدولة بالتناقص، فوقع الاختلاف بين عبيد الدولة وضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدّة كلّ منهم، فخربت الأعمال وقلّ ارتفاعها، وكثرت النفقات، ووقع اصطراع الأضداد على السلطان وتلاشت الأمور واضمحلّ الملك[1].

وهذا النص هو أفضل دليل لنهاية كلّ حكم يعتمد على الأجهزة المخابراتية. فعندما كان الحكم الفاطمي يقوم على احترام هيبة القانون أيام المعزّ والعزيز والحاكم والظاهر، كانت الدولة الفاطمية أقوى وأمنع دولة في الشرق الإسلامي كلّه، ولكن عندما أخذ الخليفة يعتمد على التقارير وعلى أصحاب التقارير، دقّ أول إسفين في نعش دولة الشيعة الإمامية في العالم الإسلامي.

بينما يخبرنا المقريزي أنّ جده، الخليفة المعزّ، كان يعتقل السعاة

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٢٦٢.

ورافعي التقارير ويلقي بهم في السجون، وأن جدّه الخليفة الحاكم «قتل أصحاب الأخبار عن آخرهم لكثرة أذيتهم الناس بالكذب عليهم وأخذهم الأموال من الناس»[1].

أهمية عمل المخبرين والغمّازين ومتولي الستر وصاحب العَسَسّ:

في أجهزة المخابرات الحالية المعاصرة، مصطلحان متعارف عليهما: الجاسوس، وهو الذي ينقل الأخبار من خارج البلاد، والمخبر وهو الذي ينقل الأخبار من الداخل، أما أيام الدولة الفاطمية فقد كان هناك الكثير من المصطلحات والألقاب المخابراتية المتداولة.

فالجواسيس هم الذين ينقلون الأخبار من بلدان الأعداء، والغمازون، هم الذين يدلّون أصحاب الشرطة على المطلوبين أو بيوتهم وهم ملثمّون، لأنّهم يكونون من أقرباء المطلوبين أو من أبناء حيهم وحارتهم. وكانوا في أكثر الأوقات يعرفون من أبناء الحي، فعلى سبيل المثال، عندما دخل قائد جيش الخليفة الظاهر إلى اللد، الدزبري، اشتكى إليه أهل اللد بوجود غمّازين يغمزون بهم إلى عدو الدولة الفاطمية حسان بن جرّاح، وكتبوا له أسماءهم وهم أربعون رجلاً فقبض عليهم جميعاً وضرب رقابهم بسيف واحد.

أما متولّي الستر ـ فهو المسؤول عن تعذيب المعتقلين، والتعذيب لا يحل إلا بالسجناء السياسيين، ويخبرنا المقريزي أنّه لما توفي الخليفة الحافظ أبو الميمون، وخلفه ولده الظافر بأمر الله، كان أوّل

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٨٠.

شيء عمله الظافر أن أحضر ابني الأنصاري وهما أبو عبدالله وسناء الملك، فاستدعى الحافظ متولي الستر وهو «صاحب العذاب»، وأحضرت آلات العقوبة، فضرب الأكبر «أبو عبدالله» بحضور الظافر بالسياط، إلى أن قارب الهلاك وثنّى بأخيه كذلك، ثم أخرجا وقطعت أيديهما، وسحبت ألسنتهما من أقفيتهما، وصلبا على باب زويلة الأول والثاني، فتركا زماناً ثم وضعا.

وسبب قتلهما أنّهما كانا من الكتّاب وقد زوّرا وحرفا كلام الله، وشنّعا على الخليفة الظافر عند والده الخليفة الحافظ.

أما صاحب العَسَسْ، فهو رئيس الشرطة الليلية، وكان له أهميته في الخلافة الفاطمية.

وعندما تذكر لنا كتب التاريخ أنّه كان للخليفة الفلاني عيون في المدينة الفلانية، فهذا يعني أنّه كان له جواسيس ومخبرين في بلاطات حكام هذه المدينة فعلى سبيل المثال، استطاع الخليفة العزيز أن ينتزع عقداً من الجواهر، أخذه من الخليفة العباسي القائم، وسرق عن صدره، وليس الهدف سرقة العقد، بل الهدف إفهام الخليفة العباسي، أنّ من استطاع أن يسرق عقداً من صدرك، يستطيع سرقتك وقتلك. وكذلك عمل الوزير اليازوري عندما أرسل من سرق سكّين ودواة زيري بن مناد الصنهاجي، وأرسلها له مع تهديد واضح، أنّ من استطاع أن يسرق السكين من ديوانك يستطيع قتلك فيه، كما أقدم على سرقة نعليه مع التهديد، ولكن زيري بن مناد لم يخف من تهديدات اليازوري فأرسل له بني زغبة وبني هلال، فخرّبت بلاده وقلعته من دياره.

وعندما قرّر ملك الروم نقض الهدنة مع المستنصر وإيقاف دفع الجزية والهديّة السنوية المتفّق عليها، وصلت الأخبار بهذا القرار من القسطنطينية إلى القاهرة، قبل إبلاغها لقصر الخلافة رسمياً، فكما يقول المقريزي، «فقد كانت للوزير بالقسطنطينية عيون، فكتبوا إليه بذلك».

جهاز أمن الخليفة:

كان للخليفة الفاطمي جهاز أمن منفصل عن بقية الأجهزة، يعمل بأمرة أحد قيادات القصر العسكرية أو أحد المستشارين ولا علاقة له بالوزير الأول أو بقيادة الألوية.

فعلى سبيل المثال يستطيع جهاز الأمن الخاص بالخليفة إرسال فرقة تدخّل سريع «جريدة». وهم فرسان يعتلون خيولهم لا رجّالة بينهم، كالجريدة التي أرسلها معضاد الخادم والشريف العجمي دعماً للقائد الدزبري إلى اللد والرملة في فلسطين لمقاتلة حسان بن الجراح. وقد أعطى كلّ فارس منهم أربعين ديناراً نفقات مستجدّة خارجة عن الرواتب[1].

ومن مهمّات جهاز الأمن التابع للقصر، المحافظة على أمن الطرقات والاستعانة بالشرطة التابعة لوالي القاهرة أو والي مصر، في حالات ذهاب الخليفة وإيابه في كلّ الاحتفالات. وهي كثيرة.

ويخبرنا المسبّحي أنّ الشرطة استعانت بالمخبرين لمعرفة قتلة

---

(١) أخبار مصر في سنتين، المسبّحي، ص ٢٤٧.

التاجر المغربي أبي الحسن السوسنجردي، حيث وجد مذبوحاً مع غلمانه «وأخذ ما وجد من ماله». فقبض متولي الشرطة على الجناة بعد كشف أمرهم عن طريق المخبرين، وأستأذن بضرب رقابهم فأُمر بذلك، وضرب رقابهم[1].

وكان المسؤولون يستأجرون أو يشترون البيوت الملاصقة لمكان إقامتهم، للدواعي الأمنية، كاستئجار الوزير الأول علي بن الجرجرائي للدار الملاصقة لداره، وإقامة الحراسة حول الدارين بفرقة من الرّجالة لا تقل عن مئة رجل أمن.

وكان مسؤول الأمن، يحجز بعض الفرق احتياطياً سلفاً أثناء إقامة الاحتفالات. وكان ينوب الحرّاس المحجوزين احتياطياً «من جميع الأصناف، ما يطلق كلّ ليلة «حجز» عيناً وورقاً وأطعمة للمبيتين بالنوبة برسم الحرس بالنهار والسهر طول الليل من صبيان الخاص والركاب والرهجية والسودان، والحجّاب، كلّ طائفة بنقيبها، لا يمكن بعضهم بعضاً من المنام، والرهجية تخدم على الدوام، وإطلاق الأسمطة (الطعام) لهم في الليل والنهار، مستمر»[2].

داعي الدعاة مسؤول عن أمن الجامع الذي يصلّي فيه الخليفة:

داعي الدعاة في الدولة الفاطمية، هو أعلى سلطة دينية بعد الخليفة في حزب الدعوة الإسماعيلية أو كما نقول: الأمين العام المساعد للحزب، وعليه، يجب أن يكون على معرفة وثيقة بكلّ الجهاز

---

(١) م.س. ص ٢٢٩.

(٢) راجع: الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٤٦٨.

الحزبي الإسماعيلي وقياداته العليا والدنيا، من هنا، كان أمن الجامع الذي يصلّي فيه الخليفة والطرق التي يتبعها في ذهابه وإيابه من مسؤولياته.

أما الخطبة فكانت تعدّ سلفاً، وبالتأكيد تكون خطبة شيعية الهوى إسماعيلية المنحى فاطمية التوجّه، مما يعني أن كاتبها يجب أن يكون داعي الدعاة أو الخليفة نفسه، لأنّ كليهما أعلم بالفقه الجعفري الإمامي من أي إنسان آخر. وقد أكد لنا المقريزي أن خطبة العيد «كانت مُبيتة»(١).

وعندما يصف لنا المقريزي احتفالات عيد الفطر وصلاة العيد يقول: «ولا يفتح من أبواب المسجد إلا باب واحد، وهو الذي يدخل منه الخليفة، ويقعد الداعي في الدهليز ونقباء المؤمنين بين يديه، وكذلك الأمراء والأشراف الطالبيين والشيوخ والشهود، ومن سواهم من أرباب الحرف، ولا يُمكَّن من الدخول إلا من يعرفه الداعي ويكون في ضمانه»(٢).

وكانت التجمعات تمنع إذا لم تكن بعلم الأجهزة الأمنية، كالأعراس والموالد والطهورات. وكانت صالات الأفراح المعدّة للأجرة، ترفع حيطانها بشكل لا يستطيع أصحاب أي دار مجاور رؤية العروس، أو النساء المشتركات في العرس، تحت إشراف المهندسين وبموافقة شرطة الحي أو الحارة.

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٦٤.

(٢) الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٤٥٣.

ويخبرنا المسبّحي عن أسباب قتل صاحب بيت المال أو وزير المالية في أيّامه، العميد محسن ابن بدوس وزير الخليفة الظاهر ابن الحاكم فيقول: إنّ جهاز المخابرات رفع للخليفة الظاهر رسالة بخط ابن بدوس إلى حسان بن جراح عدو الدولة وخارج عنها في منطقة الرملة بفلسطين ورسالة بخط حسان بن جراح عنده، يحثّه فيها على بذر الفتنة والشقاق في صفوف المجتمع المصري. وقيل إنّ الخليفة الظاهر «أخرج كتاباً مختوماً بخط ابن بدوس، فدفعه إلى الشريف الحسني وقال له: تعرف هذا الخط؟ فنظره فلم يعرفه، فدفعه إلى نجيب الدولة ابن الجرجرائي، فنظره وقال: نعم يا أمير المؤمنين. هذا خط الشيخ العميد محسن ابن بدوس، فقرىء الكتاب فوجد فيه طعن على الدولة، وفي آخره يقول: إنك إذا وافيت بالعساكر لم تجد أحداً يلقاك ولا يمانعك». فخرج الأمر بقتله فاعتقله نسيم صاحب الستر، بعد مصادرة كلّ دفاتره وحساباته وضرب عنقه[1].

نماذج من أساليب المخابرات الفاطمية:

يحدثنا المقريزي عن الوحشة والتباعد الذي حل بين الوزير الأول أبي الفتح يانس الأرمني وبين الخليفة الحافظ، فطلب الحافظ من طبيبه قتله بقوله: «إكفني أمره بمأكل أو مشرب»، وتوصل الحافظ إلى سمّ يانس بأن وضع له السم في ماء المستراح (البانيو)، فانفتح دبره واتّسع حتى ما بقي يقدر على الجلوس. وهذا المرض يحتاج إلى الهدوء وقلّة الحركة، فقام الحافظ بزيارته في بيته بحجة

---

(١) راجع: أخبار مصر في سنتين، م.س. ص ١٧٦.

عيادته، ولم يتركه حتى نزلت أمعاؤه من بطنه ومات لتوّه.

كما أقدم الحافظ على قتل ولده حسن لتهدئة القوم فقتله الطبيب اليهودي ابن قرقة بالسمّ بعد أن رفض الطبيب القبطي قتله. وقد سقاه ابن قرقة السمّ بالقوة وهو مكبلاً.

ويخبرنا المقريزي عن إقدام الوزير الأول علي ابن السلاّر على قتل متولي ديوان النظر الموفّق محمد بن معصوم، لا لسبب إلا لأنّه ردّه بمعاملة غير كاملة التواقيع، حين كان ابن السلاّر موظفاً مبتدءاً، فلما أصبح الوزير الأول، ردّها له بقتله شر قتلة، «حيث أشار لبعض خدمه فأحضر مسماراً حديداً عظيم الخلقة، وقال لابن معصوم: والله هذا أعددته لك منذ ذلك الوقت، وأمر به فجُرَّ وضُرب المسمار في أذنيه حتى نفذ من الأخرى، وحمل إلى باب زويلة الأوسط ودُقّ المسمار في خشبة وعُلّق عليها ميتاً»[1].

وهذا الحقد الدفين الذي يقتل الناس حسب مزاجه ليس من أخلاق الإسلام والمسلمين بل هو خلق وتخلّق طارىء على الإسلام، فابن السلاّر يعرف من اسمه أنّه إما كرديّ أو تركي، وبالعودة إلى وزارة ابن السلار نجد أن أكثر الذين قتلهم، قتلوا بدون سبب كقاضي القضاة وداعي الدعاة وقد بلغ الذين قتلهم سبعة عشر ألف شخصاً.

وعندما حدثنا المقريزي عن الوزير الأول ضرغام وصفه بأنّه «كان أُذُناً متخيلاً» أي يدير أذنه لكل الناس ويعمل بما يسمع دون

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٢٠٠.

التبصّر والتأكّد وأدّت إدارة إذنه للوشاة، إلى تدمير المجتمع المصري وزوال الدولة الفاطمية.

وأخبرنا المقريزي أيضاً أن أحد رجال صلاح الدين الأيوبي اعتقل رجلاً رث الثياب يلبس نعلين جديدين، ولما شاهد اختلاف نعليه عن بقية ثيابه فتح النعلين فوجد فيها رسائل من شاور إلى الفرنج.

ومن أساليب المخابرات، أن يستدعوا أحد القواد الذي يملك الغلمان والعساكر الكثيرة، لزيارة قصر الخلافة، بحجة استدعائه من قبل الخليفة وفي القصر يلقون القبض عليه دون مناوشة أو معاركة مع عساكره وحراسه، كإقدام جهاز أمن الخليفة على اعتقال العميد محسن بن بدوس، حيث طلب منه نسيم صاحب الستر، ترك مكتبه (بيت المال) والاتجاه نحو القصر، فما أن وصل إلى القصر، حتى حُجز «بالحجرة التي برسم نسيم في القصر الكبير»، فاعتقله هناك رهن التحقيق. وانتهى التحقيق معه بقتله ومصادرة أمواله بعد ثبوت اختلاسه لبيت مال المسلمين وخيانته.

مخابرات الوزير المأمون تمسح شوارع مصر والقاهرة، شارعاً شارعاً وبيتاً بيتاً:

بعد انشقاق الدعوة الإسماعيلية إلى مستعلية نزارية إثر موت الخليفة المستنصر، أخذ النزاريون يرسلون الفدائيين بقصد قتل المستعلي، ومن بعده ولده الآمر وقتل وزرائهم، وبالأخص الأفضل بن بدر الجمالي، لأنّه كان السبب في شقّ الدعوة

الإسماعيلية إلى مستعلية ونزارية، بسبب استبعاد الوارث الشرعي نزار، ونقل الإمامة والخلافة لغير مستحقها: المستعلي.

وبعد موت الأفضل، استلم الوزارة المأمون البطائحي فبلغه أن النزارية بعثوا طائفة من أصحابهم إلى مصر بالأموال، فتقدّم المأمون إلى عزل والي عسقلان باعتبارها بوابة مصر، لولوجهم عسقلان دون أن يشعر بهم. وأقام والياً جديداً منبّهاً إياه بالتأكد من كلّ أهل عسقلان، «وألا يترك فيها إلا من هو معروف من أهل البلاد». وأكّد عليه ضرورة الاجتهاد والكشف عن هوية وأحوال كلّ الواصلين إلى عسقلان ومنها إلى مصر والقاهرة، من تجّار وغيرهم، وبلادهم» بل عليه أن يجد من يعرّف عنهم من أبناء عسقلان، وعليه أن يكشف من بعضهم عن بعض، ويفرّق بينهم، ويبالغ في الاستقصاء. ومن يصل ممّن لم تجر عادته بالمجيء إلى البلاد، فليعوّقه فيها، ويطالع حالته بنفسه، ويتأكد مما يحمل من البضائع. وعمّم على واليي الشرطة في مصر والقاهرة، بمنع أي جمّال أو قافلة من دخولهما إلا إذا كان معروفاً من تجّارهما وعلى مسؤولية التجّار المصريين، ولا يسمح بدخول القافلة إلا بعد أن يتقدّم المسؤول عنها والتاجر المصري المعرّف عنها بكتاب إلى الديوان يذكر من فيها وأسماءهم وأسماء غلمانهم وأسماء الجمّالين، وذكر أصناف البضائع، ويقدم الكتاب في مدينة بلبيس، يتمّ التأكّد من القافلة أول مرة في بلبيس وإعادة التأكّد على أبواب القاهرة. وكلّ ذلك بالتحذير من إعاقة التجار أو استغلالهم، بل «عليه أن يكرم التجار ويكف الأذى والضرر عنهم».

ثم تقدّم الوزير المأمون إلى والي مصر ووالي القاهرة بأن يصقعا

(يفتشّا) البلدين شارعاً شارعاً وحارة حارة وزقاقاً زقاقاً، وخُطَّةً خُطَّةً، ويكتبا أسماء سكّانها، ولا يمكنا أحداً من الانتقال من منزل إلى منزل حتى يستأذناه، ويخرج أمره بما يعتمد في ذلك. فمضيا لذلك، وحرّرا الأوراق بأسماء جميع سكّان القاهرة ومصر، وذكر خططهما (حارات)، والتعريف بكنية كلّ واحد وشهرته وصناعته وبلده ومن يصل إلى كلّ خطة وحارة من الغرباء. وانتدب المأمون لمساعدتهم، نساءً من أهل الخبرة والمعرفة للدخول إلى جميع المساكن، والاطلاع على أحوال ساكنيها، ومطالعته بجميع ما يشاهدنه فيها، فكانت أحوال كافة الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم من ساكني مصر والقاهرة تعرض عليه، ولا يكاد يخفى عنه منها شيئاً البتّة.

وكان المأمون يشك بأي تجمّع فيعطي الأوامر بدهم أصحاب هذا التجمع واعتقالهم. وأطلق الجواسيس وأصحاب الأخبار في كلّ الأقطار، وأصبحت تصله الأخبار عن كلّ جليل وحقير من سائر أقطار الخلافة الفاطمية وخارجها، حتى أصبح المأمون «يرى ويسمع كلّ ما يحصل في ليل أو نهار»[1].

ويتساءل القارىء، كيف استطاع جهاز أمن الوزير المأمون من تصقيع حارات مصر والقاهرة وشوارعها وأحيائها وأسواقها. بمدة قصيرة، وقد كان المقريزي قد أخبرنا أن أسواق القاهرة وحدها بلغت اثنين وخمسين سوقاً وأن السوق الواحد كان لا يقل عن ١٢ ألف دكان، فالقاهرة أيام الآمر ربما كانت مكتظة بالسكان أكثر من القاهرة اليوم.

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ١٠٩.

ولكن إمكانيات المأمون البطائحي والخليفة الآمر المخابراتية، هي أشبه بإمكانيات المخابرات الأميركية تجاه أسامة بن لادن، فقنبلة الاستشهاديين النزاريين، كقنابل الإستشهاديين الحسيّنيين في كلّ مكان وزمان. وهي قنابل بشرية لم يستطع المأمون ولا الآمر إيقافها وتفكيكها، كما لم ولن يستطيع الأميركيون إيقافها ما داموا يصدرّون الإرهاب إلى فلسطين وغير فلسطين. وما استشهاديّو عاملة وفلسطين، إلا خير دليل على الاستمرّار. ونحن نريد أن نقول إن المأمون البطائحي قد قُتل، في نفس السنّة، على يد الخليفة الآمر، بسبب تهاونه في الدفاع عن صور (سنة ٥١٨هـ) وأنّ الآمر قُتل على يد الاستشهاديين النزارية سنة ٥٢٤هـ حيث «وثبوا عليه وثبة رجل واحد وضربوه بالسكاكين فأدركهم الناس وقتلوهم، وكانوا تسعة»[١].

استقرار الأمن يؤدّي إلى الازدهار الاقتصادي:

منذ بداية ظهور الدولة الفاطمية وحتى انتهائها، كان الخلفاء الفاطميّون يؤكدون على ضرورة استتباب الأمن ويربطون استتبابه بالإزدهار التجاري والاقتصادي. والمطّلع على أدبيات وتاريخ هذه الدولة، يجد العديد من الإشارات والسجلّات والبيانات التي تربط الأمن العسكري والسياسي والاجتماعي بالأمن الاقتصادي.

فمن أقوال قاضي القضاة عبد العزيز بن محمد بن النعمان بن حيّون:

تأمل لذي الدنيا تجدها مشوبة سروراً بحزن في تقلّب أحوال

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١٣٠.

وقد قُسّمت أشياؤها بين أهلها فمال بلا أمن وأمن بلا مال

وكنا قد أشرنا إلى احتفالات الفاطميين بأيام النوروز والغطاس والميلاد والمهرجان والشعانين، وكيف كان الأمير تميم بن المعزّ يشرف على حراسة المحتفلين وكيف كان المصريون «ينامون كما ينام الإنسان في بيته، ولا يضيع لأحد منهم من قيمته حبة واحدة».

أما ناصر خسرو، فقد أكّد على أهمية استتباب الأمن وأثره على التجارات فقال: بلغ أمن المصريين واطمئنانهم إلى حد أنّ البزّازين وتجار الجواهر والصيارفة لا يغلقون أبواب دكاكينهم، بل يسدلون عليها الستائر، ولم يكن يجرؤ أحد على مد يده إلى شيء منها.

وكنا قد أشرنا إلى أنّه أيام الخليفة الحاكم، كان إذا لقي أحدهم كيس ذهب في الطريق، لا يجرؤ على أخذه خوفاً من العاقبة. وكيف أنّ أحد التجار أضاع كيساً فيه ألف دينار، وعاد بعد أسبوع ووجده مكانه.

ترى هل تعود أيام الأمن والأمان إلى بلاد الإسلام والمسلمين؟ فيشمل الناس كافة، معاهدين ومسلمين وضيوفاً.

مديرية العلاقات الخارجية في قصر الخلافة الفاطمية

لم تأت العلاقات الدبلوماسية والسياسية السائدة اليوم بين الدول، من فراغ، بل لها تاريخ طويل من الكرّ والفرّ والتراجع والتقدّم، سجّله لنا تاريخ الدول الشرقية الإسلامية والغربية الأوروبية.

وبالعودة إلى تاريخ الدولة الفاطمية، نجد أنّ هذه الدولة قطعت شوطاً كبيراً في مجال العلاقات الدبلوماسية، وفي مجال المؤسّسات، حتى وصل بها الأمر إلى محاذاة المؤسّسات المعاصرة في حسن التصرف، والبروتوكول والدبلوماسية الراقية.

والعلاقات الدبلوماسية كانت تمر بانفراجات أيام السلم وبتعكير أجواء أيام الحروب، ولكلّ حالة من هاتين الحالتين كان للفاطميين موقف مناسب.

القاهرة مركز سفارات السلاطين والأمراء التابعين للخلافة الإسلامية الفاطمية:

من خلال المطالعات التي يطالعها واحدنا في الكتب التي أرّخت

للدولة الفاطمية، يستنتج أنّ كلّ الدول والسلاطين الذين يعترفون بإمامة وخلافة الدولة الفاطمية، كان لهم سفراء معتمدون في القاهرة، بينما لم يكن هناك سفراء للدول المعادية، كدولة الروم البيزنطيين والدولة العباسية والدولة الأموية في الأندلس.

وقد أشرنا إلى الوزير الأول أبي محمد اليازوري كيف استدعى سفير المعزّ بن باديس، حين تولّيه الوزارة، وعاتبه على الطريقة الغير لائقة التي هنّاه فيها ابن باديس، مما يدّل على أنّ كلّ أمير من أمراء الأطراف، كان له سفيراً ومقرّ سفارة في العاصمة الفاطمية.

مديرية المراسم في قصر الخلافة:

عندما تولى المأمون البطائحي منصب الوزير الأول، اهتم كثيراً بمديرية العلاقات الخارجية فاستدعى مدير المراسم غذيّ الملك سعيد بن عمار «متولّي أمور الضيافات والرسل الواصلين للحضرة المطهرّة من جميع البلاد، فخلع عليه»، وطلب في زيادة مخصّصات هذه المديرية.

ويخبرنا ابن المأمون في كتابه« أخبار مصر»، أنّ هذه المخصّصات، كانت إضافة إلى زيادة النفقات النقدية: «بدلة مذهبة لغذيّ الملك ولكل الضيوف الواردين إلى الدولة، منهم من له بدلة مذهّبة ومنهم من له بدلة حريري وكذلك من يتفق حضوره من الرسل على هذا الحكم»[1].

---

(١) راجع: أخبار مصر في سنتين، ابن المأمون. م.س. ص ٥٣.

بين قصر الضيافة وفندق السفراء:

كان الفاطميون يستقبلون ضيوفهم في قصر خاص أعد للضيوف والسفراء، وكان يطلق عليه قصر الضيافة، يتبع مباشرة «لمتولي أمور الضيافات» أو مدير العلاقات الخارجية في القصر.

ويقول المقريزي: إنّ القصر الغربي كان معدّاً للضيافة، وهو بحارة برجوان، الحالية، وقد أُعِدَّ هذا القصر دار ضيافة برسم الرسل الواردين من الملوك، واستمرّ كذلك إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية، فحوّله صلاح الدين إلى سجن لأبناء الخليفة العاضد.

ووصف لنا المقريزي نقلاً عن ابن الطوير هذا الدار فقال:

وكانت هذه الدار ملكاً للمظفّر ابن أمير الجيوش أبي جعفر محمّد. اتخذها الخلفاء الفاطميون دار ضيافة برسم الرسل الواردين من الملوك، واستمرّت كذلك إلى أن انقرضت الدولة. وكان النائب المكلّف في لقاء الرسل الوافدين على مسافة، وعليه إنزال كلّ واحد منهم في دار تصلح له. ويقيم له من يقوم بخدمته، ويرتّب لهم ما يحتاجون إليه. ولا يمكّن أحداً من الاجتماع بهم. ويذكّر صاحب الباب بوصولهم، ويبالغ في إنجاز ما وصلوا من أجله، وهو الذي يوصلهم أبداً عند الخليفة والوزير. وينفذ بهم، ويستأذن عليهم. ويدخل الرسول، وصاحب الباب قابض على يده اليمنى والنائب قابض على يده اليسرى. ويحفظ الرسول ما يقولون، وما يقال لهم. ويجتهد النائب في انفصالهم على أحسن الوجوه، وبين يديه من الفرّاشين المقدّم ذكرهم عدّة فرّاشين، لإعانته.

وإذا غاب النائب أقام عنه نائباً إلى أن يعود. وراتب هذا النائب

خمسون ديناراً في كلّ شهر، وفي اليوم نصف قنطار خبز. وقد يَهْدي إليه المُرْسَلون (السفراء) طُرَفاً فلا يتناولها إلا بإذن[1].

ويقول المقريزي أيضاً إن مدير عام قصر الضيافة أو «وزارة الخارجية» يطلق عليه لقب النائب وغذيّ الملك «وهو الذي يتلقّى الرسل الواصلة من الدولة ومعه نواب الباب في خدمته، فيحفظهم وينزلهم بالأماكن المعدّة لهم، ويقدّمهم للسلام على الخليفة والوزير مع صاحب الباب، فيكون صاحب الباب يميناً وهو يساراً، ويتولّى تفقّدهم والاطلاع على ما جاؤوا من أجله»[2].

ويخبرنا المقريزي أنّ أول رسول لملك الروم وفد إلى القاهرة كان سنة ٣٦٣هـ، فاستقبله المعزّ لدين الله وأذن له بالجلوس على وسادة، وكان من الحاضرين قاضي أضنة وكانت أضنة تعتبر من ثغور المسلمين في خط الدفاع الأول ضد الروم البيزنطيين فقال القاضي للخليفة المعزّ:

«يا أمير المؤمنين، صلى الله عليك، هذا ـ وأشار إلى الرسول ـ آفة على الإسلام، والمؤذي للمسلمين وللأسارى. فنظر المعزّ إليه منكراً عليه وأخرج من مجلسه. ثم تكلم الرسول في الهدنة، وأخذ المعزّ كتابه وأنزل في دار»، ويخبرنا المقريزي عن وفاة هذا الرسول في القاهرة، قبل أخذ جوابه على الهدنة المطلوبة «فسيّره المعزّ في تابوت إلى بلاد الروم»[3].

---

(١) راجع: الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٤٦١.

(٢) الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٤٠٣.

(٣) الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، الجزء الثاني، ط٣، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، سنة ١٩٦٨، ص٢٤٥.

وإلى جانب دار الضيافة أو قصر الضيافة، كان الخلفاء الفاطميّون يعدّون فندقاً خاصاً بالتجارالعراقيين والشاميين «وغيرهم من التجار» وقال المقريزي تعليقاً على إنشاء دار الوكالة الخاص بالتجار: ولم يسبق إلى هذا من قبل، وتعليق المقريزي، وتعجّبه يشير إلى اكتشاف الفاطميين المبكر لأهمية العلاقات التجارية والأمن الاقتصادي والتجاري، فدار الوكالة هذه أشبه بالفندق خمس نجوم الذي ينزل فيه كبار رجال الأعمال في أيامنا. وإذا قارنا غنى الفاطميين الفاحش بفقر الخلفاء العباسيين، نجد الفرق في هذين البيتين من الشعر، إذ طلب الخليفة العباسي المعتمد من خازن بيت المال ثلاثمائة دينار، فلم يجدها فقال[1]:

ألـيس من العجائب أن مثلي ... يرى ما قلَّ ممتنعاً عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء في يديه

الخليفة الحاكم بأمر الله يبهر السفير البيزنطي ويقتل من قبل هديته من موظّفي قصر الضيافة:

كانت العلاقات الدبلوماسية بين البيزنطيين والفاطميين قد بدأت، منذ بداية قيام الدولة الفاطمية الفتية في المغرب العربي.

وكان البيزنطيون هم المبتدأون في مد جذور هذه العلاقات، بسبب وجود عدوين مشتركين لهما، وهم: الأمويون حكام الأندلس والمدن الإيطالية غرباً، والسلاجقة وحكام أطراف الشام الأكراد شرقاً. ومن هنا «سعت بيزنطية إلى إيجاد علاقة ودّ وتحالف مع

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ٢٠٩.

الفاطميين للوقوف في وجه المد السلجوقي الذي مثّل خطراً مشتركاً على كليهما، ولم تكن علاقة الودّ بين الجانبين بجديدة، فقد كانت على شيء من الصفاء، منذ أواخر عهد العزيز بالله الفاطمي، و«كانت البعثة التي بعثها الأمبراطور قسطنطين التاسع سنة ٤٣٩هـ، إلى الخليفة الفاطمي المستنصر للتكاتف في وجه الخطر السلجوقي، أفضل دليل على هذا الصفاء»(١).

وقد روى لنا المقريزي أنّ الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي وصله الخبر بوصول السفير البيزنطي في ١٦ جمادى الآخرة سنة ٣٩١هـ، وكان له من العمر ستة عشر سنة، فأمر الحاكم باتخاذ عدّة تدابير وإجراءات تدلّ على فهمه وإدراكه أهمية إبهار الدول الصديقة والعدوّة.

يقول المقريزي: وصل رسول ملك الروم، فحُشدت له العساكر من سائر الجهات، ووقفوا صفّين والحاكم واقف يراهم. وسار الرسول بين العساكر إلى باب الفتوح، ونزل، ومشى إلى القصر يقبّل الأرض طول المسافة حتى وصل إلى حضرة الحاكم بالقصر، وقد فُرش إيوان القصر، وعُلّق فيه تعاليق غريبة. ويقال إنّه أخرج أعدالاً من الديباج والخزّ المذهّب، ففرش منه جميع الإيوان وستر جميع حيطانه بالتعاليق (البرادي المذهّبة). وغطت الستائر جميع حيطانه وأرضه لتدلّ على رفعته وعظمته وسعته. وعُلّقت بصدر الإيوان العسجدة، وهي درقة (درع) مطعمّة بفاخر الجواهر النفيسة، من كلّ أصنافها، فأضاء لها ما حولها، ووقعت عليها الشمس، فلم تطق

---

(١) موقف البيزنطيين والفاطميين من ظهور الأتراك السلاجقة، حوليات كلية الآداب، الحولية ١٥، الرسالة ٤٧، الكويت، سنة ١٩٩٤، ص ٤١.

الأبصار تأمّلها كلالاً. فدخل الرسول وقبّل الأرض، ودفع الكتب وعرض الهدية[1].

وفي جمادى الآخرة من سنة ٤٠٥هـ، جاء السفير البيزنطي لزيارة القاهرة، فاصطفّت العساكر من باب القصر إلى سقاية ريدان، بعُددها وأسلحتها، وركب الحاكم بصوف أبيض وعمامة مفوّطة، ومعه ولي العهد، ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس، ومعهم الجواهر، وأحضر الرسول ومعه عبد الغني بن سعيد بهدية إلى القصر، فخلع على عبد الغني، وأنزل الرسول في دار الضيافة بالقاهرة. وبلغ الحاكم أن ثلاثة من حرس الركابية، أخذوا هبة (رشوة) من الرسول، فأمر بقتلهم، فقتلوا من أجل ذلك[2].

أسباب الهدنة بين الروم البيزنطيين والحاكم بأمر الله الفاطمي:

كانت الدولة الفاطمية في مصر تعتبر من الدول الناشئة جديداً على ساحة الصراع الدولي، فقد كان النفوذ العالمي قبل نشوئها مقسّم بين إمبراطوريتين أو قوّتين عُظْمَيين وهما: الخلافة العباسية والإمبراطورية البزنطية اليونانية ـ الروم ـ وكانت تركيا وبلاد الشام هي مسرح أحداث ومعارك ووقائع وحروب هاتين القوّتين.

وبعد ظهور الدولة الفاطمية وتمركزها بمصر وسيطرتها على بر الشام، وانحسار الخلافة العباسيّة، انتقل الصراع العسكري والسياسي العالمي بين القوتين الجديدتين: الروم البزنطيين

---

(١) الذخائر والتحف، للقاضي الرشيد بن الزبير، م.س. ص ١٥٠.

(٢) م.س. نفسه. ص ١٠٧.

(اليونانيين) وبين مصر الفاطمية وكانت الدولة الفاطمية تحاول من جانبها، توطيد الأمن على حدودها الشمالية وردّ الخطر البيزنطي عنها، وكانت تنزع إلى الدفاع عن هذه المناطق، ولا تخطّط للهجوم داخل بيزنطية المسيحية، بينما كانت الدولة البيزنطية تنزع للهجوم والتوّسع وفتح بلاد المسلمين. وكان الفاطميّون يتوقون إلى اتقاء الأحداث والحروب الخارجية، ليتفرّغوا إلى تنظيم شؤون دولتهم الداخلية، فلما هزمت جيوشهم جيوش الإمبراطور باسيل في الشام، واستطاعوا إثبات تفوّقهم العسكري على العسكر اليوناني، بعث الإمبراطور اليوناني باسيل الثاني، يعرض الصلح والهدنة، فاستجاب الوزير الأوّل الفاطمي برجوان وانتهز الفرصة لعقد هذه الهدنة، فأرسل باسيل الثاني سفيراً إلى القاهرة، وقد أشرنا إلى طريقة استقباله من قبل الخليفة الحاكم[1].

ورغم أنّ الحاكم كان صغير السن، وإدارة دفّة الحكم كانت بيد برجوان، فقد عارض بعض كبار الموظفين هذا الصلح وحرّض الحاكم على رفضها، فقد ذكرت كتب التاريخ قيام أبي القاسم علي بن الحسين المغربي خطيباً بين يدي الحاكم فقال: السلام على أمير المؤمنين بقدر استحقاقه من ربه، لا بقدر مقال عبده... هذا الطاغي ملك الروم بقسطنطينيّة قد خرق إزار السلم، وهتك حجاب الأمن، وأطلق مقال الحرب، وصوّب من مجاري الجنود، عاصماً له من جند الله وملائكته المسوّمين، وشراً على ما أنزله الله من الفتح

(١) مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، محمد عبدالله عنان، ص ١١١.

المبين، حتى ضعضعه زلزال الحروب، وأذابته نار الوقائع، فعاد يفتل حبل الهدنة، ويمد إليك أمير المؤمنين كفّ الرغبة، فلمّا أفرشته مراقد الإمهال، وأسكنته تحت ظلّ القرار، عاد يستشري ويمتري وهبّ يشغب ويستسنّ القُضُب (السيوف).

ألا وإنّي أقول لكم يا قومنا معشر أنصار أمير المؤمنين كما قال أخو خزاعة:

قاتلوا القوم يا خزاعَ ولا يدخلكم من قتالهم فَشَلُ
القوم أمثالكم لهم شُعُرٌ في الرأس لا يُنْسرون إن قتلوا

﴿قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه لله﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٩٣].

هلّموا رحمكم الله، هلّموا نصركم الله، هذا باب الزلفى مفتوح، هذا رواق الجّنة ممدود، هذا أمير المؤمنين (الحاكم) لكم أمير، هذا جبريل وفئته لكم ظهيرٌ ونصير. **﴿وينصرنّ الله من ينصره﴾** [سورة الحج، الآية: ٤٠]، **﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾** [سورة المائدة، الآية: ٥٦].

أيم الله يا أمير المؤمنين، لو لم يكن لك إلاّ هيبتك جندٌ، وإلاّ فرسك معقل، وإلاّ ذا الفقار مسلّةٌ، وإلا لوائك ظلال، لدمغهم سلطان الحقّ ورشقتهم سهام النصر، والتفّت عليهم خيل الله بالظفر، ولكان الرعب في القلوب خليفة سيفك في الهامات، **﴿وإنّ لك موعداً لن تخلفه﴾** [سورة طه، الآية: ٩٧]، و **﴿ألا إنّ نصر الله قريب﴾** [سورة البقرة، الآية: ٢١٤][1].

---

(١) الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، م.س. ص ٣١١.

والمطّلع عل هذه الخطبة، يستشفّ السياسة الفاطمية التي رسمها المعزّ لدين الله قبل دخوله إلى مصر، حيث ورد في المراسلات التي تمّت بينه وبين أعيان مصر، أنّ من أهمّ أهداف دخوله إلى مصر، قربه من ساحة الدفاع عن الإسلام والمسلمين على حدود الثغور الشامية.

وحروب الإسلام عبر التاريخ، كانت حروباً دفاعية، ولم تكن هجومية، فشريعة الإسلام، بُنيت على أساس الآية الكريمة: ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٥]. وعلى قوله تعالى: ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله، إنّه هو السميع العليم**﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٦١].

أما الهدنة التي استمرّت أكثر من ثلاثين سنة، فهي التي عقدها الظاهر بإشراف عمّته، السيدة العزيزية، بين الدولة الفاطمية والإمبراطور قسطنطين الثامن، حيث تم الاتفاق بين الفريقين على إبرام هذه المعاهدة التي تضمنّت شروطاً التزم تنفيذهاكل من الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله، والإمبراطور البيزنطي. وكانت شروط المعاهدة:

١ ـ أن يسمح للإمبراطور البيزنطي. بإعادة بناء كنيسة القيامة في بيت المقدس.

٢ ـ أن يسمح لكافة المسيحيين بإعادة بناء الكنائس التي هدمها الحاكم، باستثناء التي حُوّلت إلى جوامع.

٣ ـ أن يترك تعيين بطريرك القدس للإمبراطور البيزنطي، بعد أن كان الخليفة الفاطمي يصدر قرار تعيينه بعد تسميته من مجلس البطاركة.

٤ ـ ألا يقوم الفاطميّون بأي عمل عدائي نحو حلب ويُترك لها المجال بسداد الجزية السنوية المتفق عليها. وقد رفض الظاهر، هذا البند باعتبار حلب ثغر مهم من ثغور المسلمين.

٥ ـ ألا تمدّ الدولة الفاطمية يد المساعدة لأي عدو من أعداء الدولة البيزنطية، وخاصة أهل صقلية (النورمانديون) الذين هدّدوا هذه الدولة وعاثوا في جزر بحر الأرخبيل.

وفي مقابل هذه الشروط بتعهد الأمبراطور ـ قسطنطين الثامن بتنفيذ ما يأتي:

١ ـ أن يخطب باسم الخليفة الفاطمي في جامع القسطنطينة والمساجد الواقعة داخل حدود الدولة البيزنطية.

٢ ـ أن يسمح للخليفة الظاهر بإعادة بناء جامع القسطنطينية.

٣ ـ أن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين في قبضة الروم.

٤ ـ أن لا يقدم إمبراطور بيزنطية أي مساعدة لأي خارج عن الدولة الفاطمية.

٥ ـ أن يعطي أفاميا بدل حصن شيزر، لأنّ أهالي شيزر مسلمون[١].

---

(١) سياسة الفاطميين الخارجية، محمد جمال الدين سرور، ط ١، القاهرة دار الفكر العربي، سنة ١٩٧٦، ص ٢٤٤.

صراع الحضارات، من نقفور إمبراطور بيزنطية حتى جورج بوش: لم يتغيّر

دأبت الدول والحكومات الغير إسلامية، تشن الحروب على الإسلام والمسلمين منذ نشأة الدين الحنيف، فإذا أخذنا القصيدة التي أرسلها نقفورفوكاس إمبراطور الروم (اليونان) في هجاء الإسلام والمسلمين وقد أرسلها للخليفة المطيع العباسي سنة ٣٥٨هـ، أي في نفس السنّة التي قدم فيها جوهر الصقلي إلى مصر، نعلم شراسة هذه الهجمة ومما جاء في هذه القصيدة:

من الملك الطهر المسيحيّ مالك[١] إلى خلف الأخلاف من آل هاشم

ويعدّد فيها أسماء الثغور الإسلامية التي داسها وجاسها بخيله وعساكره:

إلى حلب حتى استبحنا حريمها وهُدِّم منها سورها كلّ هادم
أخذنا النسا ثُمَّ البنات نسوقهم وصبيانهم مثل المماليك خادم
فكم ذات خدر حُرّة عَلَوَيّة منعّمة الأطراف ريّا المعاصم
سُبين فَسُقْنَ خاضعات حواسراً بغير مهور لا ولا حكم حاكم

وقد ذكرت كتب التاريخ أنّ عدد القتلى من أهل حلب بلغ مائتي ألف إنسان بين مسلم ونصراني وأنّ الحلبيين، هربوا إلى بغداد وأقاموا المظاهرات ضد الخليفة العباسي المطيع وهاجموا قصره وحاول كسر أبوابه وشبابيكه لتخاذله عن الدفاع عن المسلمين[٢].

---

(١) مالك = الوكة، رسالة.

(٢) راجع: تاريخ حلب، ابن العديم، الجزء الأول، تحقيق سامي الدهان، ط ١، دمشق، لا دار نشر، سنة ١٩٥١، ص ١٣٨.

وجاء فيها[1]:

وانطاكِ لم تبعد عليّ وإنّني ... سافتحها يوماً بهتك المحارم
ومسكن آبائي دمشق فإنّني ... سأُرجع فيها ملكنا تحت خاتمي
ومصر سافتحها بسيفي عنوة ... وأحرز أموالاً بها وغنائمي
سألقي جيوشاً نحو بغداد سائراً ... إلى باب طاق حيث دار القُماقم
وأحرق أعلاها وأهدم سورها ... وأسبي ذراريها على رغم راغم
وأخرج منها نحو مكة مسرعاً ... أجرّ جيوشاً كالليالي السواجم
أعود إلى القدس التي شرفت بنا ... بعزٍّ مكين ثابت الأصل قائم
هنالك تخلو الأرض من كلّ مسلم ... لكلّ نقيّ الدين أغلف زاعم
سأفتح أرض الله شرقاً ومغرباً ... وأنشر ديناً للصليب بصارمي

وهذا الحقد التاريخي المتأصّل في نفوس الصليبيين القدامى، ما زال ينتقل في أصلابهم وأرحامهم. حتى تفجّر حروباً صليبية طحنت بلاد الشرق الإسلامي مع المسيحي وغيّرت معالمه، إلى أن قيّض الله للمشرق وللمسلمين استعادة العافية والقيام من الكبوة. ثم تفجّرت هذه الأحقاد الصليبية القديمة في فلسطين والشيشان والبوسنة والهرسك وألبانيا والجبل الأسود وأفغانستان، وما تصريح جورج بوش وتهديده بشن حربٍ صليبية جديدة على الشرق العربي والإسلامي وعلى العراق إلا امتداد لأحقاد نقفور فوكاس إمبراطور اليونان البيزنطي.

---

(١) قصيدة إمبراطور الروم نقفور فوكاس في هجاء الإسلام والمسلمين، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط ١، بيروت، دار الكتاب الجديد، سنة ١٩٨٢، ص ٢٦.

ولكن عملية ١١ أيلول سنة ٢٠٠١، هي عملية لا يستطيع تفجيرها إلا المسلم النقي الصافي، ضد الظلم والظالمين، ولن تستطيع تقنية الغرب الأوروبي والأميركي بأجمعها تعطيل فتيل هذه القنبلة، أو تحديد زمان أو مكان انفجارها، والقتلى الذين أحدثهم الانفجار في مبنى التجارة العالمية، لا يبلغ ١٪ من قتلى حلب على يد نقفور ولا ١٪ من شهداء فلسطين أو مذابح البوسنة والهرسك.

لقد انخرق الطبل الأميركي الضّراط وأصبح تحت مرمى الاستشهاد الحسيني، ولم ولن يعود له أي هيبة أو احترام في نفوس المسلمين والعرب والعالم. أما عملية مبنى التجارة العالمية الأميركي الاستشهادية في نيويورك، هي أول أسفين دق في نعش الإمبراطورية الأميركية، وبداية توحيد الشرق العربي والإسلامي بمسلميه ومسيحيّه، أصحاب الحضارة الإسلامية المسيحية المشرقية، وأصحاب البيت الإسلامي المسيحي، في دولة تملك تاريخ حضارات سومر وحمورابي والأهرامات والأقباط والإسلام الأصيل، تملك عشرة آلاف سنة تاريخ، لا تاريخ قبائل الهون والفايكنغ وحثالات المجرمين والساقطات الذين رمتهم الدول الأوروبية في القارة الجديدة: أمريكا. وما إقدامهم على حرق مكتبة بغداد ونهب متحفها، إلا خير دليل على حقدهم وكرههم لحضارتنا.

والخلاف بين الشرق والغرب ليس خلافاً دينياً أي ليس خلافاً بين الإسلام والمسيحية، فالإسلام نبع من الشرق، والمسيحية ظهرت من الشرق، وكلاهما دينان يعترف أحدهما بالآخر، ولو كان الإسلام عدواً للمسيحية، لما بقي مسيّحي واحد في كلّ الأصقاع

الإسلامية، بالرغم من أن المسيحية في الشرق الإسلامي مرّت بأدوار حرجة تحت وطأة جهل بعض الحكّام الأكراد والأتراك لجهلهم بالإسلام الصحيح.

وخير دليل على التمايز الحضاري الإسلامي المسيحي المشرقي ما رواه المؤرّخون عن إقدام الحاكم بأمر الله الفاطمي على أرسال بطريرك بيت المقدس أريسطوس سفيراً فاطمياً مصرياً مفاوضاً للإمبراطور باسيل الثاني، ومع صلاحيات الخليفة المسلم في المفاوضات وفي تحصيل حقّ الدولة الفاطمية في أي معاهدة وقد قال الحاكم للسفير البيزنطي:

«ما يقرّره البطريرك أريسطوس فنحن نوقّع عليه ونرضى به»[1].

ولو لم يكن البطريرك أريسطوس يتمّتع بنفس المواطنية المصرية التي يتمّتع بها خليفته، ويعمل من أجل مصلحة وطنه، لما كان حاز ثقة الخليفة الفاطمي.

فنحن المشرقيّون حماة المسيحية الحقة والإسلام الأصيل، أما أميركا وأوروبا، فقد استبدلوا الروح بالجسد، والإيمان بالمادة والعلاقة العائلية المبنية على القانون الإلهي بالإيدز والسيدا ومثليي الجنس.

الهدنة بين باسيل الثاني والحاكم بأمر الله الفاطمي:

حدثتنا كتب التاريخ عن هذه الهدنة التي أشرف عليها الوزير الأول برجوان، ومن شروطها، التخلّي عن دعم حاكم صقلية في

---

(١) راجع: أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، سلام شافعي محمود، ط ١، القاهرة، الهيئة العامة المصرية للكتاب سنة ١٩٩٥، ص ٢٦٤.

حربه وهجوماته على الشواطىء اليونانية، وطلب فيها باسيل الثاني التخلّي عن حلب فردّ طلبه بحجة أنّ حلب أهمّ ثغر من ثغور الإسلام. ولكن هذه الهدنة لم تدم طويلاً لأنّ الخليفة الحاكم بأمر الله أقدم على هدم كنيسة القيامة بالقدس. واستمرّت العلاقات بين كرّ وفرّ أيام الخليفة الحاكم. ولما تسلّم الإمامة والخلافة ولده الظاهر، عادت الأمور إلى مجاريها وسُمح لهم بإعادة إعمار الكنيسة.

بالمقابل فتح جامع القسطنطينية «وعمل له الحصر والقناديل وأقيم به مؤذّن».

وفي أيام المستنصر عقدت الهدنة بين الفاطميين والروم سنة ٤٢٩هـ، شرط أن يطلق الروم من سجونهم خمسة آلاف أسير، وبمقابلها يسمح لهم المستنصر بإعادة إعمار كنيسة القيامة. ولم تستمر الهدنة سنة واحدة حتى أغار الروم على حلب.

واستمرّت الهدنة منتقضة بين الطرفين أربع سنوات، ولكن بعد تدخّل السفراء والرسل، عادت المياه إلى مجاريها بين الدولتين وقبلت هدية ملك الروم، شرط إعادة صلاة الجمعة والخطبة في جامع القسطنطينية للخليفة المستنصر. وقد وصف الرشيد بن الزبير هذه الهدية فقال:

هدية لم يسبقه أحد من ملوك الروم بمهاداة مثلهاإلى من تقدّم من خلفاء الإسلام منذ سالف الزمان وإلى الآن. واشتملت قيمتها على ثلاثين قنطاراً من الذهب (٣٠×٢٥٠ = ٧,٥٠٠ سبعة أطنان ونصف) ومائتان وستة عشر ألف دينار رومية وثلاثمئة ألف دينار عربية. ومئة وخمسين رأساً من البغلات المستحسنة والخيل

المنتخبة، بحلل كلّ واحد منها ثوب ديباج وخمسين بغلاً محمّلة بخمسين زوجاً من الصناديق، يغطّيها خمسون سندسية إبريسم. ويقود الهدية مائتا رجل مسلم ممن كانوا في الحبوس[1].

ويخبرنا الرشيد ابن الزبير أنّ ملك الروم ميخائيل أهدى كذلك إلى السيدة رصد أم المستنصر، هدية عظيمة تقارب هدية ولدها الخليفة، بالعظمة والفخامة.

وعندما خلع المُعزّ بن باديس طاعة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، وأقام الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله، فأرسل له القائم الخلع والهدايا إلى إفريقيا، فقبض عليه ملك الروم وأرسله إلى القاهرة مع حمولته «فدخل إلى القاهرة وطوّف على جمل مع قرد خلفه يصفعه وأحرق العهد واللواء والهدية المرسلة للمعز بن باديس في حفرة بين القصرين، ثم أطلق سراح الرسول وأعاده إلى صاحب القسطنطينية[2].

وكانت الثغور الإسلامية الشامية المحاذية لبلاد الروم، كحلب وأفاميا وأنطاكية وغيرها من البلاد التركية مع قبائلها تقيم علاقات متوازنة متوازية مع الروم، ومع الخليفة الذي تقيم له الخطبة على منابرها، من هنا، تذكر لنا كتب التاريخ التدخّلات المؤثّرة من قبل ملوك الروم في صفوف هذه العشائر ولدى الحاكم كمحاولة«رسول صاحب القسطنطينية بالصلح بين المستنصر وبين بني مرداس». وغيرها الكثير من المحاولات والخبريات.

---

(١) الذخائر والتحف، م.س. ص ٧٤.

(٢) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٢١٤.

عقوبة الخائن علاّقة الصوري:

عندما كنا نتابع دراسة الصفوف الابتدائية والمتوسطة، وكنا نتلّقى التاريخ اللبناني كما وضعه مهندسو الاستقلال اللبناني سنة ١٩٤٣م، كانت كتب التاريخ الرسمية تصوّر لنا العلاّقة ثائراً لبنانياً، حاول الاستقلال بصور الجنوبية كمحاولة لإعلان استقلال الشاطىء اللبناني كلّه عن الدولة الفاطمية.

ولكن بعد عودتنا إلى الكتب التي أرّخت للعلاّقة وحركته، تبيّن لنا أنّه خائن خان بلاده وأهله لقاء «حفنة من الدولارات» باع نفسه بها لباسيل ملك الروم.

فمن هو العلاّقة وكيف كانت نهايته؟ يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٣٨٦ للهجرة: وعصى أهل صور وأقرّوا عليهم رجلاً ملاّحاً يُعرف بالعلاّقة، فسير برجوان «وزير الحاكم» عسكراً إلى صور بقيادة أبي عبدالله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان، فغزاها برّاً وبحراً، فأرسل العلاقة إلى ملك الروم يستنجده، فسيّر إليه عدّة مراكب مشحونة بالرجال، فالتقوا بمراكب المسلمين على صور واقتتلوا، فظفر المسلمون، وانهزم الروم، وقتل منهم جمع فلمّا انهزموا، انخذل أهل صور، وضعفت نفوسهم، فملك البلد أبو عبدالله بن حمدان ونهبه وأخذت الأموال، وكان أول فتح على يد برجوان، وأخذ العلاقة أسيراً فسيّره إلى مصر، فسُلخ وصُلب بها»[1].

---

(١) الكامل في التاريخ، الجزء السابع، ص ١٧٨.

أما أبو يعلى المعروف بابن القلانسي فقد ذكر تمرّد العلاقة على الخليفة الحاكم ووصف نهايته فقال[1]:

وكان أهل صور في هذه السنّة التي هي سنة ٣٨٧هـ، قد عصوا، وأمّروا عليهم رجلاً ملاّحاً من البحرية يعرف بالعلاّقة وقتلوا أصحاب السلطان، (الخليفة الحاكم). وندب برجوان الخادم أبا عبدالله الحسين بن ناصر الدولة، وياقوت الخادم، ومن معه من عبيد الشراء لقصد صور، ومنازلتها وفتحها. وكان قد وُلِيَّ جماعة من خدم السواحل، فأنفذوا إليها. وأرسل في البحر تقدير عشرين مركباً من البحرية المشحونة بالرجال، إلى ثغر صور، وكتب إلى علي بن حيدرة والي طرابلس بالمسير إليه في أسطوله، وإلى ابن الشيخ في صيدا بمثل ذلك وإلى جماعة من الجهات، بحيث اجتمع الخلق الكثير على باب صور، ووقعت الحرب بينها وبين أهلها. واستجار العلاّقة بملك الروم، وكاتب يستنصره ويستنجده. فأنفذ إليه عدّة مراكب في البحر مشحونة بالرجال والمقاتلة والتقت هذه المراكب بمراكب المسلمين، فاقتتلوا في البحر قتالاً شديداً، فظفر المسلمون بالروم، وملكوا مركباً من مراكبهم وقتلوا من فيه. وكانت عدّتهم مائة وخمسون رجلاً. وانهزمت بقية المراكب، فضعفت نفوس أهل صور، ولم يكن لهم طاقة بمن اجتمع عليهم من العساكر برّاً وبحراً، ونادى المغاربة: «من أراد الأمان من أهل الستر والسلامة، فليلزم منزله». فلزموا منازلهم، وفُتح البلد، وأسر العلاّقة وجماعة من أصحابه،

---

(١) تاريخ دمشق، أبو يعلى ابن القلانسي، ط ١، دمشق، دار حسان، سنة ١٩٨٣، ص ٨٣.

ووقع النهب وأخذ من الأموال والرجال الشيء الكثير، وكان هذا الفتح أول فتح على يد برجوان الحاكمي، وحُمل العلاّقة وأصحابه إلى مصر، فُسلخ حيّاً وصلب بظاهر «المنظر» بعد أن حشي جلده تبناً وقتل أصحابه.

أما المقريزي فقد وصف تمرّد العلاقة كالتالي[1]: «وورد الخبر بفتح صور، وذلك أن أهل صور ثاروا على من عندهم من المغاربة وقتلوا منهم جماعة، وقتلوا من بقي، وغلب على البلد رجل من البجوية (نسبة إلى بجّة) يقال له العلاقة، وراسل الروم، فسيروا إليه مراكب فيها رجال، فخرج إليهم عسكره. وسارت إليها المراكب من مصر، فقاتلوا من بها من الروم، فانهزموا عنها في مراكبهم، وبدت أهل البلد، فالح القتال عليهم حتى مُلِكت منهم، وامتنع العلاّقة في بعض البروج، ثم طلبوا الأمان، فانتُهبت المدينة، وأخذ منها ما لا يُعرف قدره كثرة، في الرابع عشر من جمادى الآخر(سنة ٣٨٨هـ). وحُمِلَ العلاّقة مقيّداً، وسيق في جماعة منهم إلى القاهرة، فشهرّوا، وقد ألبس العلاقة طرطوراً من رصاص، له عِظَمٌ، وَثُقِّل على رأسه. وكاد أن يغوص على رقبته، ثم قُتل وصُلب، وقُتِلت أصحابه»[2].

أما النويري في نهاية الأرب فقد وصف خيانة العلاقة كالتالي: وفي سنة ٣٨٨هـ، عصى أهل صور على الحاكم بسبب فتنة برجوان وابن عمار، وقتلوا جماعة من جند المصريين، وثار بعض

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١٨ ـ ١٩ ـ والثالث ٢٦٨.

(٢) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ١٨.

الملاّحين من أهلها، ويعرّف بالعلاقة فملك البلد، فندب برجوان إلى صور، أبا عبدالله الحسين بن ناصر الدولة وياقوتاً الخادم، ومن معه من عبيد الشراء، فوقعت الحرب بينهم وبين أهل صور، ثم طلبوا الأمان فأمّنوا، وأسر العلاّقة الثائر، وكان قد استنصر بالروم، فُسلخ وهو حي، وحُشِيَ جلده تبناً وصلب. وكان قد ضرب على الدينار بصور: «عزٌّ بعد فاقة، وشطارة بلباقة للأمير علاّقة»[1].

والجديد الذي أضافه النويري، هو أن تحرّك العلاقة وأهل صور جاء نتيجة للمناوشات التي حصلت بين برجوان وابن عمار في القاهرة، مما يدلّ على إقدام كلّ متنفّذ في قصر الخلافة في القاهرة إلى إيجاد امتدادات سياسية وعسكرية له في الأقاليم والولايات.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) نهاية الأرب، النويري، الجزء ٢٨، م.س. ص ١٧٣.

موقف الفاطميين من البيزنطيين والصليبيين

عندما انسحب هرقل من سوريا، كان يظن أنّه سيعود إليها بعد أيّام قلائل، باعتبارها أرضاً له ولعشيرته، هكذا أفادتنا كتب التاريخ الإسلامي. وظلّت فكرة العودة إلى سوريا حلماً يراود اليونانيين طيلة خمسة قرون، وكان يطلقون على كلّ الساحل الشامي لفظة سوريا، حتى بدء الحملة الصليبية الأولى تحت نظرهم وبمساعدتهم ولو قسراً.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

حالة الساحل السوري قبل وأثناء الهجوم الصليبي:

يعيد الباحث درويش النخيلي أسباب محاولات الفاطميين للسيطرة على بلاد الشام والساحل السوري إلى عدّة أسباب منها:

١ ـ من ضمن سياسة توسعية شرقاً وغرباً، بهدف انتزاع مناطق النفوذ العباسي في كافة أنحاء العالم الإسلامي.

٢ ـ السيطرة على الشام تحقّق لهم أمن الحدود الشرقية لمقر خلافتهم ـ مصر ـ باعتبار الشام خط الدفاع الأول عن مصر من الناحيتين الحربية والسياسية.

٣ ـ شعار الجهاد، الذي نظر إليه الفاطميّون كمهمَّة طبيعية أنيطت بهم لتخليص الأراضي التي احتلها أعداء الدين الإسلامي، «إذ كان الجهاد لدى الفاطميين، أساساً جوهرياً من أسس سياستهم الحربية ودعامة مهمة من دعائم العقيدة الإسلامية الشيعيّة» إلى حد إنشائهم ديواناً بهذا الاسم وهو «ديوان الجهاد»[١].

ويقول الباحث النخيلي، إن تحرير المناطق الشامية من النفوذ العباسي والبيزنطي لم يستمر أكثر من أربع سنين من سنة ٣٥٨، سنة وصول جوهر، إلى سنة ٣٦٢هـ، وبعد هذا التاريخ بدأت مناطق بر الشام تدخّل في دوامة الصراع القبلي والعشائري، والتجاذب بين العباسيين والفاطميين، فلم تستطع أي فئة المحافظة على ولاء الحكّام والولاة الشوام لفترة طويلة، بل كان الولاة والحكّام يقيمون الخطبة لمن يدفع أكثر، ولما كان المال والذهب بالنسبة للفاطميين كالتراب، فالبطبع، كانت فترات الخطبة باسمهم في مدن الشام أكثر من فترات الدعاء للخليفة العباسي. أما السلطة الفعلية فكانت للوالي. أما الخطبة فقد كانت شكلية، وخاصة بعد موت الخليفة الحاكم بأمر الله.

وروت كتب التاريخ، أنّه عندما حاول الأعصم القرمطي طلب العون من الخليفة العباسي المطيع لمقاتلة البيزنطيين، فلم يستجب له أحد، لا الخليفة المطيع ولا بني بويه. ولكن عندما اصطدم الأعصم القرمطي بجعفر بن فلاح والي الفاطميين على دمشق، هلّت عليه

---

(١) فتح الفاطميين للشام، درويش النخيلي، ط ١، الإسكندرية، مصر، مؤسسة الثقافة الجامعية، سنة ١٩٧٩، ص ١١.

الإمدادات من كلّ حدب وصوب، فمدّه الأمير بختيار البويهي بالسلاح والمال، وزوّده أبو تغلب الحمداني في الرحبة بالرجال، وينضاف إليه وهو في طريقه إلى دمشق بنو عقيل وغيرهم، حيث يحاصر جعفر بن فلاح ويقتله.

أما ابن تغري بردي فيقول أن المطيع أمر الحمدانيين وفلول الأخشيدية بالإلتحاق بالأعصم[1].

تلك كانت حال ولاة الشام ومراكز القوى فيها، في حربهم مع البيزنطيين. ففي الوقت الذي كان فيه أهل حلب يتظاهرون في بغداد ضد الخليفة المطيع لتخاذله عن الدفاع عنهم، كان الخليفة المطيع همّه طرد الفاطميين من الشام.

وبالرغم من الهدنة التي أقامها برجوان الخادم مع البيزنطيين أواخر أيام الخليفة العزيز وأول أيام ولده الحاكم، فقد كان العزيز يقود حملات الجهاد بنفسه، ويعدّ الأساطيل البحرية في دار الصناعة في المقس بالقاهرة. وكانت الهدنة معرّضة دائماً للنقض بسبب مواقف الحاكم بأمر الله المتقلبة، ضد النصارى في مصر وخارج مصر.

فكنا قد أشرنا إلى تضمين جوهر الصقلي كتابه وأمانه لأهل مصر عن الأسباب التي دعت الخليفة المُعزّ لدين الله، للتوجه نحو الشرق «فلم يكن إخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفّرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم و«الجهاد» عنكم، إذ قد تخطّفتكم الأيدي واستطال عليكم المستذلّ وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم،

---

(١) راجع: فتح الفاطميين للشام، م.س. ص ١٩٣.

والتغلّب عليه والاحتواء على نعمكم وأموالكم، حسب ما فعله (البيزنطيون) في غيركم من أهل بلدان المشرق، فعاجلهم مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ بإخراج عساكره المنصورة، وبادرهم بإنفاذ الجيوش المظفّرة دونكم، و«مجاهدته» عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق، الذين عمّهم الخزيّ وشملتهم الذلّة، واكتنفتهم المصائب وتتابعت الرزايا، واتصل عندهم الخوف، وكثرت استغاثتهم، وعظم ضجيجهم، وعلا صراخهم، فلم يغثهم إلا من أمرضه أمرهم ومضّه حالهم، وأبكى عينه ما نالهم، وأسهرها ما حلّ بهم، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ[1].

ويبدو أن ما ورد في كتاب جوهر الصقلي وعهده للمصريين أفضل وصف للحالة السياسية والعسكرية والاجتماعية والجهادية لأمراء الساحل الشامي.

والجهاد كان في رأس اهتمامات الفاطميين. فعندما حاول باسيل الثاني مهاجمة طرابلس، أعلن الخليفة الفاطمي الجهاد على منابر الجوامع والمساجد وقرأ البيانات بنفسه في خطب الجمعة. ويقول لنا المقريزي إنّ نتيجة دب نفير الجهاد بين المصريين وفتح خزائن الأموال والسلاح «اجتمع من الرعيّة (غير الجيوش النظامية) وطوائف الناس بالسلاح للسفر مع العزيز ألوف كثيرة». وهذا دأب مصر والشعب المصري، يتصدّى لكل عظيمة تحلّ بالأمة العربية.

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، ص ١٠٤.

ويقول المقريزي: إنّ الخيول التي خرجت مع العزيز كانت تعد اثني عشر ألفاً والجمال ثلاثين ألفاً، سوى ماهو مع وجوه الدولة، وكانت نفقات الحملة قد بلغت حمولة خمسة آلاف حمل جمل «على كلّ جمل صندوقان كبيران مملوءان ذهباً»، وألف وثماني مائة بختي وبختية[1] على كلّ واحد صندوقان في كلّ منهما مثل ما في الصندوقين المحمولين على جمل.

تصوّر أن يجهّز الخليفة الفاطمي العزيز بالله ١٣٦٠٠، ثلاثة عشر ألف وستماية صندوق من الذهب لحملة الجهاد ضد البزنطيين وللدفاع عن ثغور المسلمين. فلم يرو التاريخ الإسلام كلّه أي موقف مماثل أو أقلّ مماثلة لهذا الموقف الجهادي المميّز.

وبالرغم من السيطرة الفاطمية المبكرة على حوض البحر المتوسط والشمال الإفريقي بكامله، وانتقالهم إلى مصر للاقتراب من الثغور الإسلامية الشمالية على الحدود البيزنطية، يرى بعض الباحثين المعاصرين «أنّه كان لهم في إضعاف «دار الإسلام» نصيب كبير. فقد أدخلوا في الحياة الإسلامية عناصر لم تكن ذات أثر طيب، وهذه العناصر هي ما انبثق عن المذهب الديني الذي نشروه في ملكهم. وهو مذهب الفرقة من الشيعة التي انتموا إليها. وكان مذهباً فرّق الجماعة الإسلامية في وقت عصيب[2].

---

(١) البختي أو البختية بعير أو جمل كبير الحجم.

(٢) القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، أرشيبلد لويس ترجمة أحمد محمد عيسى، ط ١، القاهرة، مكتبة النهضة العصرية، سنة ١٩٥١، ص ٤١١.

ديوان الجهاد وأهميّته في الدولة الفاطمية:

كان لانتشار الثغور الإسلامية في الشرق والغرب على امتداد الحدود الشرقية مع البيزنطيين، وفي سواحل إفريقيا وعلى امتداد الساحل السوري، حافز كبير لاعتماد مؤسّسة ضخمة تتابع شؤون حماية هذه الثغور وتتتبّع أخبارها وأحوال أهلها.

وأطلقوا على هذه المؤسّسة اسم «ديوان الجهاد» فكيف نظر المؤرّخون لهذا الديوان وكيف وصفوه لنا؟.

وصفه ابن الطوير في كتابه نزهة المقلتين فقال: الخدمة في ديوان الجهاد، ويقال له «ديوان العمائر»، وكان مقرّه بصناعة الإنشاء بمصر للأسطول والمراكب المحمّلة بالغلاّت السلطانية والأحطاب وغيرها.

ويخبرنا ابن الطوير أنّ هناك عدّة أنواع من السفن الحربية التابعة لديوان الجهاد وهي العشاريات مفرد عشاري ـ والدواميس ـ مفرد ديماس ـ وأنّ لمتولّي ديوان الجهاد نائبين، برسم خدمة ما يجري في الأساطيل. وهما مسؤولان عن إصلاح أو إعمار أوسد خلّل أي سفينة، وفي حال تقصير الميزانية السنوية المخصّصة لعمارة هذه المراكب «استدعي له من بيت المال ما يسدّ خلله».

ويقول أيضاً: وكان من أهمّ الأمور عندهم احتفالهم بالأساطيل وعرض الجنود، ومواصلة إنشاء المراكب الحربية بمصر والإسكندرية ودمياط من الشواني الحربية (جمع شيني)، والشلنديّات، (جمع شلندي)، والمسطّحات (جمع مُسَطّح).

وكانت قيادات الأسطول تبلغ عشرة من الأعيان يقال لهم القوّاد، واحد قائد، تصل جامكية (راتب) كلّ واحد منهم إلى عشرين ديناراً في الشهر.

ويُعيّن من هؤلاء القوّاد العشرة من يقع عليه الإجماع لرياسة الأسطول المتوجّه للغزو، وكلّهم يهتدون به ويقلعون بإقلاعه ويرسون برسوّه.

ويقدّم على الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء وأقواهم نفساً وجناناً، ويتولّى النفقة فيهم للغزو بنفسه، بحضور الخليفة، وقد بلغت أيّام الخليفة المُعّز ستمائة سفينة حربية.

أما المقريزي فقد وصفه ووصف موظفيه بقوله: أما الخدمة في ديوان الجيش وفيه مُسْتَوفٍ أصيل ولا يكون إلا مسلماً وله رتبة وميزة على غيره لجلوسه بين يدي الخليفة داخل باب عتبة المجلس، وله الطرّاحة والمسند وبين يديه الحاجب، وترد عليه أمور الأجناد. وليس له تغيير أحد من الأجناد إلا بمرسوم، وكذلك إقطاعهم، ويكون بين يديّ هذا المستوفي نقباء الأمراء، ينهون إليه متجدّدات الأجناد، من الحياة والموت والمرض والصحّة[1].

طريقة توديع المجاهدين وانتقالهم:

بعد أن يعلن نفير الجهاد على منابر الجوامع والمساجد ويجتمع من الناس من يريد المشاركة في الجهاد إلى جانب العساكر النظامية،

---

(١) راجع: الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٤٠١.

يتقدّم رئيس ديوان الجهاد إلى النقباء لإحضار الرجال بعد إسماع أمر الجهاد إلى خارج مصر والقاهرة، فيدخلون إليها، ويتم دفع مستحقّاتهم مشاهرة. ولهم الجرايات (المخصّصات) المستقرة طيلة أيام السفر. ويجتمع الجميع: الخليفة والوزير والمستوفي والكاتب في الديوان، وتحضر الصناديق «تصبّ عليها الدراهم، ويحضر الوزّانون من بيت المال لهذه الغاية». فإذا تهيّأ الإنفاق، أدخل مسؤولو قيادة الجيش إلى الديوان «مائة مائة»، فيقفون في أخر الوقوف بين يدي الخليفة من جانب واحد، نقابة نقابة»، (لواء، لواء)، وتكون أسماؤهم قد رتبت في استمارات لاستدعائهم بين يدي الخليفة، فيستدعيهم مستوفي الجيش واحداً واحداً، فإذا نودي باسمه، عبر من الجانب الذي هو فيه إلى الجانب الخالي. فإذا اكتمل العدد لعشرة معتمدي قبض، «وزن الوزّانون لهم النفقة».

فإذا تكمّلت النفقة وتجهّزت المراكب وتهيّأت للسفر، ركب الخليفة والوزير إلى النيل، بالمقس، وكان هناك على شاطىء النيل بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة لوداع الأسطول ولقائه إذا عاد.

ثم يحضر بين يدي الخليفة المقدّم والرئيس فيوصيهما ويعظهما ويدعو للجماعة بالسلامة والنصر، ويعطي المقدّم مائة دينار والرئيس عشرين ديناراً، وينحدر الأسطول إلى دمياط، ويخرج إلى البحر المالح (المتوسط)، فيكون له ببلاد العدو هيبة وصيت.

ويصف لنا ابن الطوير عودة إحدى الأساطيل الفاطمية منتصرة ومعها من الأسرى الفرنج مئتان وعشرون رجلاً، فأحضروهم إلى

القاهرة «ففرح الخليفة بذلك» وركب إلى المقس وجلس بالمنظرة للقائهم، فأطلقوا بين يديه تحت المنظرة من جانب البر، وأتوا بالجمال وكبّلوهم كلّ اثنين ظهراً لظهر على جمل واحد، وطيف بهم في شوارع مصر والقاهرة، وعاد الخليفة إلى القصر «وما كفاه نظره لهم في المنظرة فرحاً بهم، فجلس في إحدى مناظر القصر لنظرهم في اجتيازهم»[1] ترى هل كان دافع سرور الخليفة إلى هذا الحد، ونشوته بسبب علو كلمة الدين وارتفاع راية الإسلام أم لأسباب أخرى نجهلها؟.

موقف الفاطميين من الجزر والمدن الإيطالية:

كان الفاطميون ينظرون إلى صقلية نظرة ثغر مهمّ من ثغور المسلمين، لذا كانوا يحرصون على الاحتفاظ بسيادتهم المباشرة عليها، وكانوا يخطّطون لاتخاذها قاعدة لأسطولهم البحري لصد حملات الروم البيزنطيين على الشاطىء الإفريقي.

وكان الصقليون: جنسان وديانتان: العرب وأكثرهم مسلمون، والنورمانديّون وهم مسيحيون. وكانت قبائل كلب العربية تتولى حكم هذه الجزيرة من قبل الخلفاء الفاطميين. ولما انتقلت الخلافة الفاطمية من تونس إلى مصر، حافظ الخلفاء الفاطميون، على وضع صقلية، وجعلوا حاكمها مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بقصر الخلافة بالقاهرة.

---

(١) راجع: نزهة المقلتين، م.س. ص ٩٩.

وفي أواخر القرن الرابع الهجري، أخذ النفوذ الفاطمي في جزيرة صقلية يضعف، واقتصرت العلاقة مع القاهرة على إرسال الولاة إليها لإدارة شؤونها. وشيئاً فشيئاً، وبسبب الانقسامات بين صفوف أهل صقلية المسلمين، تشجع الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الرابع على غزوها، واحتلال عاصمتها مسينا، واستمرّت النزاعات بين أهلها المسلمين حتى تمكّن النورمانديّون من غزوها واحتلالها سنة ٤٨٤هـ في عهد الخليفة المستعلي بن المستنصر، وبوزارة الأفضل بن بدر الجمالي[١].

علاقة الفاطميين بالمدن الإيطالية:

كانت مدن الشاطىء الإيطالي في أوائل القرن الخامس الهجري قد بدأت تستقل عن الحكم البيزنطي وتؤسس لنفسها نوعاً من الاستقلال التجاري والسياسي والعسكري.

وأول هذه العلاقات التي أشارت إليها كتب التاريخ، بدأت مع الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم. فقد أشارت هذه الكتب إلى حرص مدينة بيزا «على توثيق صلة المودّة مع الخلفاء الفاطميين» فأرسلت سنة ١١٥٤م، سفيراً إلى بلاط الخليفة الظافر الفاطمي لتسوية بعض المشاكل الناجمة عن اعتداء بعض التجار من رعاياها على متن إحدى السفن على فريق من التجار المصريين بالقتل والسلب، حيث أقدمت الحكومة المصرية الفاطمية بمعاقبة وسجن

---

(١) راجع: سياسة الفاطميين الخارجية، محمد جمال الدين سرور، ط ١، القاهرة دار الفكر العربي، سنة ١٩٧٦، ص ٢٣٥.

التجار الإيطاليين البيازنة المقيمين في مصر. فلما وصل سفير مدينة بيزا، توصّل إلى تسوية الأمر واتفق مع الحكومة الفاطمية على الاقتصاص من المعتدين والامتناع عن تقديم أي مساعدة للصليبيين في الشام أو لغيرهم من الفرنجة أعداء مصر. وتضمّن الاتفاق أيضاً، إعادة إطلاق سراح التجار الإيطاليين الذين أودعوا السجن بسبب تعدّي أهل بيزا على التجار المصريين.

وقد استمرّت العلاقات الطيّبة بين مصر ومدن الساحلي الإيطالي طيلة الحكم الشيعي الإمامي الفاطمي، فقد أخبرنا المؤرّخون، أنّ وفد بيزا كان أول المهنئين بتكليف الملك الصالح طلائع بن رزيك بالوزارة[1].

وكذلك كان موقف مدينة جنوى الإيطالية التي عقدت بدورها معاهدة تجارية وسياسة حسن جوار مع الدولة الفاطمية، وسمح للتجار والرعايا الطليان الجنويين، بموجب هذه المعاهدة دخول مصر والقاهرة والإقامة فيها مشمولين برعاية الدولة الفاطمية.

وكذلك كان لمدينة البندقية علاقات متينة مع مصر والفاطميّين، رغم تهديدات الإمبراطور البيزنطي بمعاقبتها إذا استمرّت بهذه العلاقات. وقد استطاعت البندقية أن تحصل على معاهدة مع مصر الفاطمية، تجعلها من الدول ذات العلاقات المميّزة عند الفاطميين، بين كلّ دول محيط البحر الأبيض المتوسط.

أما مدينة أو جزيرة صقلية الإيطالية، فقد كانت جزيرة عربية إسلامية عندما كان الفاطميون يحكمون المغرب، وفيها أقلية مسيحية

---

(١) م.س. نفسه. ص ٢٥٠.

إيطالية نورماندية، وبعد إقامة مذبحة كربلاء الثانية في المغرب العربي سنة (٤٠٢هـ)، لم ينج المسلمون الشيعة في هذه الجزيرة من الذبح والقتل والتشريد وعادت الجزيرة بعد هذه المجزرة إلى حكم آل باديس البرابرة السنّة، ومن ثم أدت المعارك بين القبائل العربية المتقاتلة على أرض الجزيرة إلى عودة الجزيرة إلى الحكم الإيطالي النورماندي.

حالة الشرق العربي تحت الحكم الكردي التركي ساعة بدء الهجوم الصليبي:

عندما بدأ الصليبيون حملتهم على الشرق العربي كانت المنطقة التي تعرّضت لحملاتهم مقسّمة بين قوتين عربيتين تملكان الاسم شكلاً وهاتان القوّتان هما: الدولة العباسية في المشرق العربي والدولة الفاطمية في مصر وكان الساحل السوري اللبناني الفلسطيني مقسّماً بالاسم بين هاتين القوتين. أما الحكم الفعلي فكان لغير العرب من المسلمين، فبغداد كانت واقعة تحت الحكم التركي السلجوقي، والقاهرة كانت واقعة تحت حكم الأرمن، شاهنشاه (الأفضل بن بدر الجمالي).

وكتب صاحب تاريخ ميافارقين يصف حالة الشرق الإسلامي سنة ٤٨٩هـ، أي قبل بدء الهجوم الصليبي بأربع سنوات فقال: واستبدّ السلطان بركياروق بالسلطنة، استبدّ بالعراقيين وآذربيجان، وملك سنجر خراسان، وكان أصغر الأخوة. وبقي الشام وديار بكر في يدي ولدي السلطان تاج الدولة تتش. وكانت حلب وما حولها للملك رضوان. وكانت دمشق وديار بكر للملك دقاق. وكان طغتكين بميارفين. فلما قتل تاج الدولة مضى إلى دمشق وحصّل أتابك الملك

دقاق، وولي ميافارقين الأمير شمس الدولة التاش، ورتّبه فيها وسار إلى دمشق، فحصل الأمر جميعه إليه، فتولى دمشق والأتابكية للملك دقاق وبقي الأمير التاش بميافارقين»[1].

ويثبت هذا النص ما أشرنا إليه بأنّ الساحل السوري وكامل الهلال الخصيب، كان تحت حكم الأكراد والأتراك، ولا علاقة لمصر وللمصريين الفاطميين بإدراة شؤونه، دون أن ينفي ذلك عنهم تهمة التقصير في الدفاع عن الإسلام والمسلمين في هذه الأوقات العصيبة من تاريخنا، رغم بذلهم أقصى ما يملكون من سلاح وعتاد وأموال ورجال.

وسوف نتبع بالاسم كلّ مدينة لمعرفة حاكمها واسم الدولة التي كان يحكم باسمها، لتحديد مسؤولية مصر والفاطميين من هذه النكبة.

أنطاكية تحت الحكم السلجوقي:

كانت أنطاكية أول مدينة عربية إسلامية مسيحية تقع تحت الاحتلال الصليبي. وقد احتلها الفرنجة (سنة ٤٩١ هـ، ١٠٧٩م). كان يحكمها، الوالي السلجوقي «باغي سيان» من قبل السلطان السلجوقي قلج أرسلان.

وقد وصف الحافظ ابن كثير سقوط أنطاكية فقال، وفيها (سنة ٤٩١هـ) ملك الفرنج مدينة أنطاكية، بمواطأة بعض المتحفظين على بعض الأبراج، وهرب صاحبها باغيسيان وترك بها أهله وماله

---

(١) تاريخ الفارقي، أحمد بن علي الفارقي، ط ٢، بيروت، دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٧٤، ص ٢٤٣.

وحاول أمراء المنطقة ـ كربوقا ودقاق، مهاجمة أنطاكية ولكنّهم هزموا خارجها، «ثم صار الفرنج إلى معرة النعمان فأخذوها، ولما بلغ هذا الأمر الفظيع السلطان بركياروق، شقّ عليه ذلك وكتب إلى الأمراء ببغداد لأنّ يتجهزّوا، هم والوزير ابن جهير، لقتال الفرنج، فبرز بعض الجيش إلى ظاهر بغداد في الجانب الغربي، ثم انفسخت العزيمة لأنّهم بلغهم أن الفرنج في ألف ألف مقاتل (مليون)، ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

ووصف أمين المعلوف أنطاكية المحتلة فقال: أما المدينة فقد غاصت في النار والدم، والرجال والنساء والأولاد ويحاولون الهرب في الأزقة الموحلة، لكنّ الخيالة الفرنج، يمسكون بهم من غير جهد، ويذبحونهم بأرضهم، وما هي برهة، حتى اختنقت صيحات الذعر التي كان يطلقها آخر الناجين، وحلّت محلها أصوات نشاز صادرة عن بعض النهّابين الفرنج الذين كانوا قد ثملوا، وما حلّ الظهر حتى كانت تلف أنطاكية غلالة من الحداد»[2].

وبالرغم من بُعد أنطاكية عن حدود الدولة الفاطمية، فلم يقفوا متفرّجين، فحاولوا عبر القنوات الدبلوماسية بواسطة البيزنطيين توقيف الهجوم، «فأرسل الخليفة المستعلي بالله الفاطمي من مصر، وفداً إلى الإفرنج يعرض عليهم الصلح والمسالمة، وأنّه يرجع إليهم الكنائس التي شيّدها المسيحيّون، وأنّه يحامي عنهم ويفتح أبواب

---

(١) البداية والنهاية، الجزء ١٢، ص ١٥٥.

(٢) الحروب الصليبية كما رأها العرب، أمين معلوف، ترجمة عفيف دمشقية، ط ١، بيروت، دار الفارابي، سنة ١٩٨٩، ص ٥٥.

بيت المقدس أمام الزوار شرط أن يدخلوها بلا سلاح، ولا يقيم الواحد فيها أكثر من شهر» فرفضوا[1].

ويقول ابن تغري بردي عن الخليفة المستعلي، المعاصر للهجوم الصليبي الأول: كان القائم بأمره الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي، ولم يكن للمستعلي مع الأفضل بن أمير الجيوش حكم.

القدس قبل سقوطها بأيدي الصليبيين:

كانت القدس قبل سقوطها بين أيدي الصليبيين تحت حكم آل أرتق الذين كانوا يحكمونها مع حلب. فكانت تحت حكم تتش الأرتقي حتى وفاته سنة ٤٨٤هـ، ثم تولى حكمها ولده رضوان، وكان يزاحم أخاه دقاق على حكم دمشق ويتآمر عليه ويستنجد تارة بملكشاه السلجوقي وتارة بالأفضل بن بدر الجمالي بمصر، وقد استمرّ رضوان يحكم القدس حتى سنة ٤٩١هـ، فانتزعها منه الأفضل وأعادها إلى الحكم الفاطمي.

وكتب ابن القلانسي يصّف موقف الفاطميين من القدس فقال: ثم قصد الإفرنج بعد ذلك (المعرة)، ناحية (بيت المقدس آخر رجب من السنّة (٤٩٢هـ)، وأجفل الناس منهم من أماكنهم، ونزلوا أولاً على الرملة فملكوها وانتقلوا إلى بيت المقدس، فقاتلوا أهله، وضيّقوا عليهم، ونصبوا عليه البرج وأسندوه إلى السور، وانتهى إليهم خروج الأفضل من مصر في العساكر الكثيرة لجهادهم والإيقاع بهم،

---

(١) الحروب الصليبية، سيد علي الحريري، ط ١، بيروت، دار التضامن سنة ١٩٨٨، ص ٣٨.

وإنجاد البلد عليهم وحمايته منهم. فشدّوا في قتاله ولازموا حربه إلى آخر نهار ذلك اليوم وانصرفوا عنه، وواعدهم بالزحف إليهم في الغد، ونزل الناس عن السور وقت المغرب، فعاود الإفرنج الزحف إليه، وطلعوا البرج وركبوا سور البلد، فانهزم الناس عنه، وهاجموا البلد فملكوه. وانهزم بعض الأهالي إلى المحراب وقتل خلق كثير. وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم.

ووصل الأفضل بالعساكر المصرية، وقد فات الأمر، فانضاف إليه عساكر الساحل، ونزل بظاهر عسقلان في ١٤ رمضان، منتظراً وصول الأسطول المصري في البحر، فنهض عسكر الإفرنج إليه، وهجموا عليه في خلق عظيم، فانهزم العسكر المصري إلى ناحية عسقلان، ودخل الأفضل إليها[١].

فإذاً، كانت القدس قد وقعت بأيدي الفرنجة قبل وصول الأفضل والعسكر المصري. وقد أشار المقريزي إلى الخوف والوجل الذي حل بالأفضل من هول ما رأى من الفرنجة في حرب القدس:

فيها (سنة ٤٩٢ هـ)، سار الفرنج لأخذ السواحل الشامية من أيدي المسلمين، فملكوا مدينة أنطاكية، وساروا إلى المعرّة فملكوها، ونزلوا على حمص، فهادنهم جناح الدولة (حاكمها من قبل تتش أرسلان السلجوقي)، ومروا على عكا، وتابعوا زحفهم إلى بيت المقدس، فحاصروا المدينة، وبلغ ذلك الأفضل، فخرج بعساكر كثيرة لمحاربتهم، فجد الفرنج عندما بلغهم مسيره إليها في حصار المدينة،

---

(١) راجع: تاريخ دمشق، م.س. ص ٢٢٢.

فملكوها قبل وصوله، فوضعوا السيف في أهلها وأفنوهم عن آخرهم. ويقال إنّه قتل فيها ما لا يقل عن سبعين ألفاً. (٢٢ شعبان ٤٩٢هـ).

ووصل الأفضل إلى عسقلان في ١٤ رمضان (٤٩٢)، أي بعد سقوط القدس بعشرين يوماً، فهاجموه على حين غرّة وأوقعوا بعساكره وقتلوا منهم كثيراً. وحاصروا عسقلان وحصروا الأفضل فيها حتى كادوا يأخذونه، ثم وقع في صفوفهم الخلاف فرحلوا عنها، فاغتنم الأفضل رحيلهم عنه فركب البحر «وقد ساءت حاله وذهبت أمواله وقُتلت رجاله»، فسار إلى القاهرة، ولم يعد بعد هذه المعركة إلى الخروج بنفسه في حرب البتّة[1].

وهذا الوصف الذي وصفه المقريزي للحالة النفسية التي أصبح فيها الوزير الأفضل، تدل على مدى الأهوال التي قاساها والجرائم التي شاهدها. فالمعروف عن الأفضل ووالده بدر الجمالي أنّهما من رجال الحرب والغارات.

ويقول أبو المحاسن ابن تغري بردي، أنّه بعد سقوط القدس وذبح أهلها، خرج أهل دمشق مع قاضيها، أبي سعد الهروي، فوصلوا بغداد ودخلوا ديوان الخليفة وقطعّوا شعورهم واستغاثوا وبكوا. ثم قام القاضي الهروي وأورد كلاماً أبكى الحاضرين، وحث العسكر السلطاني (العباسي) على النهوض. ولكن يؤكد أبو المحاسن: «فوقع التقاعس لأمر يريده الله». فغضب القاضي أبو سعد الهروي وهجا حكّام بغداد بقصيدة جاء فيها:

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٢٤.

مزجنا دماءً بالدموع السواجم فلم يبق منا عرضة للمراحم
وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيقظت كلّ نائم
وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

ووصف حالة العرب والمسلمين شاعر آخر فقال:

أحلّ الكفر بالإسلام ضيماً يطول عليه للدين النحيبُ
فحقٌ ضائعٌ وحمى مُباحٌ وسيف قاطع ودمٌ حبيبُ
وكم من مسلم أمسى سليباً ومسلمة لها حَرَمٌ سليبُ
وكم من مسجد جعلوه ديراً على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خَلُوقٌ وتحريق المصاحف فيه طيب[1]
أمور لو تأولهنّ طفلٌ لطفلّ في عوارضه المشيب
أتُسْبَى المسلمات بكلّ ثغر وعيش المسلمين إذا يطيب
أما لله والإسلام حقٌّ يدافع عنه شبّان وشيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا أجيبوا الله ويحكمُ أجيبوا

وهذه الصورة التي وصف فيها الشاعر ما حل بالعرب هي نفس الصورة التي وقعت بالمسلمين البوسنيين، ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين، أي بعد ألف سنة من أحداث القدس. والمشهد يتكرّر حالياً في العراق.

والجديد بالذكر أنّ الحافظ ابن كثير لم يشر إلى موقف الفاطميين من معركة القدس لا من قريب ولا من بعيد بل إكتفى بالقول إنّ الفرنجة كانوا يعدون ألف ألف مقاتل.

---

(١) الخلوق: السائل المعطّر.

أما ابن تغري بردي، فقد وصف الحالة الإسلامية وصفاً جيداً، حيث أظهر بداية التذابح الإسلامي السلجوقي بين أولاد ملكشاه الأربعة: بركياروق ابن زبيدة، ومحمود ابن خاتون، ومحمد شاه، وسنجر، تاركين الفرنجة يعيثون بالبلاد الإسلامية وخاصة مناطق تركيا وبر الشام، دون من يردعهم أو يرّدهم.

وقد اختصر أبو يعلى ابن القلانسي الوضع بهذه الجملة: «سنة ٤٩٥ هـ، وفي هذه السنّة وردت الأخبار بما أهل خراسان والعراق والشام، ما عليه من الخلاف المستمر والشحناء والحروب والفساد، وخوف بعضهم من بعض، لاشتغال الولاة عنهم، وعن النظر في أحوالهم بالخلف والمحاربة»[١].

حالة الدولة الفاطمية عند سقوط عكا:

كتب ستيفن رنسيمان يصف تحرّكات الفاطميين لحماية الساحل السوري من الصليبيين فقال: وبفضل مساعدة بحّارة بيزا أعاد جودفري عمارة يافا وأصلح ميناءها، فأسرعت إليها السفن من جميع موانىء إيطاليا، طمعاً بالتجارة مع الدولة الجديدة، وللّحاق بالبيازنة، ومقاسمتهم الفرص والأرباح. وبمساعدة السفن الإيطالية، استطاع جودفري أن يفرض الحصار على الساحل السوري، فازدادت المشقة أمام السفن الفاطمية لجلب المؤن بحراً إلى الموانىء الإسلامية[٢].

---

(١) تاريخ دمشق، ابن القلانسي، م.س. ص ٢٢٧.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، الجزء الأول، ترجمة الباز العريني، ط ٢، بيروت، دار الثقافة، سنة ١٩٨١، ص ٤٥٧.

ويحدثنا رنيسمان عن استنجاد أهل أرسوف بالفاطميين، ورغم وصول النجدة، إلاّ أنّهم فضّلوا مهادنة الصليبيين، «ولم يلبث أن احتذى حذوهم أهل قيسارية وعكا».

وتحدث ابن القلانسي عن سنة ٤٩٥هـ، فقال: وفي هذه السنّة خرجت العساكر المصرية من مصر لإنجاد ولاة السواحل في الثغور الباقية في أيديهم منها على منازلتهم أحزاب الإفرنج». وانتصروا على الفرنجة في هذه الحملة.

وفي سنة ٤٩٦هـ، خرجت العساكر المصرية من مصر إلى البر والأسطول في البحر مع شرف المعالي ابن الأفضل شاهنشاه، وكتب باستدعاء المعونة على الجهاد ونصرة العباد والبلاد، فأجيب إلى ذلك، ووصل أسطول البحر».

أما المقريزي فوصف سقوط عكا سنة ٤٩٥هـ، كالتالي وفيها مات الخليفة المستعلي وعمره سبع وعشرون سنة. ومدة خلافته سبع سنين.

وفي أيّامه اختلت دولتهم وضعف أمرهم، وانقطعت من أكثر مدن الشام دعوتهم، وانقسمت البلاد الشامية بين الأتراك الواصلين من العراق وبين الفرنج. ولم يكن للمستعلي سيرة تذكر، فإنّ الأفضل كان يدّبر أمر الدولة تدبير سلطنة وملك لا تدبير وزارة[1].

ووصف ابن الطوير حملة الأفضل لحماية عكا وعسقلان فقال:

وكوتب الأفضل من عسقلان باجتماع الفرنج فاهتمّ بالتوجّه إليها

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثاني، ص ٢٧.

ولم يُبقِ ممكناً من مال وسلاح ورجال وخيل، واستناب أخاه المظفّر أبا محمد جعفر بن بدر الجمالي، بين يدي الخليفة مكانه، وقصد استنقاذ الساحل من يد الفرنج، ووصل إلى عسقلان وزحف إليها بذلك العسكر، فخذله عسكره وهي نوبة البصّة[1]. وعلم أن السبب من جنده. ولما انكسر الأفضل، أحرق جميع ما معه من آلات حربية. وكان عند الفرنج شاعر ملتجىء إليهم فقال يخاطب ملك الفرنج صنجيل[2]:

نصرت بسيفك دين المسيح فللّه درّك من صَنْجَلِ

وما سمع الناس فيما رووه بأقبح من كسرة الأفضل

وأخبرنا ابن الطوير أن الأفضل وزّع عليه العيون والعسس حتى استطاع خطفه وذبحه، ومن حينها تشاءم الأفضل من هذه الكسرة، وحرم الجنود والعساكر الكثير من الجرايات والمخصّصات والأعطيات، حتى النعوت والألقاب ووصف سيد علي الحريري سقوط عكا كالتالي:

أراد بودوين توسيع مملكته باتجاه الساحل كي تتصّل بأوروبا، فلذلك قرّر احتلال عكا وامتلاكها، فجمع جيشه والجيش الجنوي الإيطالي بمراكبه البحرية، وحاصروا عكا. فحاصرها هو برّاً بجيشه، وحاصرها بحراً بمراكب الجنويين البالغ عددها سبعين مركباً. وكان ذلك سنة ٤٩٧هـ وكانت عكا في ذلك الحين تابعة لمصر، وحاكمها يدعى زاهر الدولة الجيوشي. وطال أمد الحصار حتى ملّ الصليبيّون

---

(١) البصة قرية عاملية محتلة من قبل إسرائيل وهي بعد عكا غرباً وقرب عسقلان.

(٢) نزهة المقلتين، م.س، ص ٤.

الانتظار. وبعد حصول معارك كثيرة، أظهر فيها المسلمون شجاعة عجيبة. وانتهى الأمر إلى طلب زاهر التسليم والصلح بشرط أن يخرج المسلمون بأمتعتهم. فقبل بودوين هذا الشرط ونقضه الطليان الجنويّون «فإنّهم لما نظروا غنى أهل عكا، لم يحترموا الأمان الذي أعطاه بودوين وهجموا على أهل البلد يسلبون ويقتلون». وفر الوالي المصري إلى دمشق ومنها إلى مصر[1].

فخر الملك ابن عمار يحاول إنقاذ طرابلس:

أجمعت الكتب التاريخية الإسلامية والأوروبية على شجاعة أهل طرابلس وتحمّلهم الجوع والحصار عشر سنين دفاعاً عن مدينتهم.

لم ينتظر أمير طرابلس فخر الملك بن عمار الصليبيين لكي يطرقوا أبواب طرابلس، بل سارع بشن الهجوم عليهم، باعتبارهم غزاة غرباء حيث يقول ابن القلانسي: وفي هذه السنّة (٤٩٧هـ) ورد الخبر من ناحية طرابلس بظهور صاحبها فخر الملك بن عمار في عسكره وأهل طرابلس، وقصدهم الحصن الذي بناه صنجيل (ريمون ده سان جيل)، وأنّهم هجموا عليه على حين غرة ممن فيه، فقتلوا من به ونهبوا ما فيه وأحرقوه وخرّبوه. وأخذوا منه من السلاح والمال والديباج والفضة، الشيء الكثير، وعاد إلى طرابلس سالماً غانماً، فهرب بيمند من الحصن وركب البحر بقصد استصراخ الإفرنج والاستنجاد بهم[2].

---

(١) راجع: الحروب الصليبية، سيد علي الحريري، م.س. ص ٥٥.

(٢) تاريخ دمشق، ابن القلانسي، م.س. ص ٢٣٦.

ويخبرنا ابن القلانسي، أنّ النصر على الفرنجة الذي حقّقه فخر الملك بن عمار، لم يجعله يزهو ويتعامى عن الخطر الصليبي الداهم، «فتواصلت مكاتباته ورسله من طرابلس بالاستصراخ والاستنجاد على الفرنج النازلين عليها، والبعث على تعجيل المساعدات بمن يصل إليه من العساكر، لكشف غمّته وتفريج كربته. ولكن المناوشات والخوف المتبادل بين أمراء الشام الأكراد: أتسز ـ جكرمش ـ سكمان بن أرتق ـ ظهير الدين أتابك ـ أياز. وكلّها أسماء تركية ـ كردية. جعلتهم يديرون ظهرهم وآذانهم لفخر الملك بن عمّار، ويهتمّون فقط بحماية ممالكهم، مما دفع بفخر الملك إلى العمل على خطين: خط المهادنة مع الصليبيين وخط تجييش المقاتلين من داخل طرابلس ومن خارجها، فعقد مع ريمون ده سان جيل (صنجيل) هدنة يكون خارج طرابلس للصليبيين، شرط أن لا يمنع الداخلين والخارجين منها وإليها.

وكاتب فخر الملك بن عمار يَحُثُّ والي حلب رضوان، فلم يلبّ صراخه بحجج واهية. وأتت النجدة من مصر بقيادة شرف المعالي بن الأفضل ولكنها لم تستطع الوصول إلى طرابلس، حيث دارت المعارك بين الفاطميين والصليبيين في عسقلان وانكسر العسكر المصري.

النجدات التركية الكردية تتلّهى بالتقاتل ولا تصل إلى طرابلس:

عندما حاصر الصليبيون طرابلس، واحتار فخر الملك بن عمار من أين تأتيه النجدات، من بغداد التي يتصارع على منابر مساجدها

سلاطين السلاجقة، فلا يدري خطيب الجامع لمن يخطب، فقد قال ابن الأثير أن خطيب الجامع المنصور في بغداد خطب سنة ٤٩٨هـ فقال: «اللهم اصلح سلطان العالم وسكت» لأنّه لم يعرف لمن يخطب».

كتب ابن القلانسي يصف سقوط طرابلس تحت وطأة ضربات الصليبيين وهو من معاصري هذا الأمر، فقال:

وفي شعبان من هذه السنّة (٥٠٢هـ) اشتدّ الأمر بفخر الملك بن عمار بطرابلس من حصار الإفرنج، وتطاول أيّامه وتمادي الترقّب لوصول النجدات، فأنفذ إلى دمشق يستدعي وصول الأمير ارتق أحد أمراء دمشق إليه، ليتحدّث معه بما في نفسه. فأجابه إلى ذلك، واستأذن ارتق ظهير الدين طغتكين في ذلك، فأذن له. وتوجّه أرتق نحوه، وقد كان فخر الملك خرج من طرابلس في البر بتقدير خمسمائة فارس، ومعه هدايا وتحف أعدّها للسلطان عند مضيّه إليه في بغداد، فلما وصل أرتق إليه واجتمع معه، تقرّرت الحال بينهما على وصوله إلى دمشق في صحبته، فوصل إليها وأنزل في مرج باب الحديد بظاهرها، وبالغ ظهير الدين طغتكين في إكرامه وتناهى في احترامه»[1].

ويبدو أن اتصال فخر الملك بن عمار بالسلاجقة والعباسيين كان موضع معارضة طرابلسية، فقد أخبرنا ابن القلانسي أن أبا المناقب بن عمار، ابن عم فخر الملك، كان من معارضي هذه الخطوة، فقد أظهر له الخلاف والعصيان ونادى بشعار الأفضل بن أمير

(١) تاريخ دمشق، ابن القلانسي، م.س. ص ٢٥٧.

الجيوش بمصر، ولكن معارضته لم تعط أي نتيجة، فقد قبض عليه أصحاب فخر الملك وأودعوه السجن.

وتوجّه فخر الملك إلى بغداد بعد أن فشل في جلب النجدات من دمشق في رمضان سنة ٥٠١هـ. فاستقبل بالاحترام والإكرام من قبل الخليفة والسلطان «فطال مكوث فخر الملك في بغداد، ضجر معه، وعاد إلى دمشق في نصف المحرّم سنة ٥٠٢هـ».

وهكذا يكون فخر الملك بن عمار قضى أكثر من سنتين خارج طرابلس يستنهض الأكراد والأتراك لحماية طرابلس، ولكنه كان هو في عالم، وكانوا في عالم آخر. فقد أخبرنا ابن القلانسي، أنّ السلطان محمد بن ملكشاه، قد وافق على تجريد العسكر للدفاع عن طرابلس، ولكن عليه «مشوار صغير» إلى الموصل لانتزاعها من يد جاولي سقاوة وإعادتها إلى سلطته. وهكذا، توجه العسكر السلجوقي العباسي إلى الموصل قبل التوجه إلى طرابلس وعاد فخر الملك إلى طرابلس، بعد أن خسر الهدايا والأموال التي حملها معه للأمراء الأكراد والأتراك، كما أدى ابتعاده عنها إلى زعزعة الوحدة الداخلية الطرابلسية.

ويصف لنا ابن القلانسي سقوط طرابلس بيد الصليبيين فيقول: «ونزل الإفرنج بجموعهم وحشودهم على طرابلس وشرعوا في قتالها ومضايقة أهلها منذ أول شعبان سنة ٥٠٢هـ إلى الحادي عشر من ذي الحجة من نفس السنّة. (١٩ يوماً) وأسندوا أبراجهم إلى السور، فلما شاهدهم الجند والمقاتلة وأهل البلد سقط في أيديهم وأيقنوا بالهلاك وذلّت نفوسهم، لا سيما مع اليأس من تأخّر وصول الأسطول المصري في البحر بالميرة والنجدات. وقد كانت علّة الأسطول أزيحت

فهو قد سُيّر ولكن الريح شردّه، لما يريد الله تعالى من نفاذ الأمر المقضي. فشد الإفرنج القتال عليها وهاجموها من الأبراج، فملكوها بالسيف يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ٥٠٢هـ، ونهبوا ما فيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها، وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها، وما كان منها في خزائن أربابها ما لا يحدّ عدده، ولا يحصر فيذكر»[1].

ووصف ابن الأثير صمود أهل طرابلس فقال: ولم تزل الحرب بين أهل طرابلس والفرنجة خمس سنين، حتى عدمت الأقوات، وخاف أهلها على نفوسهم وأولادهم وحرمهم. فجلا الفقراء وافتقر الأغنياء، وظهر من ابن عمار صبر عظيم وشجاعة ورأي سديد. ومما أضر بالمسلمين في طرابلس، أن فخر الملك بن عمار، استنجد بسقمان بن أرتق، صاحب دمشق، فمات في الطريق. وأجرى بن عمار الجرايات على الجند والضعفاء فلما قلّت الأموال عنده، شرع يقسّط على الناس ما يخرجه في باب الجهاد»[2].

ووصف أبو المحاسن ابن تغري بردي سقوط طرابلس فقال:

وفي سنة ٥٠٢هـ، قصد الفرنج طرابلس وأخذوها، بعد أن اجتمع عليها ملوك الفرنج مع بلترام بن صنجيل في ستين مركباً في البحر مشحونة بالمقاتلة، وطنكري الفرنجي صاحب أنطاكية. وبغدوين الفرنجي، صاحب القدس بمن معهم، فلما رأى أهل طرابلس ذلك، أيقنوا

---

(١) م. س. ص٢٥٩.

(٢) الكامل في التاريخ، الجزء الثامن، م.س. ص ٢٣٥.

بالهلاك مع تأخّر أسطول مصر عنهم. ثم حضر أسطول مصر من البحر، وصار كلّما سار نحو طرابلس، ردّه الفرنج نحو مصر.

ويقول ابن تغري بردي: وهذا يظهر عدم إكتراث أهل مصر بالفرنج من كلّ وجه: الأول: من تقاعدهم عن المسير في هذه المدّة الطويلة. والثاني: لضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر، ولو كان لعسكر الأسطول قوّة، لدفع الفرنج من البحر عن البلد. والثالث: لماذا لم يخرج الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بالعساكر المصرية كما فعل والده بدر الجمالي في أول الأمر. هذا مع قوّتهم من العساكر والأموال والأسلحة.

ولم يشر أبو المحاسن إلى الأسباب الحقيقية التي أخرت نزول الأسطول المصري على الشاطىء الطرابلسي، تلك التي أشار إليها معاصر هذه المعركة أبو يعلى ابن القلانسي، وهي أسباب خارجة عن إرادة المصريين: العواصف وقوة الموج.

وأما أسباب إتهام المصريين بالتقصير في الدفاع عن طرابلس فقد أعلنها ابن تغري بردي حين أنهى مداخلته عن أسباب سقوط طرابلس بقوله: «فللّه الأمر من قبل ومن بعد، ولله درّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فيما فعله في أمر الجهاد وفتح البلاد، كما يأتي ذلك إن شاء الله مفصّلاً في وقته وساعته، وفي ترجمة السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله ـ»[1].

أما المقريزي فيقول إنّه لما علم أنّ أهل طرابلس نادوا بشعاره،

---

(١) النجوم الزاهرة، الجزء الخامس، ص ١٧٨.

سِيرّ إليهم شرف الدولة بن أبي الطيب، فلما وصل إليها وجد أن الفرنج قد ملكوا قصر ابن عمار، فحمل في المراكب من أراد الخروج منهم بأهاليهم وأموالهم، وحمل من دار ابن عمار ذخائره ومصاغه وحمل أخاه المعروف بفخر الدولة إلى مصر، فأكرمهم الأفضل ويشير المقريزي إلى وصول النجدات المصرية متأخرة وكيف ردّت الريح الأسطول لإرادة إلهية.

أما الحافظ ابن كثير كعادته، يظلم في أحكامه كلّ من له علاقة بالفاطميين، من قريب أو بعيد، فيقول عن سقوط طرابلس، «ودخلت سنة ٥٠٣هـ، وفيها أخذت الفرنج مدينة طرابلس وقتلوا من فيها من الرجال وسبوا الحريم والأطفال وغنموا الأمتعة والأموال. وقد هرب منها فخر الملك بن عمار». فمسح بهذا الحكم تضحيات ابن عمار وبطولات الطرابلسيين طيلة الألفي يوم حصاراً[1].

أما المؤرّخ المعاصر أمين المعلوف العربي المشرقي المسيحي، الذي نظر إلى هذه المشكلة المعقدّة نظرة إنسانية محايدة وصف سقوط طرابلس بقوله:

ومهما يكن من أمر، فقد توقّف فخر الملك أولاً في دمشق، وكان يكّن لصاحبها دقاق أشد الكره. الذي مات مسموماً وأصبحت المدينة مذّاك في يد الوصيّ الأتابك طغتكين، وهو عبد أعرج سوف تتصدّر علاقاته المشبوهة بالفرنج مسرح الأحداث في بلاد الشام طوال عشرين سنة.

---

(١) راجع: البداية والنهاية، الجزء ١٢، ص١٧١.

وفي بغداد كان الاستقبال أشد فخامة، فقد عومل فخر الملك بن عمار معاملة ملكٍ ذي سطوة نظراً لهيبة طرابلس الكبرى في العالم الإسلامي.

ويروي لنا أمين معلوف، ما رواه ابن القلانسي أن كلّ التشريفات والتكريمات كانت كلاماً بكلام، فقد اتجه العسكر لاستعادة الموصل من يدي «جاولي سقاوة».

ويقول أمين المعلوف: «وبعد ألفي يوم من المقاومة خُرِّبَت مدينة المصوغات والمكتبات والبحارة البواسل والقضاة المثقّفين على يد محاربي الغرب، ونهبت مئة الألف مجلّد التي كانت في «دار العلم»، ثم أحرقت لكي تمحى الكتب الملحدة من الوجود»[1].

تلك هي حالة طرابلس قبل الهجوم الصليبي وأثناء الحصار وبعد السقوط، مدينة عظيمة في كلّ شيء. في القتال والعلم والأدب والتاريخ.

فخر الملك بن عمار يفضل الموت بيد الخليفة الفاطمي على الكرم العباسي والسلجوقي:

بعد كلّ الجهود التي بذلها فخر الملك بن عمار لإنقاذ طرابلس والطرابلسيين، وبعد كلّ الهدايا والأموال والتحف التي بذلها لولاة دمشق، وسلاطين وخلفاء بغداد، وكانت النتيجة كلام بكلام. وسقطت طرابلس. واكتشف فخر الملك غلطه وخطأه بحقّ الدولة التي تربّى

(١) الحروب الصليبية كما يراها العرب، أمين معلوف. م.س. ص ١١٢.

في أكنافها. وعندما وجد نفسه خارج طرابلس، رفض أن يتجه نحو من خذلوه، وفضّل أن يتوجّه نحو من أدار ظهره لهم. فبعد وصوله هارباً من طرابلس إلى دمشق فمصر، أرسل كتاباً إلى الخليفة الآمر والوزير البطائحي يقول فيه: و«المملوك لم يصل إلى هذا الوجه إلا وقد علم أنّ له من الذنوب السالفة ما يستحقّ القتل، وقتله بسيوف هذه الدولة عدل وإحياء له وتشريف. وفخر يكفر عنّه بعض ذنوبه من كفر نعمتها فإن خرج الأمر بذلك (بالقتل)، فميتةٌ كريمة، وإن خُفّف عنه، فتخليده في السجن أحبُّ إليه من رجوعه إلى تأميل غير هذه الدولة».

يقول المقريزي، أنّه لما عُرض كتابه بالحضرة (قصر الخلافة)، أدركت الخليفة الرأفة، بعد أن استفظع كلّ الحاضرين أمره، وأشير بإيقاع الحوطة عليه وإيداعه خزانة البنود، فقال المأمون للخليفة: قد أَجَلَّ الله عواطف مولانا ورحمته، من أن يهاجر أحدٌ إلى أبوابه ويلجأ إلى عفوه فيخيّب أمله ويؤاخذه بذنبه، وما بعد استسلامه إلا الشكر لله والعفو عن جرمه، فإن العفو زكاة القدرة عليه، ويشمله ما شمل أمثاله. فأعجب الخليفة الآمر بذلك وعفا عنه بعد تذكيره بذنوبه وأخطائه.

ويخبرنا المقريزي كيف عومل معاملة الأمراء بكلّ تكريم واحترام طيلة بقائه في القاهرة:

«وحصل له الأمن، وأمر له بدار أعدّت له، وجعل فيها شهوات السمع والبصر، وحُملت إليه الضيافات الكثيرة وجرّد برسم خدمته الحجاب والمستخدمين وحملت إليه كسوات لا نظير لها، وقُرّر له

راتباً في كلّ شهر ستون ديناراً مع مياومة الدقيق واللحم والحيوان. وصار يتعهد ما يفتقد به أعيان الضيوف من بواكير الفاكهة المستغربة وأنواع التحف المستظرفة ورسوم المواسم، وجعل له في المواسم والأعياد من الكسوات الفاخرة ما يميّزه عن أمثاله»[1].

وليس بمستغرب على الخلفاء الفاطميين أن يعاملوا أشهر وأكرم نواب دولتهم بهذا الكرم وهذا التكريم، وأن يغفروا له هذه الهفوة التي تعتبر صغيرة أمام هفوات غيرهم الذين عفي عنهم من قبل، وعلى الأقل لقاء صموده سبع سنوات في الدفاع عن ثغر طرابلس.

صور في خط الدفاع الأول:

بعد سقوط القدس وعكا وطرابلس ومدن الساحل اللبناني، صيدا وبيروت وجبيل، كونها من الثغور القليلة الأهمية والسكان والعسكر، بالنسبة لعكا والقدس وطرابلس، بقي أمام الصليبيين ثغران مهمان: عسقلان وصور. فسقطت عسقلان وبقيت صور. فكيف كان وضع العرب والمسلمين قبل سقوطها وما هو موقف كلّ قوّة من القوى الإسلامية المتواجدة على ساحة الصراع السياسي والعسكري في أوائل القرن السادس الهجري!.

يخبرنا ابن الأثير أن صيدا سقطت في يد الفرنجة سنة ٥٠٤هـ حيث استلموها صلحاً وليس حرباً، فتسلّموها بالأمان وقد عظم خوف المسلمين، «وبلغت القلوب الحناجر وأيقنوا باستيلاء

---

(١) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٧٩.

الفرنج على سائر بلاد الشام» لعدم الحامي له والمدافع عنه. وشرع أصحاب البلاد الإسلامية بالشام في طلب الهدنة من الفرنج، فامتنعوا من الإجابة إلا على قطيعة (جزية) يأخذونها إلى مدة يسيرة. فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار وغيرها من الخيول والثياب. وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار، وصالحهم ابن منقذ صاحب حصن شيزر على أربعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردي، صاحب حماة على ألفي دينار.

ويخبرنا ابن الأثير، أنّه وصلت رسالة من إمبراطور الروم يحثّ الخليفة العباسي المستظهر بالله على حرب الصليبيين، فلما وصل الحلبيون وأهل الشام الهاربين من الفرنج وأقاموا المظاهرات في شوارع بغداد احتجاجاً على تهاون الخليفة المستظهر بالله والسلطان السلجوقي ملكشاه في حربهم ضد الغزاة الجدد، رفعوا شعارات وهتافات جاء فيها: «أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر منكم حمية للإسلام، وقد أرسل إليكم في جهادهم»[1].

وعاد الفرنج وحاصروا صور سنة ٥٠٥هـ، وعملوا عليها ثلاثة أبراج من خشب علو البرج سبعون ذراعاً (٧٠×٦٧= ٤٧م)، وفي كلّ برج ألف رجل، ونصبوا عليه المجانيق، وألصقوا أحدها إلى سور البلد.

وكانت صور في هذه السنّة تتبع الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله.

---

(١) الكامل في التاريخ، الجزء الثامن، م.س. ص ٢٦٢.

ويخبرنا ابن الأثير، أن والي صور الفاطمي عز الملك، جمع الأهالي واستشارهم في طريقة الدفاع عن صور، فقام شيخ من أهل صور وقال: أنا أضمن إحراق هذه الأبراج، وأحضر معه ألف رجل بكامل أسلحتهم، وطلب من كلّ واحد أن يحمل حزمة حطب وبدأ بقتال العساكر الإفرنجية التي استطاعت الانتقال من البروج إلى أسوار صور. حتى وصل إلى البرج الملتصق بسور المدينة، فألقي عليه الحطب من جميع الجهات وصبّ عليه النفط، ثم أشعل فيه النار ولما حاول الفرنج إطفاء النار، أحضر جرابات قد أعدها مملؤة بالعذرة (الطبيخ النتن الرائحة)، ورماها على الجنود، فانشغلوا بها وبما نالهم من سوء رائحتها ومن التلويث، ولم يعودوا يستطيعون متابعة إطفاء النار، فتمكّنت النار من الأبراج بعد أن أخذ يصب عليها حطباً مغمّساً بالنفظ والزفت والكبريت. وأحرق الأبراج الثلاثة.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ويقول ابن الأثير أن مسلمي صور استغاثوا «بطغتكين صاحب دمشق». وأرسلوا له الأموال والهدايا ليكثر من إرسال الرجال، فأرسل طغتكين مائتي فارس ورسالة بواسطة الحمام الزاجل، يعلم فيها أهل صور أن الأموال قد وصلت، ويطلب منهم إعداد مركب في جهة معيّنة من شاطىء صور، لتنزل رجاله فيه ومن ثم ينتقلون إلى داخل صور، فسقطت الحمامة بيد الفرنجة، ونصبوا الكمائن للعسكر الدمشقي، وأسروه[1]. واستمرّ طغتكين بمقاتلة الفرنج، ينتقل من

(١) م.س. نفسه. ص ٢٩٤.

موقع إلى آخر، ويكاتب أهل صور، يطلب منهم الصبر ويعدهم بالنجدات، فقاتل أهل صور قتال من أيس من الحياة، واستمرّ القتال حتى وقت حصاد (الغلات) ـ أيار وحزيران ـ فخاف الفرنج على غلاّتهم، فتركوا حصار صور، فعاد إليها عسكر طغتكين «فأعطاه أهل صور الأموال وغيرها» وقام الصوريّون بإعادة إصلاح الأسوار وحفر الخنادق تحضيراً لجولة جديدة مع الصليبيين.

رأي المؤرّخين في الأسباب التي أدّت إلى سقوط صور:

عندما سقطت صور وهي من أعمال دمشق وكانت تتبع مباشرة لحكم طغتكين السلجوقي، كان لابن القلانسي ثماني وأربعون سنة من العمر، أي أنّه معاصر لهذا الحدث وقريب منه ميدانياً.

وينشر ابن القلانسي مرسوم تعيين ظهير الدين أتابك من قبل السلطان ملكشاه السلجوقي والياً على كلّ مدن الشام وساحله وحصونه سنة ٥٠٩هـ ومِمّا جاء فيه: ورسمنا أن نجدد له هذا المنشور بإمارة الشام، ونقرر عليه جميع ما دلّت عليه المناشير المنشأة المتضمنّة لأسامي البلاد الموجبة له. ويضاف إليها من النواحي والضياع والحصون والقلاع حسب ما أورد ذكره مفصّلاً. وقد قلّدناه في عامة تلك البقاع: أعمال الحرب، والمعاون، والأحداث (الميليشيا المحلية) والخراج والأعشار وسائر وجوه الجبايات والعطاءات والنفقة على الأولياء، والمظالم والأحكام ونظر الولاة الكفاة.

وأمرناه أن يوكل أمر الثغور المتاخمة لأعماله والمصاقبة

لبلاده عيناً كالئة وأذناً واعية، فيشحنها بذوي البأس والنجدة، المذكورين بالبسالة والجدّة، المعروفين بالصبر عند اللقاء، والبصيرة بمكابدة الأعداء، ويستظهر لهم باستجادة الأسلحة والآلات، والاستكثار من الميرة والأقوات، ويكثّف عددهم وعدّتهم، فتشتدّ على الأعداء شوكتهم[1].

ترى هل خرج هذا المرسوم والمنشور الذي كلف بموجبه السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، ظهير الدين أتابك طغتكين بكلّ ما ورد فيه من مهمّات إلى حيز التنفيذ أم بقي حبراً على ورق!،

ويروي ابن القلانسي بعض الأخبار التي تدل على اختلاف أهل صور بين الولاء للسلاجقة وللأتابك ظهير الدين طغتكين أمير الشام من قبل السلاجقة والعباسيين، وبين الولاء للحكومة المصرية الفاطمية، حيث يخبرنا بوصول الأسطول المصري إلى صور سنة ٥١٦هـ واعتقال واليها سيف الدين مسعود وإرساله إلى مصر بسبب موالاته السلاجقة والعباسيين ولكن ابن القلانسي يرى أن «عاقبة خروجه من صور وسوء التدبير فيها أدّى خروجها إلى الإفرنج وحصولها في مملكتهم».

ويقول ابن القلانسي أنّه لما عرف الإفرنج إزاحة والي صور مسعود عنها، تحرّك طمعهم فيها وحدّثوا نفوسهم بتملّكها، فكاتب الوالي الجديد الخليفة الآمر بأحكام الله، فكانت النتيجة أن الخليفة الآمر أرسل مرسوماً يعيّن فيه ظهير الدين أتابك والياً على صور «ليتولى

---

(١) تاريخ دمشق. م.س. ص ٣١٠.

حمايتها والذب عنها والمراماة دونها» وهكذا أصبح ظهير الدين أتابك مكلفاً بحماية صور من قبل العباسيين والفاطميين، ولكن ظهير الدين بدل من أن يشحن المقاتلين والعساكر، سلّمها صلحاً حيث يقول ابن القلانسي: «ووقع اليأس من المعونة فراسل الإفرنج بالملاطفة والمداهنة، والإرهاب والإرغاب إلى أن تقرّرت الحال على تسليمها إليهم، بحيث يؤمّن كلّ من بها، ويخرج من أراد الخروج من العسكرية والرعية بما يقدرون عليه من أحوالهم، ويقيم من أراد الإقامة، ووقف أتابك ظهير الدين من عسكره بإزاء الإفرنج وفتح باب البلد، وأذن للناس في الخروج، فحمل كلٌّ منهم ما خف حمله، وترك ما ثقل عليه، وهم يخرجون بين الصفين وليس أحد من الإفرنج يتعرّض لأحد منهم وذلك في ٢٣ جمادى الأولى من سنة ٥١٨هـ»[1].

يستنتج القارىء من هذا النص، أن العساكر السلجوقية والعساكر الصليبية أصبحوا بحالة ودّ ووفاق، حيث أنّ أهالي صور خرجوا بين صفين متقابلين من العسكر: صف إفرنجي وصف سلجوقي.

أما ابن الأثير فقد وصف وملابسات سقوط صور وما سبقه كما وصفه ابن القلانسي، ولكنه أكدّ أنّها خرجت «من حكم الخلفاء العلويين بمصر سنة ٥٠٦هـ». وأنهى مداخلته عن سقوطها بقوله: وكان فتحه وهناً عظيماً على المسلمين فإنّه من أحصن البلاد، وأمنعها، فالله يعيده إلى الإسلام ويقرّ أعين المسلمين بفتحه، بمحمّد وآله».

---

(١) م.س. نفسه. ص ٣٣٧.

بينما المقريزي يمدح طغتكين ويقول إنّه أعان أهل صور. ويتّهم المأمون بن البطائحي بالتقصير في الدفاع عنها وإنجاد أهلها، وقد نقل المقريزي عن الخليفة الآمر قوله عن سبب قتله للمأمون البطائحي: «إنّ أعظم ذنوبه عندي ما جرى منه في حقّ صور وإخراجها من يد الإسلام إلى يد الكفر».

وينقل ابن تغري بردي أخبار سقوط صور في أيدي الفرنجة عن القلانسي ويقول: إنّ أهالي صور رفضوا التعاون مع الأتابك ظهير الدين طغتكين، دون أن يدلنا على مصدر معلوماته، لأنّ كلّ كتب التاريخ أشارت إلى تكليف طغتكين بالدفاع عن ثغر صور من قبل كلّ القوى المتواجدة في المشرق الإسلامي وفي مصر، إلا أنّه لا ينسى أن يحصر التقصير بالمصريين حيث يقول: «وجاءهم طغتكين فما سلّموا البلد إليه، فقال طغتكين لأهل صور: أنا ما فعلت الذي فعلته إلا لله تعالى، لا لرغبة في حصن ولا مال، ومتى دهمكم عدوّكم جئتكم بنفسي ورجالي، ثم رحل عنهم ـ فللّه درّه من ملك ـ كلّ ذلك ولم تأت نجدة المصريين، ودام الأمر بين أهل صور والفرنج، تارة بالقتال وتارة بالمهادنة، إلى أن طال على أهل صور الأمر ويئسوا من نصرة مصر، فسلّموها للفرنج بالأمان في سنة ٥١٨هـ.

ويقول ابن تغري بردي: وما أبقى أهل صور ـ رحمهم الله تعالى ـ ممكناً في قتالهم مع الفرنج وثباتهم في هذه السنين الطويلة، مع عدم المنجد لهم من مصر»[1].

---

(١) النجوم الزاهرة، الجزء الخامس، ص ١٨٠.

والكلام الذي أضافه ابن تغري بردي منفرداً بين المؤرّخين المسلمين، وأظهر الأتابك طغتكين مترجياً أهل صور لقبولهم الدفاع عنهم، ينقضه شيئان: وقوف طغتكين مع الصليبيين أمام أبواب صور وإشرافه على خروج أهاليها منها، والتحامل على مصر واتهامها بالتقصير، ودمشق واقفة على أبواب صور ولم تنجدها.

أما الحافظ ابن كثير، فإنّ خبر ظهور الباطنية الملاحدة في آمد ومقتل أكثر من سبعماية منهم غطّى على كلّ أحداث سنة ٥١٨هـ، ولم يشر لصور وما حلّ بها لا من قريب ولا من بعيد.

أما أمين معلوف فقد وصف سقوط صور بقوله: إنّها صور التي حاصرها الفرنج مجدّداً، ويبدو وضع المدافعين فيها أكثر دقّة بما لا يقاس عمّا كان عليه لدى صمودهم المظفّر قبل اثني عشر عاماً، لأنّ الصليبيين يؤمنّون هذه المرة السيطرة على البحر. فقد ظهر بالفعل أسطول ضخم من أساطيل البندقية يضم أكثر من مئة وعشرين سفينة في عرض البحر، وتمكّن منذ وصوله من مباغتة الأسطول المصري الذي كان راسياً أمام عسقلان وتدميره. وفي شباط سنة ١١٢٤م (٥١٨هـ) بدأ البنادقة بحصار ثغر صور. فيما كان الجيش الفرنجي يقيم معسكراته شرقي المدينة. وهكذا أصبحت احتمالات المستقبل ليست في مصلحة الصوريين، وممّا لا ريب فيه أن الصوريين يقاتلون بشراسة. فذات ليلة، اتجهت جماعة من خيار السبّاحين إلى سفينة من سفن البندقية، كانت تتولى الحراسة عند مدخل الميناء وتمكّنت من جرها نحو المدينة، حيث جرّدت من السلاح ودُمّرت ولكن على الرغم من هذه الأعمال الباهرة، فإن فرص

النجاح كانت ضئيلة، فالهزيمة البحرية الفاطمية جعلت كلّ نجدة من البحر مستحيلة، كما أن التزوّد بماء الشرب كان صعباً فلم يكن داخل أسوار صور ينابيع ماء، وهذه هي نقطة الضعف فيها، فالماء العذب كان يصلها وقت السلم بجر أقنيته من خارجها.

إذاً لم يكن المدافعون يتوقّعون شيئاً من المصريين حماتهم المألوفين، فاتجهوا نحو حلب، ولكن لم تأتهم النجدات لأنّ أمير حلب بَلَكٌ كان متلهيّاً في تحرير منبج من أحد الولاة العاصين. فسقطت دون مدافع[1].

موقف الفاطميين من الصليبيين حسب ما رواه المؤرّخون المحايدون:

وقف مؤرّخو الدولتين الأيوبية والمملوكية موقفاً عدائياً متطرّفاً من كلّ ما هو فاطمي أو شيعي أو إمامي في مصر، فكالوا لهم السباب والشتائم، وألصقوا بهم كلّ تقصير وفريّة، وطمسوا لهم كلّ موقف محمود ومشكور.

وسوف نستعرض المواقف الميدانية والعملانية التي وقفها الفاطميون تجاه الغزو الصليبي، حسب ما رواه بعض المؤرّخين المسلمين السنّة المحايدين.

يخبرنا المقريزي عن فتح الفرنجة لثغر بيروت سنة ٥٠٣هـ فيقول:

فيها سار الفرنج نحو بيروت، وعملوا عليها برجاً من الخشب

---

(١) الحروب الصليبية كما يراها العرب، م.س. ص ١٣٢.

وزحفوا، فكسره أهل بيروت، ووصل الخبر بذلك إلى الأفضل، فجهّز تسعة عشر مركباً حربية، فوصلت سالمة إلى بيروت، وقويت على مراكب الفرنج، وغنمت، ودخلت إلى بيروت بالميرة (الأغذية) والنجدة، فقوي أهلها بذلك، وبلغ بغدوين الخبر، فاستنجد بالجنوية فأتاه منهم أربعون مركباً مشحونة بالمقاتلة، فزحف على بيروت في البر والبحر، ونصب عليها برجين، وقاتل أهلها، فعظمت الحرب وقتل مقدم الأسطول المصري وكثير من المسلمين. ولم يُرَ للفرنج فيما تقدّم أشد من حرب هذا اليوم. فانخذل المسلمون وهجم الفرنج في آخر النهار، فملكوا بيروت بالسيف قهراً (يوم الجمعة ٢١ شوال سنة ٥٠٣هـ)، وانسحب والي بيروت مع أصحابه، وحمل عليه الفرنج، فقتل مع من كان معه وغنم الفرنج البلد ونهبوها وسبوا أهلها، واستصفوا الأموال والذخائر، ثم وصلها نجدة ثانية من ناحية الأردن ولكنها جاءت متأخّرة[1].

ويخبرنا المقريزي أنّ والي عسقلان، أسد شمس الخلافة، كاتب بغدوين ملك القدس وأقام معه هدنة دون العودة إلى القيادة المصرية، فأقره الأفضل على هذه الهدنة تقيّة، حتى أوقع به وقتله بطريقة الاغتيال، لتهاونه في الدفاع عن عسقلان، ولمهادنته الفرنج دون استشارته.

ويخبرنا المقريزي أنّ الوزير المأمون بن البطائحي، أفرج عن والي عسقلان أبي منصور بناء عز الملك الذي كان الوزير الأفضل

---

(١) راجع: اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٤٥.

قد سجنه سنة ٥٠٣هـ بسبب تهاونه في الدفاع عن عسقلان، واستمرّ مسجوناً ثلاث عشرة سنة، حتى أفرج عنه، بعد مداخلات أهله وأقاربه لدى الخليفة الآمر.

كما يخبرنا المقريزي إرسال المراكب المصرية إلى صور محمّلة بالرجال والأقوات والنجدات ومن بين هذه الأقوات خمسة عشر ألف أردّب قمحاً.

١٥٠٠٠×٦× ٣٢٤= ٢١٦٠,٠٠٠ مد قمح أو ما يساوي بالطن: ٢١٦٠٠٠٠×١٥= ٣٢٤٠٠ طن قمح= اثنان وثلاثون ألف وأربعمائة طن من القمح. وكان ذلك سنة ٥١٦هـ، مما جعلها تستطيع الصمود لسنتين تاليتين.

وعندما حرّر الفاطميون عسقلان، قبل سقوط صور، أنجدوها بالرجال والمقاتلين والغلال. ويقول لنا المقريزي أنّ الخليفة الآمر أرسل لها ٢٣٦٣١ أردب قمحاً= ٢٣٦٣١ أردب × ٦ ويبات × ٢٤ مداً × ١٥ كلغ = واحد وخمسون ألف طن قمحاً.

وعن سقوط صور يخبرنا المقريزي بتهاون المأمون بن البطائحي في الدفاع عنها، ويشير إلى محاولات «طغتكين صاحب دمشق» اليائسة. ولما قتل الخليفة الآمر المأمون بن البطائحي ذكر المقريزي «إنّ الخليفة كان يقول: أعظم ذنوبه عندي ما جرى منه في حقّ صور وإخراجها من يد الإسلام إلى يد الكفر».

وعندما أوجز المقريزي محاسن الخليفة الحافظ قال: ومن محاسن ما يحكى عنه أنّه كان يخرج في كلّ ستة أشهر عسكرٌ من القاهرة إلى عسقلان لمحاربة الفرنج». كما يعلمنا بأنّ الرواتب كانت

تصل إلى المرابطين في الثغور أو لأولادهم وزوجاتهم. وأن راتب الأمير المجاهد في الشهر مائة دينار والجندي المرابط في الثغور ثلاثين ديناراً.

وفي أخبار حوادث سنة ٥٤٦هـ، وكان الوزير الأول الفاطمي العادل بن السلار. يقول المقريزي إنّ الفرنج أغاروا على مدينة الفرما ونهبوها، فما كان من ابن السلار إلا أن جهّز المراكب الحربية بالرجال والعدد وسيّرها، فدخلت يافا وأسروا عدّة مراكب للفرنج وأحرقوا ما عجزوا عن أخذه، وقتلوا خلقاً كثيراً منهم، ثم توجّهوا إلى ثغر عكا، فأنكوا فيهم، وساروا منه إلى صيدا وبيروت وطرابلس، فأبلوا بلاء حسناً، وظفروا بجماعة من الفرنج فقتلوهم عن آخرهم.

وقد تحدّث ابن القلانسي عن هذه الحملة فذكر أنّ عدد مراكبها سبعون مركباً حربياً.

ويقول المقريزي: «إنّه كانت العادة أن يخرج كلّ ستة أشهر عسكرٌ بدلاً من العسكر المرابط في الثغر».

ويخبرنا المقريزي وكذلك أبو يعلى بن القلانسي أنّ الفاطميين، دخلوا صور سنة ٥٥٠هـ، واحتلوها ونهبوها وأقاموا فيها ثلاثة أيام، ثم عادوا إلى مصر ويتساءل القارىء؟ لماذا انسحبوا منها ولم يستمروا في الحفاظ عليها؟، ولم يعط المؤرّخون أي إشارة تساعد على حل هذا اللبس والإجابة على هذا السؤال.

وعندما استلم طلائع بن رزيك منصب الوزير الأول، أطلق عليه لقب: «أبو الغارات» لأنّه لم يكن يترك الفرنجة بسلام، ففي سنة

٥٥٢هـ، أرسل لهم من مصر ثلاث حملات أو ثلاث غارات وصلت الأولى إلى غزة والثانية إلى عسقلان والثالثة وصلت إلى شريعة منذور، شمالي جبل عامل «فأبلت بلاء حسناً وعادت مؤيدة». وسيّر حملة بحرية إلى بيروت وحملة برية إلى حصن الشوبك، وحملة بحرية إلى ثغر عكا.

وفي السنّة التالية ٥٥٣هـ، سيّر حملة إلى تل العجول وحملة إلى العريش، وحملة إلى بيت جبرين، وحاصر الدميرة وحصن الشوبك. وحاصر القدس بحملة كبيرة فخرب ما استطاع وعاد بغنائم كثيرة.

واشتبكت القوات المصرية مع الفرنج في طبرية، وسيّر خمسة مراكب بحرية إلى سواحل الشام، فظفروا بمراكب الفرنج وعادوا إلى القاهرة بالغنائم والأسرى.

وبدأت المراسلات بين نور الدين محمود زنكي الذي بدأ نجمه يظهر في سماء الدفاع عن الإسلام في الثغور الشامية، وبين الوزير الأول الفاطمي، الملك الصالح طلائع بن رُزِّيك.

التحالف الزنكي الفاطمي لمحاربة الصليبيين:

عندما يقرأ الإنسان العربي تاريخ الشهيد نور الدين محمود زنكي، ورغم أنّه مسلماً كردياً، يجد أنّه قضى حياته في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، فهو طيلة حياته وحكمه لم يهدأ ولم يرتح، ولم يعقد هدنة واحدة مع الصليبيين، ولكنه كان موافقاً ومخططاً لإزاحة الدولة الفاطمية من الوجود. وقد حدّثتنا كتب التاريخ عن التنسيق

والتعاون الذي كان يتم بينه وبين الوزير الأول الفاطمي الملك الصالح طلائع بن رزيك.

وقد أورد المقدسي أبو شامة رسالة وقصيدة لطلائع بن رزيك إلى أسامة بن منقذ، يحثّ فيها نور الدين زنكي على قتال الفرنجة.

ومما جاء في هذه القصيدة[1]:

فقولوا لنور الدين لا فُلّ حَدُّه ولا حكمت فيه الليالي الغواشم
تجهّز إلى أرض العدو ولا تَهِن وتظهر فتوراً إن مضت منك حارم
فقم واشكر الله الكريم بنهضة إليهم فشكر الله للخلق لازمُ

ويصف له ما يقوم به الفاطميون من المعارك فيقول:

فنحن على ما قد عهدت نروعهم ونحلف جهداً أننا لا نسالم
وغاراتنا ليست تفترُّ عنهم وليس يُنَجّي القوم منا الهزائم
فأسطولنا أضعاف ما كان سائراً إليهم فلا حِصْنٌ لهم منه عاصم
ونرجو بأن يجتاح باقيهم به وتُحوى الأسارى منهم والغنائم

ويقول الوزير الأول طلائع ابن رزيك أيضاً:

ننبيك أنّ جيوشنا فعلت فعال الجاهليه
سارت إلى الأعداء من أبطالها ماتا سريه
فتغير هذه بكرة وتعاود الأخرى عشيه
فالويل منها للفرنج فقد لقوا جهد البليه
جاءت رؤوسهم تلوح على رؤوس السمهريه
وقلائع قد قسمّت بين الجنود على السويه
وخلائق كرّت من الأسرى تقاد إلى المنيه

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، الجزء ١، القسم الأول. م.س. ص ٢٩١.

هذا هو حال المصريين وموقف الخلفاء الفاطميين من الفرنج والحروب الصليبية، من أول ابتدائها حتى غياب الحكم الفاطمي عن مصر.

الخليفة العاضد يصنع سفناً قطع غيار تحمل على الجمال ويعاد جمعها في منطقة المعركة:

لم يعرف التاريخ الإسلامي والعربي دولة متقدّمة ومتطورة وحضارية كالدولة الفاطمية، فقد سبق أن أوردنا أن الخليفة الآمر بأحكام الله قد صنع أسرجة للخيل مصفحّة بالرصاص، تملأ ماءً ويشرب منها الفارس كلّ ما عطش بواسطة بزّ أو كما تقول العامة «بزبوزة» شكله على شكل الصفارة. ونحن نعلم أهمية الماء للحصان وللفارس في حالة الحرب، فهو لا يقل أهمية عن وقود الطائرات أو وقود الدبابات في حالات الحرب؛ كلّ حسب عصره ووقته.

ويخبرنا المقريزي أيضاً نقلاً عن القاضي الفاضل علي بن عبد الرحيم البيساني أن صلاح الدين الأيّوبي حمّل مراكب مفصّلة على الجمال وسار بها من القاهرة في عسكر كبير لمحاربة قلعة أيلات الصليبية، فوصل صلاح الدين إلى باب القلعة وحاصرها من البر، وأقام بتركيب وجمع المراكب وطرحها في البحر مشحونة بالعساكر والمقاتلة، وهجم عليها من البر والبحر وفتحها وقتل من الفرنج وأسكن بها جماعة من ثقاته، وقوّاهم بما يحتاجون إليه من سلاح وغيره وعاد إلى القاهرة وكان ذلك سنة ٥٦٦هـ.

ولأول مرّة يفتح صلاح الدين مدينة تكون تحت حكم الفرنج ولا

يهدمها، فلربما لم يهدمها لأنّ الأمر لم يكن حتى الآن بيده بل بيد الخليفة العاضد.

والغريب بالأمر أنّ نور الدين زنكي كان ينظر إلى أهل دمشق نظرته إلى الصليبيين فقد روي عنه أسامة بن منقذ أنّه قال له: يا فلان، أهل دمشق أعداء والإفرنج أعداء، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما»[1].

وقد أجمعت كلّ كتب التاريخ التي أرّخت لفترة الحكم الفاطمي في مصر من سنة ٣٥٨هـ حتى سنة ٥٦٩هـ، أنّ حكام دمشق ومدن بر الشام وفلسطين كانت تخطب على منابر مساجدها لمن يدفع أكثر. وأنّهم كانوا أكثر الحكّام المسلمين مهادنة مع الصليبيين، وأكثرهم تقاتلاً وتآمراً على بعضهم البعض.

موقف الفاطميين من الأسرى الصليبيين:

أجمعت كتب التاريخ الإسلامي أنّ الفاطميين لم يكونوا يحتفظون بالأسرى الصليبيين، رغم اتصافهم بالعفو المنقطع النظير، ومعاملة الناس بالرفق والشفقة.

يقول المقريزي: والعادة أنّه إذا غنم الأسطول ما عسى أن يغنم، لا يتعرّض السلطان (الوزير الأول) إلى شيء البتّة منه، ما عدا الأسرى والسلاح، فإنّه تودع في خزائن السلطان، أما ما عداها من المال والثياب ونحوهما من التحف والمجوهرات، فإنّها للعسكر، لا يشاركهم بها أحد، فإذا قدم الأسطول من الغزو، خرج الخليفة إلى منظرة المقس، وجلس فيها للقائه.

---

(١) كتاب الاعتبار، م.س. ص ٣٧.

ويروى المقريزي أنّ الأسطول قدم مرّة بألف وخمسمائة أسير إفرنجي، وكانت العادة أن يرسل الأسرى في ساحة المناخ، ثم تفصل الرجال وترسل إلى السجون، أما النساء والأطفال فيرسلون إلى القصر، بعد ما يُعطى منهم الوزير طائفة، ويفرّق ما بقي من النساء على الجهات والأقارب، فيستخدموهن ويربّوهن حتى يتقنّ الصنائع ويدفع الصغار من الأسرى إلى الأستاذين فيربّونهم ويتعلّمون الكتابة والرماية ويقال لهم الترابي[1]. ومن كبر واسترابه يقتل، ومن كان شيخاً لا ينتفع به ضربت عنقه وألقي في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة.

ويؤكّد المقريزي أنّه «لم يعرف قط عن الدولة الفاطمية أنّها فادت أسيراً من الفرنج بمال ولا بأسير مثله»[2].

أما ابن الطوير فوصف حالة الأسرى فقال[3]: «أما الصبيان الصغار فيأخذهم الأستاذون فيربونهم ويعلّمونهم الخط والرماية، ويموت أكثرهم لتغيير العادات».

وهي ملاحظة مهمة أشارها ابن الطوير، وهي نتيجة صدام بل صراع الحضارات بين الشرق والغرب. فلو كان هؤلاء الأطفال يعيشون العادات والتقاليد والأخلاق الشرقية، لاستطاعوا الاستمرّار ومقاومة التغيّرات.

---

(١) الترابي: جمع تربية كقولنا: تسلية: تسالي.

(٢) الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص ١٩٤.

(٣) نزهة المقلتين، م.س. ص ١٠١.

موقف الأيوبيين من الحروب الصليبية:

لقد أكثر المؤرخون من التغنّي بأمجاد صلاح الدين الأيوبي وأمجاد أخوته وأولاده وأولاد أولاده، في موقفهم من الفرنجة والغزو الصليبي، وما زالت الخطب الطنانة والرنانة حتى اليوم، تقرأ في الإذاعات وعلى شاشات الفضائيات العربية مدحاً وتمجيداً وتفخيماً بصلاح الدين الأيوبي «محرّر القدس وحامي الإسلام والمسلمين».

نحن لن ننكر عليه انتصاره في وقعة حطين وتحريره بيت المقدس لفترة وجيزة، أعادها بعدها أخوه العادل أبو بكر هدية إلى الصليبيين، ولكننا سوف نذكر بعض الوقائع التي حصلت بين الأيوبيين والصليبيين من خلال ما كتبه مؤرخّون متحمسّون لصلاح الدين الأيوبي وللدولة الأيوبية. وللأسف لم نجد مؤرّخاً واحداً يكره الأيوبيين حتى نأخذ من كتابه أو نرجع إليه ونركن إلى رأيه.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

معاهدات الصلح والتحالفات التي عقدها صلاح الدين الأيوبي وخلفاؤه مع الصليبيين:

بعد تمكّن الصليبيين من مدن الساحل السوري والقلاع والحصون والمدن المتناثرة في كلّ بر الشام، أصبحوا يعاملون من قبل الأيوبيين معاملة أي حاكم كردي أو تركي أو فارسي أو أرمني، أي أصبحوا من حكام الولايات. فعلى سبيل المثال، عندما هرب ريموند الثالث كونت إمارة طرابلس أو كما يسميه المؤرّخون المسلمون: ريمون ده سان جيل (الصنجيل) سنة ٥٨٢هـ، والتجأ

إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي، عمل عنده مستشاراً[1] وكأنّه أحد المسلمين أو المسيحيين الأقباط أبناء الشرق العربي.

وعندما استطاع صلاح الدين تحرير القدس لم يلجأ إلى استئصال شافة الصليبيين كما كان يفعل الفاطميون، بل أطلق سراحهم ويسرّهم إلى صور بعد أن قبض عن كلّ رجل، عشرة دنانير، وعن كلّ طفل دينارين، وعن فقرائهم دفعة إجمالية قدرها ثلاثون ألف دينار. وكان الذين سُمح لهم بالذهاب إلى صور ستون ألفاً. وكانت حصة صلاح الدين الأيوبي من «مال المفاداة» ثلاثمائة ألف دينار، سوى ما أخذه الأمراء وما حصلت فيه الخيانة[2].

ثم عقد صلاح الدين مع الصليبيين هدنة وصلحاً «هدنة عامة في البر والبحر مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر، على أن يكون للفرنج من يافا إلى عكا إلى صور إلى طرابلس مع أنطاكية، ونودي في الأسواق: «ألا أن الصلح قد انتظم، من شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل». وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً، عم فيه الطائفتين الفرح والسرور، فاختلط عسكر الفرنج بعسكر المسلمين، ودخل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس، ورحل ملوك الفرنج إلى ناحية عكا»[3].

وبعد موت السلطان صلاح الدين، جدّد ولده العزيز عثمان الهدنة والصلح بينه وبين الفرنجة سنة ٥٩١هـ.

---

(١) راجع: السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء القسم ١، ص ١١٧.

(٢) راجع: السلوك لمعرفة دول الملوك، م.س. ص ١٢٢.

(٣) م.س. نفسه. ص ١٢٨.

تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين يمنع عمه من مصالحة الفرنجة

يقول صاحب كتاب «الإستبصار في عجائب الأمصار» أن صلاح الدين الأيوبي كان يريد عقد الصلح والهدنة مع الفرنجة فاعترض عليه ابن أخيه تقي الدين عمر، وغضب. حيث يقول: «تاريخه في العشر الوسط من شعبان سنة ٥٨٣هـ، (أكتوبر ١١٨٧م)، وصل كتاب من الإسكندرية يصف ما أسناه الله تعالى ويسّره بقدرته من الفتوحات في الروم، دمّرهم الله، وذلك أن رسل ملكهم وصلوا إلى دمشق في الصلح، فأراد يوسف بن أيّوب أن يصالحهم، ويعقد لهم الصلح، على أن يدفع لهم ١٠٠ ألف أردب من القمح مع المضاف إليها. ولكن ابن أخيه المعروف بتقيّ الدين كان قد تصاهر مع أمير التركمان، وجاء بخلق كثير من الأتراك، فلما رأى أن عمه يريد الصلح، عزَّ عليه ذلك وغضب، فسأله عمّه عن شأنّه، فأجابه: يأتي الناس متطوّعين متسارعين للجهاد، وتصالح أنت الأعداء، ماذا يقول أهل العراق وأهل الأمصار عنّا؟»[1].

وبعد موته أيضاً، أزاح أخوه العادل أبو بكر أبناء صلاح الدين من السلطة والسلطان ونصّب نفسه مكان أخيه سلطاناً على بلاد المسلمين. وكان الخليفة العباسي الناصر لدين الله يوقّع على مرسوم تعيين «من غلب» منهم.

وتخبرنا كتب التاريخ أن العادل «أبو بكر» سار على نهجه أخيه

---

(١) راجع: كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار، لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، ط١، مراكش، دار النشر المغربية، لا تاريخ، ص١٠٤.

السلطان صلاح الدين في مهادنة الإفرنج ومصالحتهم، فعقد معهم هدنة ومعاهدة صلح سنة ٦٠٨هـ، ومن شروط هذه الهدنة الجديدة أن تكون يافاً لهم ونصف اللد ونصف الرملة، فأجابهم العادل إلى ذلك.

ويقول المقريزي: إنّ إمدادات الفرنج قد تتابعت من البحر من روما وغيرها من المواني الرومية، وتواصلت في السير إلى عكا بهدف استعادة القدس، فعظم جمعهم وتكاثر وازداد خطرهم، فخرج الملك العادل أبو بكر بالعساكر المصرية للقائهم ومنازلتهم، فوصل إلى بيسان وخيّم فيها، فقصده الفرنج، فلم يطق لقاءهم وقرّر الانسحاب دون قتال، فلما همّ بالرحيل قال له ابنه المعظم: «إلى أين يابه» فسبّه العادل باللغة الكردية، وقال له: «بمن أقاتل؟» فزحف الفرنج على بيسان، وقد اطمأنّ أهلها بنزول الملك العادل عليهم، فنهبوها ونهبوا سائر أعمالها، وبذلوا في المسلمين السيف وأسروا منهم وغنموا ما يجلّ وصفه، ووصلوا إلى بانياس وعكا وأنكوا في المسلمين نكاية عظيمة، وامتلأت أيديهم بالأسرى والسبي والغنائم، وأتلفوا بالقتل والتحريق ما يتجاوز الوصف، ونهبوا صيدا والشقيف. فانسحب الملك العادل إلى مرج الصفرا شمال فلسطين، فالتقى في طريقه شيخاً يمشي تارة ويقعد أخرى». فقال له: يا شيخ، لا تعجّل، أرفق بنفسك، فأجابه الشيخ: يا سلطان المسلمين، أنت لا تعجّل أو أنا؟ إذا رأيناك قد سرت من بلادك، وتركتنا مع الأعداء، فكيف لا نعجّل»[1].

---

(١) راجع: السلوك لمعرفة دول الملوك، ص ٢٢٢.

وتروى بعض المصادر أنّ الشيخ الذي خاطب الملك العادل، هو عاملي من منطقة الشقيف وليس من مرج الصفرا.

كما روى المقريزي مكاتبات ولده الكامل مع ملك الفرنج وطلب مساعدتهم للقضاء على أخيه الملك المعظم[1].

وحدثنا ابن العماد الحنبلي عن زمرد خاتون أم الملك شمس الملوك إسماعيل حين وفاتها، فأعلمنا أنّه لكثرة صلاحها وتمسكها بأهداب الدين، عملت على قتل ولدها شمس الملوك لكثرة فساده ومواطأته الفرنج على بلاد المسلمين[2].

ونعود إلى المقريزي حيث يخبرنا أنّه في سنة ٤٩٨هـ، وكان فيها الأفضل بن بدر الجمالي وزيراً أولاً في مصر، كاتب ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق، فاعتذر عن المساعدة بحجة أن والي بُصرى أرتاش بن تاج الدولة، كاتب الفرنج، وأغراهم بقتال المسلمين وأطمعهم في البلاد، هذا ما قاله المقريزي. وهذه الصورة تعكس كيف صارت حالة بلاد الإسلام ومصيرها بيد الغرباء، فالأفضل أرمني، وطغتكين تركي، وأرتاش كردي.

وقد أشار المقريزي إلى هذه الحالة حيث بدأ كلامه عن أحداث سنة ٥٠٠هـ، بقوله: أهلّت والخليفة بمصر الآمر بأحكام الله، ومدبّر سلطنة مصر، الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، وليس للآمر معه حل ولا ربط، وليس له من الأمر سوى اسم الخلافة»[3].

---

(١) م.س. نفسه. ص ٢٦٦.

(٢) شذرات الذهب، الرابع، ص ١٧٨.

(٣) اتعاظ الحنفا، الجزء الثالث، ص ٣٧.

كما يخبرنا المقريزي أن والي صور كمشتكين، ويبدو من اسمه أنّه تركي أو كردي، عندما حاصر بغدوين صور سنة ٥٠٠هـ، خاف ودفع لبغدوين سبعة آلاف دينار ذهباً حتى سمح له بالخروج حيّاً والهرب من المعركة، بينما رفض الصوريون التسليم واستمرّوا بالدفاع عن بلدتهم رغم هروب حاكمها الكردي واستخلاص نفسه من الحصار.

أما أحمد بن علي الحريري فيخبرنا أن مودود صاحب الموصل أتى بعساكره إلى دمشق لنجدة حاكمها طغتكين «فأقام عنده، ولكنه صرف عساكره وأمرهم بالعودة إلى دمشق في الربيع القادم (٥٠٧هـ). ثم دخل هو وطغتكين يوم الجمعة إلى الجامع للصلاة، ويده بيده. ويقول ابن الحريري أن أحد الإسماعيليين وثب على مودود فقتله. ولما علم ملك الفرنجة بمقتل مودود في الجامع أرسل إلى طغتكين شامتاً يقول: «إن أمّة قتلت عبدها يوم عيدها في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها»[1].

كما يخبرنا ابن الحريري أنّه في سنة ٦٣٨هـ، «وهب الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، صاحب دمشق قلعة الشقيف للفرنج ليؤازروه، فأنكر عليه هذا العمل. ابن عبد السلام خطيب دمشق وعمرو بن الحاجب المالكي، فعزلهما وحبسهما بسجن القلعة بدمشق.

---

(١) كتاب منتخب الزمان، م.س. ص ٢٩٤.

سقوط دمياط دون قتال:

يقول المقريزي في كتاب السلوك: إنّ الفرنجة حاصروا دمياط، فتزلزل الملك الكامل خوفاً وقرّر مغادرة أرض مصر، ثم (تشبّت). وكان يحارب على جبهتين جبهة المؤامرة من إخوته وأبناء عمه لإزاحته من كرسي السلطنة وتسليمها لأخيه الفائز، وجبهة الفرنجة الذين ملأوا بعساكرهم البحر والبر. وعسكر بمقابلة الفرنجة المحيطين بدمياط، فأتاه سهم من إحداها إلى دمياط يحمل رسالة أو قصيدة تحثّه على تحرير دمياط وأهلها من أسر الصليبيين. الأمير جمال الدين الكناني ومما جاء في القصيدة[1]:

يا مالكيّ دمياط ثغر هُدِّمت ... شرفاته كادت تجُنُّ أصوله

يا أيها الملك الذي ما أن يُرى ... بين الملوك شبيهه وعديله

أشكو إليك عدو سوء أحدقت ... بجموعه فرسانه وخيوله

فالبر قد منعت إليه طريقه ... والبحر عزّ لنصره أسطوله

فخضوعه باد على أبراجه ... وحنينه وبكاؤه وعويله

ولو استطاع لأمّ بابك لائذاً ... لكنّه سُدّت عليه سبيله

فقد انتهت أدواؤه وتحكّمت ... علاّته ونحا عليه نحوله

وبقي له رمقٌ يسيرٌ، يرتجي ... أن ينتفي لمّا دعاك عليله

والثغر ناظره إليك محدّق ... ما أن يحلّ من الدموع همومله

ولئن قعدت عن القيام بنصره ... جفّت نضارته وبان ذبوله

ووهت قوى القرآن فيه ورُفعّت ... صلبانه وتُلي به إنجيله

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، م.س. ص ٢٣٥.

وعلا صدى الناقوس في أرجائه وخفي على سمع الورى تهليله

ويقول المقريزي في السلوك، أنّ الخليفة أمر أهل القاهرة ومصر بالنفير للجهاد، ولكن استمرّ الحال على ما هو عليه طيلة السنّة. وقد استمرّت صامدة طيلة هذه المدة حتى عادوا إليها أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، فحاصرها الفرنسيون بقيادة «بواش» أو «رواده فرانس». يقول المقريزي إنّ ملك فرنسا أرسل رسالة إلى الملك الصالح جاء فيها:

أما بعد، فإنّه لا يخفى عليك أنّي أمين الملّة العيسوية، كما لا يخفى عليّ أنك أمين الملّة المحمدّية، كما أنّه غير خاف عليك أنّ عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمّل النساء ونأسر البنات والصبيان، ونخلي منهم الديار. وأنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصح في النهاية، فلو حلفت لي بكلّ الإيمان، وأدخلت القسوس والرهبان، وحملت قدّامي الشمع طاعة للصلبان، لكنت واصلاً إليك وقاتلك في أعز البقاع إليك. فإمّا أن تكون البلاد لي هدية حصلت في يديّ، وإمّا أن تكون البلاد لك والغلبة عليّ. وقد عرّفتك وحذّرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بسيوف القضاء.

فلما وصل كتاب ملك فرنسا «رواده فرانس» إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، استشار مساعديه، فكان الجواب كالتالي:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين. أما بعد فإنّه وصل كتابك، وأنت تهدّد فيه

بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، ونحن أرباب السيوف، وما قُتل منّا فرد إلا جدّدناه. ولا بغى علينا باغ إلاّ دمّرناه. ورأت عينك أيّها المغرور حدّ سيوفنا وعُظم حروبنا، وفَتْحَنا منكم الحصون والسواحل، وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل، لكان لك أن تعضّ على أناملك بالندم، ولا بدّ أن تزلّ بك القدم، في يوم أوّله لنا، وآخره عليك. وهنالك تسيء الظنون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن الله، والله مع الصابرين. وقال الحكماء: إن الباغي له مصرع، وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك، والسلام[1].

ووقع القتال بين الفرنسيين والمصريين، فلما أمسى الليل هرب فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ومعه عساكر المسلمين من المعركة «جبناً وصلفاً»، فلما رآه أهل دمياط يهرب من المعركة، خرجوا منها على وجوههم في الليل لا يلتفتون إلى شيء وتركوا المدينة خالية من الناس، وهم حفاة عراة جياع حيارى، بمن معهم من النساء والأولاد «فدخلها الفرنج من غير مانع ولا مدافع واستولوا على ما بها من الأسلحة العظيمة وآلات الحرب والأقوات الخارجة عن الحد في الكثرة والأموال والأمتعة، صفواً بغير حرب أو كلفة»[2].

ويقول ابن الحريري : إن الفرنج أخذوا دمياط «بدون ضربة كف».

---

(١) الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص ٢٢٩.

(٢) م.س. نفسه. ص ٢٣٠.

الأيوبيون يجدون الحلّ: هدم المدن والقلاع والحصون:

في المطالعات الكثيرة التي يطالعها القارىء عن الحروب الصليبية وموقف كلّ الفئات المتصارعة على أرض الشام والساحل السوري، يجد أنّ أكثر المتصارعين كانوا يعملون لمصلحة استمرّاريتهم في حكم مقاطعاتهم وممالكهم قبل مصلحة الإسلام والمسلمين، فعلى سبيل المثال، يذكر لنا المقريزي أن السلطان صلاح الدين، اعترضه البرنس أرناط سنة ٥٧٣هـ، في الرملة وكسره، وينحو أمر هذه الكسرة على تلكّؤ جماعة من الأكراد في الحرب، مما دفع بالسلطان الأيوبي على سحب بعض الإقطاعات منهم[١].

ويقول المقريزي: إنّ عكا كانت بيد بهاء الدين قراقوش فحاصره الفرنج ودخلوها وقتلوا كلّ المسلمين فيها «وكانوا ألوفا، واليَزَك الإسلامي ينظر إليهم»[٢]. واليزك تعني طليعة العسكر، ولماذا لم تقدم طليعة العكسر الأيوبي على الهجوم لتخليص أهل عكا إلا بعد قتلهم عن بكرة أبيهم فلم نجد جواباً عند أي مؤرّخ.

ويقول المقريزي: أنّ السلطان صلاح الدين «أمر بتخريب أسوار طبريا ويافا وأرسوف وقيصارية وصيدا وجبيل فخرّبت»[٣].

ويقول أيضاً: ونزل السلطان على عسقلان يريد تخريبها لعجزه عن حفظها، ففرّق أبراجها على الأمراء ووقع الضجيج والبكاء بين

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، م.س. ص ٨٧.

(٢) م.س. ص ١٣٢.

(٣) م.ن. ص ١٣١.

الناس، أسفاً وغماً لخرابها، وكانت من أحسن البلاد بناء وأحكمها أسواراً، وأطيبها سكناً. ولم يزل التخريب والحريق فيها إلى سلخ شعبان ٥٨٧هـ»[١].

ثم خرّب الرملة وحصنها واللد وكنيستها وحصن النطرون. وفي سنة ٥٨٨هـ، خرّب يازور وهي بلدة الوزير اليازوري قرب الرملة على الساحل الفلسطيني.

أما حصن جبيل كما يقول المقريزي، كان من أمنع الحصون الساحلية ولكنه «كان مع رجل كردي، فقيه أقامه صلاح الدين متحفظاً على الحصن، فأرغبه الفرنج بالمال، فسلّمه لهم»[٢] فكيف لو كان هذا الكردي غير فقيه!، لكان استفتى غيره من الأكراد في تسليم جبيل.

وقد عزّ تسليمها على السلطان الأيوبي، فلما جاء رسول إمبراطور القسطنطينة، يطلب من السطان، وهو الملك الأفضل علي بن صلاح الدين، صليب الصليوت، وافق السلطان على إعطائه إياه، مقابل إخراج الفرنج من جبيل وإعادتها إلى الحكم الكردي.

ولا يخفى تسليم حصن بيروت بدون قتال على يد عز الدين أسامة.

وفي سنة ٥٩٢هـ، كان العادل أبو بكر قد أزاح الأفضل علي من السلطنة، وقد روى المقريزي أنّه وصل إلى حصن الداروم في هذه السنّة، وأجلى الصليبيين عنه «وأمر بإخراب حصنها، فشقّ على الناس تخريبه لما كان به من الرفق للمسافرين»[٣].

---

(١) م.ن. ص ١٣٢.

(٢) م.ن. ص ١٣٣.

(٣) م.ن. ص ١٤٤.

والهدم كان يخلق اللذة لسلاطين بني أيوب. فبعد أن أجهزوا على أغلب المدن والحصون والقلاع في الساحل السوري وبر الشام، ارتدوا إلى الأهرامات المصرية، حيث يقول الباحث مصطفى زيادة: اقتدى السلطان العزيز عثمان بأبيه صلاح الدين في هدم الأهرام، واستخدم حجارتها في بناء الأسوار. ففي أيام صلاح الدين هدمت بعض أهرامات الجيزة على يد بهاء الدين قراقوش، وبُني بحجارتها قلعة الجبل والسور المحيط بالقاهرة ومصر. وكذلك فعل العزيز عثمان ببناء سور دمياط، غير أن المقريزي (والكلام لمحمد مصطفى زيادة) يقول إنّ العزيز أراد هدم الهرم الصغير لإخراج ما تحته من كنوز وأقام عمّاله على ذلك شهوراً. ثم تركوه عن عجز»[1].

ويقول المقريزي: إنّ العادل سيّر جيشاً إلى بيروت فهدمها (سنة ٥٩٣هـ)، وسار من يافا بعد أن فتحها إلى صيدا وبيروت «فأخربهما»، ويقول أيضاً: وفي رجب من نفس السنّة، تجدّد للعادل وللعزيز عثمان، رأي في تخريب عسقلان وتعفية جدرانها وهدم بنيانها، فندب من القدس جماعة لهدمها وتحطيم بروجها وسورها، «فتلفت مدينة لا مثيل لها، وثغر لا نظير له بين الثغور، وعمارة لا تخلق الأيام ما تلف بها، لعجز الملوك الأيوبيين عن ممانعة الفرنج بالسلاح، واضطرارهم إلى هدم المدن وتعفية رسومها»[2].

---

(١) لسلوك، م.س. هامش ص ١٦٤.

(٢) م.س. ص ١٦٩.

وقد أعطى المقريزي رأيه صريحاً في الأسباب التي دفعت بالأيوبيين لهدم هذه المدن والحصون: وهي: عدم قدرة حمايتها بالسلاح.

ويقول المقريزي: إنّ الملك المعظم عيسى هدم سنة ٦٠٨هـ قلعة كوكب، وفي سنة ٦١٦هـ أمر «بتخريب القدس خوفاً من استيلاء الفرنج عليها، فخرّبت أسوار المدينة وأبراجها كلها. كما هدم قلعة الطور.

تسليم القدس إلى الفرنجة بدون قتال:

وفي سنة ٦٢٦هـ، أعاد الملك الكامل، القدس إلى الفرنجة «وذلك أنّ الملك الكامل تورّط مع ملك الفرنج وخاف من غائلته عجزاً عن مقاومته». وبعث الملك الكامل فنودي في إحياء القدس بخروج المسلمين منها وتسليمها للفرنجة، فاشتد البكاء وعظم النحيب والصراخ والعويل. وحضر الأئمّة والمؤذّنون من القدس إلى مخيّم الكامل وأذّنوا على بابه في غير وقت الأذان، فعزّ عليه ذلك وأمر عساكره باعتقالهم ومصادرة ما معهم من الستور والقناديل الفضة والآلات وزجرهم قائلاً: «امضوا إلى حيث شئتم»، فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتدّ الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار.

ويقول ابن أيبك الدواداري في تسليم القدس: إنّه لما تسلم الإمبراطور القدس الشريف طلب الملك الناصر داوود من سبط بن الجوزي أن يصعد المنبر ويعزّي الناس على عهد الكامل بسبب

تسليمه القدس للفرنجة. فصعد ابن الجوزي وجلس للوعظ وذكر مناقب جده صلاح الدين، وأنشد قصيدة ذكر الدواداري منها بيتين فقط[1]:

على قبة المعراج والصخرة التي تفاخر ما في الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحيٍ مقفر العرصات

وقال الدواداري: فلم ير في ذلك اليوم إلا باك وباكية. أما الحافظ ابن كثير فهو يورد الخبر بشكل عادي جداً فيقول:

استهلت هذه السنّة (٦٢٦هـ) وملوك بني أيوب مفترقون مختلفون وقد صاروا أحزاباً وفرقاً، ووقعت المصالحة بينهم وبين الفرنجة على أن يردوا لهم بيت المقدس وحده، فعظم ذلك على المسلمين وحصل وهن شديد وإرجاف عظيم، فإنا لله وإنّا إليه راجعون»[2].

ترى لو كان الذي سلّم القدس غير الملك الكامل الأيوبي، وبالأخص إذا كان مسلماً شيعياً إمامياً فكيف تكون ردة فعل الحافظ ابن كثير وابن أيبك الدواداري وابن تغري بردي.

والأخير قال: «وفيها أعطى الملك الكامل بيت المقدس لملك الفرنج الأنبرور». ولم يعلّق على هذا العمل المخزي.

واستمرّ سلاطين وملوك بني أيوب في تخريب وتهديم الثغور الشامية، فأقدم الملك الكامل بن العادل سنة ٦٣٣هـ، على هدم

---

(١) الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب. م.س. ص ١٩٥.
(٢) البداية والنهاية، الجزء ١٣، م.س. ص ١٢٤.

الرها وحرانّ ودُنَيْسَر وهي من قلاع منطقة الجزيرة. ثُمَّ حاصر قلعة السويداء قرب حرّان وأخذها عنوة وهدمها[1].

هذا كان دأب ملوك بني أيوب في الدفاع عن الثغور وحماية الإسلام والمسلمين طيلة مدة حكمهم، من أول وزارة أسد الدين شيركوه للخليفة العاضد، وحتى تسليم شجرة الدرّ دولتهم للمماليك البرجية.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) راجع: السلوك لمعرفة دول الملوك، م.س. ص ٢٩١.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفهرست

الباب الأول

الوزارة والوزراء في الدولة الفاطمية ٧
وزراء الخليفة المعزّ لدين الله ٨
من هو يعقوب بن كِلّس: ٩
وزراء الخليفة العزيز: ١١
وزراء الحاكم بأمر الله الفاطمي: ١٢
وزراء الخليفة الظاهر: ١٩
وزراء الخليفة المستنصر: ٢٣
وزارة اليازوري: ٢٧
إزالة الخلافة العباسية بقيادة الوزير اليازوري: ٣٠
نهاية الوزير اليازوري: ٣١
وزارة أبي الفرج البابلي: ٣٢
وزارة أبي الفرج، محمد بن جعفر المغربي: ٣٣
وزارة الوزير بدر الجمالي وبداية الحكم الأرمني لمصر: ٣٩
بدر الجمالي يجعل الوزارة وراثية: ٤١
وفاة بدر الجمالي: ٤٢
أهم وزراء الخليفة المستنصر: ٤٣
وزراء الخليفة المستعلي: ٤٥

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وزراء الخليفة الأمر بأحكام الله ابن المستعلي: ٤٧
الأفضل بن بدر الجمالي يبني قصراً خاصة لرئاسة الوزارة: ٤٧
محاولات اغتيال الوزير الأفضل: ٤٨
مقتل الأفضل: ٤٩
ثروة الوزير الأفضل بن بدر الجمالي أكبر من ميزانية دولة معاصرة: ٥١
وزراء الخليفة الحافظ لدين الله: ٥٧
ملخص لوزراء الخليفة الحافظ: ٦٧
وزراء الخليفة الظافر بأمر الله ابن الحافظ: ٦٧
وزراء الخليفة الفائز بنصر الله: ٧٠
وزراء الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين: ٧٢
ميزانية الوزارة السنوية: ٧٦
عدد وزراء الدولة الفاطمية: ٧٨

الباب الثاني

مصر منارة الإسلام الشيعي الأصيل ٧٩
الإسلام الشيعي في مصر قبل الفاطميين ٨١
الدعوة الفاطمية أول تنظيم حزبي سرّي معاصر ٨٧
أصغر خليّة أو خلية الأنصار: ٨٧
التشيّع الفاطمي الإسماعيلي في دور الستر من الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق حتى إمامة عبيد الله المهدي ٩٥
الشهادة بصحة إمامة عبيدالله المهدي: ٩٨
رأي أبي حامد الغزالي بالإسماعيلية: ٩٩
الدس والتدليس على العقيدة الفاطمية الإسماعيلية: ٩٩
رأي الفاطميين بالصحابة شعراً: ١٠٢
الإسلام الشيعي الفاطمي في الميزان ١٠٣
كيف ترى فرق الشيعة منابع الإسلام الأصيل؟ ١٠٤
شروط اعتبار أي فرقة من الإسلام: ١١٠

التشيّع الفاطمي الإسماعيلي قبل عبيد الله المهدي وبعده ١١٤
العقيدة الإسماعيلية الفاطمية: ١١٥
أركان الإسلام عند الشيعة الإسماعيلية الفاطمية: ١١٦
طريقة إقامة الصلاة: ١١٧
صوم رمضان: ١١٧
حكم الملاحدة عند القاضي النعمان: ١١٨
يقول الباحث المعاصر فيليب حتي عن الشيعة الزيدية والإثني عشرية: ١٢٠
رأي القاضي النعمان بالأئمة: ١٢٠
الدروز بين الإسلام والغلوّ: ١٣٥
رأي المؤرّخين الشيعة في ألوهية الحاكم: ١٣٨
الرسالة الأولى من رسائل كتاب الحكمة عند المسلمين الموحدين الدروز: ١٣٩
نسخة السجل الذي وُجِد مُعلَّقاً على المشاهد في غيبة مولانا الحاكم: .. ١٣٩
الرسالة الثانية من رسائل الحكمة ١٤٣
السجل المنهيّ فيه عن الخمر: ١٤٣
الرسالة الثالثة من رسائل الحكمة ١٤٥
خبر اليهود والنصارى: ١٤٥
الإسلام الشيعي الجعفري الإسماعيلي الفاطمي في مجال التطبيق العملي: .. ١٤٩
خطبة الخليفة الثاني، القائم بأمر الله: ١٤٩
خطبة الخليفة الثالث المنصور بالله: ١٥١
وصول المعز إلى مصر: ١٥٣
إسلام الحاكم: ١٥٦
إسلام الخليفة الآمر في مجال التطبيق العملي ١٦١
مسامحة كل سكان القاهرة بأجرة شهر رمضان: ١٦١
العاضد آخر خليفة مصري مسلم: ١٦٣
وصف مكاتب القيادة: ١٦٩
رأي المقريزي بالدعوة الإسماعيلية الفاطمية: ١٧٠

مؤرخّو الأكراد يخرجون عترة النبي من بيته ويدخلون الأكراد مكانهم: ١٧٣
السباية: أول دعوة للإلحاد في الإسلام خرافة أم حقيقة ١٧٦
مظاهر الاختلاف بين السنة والشيعة ١٧٩
مظاهر الاختلاف بين الشيعة: ١٨٠
مظاهر الاختلاف بين السنة والشيعة: ١٨٠
الإمامة خلافة ظلّ: ١٨١
الخلافات في الفروع لا في الأصول: ١٨٢
صلاة التراويح: ١٨٥
صلات الجنائز وعدد التكبيرات فيها: ١٨٥
توريث البنت: ١٨٥
الوضـــوء: ١٨٥
أبو هريـرة: ١٨٦
عائشة أم المؤمنين: ١٨٦
بسم الله الرحمن الرحيم: ١٨٦
الـجمع بين الصلاتين: ١٨٦
التقيـة: ١٨٦
الخمـس: ١٨٧
منع صلاتي الضحى والتراويح: ١٨٨
البنت الوحيدة ترث كل التركة في مذهب الشيعة: ١٨٩
زواج رجل سني من شيعية وحيدة أبيها يجعله أغنى أغنياء السوق: ... ١٨٩
رأي الفاطميين بالمهدي المنتظر: ١٩٠
في دور القائم ورسومه: ١٩١
إبداء الفرح بالأتراك لقضائهم على الإسلام الشيعي: ١٩٢
وجهات نظر غير قابلة للتقارب: ١٩٧
الموقف من ابن العلقمي: ١٩٧
من هم أهل البيت: ١٩٩

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

من هو يزيد بن معاوية: ١٩٩
المذهب الإمامي الإسماعيلي وبقية المذاهب الإمامية ٢٠١
رأي السيد محسن الأمين بالإمامية الإسماعيلية: (البُهرة): ٢٠٢
العقيدة الإسماعيلية بعد الإمام الطيب أبي القاسم، حتى سنة ١٣١٣هـ
لم تخرج عن الإسلام الشيعي الأصيل: ٢٠٦
موقف الحكام من أهل البيت ومن مذهبهم: ٢٠٩
بين القاهرة المعزّية والكعبة المحمدّية إشعاع روحي متواصل ٢١١
حج العجم بحماية الخليفة الفاطمي: ٢١٣
حاكم مكة قرصان بحري: ٢١٥
الميزانية السنوية لقافلة الحج المصري: ٢١٦
كسر الحجر الأسود وموقف الفاطميين من هذا العمل: ٢١٧
بيان صادر عن الحضرة المطهرّة في القاهرة حول محاولة كسر الحجر الأسود: ٢٢١
الجوهرة التي تعلّق كل سنة بالكعبة أو شمسة الكعبة: ٢٢٣
مصر تعلم المسلمين الشيعة طريقة الاحتفال بعاشوراء ٢٢٧
أول من أقام مجالس العزاء الكربلائية في الإسلام: ٢٢٧
بداية الاحتفالات بعاشوراء: ٢٢٩
عاشوراء في مصر قبل دخول جوهر الصقلي: ٢٣١
أول احتفال بعاشوراء في مصر: ٢٣٢
سماط عاشوراء: الفرش مقلوبة وعدس أسود وخبز أسود والثياب سوداء: .. ٢٣٤
الاحتفال بمقتل الحسين أحد أعياد الدولة الأيوبية: ٢٣٦
الأذان الأصيل: حيّ على خير العمل ٢٣٨
رأي الشيعة الفاطمية والإمامية والزيدية في الأذان: ٢٣٩
إضافات الأذان عند المسلمين السنة: ٢٤٢
أذان الأمير منطاش هو أذان مصر والشام: ٢٤٥
إضافات الأذان عند الشيعة: ٢٤٦

من أجل الاشتراك في الحرب، شيعة حلب يتشرطون السماح لهم
بإعادة الأذان بحيّ على خير العمل: ٢٤٨
إجازة الدخول إلى قصر الخلافة بدون واسطة: عليّ وليّ الله: ٢٤٩
بين زواج المتعة والزنا في مجال التطبيق العملي عند الفاطميين ٢٥٠
زواج المتعة في نظر الشيعة الإمامية بفرقهم الثلاث: ٢٥٠
ما هو زواج المتعة: ٢٥١
لم يعرف الفاطميون مجالس اللهو والغناء والشرب والمساخر،
كغيرهم من الحكام: ٢٥٣
الحاكم بأمر الله يحرق الزانية ويجلد المغرّر به: ٢٥٤
صلاح الدين الأيوبي يضطر لإقامة بيوت اللقطاء بعد منع وتحريم
زواج المتعة أو الزواج العرفي: ٢٥٦
سلاطين الأكراد والأتراك يشربون الخمر في رمضان: ٢٥٨
بيوت الدعارة أيام صلاح الدين الأيوبي: باب رزق مربح: ٢٥٨
زيادة أسعار السلع بمقدار ما يُغتصب للدار السلطانية: ٢٥٩
ترتيب البغاء في مصر أيام الأيوبيين: ٢٦٠
الملك الأشرف شعبان يسن قانون يشجّع به المصريات على البغاء: ... ٢٦٠
خزانة البنود تتحول إلى سوق للدعارة: ٢٦١
أكبر مخزن سلاح عرفه الإسلام، يحوّله الناصر محمد بن قلاوون
إلى وكر صليبي للزنا واللواط والخمر وبيع لحم الخنزير: ٢٦٢
تفضيل الأولاد المرد على الفتيات الجميلات: ٢٦٣
الإستشهاديون أو: الحشاشون ٢٦٤
حشيشة الفقراء بنظر المقريزي: ٢٦٥
الباطنيـة: ٢٦٨
الفداويـة: ٢٦٨
الإسماعيليـة: ٢٦٨
النزاريـة: ٢٦٨

الملاحـدة: ٢٦٩
الحسن بن الصبّاح الحميري: ٢٧٠
رأي الحافظ ابن كثير بالعمليات الاستشهادية وبالحسن بن الصباح: ٢٧٣
تفسير المؤرّخين الغربيين لكلمة الحشاشين: ٢٧٥
وصف جنة الحسن بن الصباح: ٢٧٦
الحسن بن الصباح المفترى عليه بين الإسلام والإلحاد: ٢٧٩
رسالة جلال الدين ملكشاه السلجوقي إلى الحسن بن الصباح في أوائل سنة ٤٨٣ هجرية: ٢٨٠
جواب الحسن بن الصباح: ٢٨٠
الحسن بن الصباح يعترف بخلافة الخلفاء الراشدين: ٢٨٣
خادم اعتاب آل محمد وعلي، الحسن بن الصباح ٢٨٦
بين الحسن بن الصباح الحميري وزعماء الاستشهاديين من شيعة عاملة: ٢٩٣
الإستشهاد الحسيني ينتقل إلى أرض فلسطين بتحريض من السيد حسن نصرالله: ٢٩٩
الشعب الفلسطيني أول شعب مسلم يصدّر الفتيات الإستشهادّيات: ٣٠٠
قبور أهل البيت في مصر ٣٠٢
المشهد الحسيني في القاهرة: ٣٠٢
رأس الحسين ينزف دماً بعد خمسمائة سنة: ٣٠٣
العقارب لا تلدغ حامل رأس الحسين: ٣٠٤
قبور الخلفاء الفاطميين في مصر: ٣٠٥
هل عرفت سكينة بنت الحسين مصر؟ ٣٠٥
مشهد الإمام زين العابدين (ع) (مشهد رأس زيد بن علي): ٣٠٦
العنكبوت تنسج على عورة الإمام زيد فتسترها: ٣٠٧
مشهد الست نفيسة: ٣٠٨
زواج السيدة نفيسة: ٣٠٨
أخلاق السيدة نفيسة: ٣٠٩

الحافظ الذهبي يقول: لا يعتقد بالسيدة نفيسة إلا الجهّال: ٣١٠
دفن شجرة الدر بجانب مشهد السيدة نفيسة: ٣١٠
الخليفة العباسي المعتضد بالله يعيش على فطر مشهد السيدة نفيسة وبيع الشمع للزوار: ٣١١
ميزانية مشاهد أهل البيت: ٣١٢

الباب الثالث

القضاء والمؤسسات القانونية في ظل الدولة الفاطمية ٣١٧
وزير العدل أو قاضي القضاة في الدولة الفاطمية: ٣١٧
شروط تعيين القاضي: ٣١٩
رواتب القضاة: ٣٢١
أهمية هيئة المحلّفين في إصدار الأحكام: ٣٢١
صورة عن بعض الأحكام: ٣٢٢
طريقة إصدار الأحكام: ٣٢٤
الدولة الفاطمية هي الدولة الوحيدة التي تسري فيها الأحكام حسب المذاهب الإسلامية الخمسة: ٣٢٦
صلاح الدين الأيوبي يعزل القضاة الشيعة: ٣٢٧
قاضي القضاة برأي المقريزي: ٣٢٧
دائرة الحسبة في الدولة الفاطمية من مديرية الشرطة حتى دائرة حماية المستهلك ٣٢٩
من وظائف المحتسب: ضبط الأوزان والمكاييل: ٣٣١
دار العيار: مؤسسة حكومية: ٣٣٢
أخبار بعض المحتسبين: ٣٣٤
الحاكم بأمر الله يقتل المحتسب: ٣٣٤
المحتسب يسبّب أزمة اقتصادية: ٣٣٤
الحسبة وظيفة خطيرة تنتهي بصاحبها إما إلى السجن أو إلى المشنقة: ٣٣٥
أبو سعيد العميدي يرفض تولّي الحسبة: ٣٣٦

معاونو المحتسب: نقيب الصنعة والمعاون والمجرّص: ٣٣٧
بعض القرارات الصادرة عن المحتسب بحق المطفّفين والغشّاشين: ... ٣٣٨
الخليفة يطلب من المحتسب وقائد الشرطة سجن محمد بن جيش بن الصمصامة في مكتب قائد الشرطة لا في السجن: ٣٣٩
حادث سير يؤدي إلى مقتل امرأة: ٣٤٠
ممنوع مرور الشاحنات: ٣٤١
حمير وبغال وخيول: برسم الركوب بالأجرة: «تاكسي»: ٣٤١
نقل جثة قتيل إلى المشرحة: ٣٤١
عقوبة مزوّر التواقيع القتل: ٣٤٢
دائرة حماية المستهلك: ٣٤٣
إتلاف الممنوعات على حساب الدولة: ٣٤٤
دائرة منع الغش: ٣٤٥
الاقتصاد الموّجه يؤدي إلى اختفاء السلعة: ٣٤٦
تدخل الدولة وإغراق الأسواق بالقمح كتدخل البنك المركزي في دعم عملة ما: ٣٤٧
دائرة السجون في مصر الفاطمية ٣٤٩
أنواع السجون في مصر الفاطمية: ٣٥٠
حبس المعونة حبس المجرمين والسفلة: ٣٥٠
حبس الصيّار: حبس الولاة: ٣٥٢
سجن خزانة البنود: ٣٥٢
سجن خزانة البنود يتحول إلى سوق للعواهر واللواطيين أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون: ٣٥٣
طريقة معاملة الخونة والمارقين قبل إيداعهم سجن المعونة: ٣٥٤
سجون نظارات الشرطة وسجون الأمراء: ٣٥٤
سجون الأطراف: ٣٥٥
تقارير شهرية عن أوضاع كل سجين: ٣٥٦

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

رضوان بن ولخشي يحفر نفقاً تحت السجن ويهرب: ٣٥٧
آلات التعذيب: ٣٥٧
قراقوش والمماليك يستعملون المساجين لأعمال السخرة: ٣٥٨
السجن الرهيب: سجن الأجنّة الطالبية في بطون أمهّاتهم مائة عام وعامين: ٣٥٨
أهمية نقابة الأشراف الطالبيين في الحياة السياسية الفاطمية ٣٦٣
خلفاء بني العباس يقيمون نقابة للطالبيين: ٣٦٣
نقابة الطالبيين في بلاد الخلافة العباسية: ٣٦٥
سعة ثراء النقيب الطالبي أيام العباسيين: ٣٦٧
الشريف الرضي موظف في النقابة: ٣٦٨
ألقاب الخلفاء وألقاب النقباء: ٣٧٢
الشريف أحمد جلال الدين الصيداوي العاملي، آخر نقيب للأشراف: ٣٧٣
نقابة للمتعممين: ٣٧٣
وضع الأشراف الطالبيين في الدولة الفاطمية: ٣٧٤
نقابة الأشراف الطالبيين في الدولة الفاطمية: ٣٧٦
أهمية مركز نقابة الطالبيين برأي المقريزي: ٣٧٨
نقابة الأشراف الزيديّين: ٣٧٨
رأي ابن الطوير في نقابة الأشراف الطالبين: ٣٨٠
النقابة بعد الفاطميين تتحوّل إلى أداة لقمع الأشراف الطالبيين: ٣٨١
صورة عن مرسوم تعيين الشريف محمد بن علي بن إبراهيم
الرسّي نقيباً للأشراف الطالبيين: ٣٨٣
بيت الدعوة وأهمية داعي الدعاة في هيكلية الدولة الفاطمية ٣٨٧
المؤيّد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الدعاة: ٣٨٩
داعية دعاة اليمن أروى بنت أحمد الصليحي أو حُرّة اليمن
(٤٤٠ هـ ـ ٥٣٤هـ) نموذج المرأة الإسلامية المثالية: ٣٩١
مرسوم تعيين زوج الحرّة علي بن محمد الصليحي داعياً للدعاة
وملكاً على اليمن: ٣٩٢

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

موت زوج الحرة داعي دعاة اليمن ونعيه من قبل الخليفة المستنصر
وتعيين ولده الطفل داعياً مكانه برعاية والدته الحرّة: ٣٩٣
الإمام المستنصر يعين الطفل داعياً متمثّلاً بأبيه الظاهر وجده زين العابدين: ٣٩٤
الداعي الفاطمي سبأ بن أحمد يخطب الحرة لنفسه ورفضها إيّاه: ٣٩٥
الإمام المستنصر يستعمل صلاحيات الإمام المعصوم، ويعقد للداعي
سبأ على الحرّة دون سؤالها: ٣٩٦
تكليف الملكة الحرّة بإدارة شؤون الدعوة الإسلامية الإمامية
في اليمن وصفات الداعي المطلق: ٣٩٨
وصف المقريزي لداعي الدعاة: ٤٠٠
وصف ابن الطوير لداعي الدعاة: ٤٠١
رأي برنارد لويس بنظام حزب الدعوة الإسماعيلية، قال برنارد لويس: ٤٠٣
ألوية الجيوش الفاطمية ٤٠٤
طريقة التشكيل ألوية الجيش الفاطمي: ٤٠٥
لواء البحرية: ٤٠٥
شرطة خفر السواحل: جزء من الأسطول البحري: ٤٠٥
سفن الأسطول تستعمل لنقل الدواب والأعلاف من مصر إلى مناطق
الجهاد ضد الروم والفرنجة: ٤٠٦
الأسطول الأول والأسطول الثاني: ٤٠٧
صور وعسقلان تطلبان النجدة: ٤٠٧
الأساطيل البحرية تنفذ مناورات بحضور الخليفة: ٤٠٩
السفن الحربية وأشهر أنواعها: ٤١٠
لواء الأتراك والديلم: ٤١٣
لواء الجُيُوشية والأفضلية: ٤١٥
لواء الريحانية: ٤١٥
صبيان الزرد: ٤١٦
صبيان الركاب أو حرس القصر: ٤١٦

لواء الحجرية أو الحرس الخاص خرّيجو المدرسة الحربية: ٤١٧
لواء السودان أو عبيد الشراء ٤٢٠
لواء كتامة: ٤٢١
لواء المصامدة: ٤٢٣
لواء القيصرية: ٤٢٣
لواء الوزيرية: ٤٢٤
لواء الباطليّة: ٤٢٤
لواء الأرمن رماة السهام: ٤٢٥
لواء البرقيين: ٤٢٦
عدة فرق بعده أسماء: ٤٢٦
الحجز الاحتياطي: ٤٢٨
مديرية الإدارة في الجيش وما يتبعها من مخازن لأسلحة: ٤٢٩
أهمية الاستعراضات العسكرية في الدولة الفاطمية: ٤٣٠
جهاز المخابرات في الدولة الفاطمية ٤٣٥
أهمية جهاز الاستخبارات في استتباب الأمن وشن الحروب: ٤٣٥
استعمال النساء في العمل المخابراتي: ٤٣٦
إدارة الإذن لكل ما يأتي من الأجهزة يؤدي إلى تدمير الدولة: ٤٣٧
أهمية عمل المخبرين والغمّازين ومتولي الستر وصاحب العسَن: ٤٣٩
جهاز أمن الخليفة: ٤٤١
داعي الدعاة مسؤول عن أمن الجامع الذي يصلّي فيه الخليفة: ٤٤٢
نماذج من أساليب المخابرات الفاطمية: ٤٤٤
مخابرات الوزير المأمون تمسح شوارع مصر والقاهرة، شارعاً
شارعاً وبيتاً بيتاً: ٤٤٦
استقرار الأمن يؤدي إلى الازدهار الاقتصادي: ٤٤٩
مديرية العلاقات الخارجية في قصر الخلافة الفاطمية ٤٥١
القاهرة مركز سفارات السلاطين والأمراء التابعين للخلافة الإسلامية الفاطمية: ٤٥١

مديرية المراسم في قصر الخلافة: ٤٥٢
بين قصر الضيافة وفندق السفراء: ٤٥٣
الخليفة الحاكم بأمر الله يبهر السفير البيزنطي ويقتل من قبل
هديته من موظّفي قصر الضيافة: ٤٥٥
أسباب الهدنة بين الروم البيزنيطيين والحاكم بأمر الله الفاطمي: ٤٥٧
صراع الحضارات من نقفور حتى جورج بوش: لم يتغيّر ٤٦٢
الهدنة بين باسيل الثاني والحاكم بأمر الله الفاطمي: ٤٦٥
عقوبة الخائن علاّقة الصوري: ٤٦٨
موقف الفاطميين من البيزنطيين والصليبيين: ٤٧٢
حالة الساحل السوري أثناء الهجوم الصليبي ٤٧٢
ديوان الجهاد وأهميّته في الدولة الفاطمية: ٤٧٧
طريقة توديع المجاهدين وانتقالهم: ٤٧٨
موقف الفاطميين من الجزر والمدن الإيطالية: ٤٨٠
علاقة الفاطميين بالمدن الإيطالية: ٤٨١
حالة الشرق العربي تحت الحكم الكردي التركي ساعة بدء الهجوم الصليبي: ٤٨٣
أنطاكية تحت الحكم السلجوقي: ٤٨٤
القدس قبل سقوطها بأيدي الصليبيين: ٤٨٦
حالة الدولة الفاطمية عند سقوط عكا: ٤٩٠
فخر الملك ابن عمار يحاول إنقاذ طرابلس: ٤٩٣
النجدات التركية الكردية تتلّهى بالتقاتل ولا تصل إلى طرابلس: ٤٩٤
فخر الملك بن عمار يفضل الموت بيد الخليفة الفاطمي على الكرم
العباسي والسلجوقي: ٥٠٠
صور في خط الدفاع الأول: ٥٠٢
رأي المؤرّخين في الأسباب التي أدّت إلى سقوط صور: ٥٠٥
موقف الفاطميين من الصليبيين حسب ما رواه المؤرّخون المحايدون: ٥١٠
التحالف الزنكي الفاطمي لمحاربة الصليبيين: ٥١٤

الخليفة العاضد يصنع سفناً قطع غيار تحمل على الجمال ويعاد
جمعها في منطقة المعركة: ٥١٦
موقف الفاطميين من الأسرى الصليبيين: ٥١٧
موقف الأيوبيين من الحروب الصليبية: ٥١٩
معاهدات الصلح والتحالفات التي عقدها صلاح الدين الأيوبي
وخلفاؤه مع الصليبيين: ٥١٩
تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين يمنع عمه من مصالحة الفرنجة ... ٥٢١
سقوط دمياط دون قتال: ٥٢٥
الأيوبيون يجدون الحلّ: هدم المدن والقلاع والحصون: ٥٢٨
تسليم القدس إلى الفرنجة بدون قتال: ٥٣١

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى